
المختار
من تفسير أهل التوحيد والعدل
عبدالله النظام المعتزلي

مقدمة

الحمد لله الواحد الأحد، الذي أنزل القرآن كلاما مؤلفاً منظما، ونزله بحسب المصالح منجما، وجعله بالتحميد مفتتحاً وبالاستعاذة مختتما وأوحاه على قسمين متشابهاً ومحكماً وفصله سوراً وسوّره آيات، المنفرد بالقدم، ومنشيء الخلاق عن العدم، وبارئ النسم، ومولي القِسَم، وموالي النعم بعد النعم، ومزيح العلل قبل النقم، الذي هدى جميع خليقته، بلطيف صنعته، إلى جليل حكمته، ودلهم بحلي برهانه، على خفي وجدانه، وتنزه إليهم عن كل سوء في محكم فرقانه، فتعالى الله عمّا وصفه به الواصفون، وتقدّس عما عما أضافه إليه المفترون، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له الذي لا يأمر بالجور ولا يرضاه، ولا يقضي بالفساد, ولا يخلق أفعال العباد، صادق الوعد والوعيد، وأشهد أن محمّدًا عبده ورسوله إمام الأمم، وسيد العرب والعجم، فصلوات الله عليه وعلى آله سفينة النجاة وحلفائه وأصحابة مصابيح الظّلم وينابيع الحكم، وسلّم تسليما.

وبعد، اعلم علّمك الله وزادك من فضله قبل كل شيء أن الفقير إلى الله، صاحب هذا الكتاب طويلب علم فقط، فلا يغرنّك ما في هذا الكتاب أو في غيره من الكتب، فما في هذا الكتاب وغيره معظمها نقولات من شيوخنا العدلية رضي الله عنهم، أنا مجرد ناقل أقدمها لنفسي ولكم، لنشر علم وطلبه والإطلاع على تراثنا والإعتزاز به، وهذه الأعمال التي أقدمها لنفسي وإليكم لا أريد بها مال ولا جاه ولا أي شيء من حطام هذه الدنيا الفانية، إنما هي لوجه الله، ولنشر العلم، ولرفع لواء الاعتزال واعادته للواجهة، فإني قد نذرت حياتي وروحي لهذا المذهب ما دمت حيا، وأجري على الله، وهذا الكلام كملاحظة فقد كي لا يغتر البعض بصاحب الكتاب فهو كما قلت طويلب علم ليس له باع إلا القليل، وعلى أتوكل وأقول: قال الله تعالى: {إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا} [الإسراء : 9] وقال: {أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ

اخْتِلَافًا كَثِيرًا} [النساء : 82]، إنطلاقا من الآيتين، أحببت أن أنقل لكم في هذا الكتاب المتواضع ملخص وقطوف مختارة من بدائع التفاسير ودرر التأويل من كتب مشايخنا أهل التوحيد والعدل، وقد حاولت جمع تفاسير وتأويلات جل ما وصلنا من مشايخنا، وفي هذا المختار والمختصر تفسير كل من: الحاكم الجشمي والزمخشري وقاضي القضاة وابي مسلم وابي علي وابي القاسم البلخي والنظام والجاحظ وعمرو بن عبيد وقطرب وابي بكر الزبيري والرماني وابن أبي الحديد وامين نايف ذياب، اعتمدت في هذا العمل البسيط على الكتب المصورة (PDF) وعلى الكتب الالكترونية (كتب الشاملة) اختصارا للوقت، (فقد دامت كتابي له وجمعه حوالي أربعة أشهر لظروف العمل وظروف خاصة)، كون هذا الكتاب مختصرا فقط وفيه تفسير لآيات مختارة وليس كل الكتاب العزيز، وهو موجه تقريبا لطلاب العلم وصغارهم مثلي، نسأل الله أن يجعل فيه القبول ويبارك فيه وينفع به.

مدقن عبد الله النظّام المعتزلي، بتاريخ 04/02/2020 على الساعة 01:09 ولاية غرداية.

قال شيخنا الشهيد الحاكم الجشمي المعتزلي:

وعلوم القرآن كثيرة، مدارها على ثمانية:

أولها: القراءة ووجوهها وعللها.

إنما تجوز القراءة بالمستفيض المتواتر دون الشاذ والنادر، وكما لا يجوز إثبات القرآن إلا بنقل مستفيض، كذلك القراءات، وما تواتر نقله فلا يجوز رد شيء منها؛ لأنها كلها منزلة ثابتة.

وثانيها: اللغة، والقرآن كله بلغة العرب، هكذا قال اللَّه تعالى: (بِلِسَانٍ عَرَبِيٍ مبينٍ) وما روي عن بعض السلف من قولهم في بعض الألفاظ: إنها رومية، أو فارسية كـ (القسطاس)، و (السجل) ونحوهما - فمحمول على موافقة اللغتين، أو على أن العرب أخذته فعربته. وكذا ليس فيه لفظ مستنكر، أو خطأ أو تناقض.

واختص بنوع من اللغة والفصاحة بان بها عن غيره فصار معجزًا.

وثالثها: الإعراب، فليس فيه لحن ولا خطأ، خلاف ما يهذي به المُلحِدَةُ.

ورابعها: النظم، فإن القرآن على ما هو عليه من السور والآيات اتصل بعضها ببعض، كذلك أُنزِلَ، وفي كل ذلك غرض وفائدة.

وخامسها: المعنى، وليس فيه شيء لا يعرف معناه؛ إذ المقصود من الكلام إفهام المعنى، وكل كلمة لا تخلو إما أن يكون لها معنى واحد فلا بد أن تحمل عليه، وإن احتمل معاني - والكل جائز - حمل على الكل على وجه يصح من جمع أو تخيير، فإن دل دليل - على أن بعضه مراد وبعضه ليس بمراد عمل بمقتضى الدليل، فإن كان له معنى في اللغة ومعنى في الشرع حمل على المعنى الشرعي؛ لأنه ناقل، ثم فيه حقيقة ومجاز، فالحقيقة أولى إلا أن يدل الدليل على أن حمله على المجاز أولى، فيُحْمَل عليه.

وسادسها: النزول، فإن منه ما نزل بسبب، ثم قد يقتصر على سببه، وقد يتعدى إلى غيره، والواجب اعتبار اللفظ دون السبب.

وسابعها: الأدلة، والأحكام، فإنه كلام صادق، وهو حجة، ثم منه ما ورد مؤكدًا، كأدلة التوحيد، ومنه ما ورد مبينًا، كأدلة الشرائع، ومنه ما يعرف المراد بظاهره، كالمحكم والمبين، ومنه ما يرجع في معرفة المراد به إلى غيره كالمجمل والمتشابه، ومنه ناسخ يجب العمل به، ومنسوخ لا يجب؛ ولذلك يجب معرفة تاريخ النزول، وما نزل منها بمكة، وما نزل منها بالمدينة، ومنه العموم والخصوص، ويدخل فيه الأمثال، والحكم، والمواعظ، والزواجر، والأوامر، والنواهي، والوعد، والوعيد.

وثامنها: الأخبار والقصص.[1]

أسامي القرآن

وقال شيخنا الحاكم: وللقرآن أسامٍ فمنها: القرآن، ومعناه الجمع، يقال: قرأت قراءة، وقرآنا، ومنه قيل للحوض: مِقراة، لاجتماع الماء فيه.

ومنها: الفرقان، قيل: معناه أنه النجاة والمخرِج، ومنه: (يجعَل لكم فُرقانًا) وقيل: هو الفرق بين الحق والباطل عند ابن العباس.

ومنها: الذكر، قال اللَّه تعالى: (إِنَّا نَحنُ نَزَّلنا الذِّكر) قيل: إنه ذكر من اللَّه تعالى لعباده بالفرائض والأحكام، وقيل: إنه شرف لمن تمسك به، ومنه: (وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ)

ومنها: الكتاب، لأنه مكتوب، فسمي المكتوب كتابا، وروي عن النبي - صلى اللَّه عليه وسلم – أنه قال: "أعطيت مكان التوراة السبع الطوال، ومكان الإنجيل السبع المثاني، ومكان الزبور المئين، وفضلت بالمفصل " فالطوال: البقرة، وآل عمران، والنساء، والمائدة، والأنعام، والأعراف، والتوبة، وقيل: آخر سورة يوسف، والمثاني: ما زاد على مائة آية، لأنه تثنى فيها الأحكام، وقيل: الفاتحة، والمئون: ما كان مائة أو زاد قليلاً أو نقص قليلاً، والمفصل: السور القصار، لكثرة الفصول بين السور.

---

[1] التهذيب في التفسير ج1 ص 193 / 194

وفي القرآن آيات وسور، فَالسُّوَرُ جمع سورة كغُرفَةٍ وغُرف، وهو بغير همز: المنزل المرتفع، ومنه سور المدينة، ومنهم من يهمزه، ويريد به القطعة من القرآن، وسؤر كل شيء: بقيته بعد الأخذ منه.

فأما الآية فقيل: معناها العلامة، سميت بذلك لدلالتها على أول الكلام وآخره، وقيل: الآية: الجماعة من الحروف، يقال: خرج القوم بآيتهم، أي: بجماعتهم، "وقال سيبويه: موضع العين من الآية واوٌ؛ لأن ما كان موضع العين منه واوا، واللامُ ياء أكثر مما كان موضع العين واللام منه ياء، مثل: (شويتُ) أكثر من (حييتُ) " وقيل: وزنه فعلة، وقيل: فاعلة.

التفسير: أما التفسير، فالتفسير: كشف المغطى، قال أبو العباس: التفسير والتأويل والمعنى: واحد، وقال غيره: التفسير: كشف المراد عن اللفظ المشكل، والتأويل: رد أحد المحتملين إلى ما يطابق الظاهر، والتفسير: البيان، وقيل: التأويل: انتهاء الشيء ومصيره، وما يؤول إليه أمره، ومنه: (هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ) وقيل: التفسير تأويل؛ لأن مقصود الكلام يؤول إليه. والمعنى مأخوذ من قولهم: عَنَيْتُ فلانا، أي قصدته، فكأن قَصْدَهُ بالكلام كذا، وقيل: إنه من الإظهار، كأنه أظهر مراده باللفظ، وقيل: هو من قولهم: عُنِيتُ بهذا الأمر، أي تكلفته.[2]

شروط المفسر لكتاب الله :

قال عماد الدين قاضي القضاة عبد الجبّار الهمذاني المعتزلي:

اعلم أنه لا يكفي في المفسر أن يكون عالما باللغة العربية ، ما لم يعلم معها النحو والرواية، والفقه الذي هو العلم بأحكام الشرع وأسبابها ، ولن يكون المرء فقيها عالما بأحكام الشرع وأسبابها إلا وهو عالم بأصول الفقه ، التي هي أدلة الفقه والكتاب والسنة والإجماع والقياس والأخبار وما يتصل بذلك. ولن يكون عالما بهذه الأحوال إلا وهو عالم بتوحيد الله تعالى وعدله ، وما يجب له من الصفات وما يصح وما يستحيل ، وما يحسن منه فعله وما لا يحسن بل يقبح ، فمن اجتمع فيه هذه الأوصاف وكان عالما بتوحيد الله وعدله وبأدلة الفقه وأحكام الشرع ، وكان بحيث يمكنه حمل المتشابه على المحكم والفصل بينهما ، جاز

---

[2] التهذيب في التفسير ج1 ص 196/195

له أن يشتغل بتفسير كتاب الله تعالى ، ومن عدم شيئا من هذه العلوم فلن يحل له التعرض الكتاب الله جل وعز ، اعتمادا على اللغة المجردة ، أو النحو المجرد ، أو الرواية فقط.

يبين ما ذكرناه ويوضحه ، أن المفسر لا بد من أن يكون بحيث يمكنه حمل قوله تعالى : (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ) على قوله : (قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ (1)) وقوله : (وَلَقَدْ ذَرَأْنا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ) إلى قوله : (وَما خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ (56)) وهكذا الحال في غيرهما من الآيات المتشابهة والمحكمة.

فهذا هو الذي يجب أن يكون عليه المفسر من الأوصاف.

وأما من عداه من المكلفين ، فالذي يلزمه في القرآن أن يعتقد أنه كلام رب العزة على ما قاله جل وعز : (وَلَوْ كانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافاً كَثِيراً) وأن محكمه يوافق متشابهه ، وأنه لا تناقض فيه ولا كذب ، وأنه محروس عن المطاعن ، لا زيادة فيه ولا نقصان ، وأن يؤمن به على الجملة.

إن سأل سائل فقال : أليس من مذهبكم أن القرآن مما يعرف المراد بظاهره ، فكيف احتاج والحال ما قلتموه إلى التفسير وهلا دلكم ذلك على ما قاله أصحاب الوقف والروافض ، الذين يقولون : إنه مما لا يعلم تأويله ولا المراد بظاهره.

قيل له : إن احتياج القرآن إلى مفسر بلفظ أوضح منه مما لا يخرجه عن إمكان أن يعرف المراد بظاهره ، لو لا ذلك وإلا كان لا يمكن المفسر أن يفسره وكان لا يكون التفسير تفسيرا له ، فما ذكرتموه غير قادح فيما قلناه. وإنما احتيج إلى تفسير القرآن ، لأن دعوة النبي عليه‌السلام انتشرت في عالم الله تعالى وبلغت العالم ولم تقتصر على العرب ، فلم يكن بد من أن نفسر لهم ذلك حتى يمكنهم معرفته ، كما أنا إذا أردنا أن نفهم العرب ما نقوله بلساننا فلا يمكننا ذلك إلا بأن نفسره لهم ، كذلك هاهنا.[3]

[3] شرح الأصول الخمسة تحقيق سمير مصطفى رباب ص 410/409

(فصل): يقال: لِمَ قلتم: إن القرآن معجز؟

قلنا: لأنه - صلى الله عليه وسلم - ادعى النبوة وتحداهم بمثله، فلم يأتوا به، مع شدة عداوتهم له، فعلم أن ذلك لعجزهم.

(فصل): ويقال: لِمَ قلتم: إنه كلامه تعالى؟

قلنا: بالمعجز علمنا صدق رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، وعلم من دينه ضرورة أنه كلام الله تعالى، ونطق به الكتاب.

(فصل): ويُقال: هل في القرآن لغة غير العربية؟

قلنا: لا، وما روي إما اتفاق اللغتين، وإما أخذته العرب فَعَرَّبَتْهُ.

(فصل): ويقال: هل في القرآن ما لا يفهم معناه؟

قلنا: لا؛ لأن الغرض بالكلام الإفهام، فخروجه عن ذلك يدخله في حد العيب، كمن يخاطب الرب بالزنجية.

(فصل): ويقال: هل يحتاج إلى شرط ليفهم الخطاب؟

قلنا: نعم، وهو أن يَعْلَمَ اللهَ تعالى، وأنه صادق لا يجوز عليه الكذب والقبيح، ويقف على اللغة.

(فصل): ويقال: لم كان في القرآن متشابه؟

قلنا: لأنه أدعى إلى النظر من الكل، من خالف، ومن وافق.

(فصل): ويُقال: كيف يعرف المراد بالقرآن؟

قلنا: أما المحكم فبظاهره، والمتشابه بحمله على أدلة العقول والمحكم، وأما المجمل فببيان الرسول، صلى الله عليه وسلم -.

(فصل): ويُقال: أليس بعضهم قال: إن فيه ما لا يعقل معناه؟، ومنهم من قال: لا بد من توقيف؟

قلنا: لا شيء؛ لأن الأول يجعله عبثًا، والثاني يوجب ألَّا يُفْهَمَ معناه أبدًا؛ لأن التوقيف كلام.

(فصل): ويُقال: أتقطعون على المراد؟

قلنا: بلى، إلا أن تدل دلالة أن ما يحتمله ليس بمراد.

(فصل): ويقال: كيف يحمل الخطاب على مقتضى اللغة أو الشرع؟

قلنا: إذا كان الاسم شرعيًّا فهو أولى، وإن كان لغويًّا حمل على مقتضى اللغة.

(فصل): ويُقال: إذا كان للفظ معانٍ، ولا دليل، وكله مما يجوز، كيف تقطعون؟

قلنا: نقطع بأن الجميع مراد.

(فصل): ويُقال: أليس الباطنية يقولون: لكل ظاهر باطن؟ قلنا: باطل؛ لأنه يطرق إليه كل فساد.

(فصل): ويُقال: أليس بعضهم قالوا: في القرآن زيادة ونقصان؟

قلنا: باطل؛ لأنه علم من دينه ضرورة أن القرآن ما يَقِلُّ، وقد ضمن الله حفظه.

(فصل): ويقال: أليس روي عن ابن مسعود أن المعوذتين ليستا من القرآن، وعن أُبيٍّ أن سورتي القنوت من القرآن؟

قلنا: أما ابن مسعود فلم يقل: إنه ليس بِمُنَزَّلٍ، ولكن قال: إنه لا يكتب؛ لأنه للتعوذ، ثم هو محجوج بالإجماع. وأما أُبيٌّ فقال: سورة القنوت منزلة، ولم يخالف أنها ليست من القرآن.

(فصل): ويقال: أليس طعن في القرآن بأن فيه لحنًا ومناقضة؟

قلنا: لو كان كذلك لرد عليه أعداؤه، ولأنا نظرنا فيما أوردوه فلم يكن كذلك، وقد نقض شيخنا أبو علي كتاب ابن الراوندي في ذلك.

(فصل): ويقال: ولم قلتم: إن العرب لم يعارضوه؟

قلنا: الدواعي إلى نقل المعارضة أكثر، فلو كانت لنقلت، وقد نقل ما عورض من الشقشقة.

(فصل): ويقال: ما وجه إعجاز القرآن؟

قلنا: أما مشايخنا فقالوا: الفصاحة. وقال بعضهم: النظم. وقال بعضهم بالصِّرْفَةِ. وقال بعضهم: ما فيه من علم الغيب.[4]

---

[4] التهذيب في التفسير ج 10 ص 7610/7609/7608



قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ ﴾ الفاتحة: ٦

قال شيخنا الحاكم الجشمي: أصل الهداية في اللغة الدلالة، يقال هديته إلى الطريق، أي دللته، ونقيض الهداية الضلال، ونظيره الإبانة، وحقيقته الدلالة على الحق.

والصراط: الطريق، وأصله من قولك: سرطت الطعام أسرطته مثل زَرَدْتُهُ.

والإستقامة والإستواء نظيران، ونقيضه الإعوجاج، يقال: استقام هذا، واعوج ذاك.

ومعناه: لما أمر الله تعالى بعادته بيّن ما فيه العبادة، فقال: (اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ) قيل: ثبتنا على الطريق المستقيم والهداية، عن أبي علي وأبي كعب، ومعنى (الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ) قيل: هو دين الإسلام وطريقة الحق، عن ابن الحنفية.

والآية تدل على وجوب طلب الهداية، وتعليم من الله كيف ندعوه.

وتدل على وجوب الدعاء به حالا بعد حال، كيلا تميل بنا الأهواء.

وتدل على أن أفعال العباد ليست بخلق لله، إذ لو كانت خلقا لله لم يكن لطلب المعونة والهداية معنى، ولكان بمنزلة من سأله المعونة على ألوانه وهيئاته، وما يشبه ذلك[5].

قال شيخنا الزمخشري: هدى أصله أن يتعدى باللام أو بإلى، كقوله تعالى: (إِنَّ هذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ)، (وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ)، فعومل معاملة- اختار- في قوله تعالى: (وَاخْتارَ مُوسى قَوْمَهُ).

[5] تهذيب التفسير الحاكم الجشمي ج1 ص 214

ومعنى طلب الهداية- وهم مهتدون- طلب زيادة الهدى بمنح الإلطاف، كقوله تعالى: (وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زادَهُمْ هُدىً) ، (وَالَّذِينَ جاهَدُوا فِينا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنا) . وعن علي وأبيّ رضى اللَّه عنهما: اهدنا ثبتنا، وصيغة الأمر والدعاء واحدة، لأنّ كل واحد منهما طلب، وإنما يتفاوتان في الرتبة.

وقرأ عبد اللَّه: أرشدنا.

(السراط) الجادّة، من سرط الشيء إذا ابتلعه، لأنه يسترط السابلة إذا سلكوه، كما سمى: لقما، لأنه يلتقمهم. والصراط من قلب السين صاداً لأجل الطاء، كقوله: مصيطر، في مسيطر، وقد تشم الصاد صوت الزاى، وقرئ بهنّ جميعا، وفصاحهنّ إخلاص الصاد، وهي لغة قريش وهي الثابتة في الإمام، ويجمع سرطا، نحو كتاب وكتب، ويذكر ويؤنث كالطريق والسبيل، والمراد طريق الحق وهو ملة الإسلام.[6]

<u>قال شيخنا قاضي القضاة عبد الجبّار</u>: فإن قالوا : وقد قال عز وجل فيها : (اهْدِنَا الصِّراطَ الْمُسْتَقِيمَ) ولو كان المراد بالهداية الدلالة لكان قد دلهم وبيّن لهم فلا يكون للمسألة معنى ، فاذا بطل ذلك فيجب أن يكون المراد : الإيمان أو القدرة الموجبة للإيمان ، فمن هذا الوجه يدل على ما نقوله.

والجواب عن ذلك أن المسألة ـ على ما بينا من قبل ـ من فعل السائل ، والمطلوب فعل الله عز وجل ، فيجب أن ينظر فى كل واحد منهما لما ذا يحسن ، وهل يجب أن يتبع أحدهما الآخر فى الحسن والقبح ، وقد ثبت أنه لا يحسن من السائل أن يطلب من المسئول ما هو قبيح ولا بد من كونه حسنا لو فعله ، لكنه قد يكون الصلاح أن يفعله وقد يكون بخلافه ، ولذلك قلنا فى الدعاء : إن الواجب أن يفعله بشرط ، فيدعوه بأمور الدين والدنيا ، بشرط أن لا يكون فسادا وأن يكون داخلا فى الصلاح. وقلنا إنه لا بد فى هذا الشرط من أن يكون بالنية وإن لم يظهر ، وقلنا في من لا يشترط ذلك : إنه جاهل بكيفية الدعاء.

فإذا صح ذلك لم يكن فى ظاهر قوله : (اهْدِنَا الصِّراطَ الْمُسْتَقِيمَ) دلالة على أن الهداية لم تتقدم ، ولا دلالة على أنه تعالى يفعلها فى المستأنف ، لأنه لا يمتنع أن نتعبد بالانقطاع إليه تعالى فى المسألة والطلب ، وإن كان ما سألنا لا يجوز أن يفعل. ومعلوم من حاله أنه يفعل أو لا يفعل.

---

[6] الكشّاف ج1 ص 15

وعلى هذا الوجه قال تعالى : (رَبِّ احْكُمْ بِالْحَقِ) وقال حاكيا عن إبراهيم صلّى الله عليه : (وَلا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ) وقال : (وَلا تُحَمِّلْنا ما لا طاقَةَ لَنا بِهِ). وعلى هذا الحد نستغفر للأنبياء والصالحين ونطلب من الله عز وجل الصلاة عليهم والرحمة ، وإن كان كل ذلك معلوما أنه يفعله عز وجل أو لا يفعله. فكيف يصح التعلق بما ذكرناه؟!

وبعد ، فإنما يدل ذلك على أنه عز وجل يصح أن يفعل الهداية فى المستقبل ، ولا يدل على أن تلك الهداية ما هى؟ ولا يمتنع أن يكون تعالى قد دل على الدّين المستقيم ، وتجدد الأدلة عليه حالا بعد حال ، أو يجوز ذلك منه وإن كان لا يفعله.

وقد بينا أن حسن المسألة لا يقتضى أن المطلوب يفعل لا محالة ، لأنه قد يكون الصلاح فى أن لا يفعل ، والطالب إنما يطلب على شرط ، على ما بينا القول فيه. على أن ما قالوه إنما كان يصح لو لم « يكن الهدى إلا الدلالة أو الإيمان ، فإذا طعنوا فى أحدهما ثبت الآخر ، وليس الأمر كذلك ؛ لأن اللطف وزيادة الأدلة والخواطر قد يوصف بذلك ؛ كما قال تعالى : (وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زادَهُمْ هُدىً). وذلك يبطل تعلقهم بالظاهر ، ويبين أن المراد بالآية : دلّنا على الدين المستقيم حالا بعد حال. أو يكون المراد : زدنا فى الأدلة والألطاف والخواطر التى عندها يزداد شرح صدورنا. وكل ذلك حسن وإن لم يكن هو الذى قالوه.[7]

قال ابن أبي الحديد: أصحابنا رحمهم الله تعالى : الصراط الوارد ذكره في الكتاب العزيز ، هو الطريق لاهل الجنة إلى الجنة ولاهل النار إلى النار بعد المحاسبة ، قالوا : لان أهل الجنة ممرهم على باب النار ، فمن كان من أهل النار عدل به إليها ، وقذف فيها ، ومن كان من أهل الجنة مر بالنار مرورا نجا منها إلى الجنة ، وهو معنى قوله تعالى : (وإن منكم إلا واردها) ، لان ورودها هو القرب منها ، والدنو إليها ، وقد دل القرآن على سور مضروب بين مكان النار وبين الموضع الذى يجتازون منه إلى الجنة في قوله : (فضرب بينهم بسور له باب ، باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب) .[8]

[7] متشابه القرآن القاضي عبد الجبّار ص 45/44/3
[8] شرح نهج البلاغة ج ص 256

قالوا : ولا يصح ما روى في بعض الاخبار أن الصراط أدق من الشعر وأحد من السيف ، وأن المؤمن يقطعه كمرور البرق الخاطف ، والكافر يمشى عليه حبوا ، وأنه ينتفض بالذين عليه حتى تتزايل مفاصلهم .

قالوا : لان مثل ذلك لا يكون طريقا للماشي ، ولا يتمكن من المشى عليه ، ولو أمكن لم يصح التكليف في الاخرة ، ليؤمر العقلاء بالمرور عليه على وجه التعبد .

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾ الفاتحة: ٧

قال شيخنا الحاكم الجشمي: (غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ) قيل: اليهود (وَلَا الضَّالِّينَ) النصارى، روي ذلك مرفوعا، وخص اليهود بالغضب، لقوله: (فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ) ووصف النصارى بالضلال، فقال: (قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ)، وقيل: أراد جميع الكفار، وجمع بين الأوصاف لما فيه من الفائدة، كما نقول إنه تعالى قادر حي سميع بصير، وقيل: غير المغضوب عليهم بالبدعة، ولا الضالين عن السنة[9] *.

قال شيخنا الزمخشري: (صِراطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ) بدل من الصراط المستقيم، وهو في حكم تكرير العامل، كأنه قيل: (اهْدِنَا الصِّراطَ الْمُسْتَقِيمَ) ، اهدنا صراط الذين أنعمت عليهم، كما قال: (الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا) لمن آمن منهم. فإن قلت: ما فائدة البدل؟ وهلا قيل اهدنا صراط الذين أنعمت عليهم؟ قلت: فائدته التوكيد لما فيه من التثنية والتكرير، والإشعار بأنّ الطريق المستقيم بيانه وتفسيره: صراط المسلمين ليكون ذلك شهادة لصراط المسلمين بالاستقامة على أبلغ وجه وآكده، كما تقول: هل أدلك على أكرم الناس وأفضلهم؟ فلان فيكون ذلك أبلغ في وصفه بالكرم والفضل من قولك: هل أدلك على فلان الأكرم الأفضل، لأنك ثنيت ذكره مجملا أوّلا، ومفصلا ثانيا، وأوقعت فلانا تفسيراً وإيضاحا للأكرم الأفضل فجعلته علما في الكرم والفضل، فكأنك قلت: من أراد رجلا جامعا للخصلتين فعليه بفلان، فهو المشخص المعين لاجتماعهما فيه غير مدافع ولا منازع. والذين أنعمت

[9] تهذيب التفسير الحاكم الجشمي ج1 ص 217

* **والصحيح أراد جميع الكفار، وجمع بين الأوصاف لما فيه من الفائدة ليدخل في هذا أصحاب الكبائر**

عليهم: هم المؤمنون، وأطلق الإنعام ليشمل كل إنعام لأنّ من أنعم عليه بنعمة الإسلام لم تبق نعمة إلا أصابته واشتملت عليه. وعن ابن عباس: هم أصحاب موسى قبل أن يغيروا، وقيل هم الأنبياء. وقرأ ابن مسعود: (صراط من أنعمت عليهم) غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ بدل من الذين أنعمت عليهم، على معنى أنّ المنعم عليهم: هم الذين سلموا من غضب اللَّه والضلال، أو صفة على معنى أنهم جمعوا بين النعمة المطلقة وهي نعمة الإيمان، وبين السلامة من غضب اللَّه والضلال. فإن قلت: كيف صح أن يقع (غير) صفة للمعرفة وهو لا يتعرّف وإن أضيف إلى المعارف؟ قلت: الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ لا توقيت فيه كقوله: وَلَقَدْ أَمُرُّ على اللَّئِيمِ يَسُبُّنِى ولأنّ المغضوب عليهم والضالين خلاف المنعم عليهم، فليس في- غير- إذاً الإبهام الذي يأبى عليه أن يتعرّف، وقرئ بالنصب على الحال وهي قراءة رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم وعمر بن الخطاب، ورويت عن ابن كثير. وذو الحال الضمير في عليهم، والعامل أنعمت، وقيل المغضوب عليهم: هم اليهود لقوله عز وجل: (مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ) . والضالون: هم النصارى لقوله تعالى: (قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ) . فإن قلت: ما معنى غضب اللَّه؟ قلت: هو إرادة الانتقام من العصاة، وإنزال العقوبة بهم، وأن يفعل بهم ما يفعله الملك إذا غضب على من تحت يده- نعوذ باللَّه من غضبه، ونسأله رضاه ورحمته. فإن قلت: أى فرق بين (عليهم) الأولى و (عليهم) الثانية؟ قلت: الأولى محلها النصب على المفعولية، والثانية محلها الرفع على الفاعلية.

فإن قلت: لم دخلت لَا في وَلَا الضَّالِّينَ؟ قلت: لما في- غير- من معنى النفي، كأنه قيل: لا المغضوب عليهم ولا الضالين. وتقول: أنا زيداً غير ضارب، مع امتناع قولك: أنا زيداً مثل ضارب لأنه بمنزلة قولك أنا زيداً لا ضارب. وعن عمر وعلى رضى اللَّه عنهما أنهما قرءا: وغير الضالين. وقرأ أيوب السختياني: ولا الضألين- بالهمز، كما قرأ عمرو بن عبيد: (ولا جأن) وهذه لغة من جدّ في الهرب من التقاء الساكنين. ومنها ما حكاه أبو زيد من قولهم: شأبة، ودأبة.[10]

قال شيخنا ابن أبي الحديد: في فصل في الكلام على الالتفات في شرح النهج: واعلم أن باب الانتقال من الغيبة إلى الخطاب ، ومن الخطاب إلى الغيبة باب كبير من أبواب علم البيان ، وأكثر ما يقع ذلك إذا اشتدت عناية المتكلم بذلك المعنى المنتقل إليه ، كقوله سبحانه : (الحمد لله رب العالمين الرحمن

[10] الكشّاف ج1 ص 17/16/15

الرحيم مالك يوم الدين) فأخبر عن غائب ، ثم انتقل إلى خطاب الحاضر فقال : (إياك نعبد وإياك نستعين) ، قالوا : لان منزلة الحمد دون منزلة العبادة ، فإنك تحمد نظيرك ولا تعبده ، فجعل الحمد للغائب وجعل العبادة لحاضر يخاطب بالكاف ، لان كاف الخطاب أشد تصريحا به سبحانه من الاخبار بلفظ الغيبة .

قالوا : ولما انتهى إلى آخر السورة ، قال : (صراط الذين أنعمت عليهم) فأسند النعمة إلى مخاطب حاضر. وقال في الغضب : (غير المغضوب عليهم) ، فأسنده إلى فاعل غير مسمى ولا معين ، وهو أحسن من أن يكون قال : " لم تغضب عليهم ، وفي " النعمة " الذين أنعم عليهم " .[11]



قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿الٓمٓ ١﴾ البقرة: ١

قال شيخنا الحاكم الجشمي: قيل: إسم للسورة، عن الحسن وزيد بن أسلم وأبي علي[12].

وعن شيخنا محمد بن المستنير المشهور بقطرب أنه حكى عن العرب: انها افتتاح للكلام[13].

قال أبي مسلم الأصفهاني: ما معناه أنها لو كانت أسماء للسور ما كنا نرى من السور خاليا منها، ولا كانت تكون من القرآن، وكان المسلمون قد سمّوها بها.

قال: ومحال أن يكون الله جعلها أسماء للسور، ولو كان كذلك لما اختلف المسلمون فيها[14].

وقال: وأما من قال: إنه من المتشابه الذي لا يعلم تأويله إلا الله فإن الله لم يخبرنا أنه استأثر علينا بشيء من علم المتشابه. ثم قد بيّن لنا من كتابه ما تفرد به: من حديث وقت القيامة وعلوم الغيب.

---

[11] شرح نهج البلاغة ابن أبي الحديد ج 7 ص196
[12] التهذيب في التفسير للحاكم الجشمي ج1 ص 220
[13] تفسير أبي مسلم الأصفهاني ص 29
[14] تفسير أبي مسلم الأصفهاني ص 29

قال: وأما قول قطرب فهي دعوى على العرب بغير برهان، ما وجدنا في كلامهم ما قال.[15]

وقال: والذي عندنا: أنه لما كانت حروف المعجم أصل كلام العرب وتحداهم بالقرآن وبسور ة مثله أراد أن هذا القرآن من جنس هذه الحروف المقطعة التي يعرفونها ويقدرون على أمثالها، فكان عجزكم عن الإتيان بمثل القرآن بسورة منه دليلا على أن المنع والتعجيز لكم من الله وأنه حجة رسول الله صلى الله عليه وسلم.[16]

وقال: المراد بذلك أن هذا القرآن الذي عجزتم عن معارضته ولم تقدروا على الإتيان بمثله هو من جنس هذه الحروف التي تتحاورون بها في كلامكم وخطابكم فحيث لم تقدروا عليه فاعلموا أنه من فعل الله لأن العادة لم تجر بأن الناس يتفاوتون في القدر هذا التفاوت العظيم وإنما كررت في مواضع استظهارا في الحجة وحكي ذلك عن قطرب.[17]

قَالَ تَعَالَى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ٢﴾ البقرة: ٢

قال شيخنا الأصم: في تفسير قوله (ذَلِكَ الْكِتَابُ) : إنه تعالى أنزل عليه قبل سورة البقرة سورا كثيرة، وكفرت بها المشركون، فقال: (ذَلِكَ الْكِتَابُ) يعني ما تقدم من القرآن.[18]

قال شيخنا الحاكم الجشمي: ثم وصف الكتاب فقال: (لَا رَيْبَ فِيهِ) أي لا شك فيه أنه من عند الله، وأنه حق ومعجز لا يقدر أحد على مثله[19].

قال: تدل الآية على أن الهدى هو الدلالة، لذلك وصف الكتاب به خلاف قول المجبرة: إن الهدى هو الإيمان.

وتدل على وجوب النظر في القرآن من حيث جعله هدى وطريقا للحق، فيبطل قول من يرى التقليد.

---

15 تفسير أبي مسلم الأصفهاني ص 30

16 تفسير أبي مسلم الأصفهاني ص 31

17 تفسير أبي مسلم الأصفهاني ص 33

18 التهذيب في التفسير للحاكم الجشمي ج1 ص 224

19 التهذيب في التفسير للحاكم الجشمي ج1 ص 224

وتدل على بطلان مذهب أصحاب المعارف، إذ لو كانت المعارف ضرورة لم يكن لنصب الأدلة داع، وجعل القرآن هدى معنى.

وتدل على أنه كان مكتوبا ، وعلى تأويل الأصم الكلام ظاهر، فأما غيره فقيل : كان مكتوبا في اللوح المحفوظ ، والفائدة فيه مصلحة الملائكة.[20]

قال شيخنا القاضي عبد الجبّار: قالوا : وقد قال فيها عز وجل : (لا رَيْبَ فِيهِ هُدىً لِلْمُتَّقِينَ) ولو كان الهدى هو الدلالة لما صح أن يكون للمتقين دون غيرهم ، وذلك يبطل قولكم ، ويبين أن الهدى ما نقوله.

والجواب عن ذلك أن تخصيص الشيء بالذكر لا يدل على حكم ما عداه ، وإنما خص تعالى المتقين بأن الكتاب هدى لهم ، ولم يقل : وليس بهدى لغيرهم ، فلا ظاهر يدل على ما قالوه.

وبعد ، فانه لا يصح أن يحمل على ما يذهبون إليه فى الهدى من أنه الايمان ، لأنه تعالى وصف الكتاب بأنه هدى للمتقين ، ولا شبهة فى أن الكتاب ليس بايمان ، لأن الإيمان هو فعل المؤمن ، والكتاب كلامه تعالى ، فلا بد من أن يرجع إلى أن المراد به أن الكتاب دلالة وبيان ، وقد بين فى غير موضع ذلك بقوله : (شَهْرُ رَمَضانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدىً لِلنَّاسِ) ، أنه دلالة للجميع ، وإنما خص المتقين فى هذا الموضع ؛ لأنهم اهتدوا به ، فصار من حيث انتفعوا به كأن الهدى هدى لهم دون غيرهم، وهذا كقوله تعالى فى صفة نبيّه صلىالله عليه وآله : (إِنَّما أَنْتَ مُنْذِرُ مَنْ يَخْشاها) وإن كان منذرا للخلق كلهم ، كما قال تعالى : (وَما أَرْسَلْناكَ إِلاَّ كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً) وإنما خصّ من يخشى بذلك ، من حيث اختص بأنه انتفع بالإنذار.

ثم يقال للقوم : إن الدلالة على وجه يخص أو يعم ، لا تصح إلا على قولنا ؛ لأنه تعالى إن كان يخلق الطاعة والمعصية فسواء كانت الدلالة أو لم تكن ، فالحال واحدة! لأنه إن أراد تعالى خلق ذلك فيهم وجد ، كان الكتاب أو لم يكن ، استدلوا به أو لم يستدلوا ، وإن لم يرد ذلك لم يحصل على كل حال.

---

[20] التهذيب في التفسير للحاكم الجشمي ج1 ص 225

ومن وجه آخر يدل على قولنا ؛ لأن وصف المتقى بأنه متق لا يصح إلا بأن يختار التحرز من المضار ، فيكون متقيا ، ومتى لم يختر ذلك لم يوصف به ، فإن لم يكن للعبد فعل البتة ، فكيف يوصف بذلك؟!

وبعد ، فان التحرز والاتقاء إنما يصح ـ من العقاب ـ يفعل الطاعة ومجانبة المعصية ، فلو كان تعالى يخلق ذلك ، لكان يجب أن يكون دافعا للمضرة عنهم بخلق ذلك فيهم ، ولا يصح وصفهم بأنهم اتقوا ، كما لا يوصف من دفعنا عنه المكاره بأنه متق.

وبعد ، فإن كان تعالى يفعل القبيح ، فكيف الأمان من أنه لا يعاقب الطائع! فتكون الطاعة ومجانبة المعصية تقوى؟ وكل ذلك يدل على ما نقول. فمن العجب أن يتعلقوا بمثل ذلك مع دلالته على قولنا من هذه الوجوه!

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ۝٦ ﴾ البقرة: ٦

قال شيخنا الحاكم الجشمي: لما بين حال المؤمنين عقبه بذكر الكافرين، فاتصل بما قبله اتصال النقيض بالنقيض، فقال تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا) قيل: بجميع ما آمن به المؤمنون، وقيل: بخصلة من خصال الكفر، أي كفر كان، وقيل: كفروا بما أنزل اليك، كما قال: (يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيكَ) وقيل: كفروا بالآخرة (سَوَاءٌ عَلَيهِمْ) أي يستوي حالهم (أَأَنذرتهم) خوفتهم أو لم تخوفهم لا يؤمنون بك، وبما أنزل إليك. و (سواء عليهم) بمعنى يستوي؛ لأن المصدر إذا أقيم مقام الفاعلين كان بمنزلة أسمائهم، يقال: قوم صوم، أي صائمون.[21]

وقال: الآية تدل على أن في المكلفين من لا لطف له، إذ لو كان الفعل لآمنوا ، فلما أخبر أنهم لا يؤمنون، علم أنه لا لطف لهم، خلاف قول أصحاب اللطف.

وتدل على معجزة للرسول ، لأنه أخبر أنهم لا يؤمنون، فكان كما أخبر.

---

[21] التهذيب في التفسير للحاكم الجشمي ج1 ص 236

وتدل على أنه يجوز أن يخاطب بالعام ويريد به الخاص، لأنا نعلم أن في الكفار من آمن وانتفع بإنذاره، فدل على أن المراد بالآية الخصوص.

وتدل على أن الكافر أتي من جهة نفسه ، لا من تقصير من جهة الرسول صلى الله عليه وسلم.

وتدل على أن أفعال العباد ليست بخلق الله، إذ لو كانت خلقا له لم يكن للتخويف معنى.[22]

قال شيخنا القاضي عبد الجبّار: قالوا وقد ذكر فيها ما يدل على أن الذين كفروا لا يقدرون على الإيمان ، فقال : (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَواءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ) فلو قدروا عليه لآمنوا لا محالة ؛ لأنه لا يصح أن يقدروا على « ما خبر وأعلم أنه لا يقع ، والجواب عن ذلك : أن ظاهره إنما يدل على أنهم لا يؤمنون ، وذلك يدل على أنهم لا يفعلون الإيمان ، وليس فى أن لا يفعل الموصوف دلالة على أنه « يقدر عليه أو لا يقدر عليه ، فلا ظاهر للقوم يتعلقون به ، وقد ثبت بالدليل أن القادر قد يقدر على ما يعلم أنه يختاره وعلى خلافه ؛ لأن القدرة تتعلق بالضدين ، وإنما يقع أحدهما ؛ ولأنه تعالى قادر فيما لم يزل غير فاعل ؛ ولأنه يقدر على الضدين ، ولا يفعل أحدهما ؛ ولأنه يقدر على ما لا نهاية له من الأجناس لا يفعلها وهو قادر على أن يقيم القيامة الآن ولا يفعلها ، وكل ذلك يبطل قولهم إن ما علم أنه لا يقع ، لا تصح القدرة عليه.

وبعد ، فإن العلم يتعلق بالشيء على ما هو عليه ولا يؤثر فيه ، فيجب أن يعلم ما له يفعل القادر أو لا يفعله ، ثم نثبت العلم علما به على حقيقته. وقد شرحت هذه المسألة فى مواضع ، وصحتها يبين بطلان تعلقهم بهذه الآية.

ثم يقال للقوم : إن إضافته تعالى الكفر إليهم يدل على أنه فعلهم ، وإلا لم يصح وصفهم به ، وكان لا يصح أن يذمهم إن كان قد خلقه فيهم ، وكان لا يصح أن يصفهم بأنهم لا يؤمنون ، أنذروا أم لم ينذروا ، لأن الإنذار على قولهم فيهم وفى غيرهم : لا فائدة فيه ؛ لأنه تعالى إن خلق الإيمان حصلوا مؤمنين على كل حال ، وإن لم يرد ذلك ولم يخلقه ، ولا خلق القدرة الموجبة له ، لم يحصلوا مؤمنين ،

[22] التهذيب في التفسير للحاكم الجشمي ج1 ص 237

فأى فائدة « للانذار ، ولما ذا خصهم بأنهم لا يؤمنون على كل حال. وكيف يصح أن يوصفوا بأنهم لا يؤمنون ، فينفى الفعل عنهم ولا يصح الفعل منهم؟ وكل ذلك يبين أنها بأن تدل على ما نقوله أولى.[23]

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ⑦﴾ البقرة: ٧

قال شيخنا الحاكم الجشمي: (خَتَمَ اللَّه عَلَى قُلُوبِهِمْ) واختلفوا في الختم، قيل: نكتة سوداء يجعلها اللَّه في قلب الكافر علامة للملائكة أنه لا يفلح، عن أبي علي وجماعة. وقيل: إنه ذم لهم بأنها كالمختوم عليها، كقوله: (صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ) قال الشاعر:

أَصَمُّ عَمَّا سَاءَه سَمِيعُ

لقد أَسْمَعْتَ لو ناديتَ حَيًّا ولكنْ لا حياةَ لِمَنْ تُنَادِي

ومعناه أن الكفر تمكن في قلوبهم فصارت كالمختوم عليها، وصارت أسماعهم لا يصل إليها السمع، ثم أكد ذلك بقوله: (وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشاوةٌ) أي صاروا بمنزلة من لا يسمع ولا يفهم، ولا يبصر في معنى قول الأصم وأبي مسلم وأبي بكر أحمد بن علي، وقيل: ختم أي حكم اللَّه عليهم، وشهد عليها بأنها لا تقبل الحق، وهو من قولهم: ختمت عليك بأنك لا تفلح، أي شهدت عليك وحكمت، وقيل: المراد به الاستفهام، فحذف ألف الاستفهام، وتقديره: أختم، قال الشاعر:

بِسَبْعٍ رَمَيْنَ الجَمْرَ أَمْ بِثَمَانِ

ومتى قيل: لِمَ أضاف الختم إلى نفسه؟

قلنا: على التأويل الأول؛ لأنه جعل ذلك في قلوبهم، وعلى الثاني لأنه كان عند دعائه كقولهم: ما زدتك بموعظتي إلا شرًا، وذلك تَوَسُّعٌ، وعلى الثالث خَتَمَ بمعنى حَكَمَ أنهم بهذه الصفة، وعلى الرابع هو بمعنى الإنكار أي ما ختم.

[23] متشابه القرآن القاضي عبد الجبّار ص 51/50/49

ومتى قيل: لِمَ خص هذه الأعضاء بالذكر؟

قلنا: لأنها طريق العلم، فالقلب محل العلم، وطريقه إما السماع أو الرؤية.

ومتى قيل: بغير قلتم: إن الختم يمنع من الإيمان؟

قلنا: لوجوه:

منها: أنه لو مَنَعَ منه، وقد أمرَ به لكان تكليفا لما لا يطاق.

ومنها: أنه أخبر أن بعضهم يؤمن، فقال: (فَلَا يُؤمِنُونَ إِلَّا قَلِيلا) فلو منع لمنع الجميع.

ومنها: أن السمع والبصر لا تعلق لهما بالإيمان.

ومنها: أنهم كانوا يسمعون ويبصرون.

ومنها: أن الختم لا يكون منعا إذا قُدِرَ على رفعه كختم الكتاب.

ومنها: أن الختم في اللغة بمعنى المنع غير مسموع ولا موجود.

ومنها: أن المنع من الإيمان قبيح، ولا يقال: إنه عقوبة لهم؛ لأنه عطف عليه بقوله: (وَلَهُم عَذَابٌ عَظِيم) دل أنه غير المعطوف عليه، ولأنه يكون في كفره أتي من قبل ربه، ولأنه لا يكون له طريق إلى التخلص مع بقاء التكليف، ولو جاز أن يمنع من الإيمان، ثم يعاقب عليه، لجاز أن يكلف الأعمى النظر، والْمُقْعَدَ القيام، ويعاقب على تركه، وجاز أن يبعث رسولاً يدعو إلى الكفر، ويظهر المعجز على يدي كذاب، ولأنه تنزه عن الظلم، فلو أنه أمر بالإيمان ومنع منه، ثم يعاقب عليه لما كان ظلم أعظمَ من هذا، تعالى اللَّه عن ذلك. (وَلَهُمْ عَذَاب عَظِيم) قيل: عذاب النار، وقيل: في الدنيا القتل والأسر وفي الآخرة عذاب النار.[24]

<u>الأصم وأبي مسلم الأصفهاني</u> : إن الكفر تمكن من قلوبهم فصارت كالمختوم عليها، وصاروا بمنزلة من لا يفهم ولا يبصر ولا يسمع.[25]

<u>قال شيخنا الزمخشري</u>: فإن قلت: فلم أسند الختم إلى اللَّه تعالى وإسناده إليه يدل على المنع من قبول الحق والتوصل إليه بطرقه وهو قبيح واللَّه تعالى عن فعل القبيح علوا كبيرا لعلمه بقبحه وعلمه بغناه عنه.

---

[24] التهذيب في التفسير ج 1 ص 241/240/239

[25] تفسير أبي مسلم الأصفهاني ص 33

وقد نص على تنزيه ذاته بقوله: (وَما أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ) ، (وَما ظَلَمْناهُمْ وَلكِنْ كانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ) ، (إِنَّ اللَّهَ لا يَأْمُرُ بِالْفَحْشاءِ) ونظائر ذلك مما نطق به التنزيل؟ قلت: القصد إلى صفة القلوب بأنها كالمختوم عليها. وأما إسناد الختم إلى اللَّه عز وجل، فلينبه على أنّ هذه الصفة في فرط تمكنها وثبات قدمها كالشيء الخلقي غير العرضي. ألا ترى إلى قولهم: فلان مجبول على كذا ومفطور عليه، يريدون أنه بليغ في الثبات عليه. وكيف يتخيل ما خيل إليك وقد وردت الآية ناعية على الكفار شناعة صفتهم وسماجة حالهم، ونيط بذلك الوعيد بعذاب عظيم؟[26]

قال قاضي القضاة: مسألة : وقد قال تعالى : (خَتَمَ اللّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصارِهِمْ غِشاوَةٌ) وذلك يدل على أنه منعهم بالختم والغشاوة من الإيمان! وذلك يدل على أنه الخالق للايمان والكفر ، وللأسباب الموجبة لهما

والجواب فى ذلك ، أن الختم فى اللغة لا يعقل منه القدرة على الكفر ، ولا الكفر ، وإنما يستعمل فى العلامة الحاصلة بنقش الخاتم وما شاكلها ، وإن كان قد يراد به انتهاء الشيء ، وقد يراد به الحكم عليه بأنه لا ينتفع بما سمعه ، كما يقال فيمن نوظر كثيرا وبيّن له طويلا : ختمت عليك أنك لا تفهم ... إلى ما يشا كله ، وحقيقته ما ذكرناه أولا ، فإذا صح ذلك لم يكن لهم فيما أوردوه ظاهر يصح التعلق به.[27]

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًاۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمُۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡذِبُونَ ١٠﴾ البقرة: ١٠

قال شيخنا الحاكم الجشمي: (فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ) قيل: شَكّ، عن ابن عباس وابن مسعود والحسن وجماعة، (فَزَادَهُمُ اللَّه مَرَضًا) قيل: بما أنزل اللَّه من الفرائض والحدود، وقيل: بما أنزل من الآيات والحجج، فشكوا عندها، فأضاف. ذلك إليه، وإن كان الشك منهم؛ لأنه وجد عند نزول الآيات، وما زاده من الحجج، ونظيره قوله: (وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ) والآيات لم تزدهم رجسًا، ولكن ازدادوا عندها، كقوله: (فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا (6)، وكقوله: (رَبِّ إِنَّهُنَّ

[26] الكشّاف للزمخشري ج1 ص 49
[27] متشابه القرآن القاضي عبد الجبّار ص 51

أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ) وقيل: في قلوبهم غم بتمكين النبيّ - صلى اللَّه عليه وسلم - ونزوله بالمدينة، وما فتح اللَّه عليه، وظهور المسلمين، وكثرة الفتوح، فزادهم غمًّا بما زاده من القوة والتمكين، وبما أخذ من النصر والتأييد، عن أبي علي، وأنكر الوجه الأول، وذكر أنه تعالى لا يجوز أن يزيدهم شَكًّا في الدين، وقد بينا أن له وجهًا صحيحًا، فلا معنى لإنكاره، مع أنه مَرِوْيّ عن جماعة من السلف، وقيل: "فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ" أي شك ونفاق (فَزَادَهُمُ اللَّه مَرَضًا) يعني عاقبهم على ذلك وزادهم عقوبة على عقوبة غيرهم بسببه فسمي جزاء المرض مرضًا كقوله: (وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا) قال الشاعر:

أَلاَ لاَ يَجْهَلَنْ أَحَدٌ عَلَيْنَا   فَنَجْهَلَ فَوْقَ جَهْلِ الجاهلينا

أي: نكافئهم على الجهل؛ إذ الجهل لا يُتَمَدَّحُ به، ومثله: (فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ) (وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّه) (فَيَسخَرُونَ مِنهُم سَخِرَ اللَّه مِنهُم) ونظائره كثيرة، وقيل: (فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ) أي حزن بنزول القرآن بفضائحهم (فَزَادَهُمُ اللَّه مَرَضًا) بأن زاد في إظهار مخازيهم، ويخبر عن ضمائرهم، فيزدادون غمًّا ومرضًا، وسمي الغم مرضًا لأنه يُضَيِّقُ الصدرَ كما يضيقه المرض، فقيل: فزاده اللَّه مرضًا على جهة الدعاء عليهم، كقولهم: (ثُمَّ يعطيهم من زيادة الهدى والألطاف ما يعطي المؤمنين فيكون خذلانًا لهم، فحقيقة اللفظ - وإن خرج مخرج الدعاء - إخبار عن خذلان اللَّه تعالى إياهم، عن أبي مسلم، (وَلَهُمْ عَذَاب أَلِيمٌ) موجع، وهو عذاب النار (بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ). قيل: بكذبهم، في قولهم: آمنا، وقيل: بكذبهم، بأن باطننا كظاهرنا، هذا على قراءة من قرأ بالتخفيف، فأما بالتشديد (بِمَا كَانُوا يَكذِبُونَ) يعني بتكذيب اللَّه ورسوله فيما جاء به من الدين، وما أودعهم به من البعث والعذاب.[28]

قال أبو علي الجبّائي : ذلك أن فى قلوبهم غما وقلقا بأحوال النبى صلى الله عليه ، وعظم نعم الله عز وجل عليه فأراد بقوله : (فَزادَهُمُ اللهُ مَرَضاً) يعنى : غما ، بأن زاد فى تعظيم النبى عليهالسلام وعظم أحواله ، وعرفهم ذلك ، فكان ذلك هو الغم الذى فعله فى قلوبهم ، ومرض القلب لا يعقل فى اللغة إلا الغم. ولذلك يقول الفصيح فيمن خبره بما يسوؤه : قد أمرضت قلبى!. وهذا ظاهر فى اللغة.[29]

---

[28] التهذيب في التفسير ج 1 ص 249/248

[29] متشابه القرآن القاضي عبد الجبّار ص 55

قال شيخنا قاضي القضاة: فإن قيل : وذلك يدل على أنه عز وجل يفعل الشك والكفر فى قلوب الكافرين والمنافقين.

فيقال للقوم : إنما يصح أن يقول تعالى ذلك ، على قولنا دون قولكم ، لأنه جل وعز ، إذا كان قد خلق فيهم الكفر الأول والثانى ، فكيف جعل زيادة المرض فى حكم الجزاء على ما فى قلبهم من المرض ، مع أنهما جميعا من خلقه؟ وإنما يصح ذلك بأن يكون الأول من فعلهم ، والثانى على سبيل العقوبة من الله عز وجل لهم ، وكذلك نقول : إن المنافقين بتكذيبهم واعتقادهم أنه صلى الله عليه وآله ، لا يجب أن تعتقد نبوته ـ ويظهر ذلك من حاله فى كل وقت ، مع مشاهدتهم لأحواله ـ أمرضوا قلوبهم ، فكان ذلك منهم معصية ، فعاقبهم الله عز وجل بالأمر الثانى ، ويبين ذلك أنه قال : (وَلَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ) ، ولو كان كل ذلك من خلقه فيهم ، لما جعل العذاب كالجزاء على فعلهم ؛ لأن المرض الذى ذكره أولا وثانيا ، والتكذيب الذى ذكره آخرا كله من خلقه فيهم ، فكيف يستحقون العذاب عليه ، على أنه عز وجل قد أضاف إلى المنافقين فى هذه الآيات من الأفعال والأقوال وذمهم بذلك ، فكل ذلك يبين أن نفاقهم من فعلهم.[30]

قال شيخنا أبو مسلم: إن ذلك على سبيل الدعاء عليهم كقوله تعالى: {ثُمَّ انْصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ}[31]

قَالَ تَعَالَى: ﴿ٱللَّهُ يَسۡتَهۡزِئُ بِهِمۡ وَيَمُدُّهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ١٥﴾ البقرة: ١٥

قال شيخنا الحاكم الجشمي: قيل: يجازيهم على استهزائهم، والعرب تسمي الجزاء على الشيء بإسم الشيء، يقولون: الجزاء بالجزاء، ومنه: (وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا) ومنه قول الشاعر:

ألا لا يجهلن أحد علينا فنجهل فوق جهل الجاهلينا[32]

[30] متشابه القرآن القاضي عبد الجبّار ص 56 – بتصرف -
[31] تفسير أبي مسلم الأصفهاني ص 33
[32] التهذيب في التفسير للحاكم الجشمي ج1 ص 258

عن شيخنا الأصم: لما أظهر لهم في الدنيا من الأحكام التي ينتفعون بها خلاف ما لهم في الآخرة من العذاب كان كأنه استهزأ بهم.[33]

عن شيخنا الكعبي وأبو مسلم: أن الله تعالى لما منحهم ألطافه التي يمنحها المؤمنين وخذلهم بسبب كفرهم وإصرارهم عليه، بقيت قلوبهم مظلمة بتزايد الظلمة فيها وتزايد النور في قلوب المسلمين، فسمى ذلك التزايد مددا وأسنده إلى الله لأنه مسبب عن فعله بهم.[34]

قال شيخنا قاضي القضاة: فإن قيل: أن الطغيان من فعله تعالى فيهم ، وأضاف الاستهزاء إلى نفسه، وكل ذلك يبين ما نقوله : من أنه يخلق هذه الأفعال فيهم.

والجواب عن ذلك أن المخالف لا يجوّز على الله الاستهزاء فى الحقيقة ؛ لأنه لا يكون إلا قبيحا وذما ، ولا يصح إلا على من تضيق به الأفعال ، فإذا احتال وفعل الضرر بغيره « من حيث لا يشعر وعلى وجه مخصوص ، وصف بذلك ، ويستحيل ذلك على الله عز وجل ، وإنما أراد أنه يعاقبهم على ما وقع منهم من الاستهزاء بالرسول صلّى الله عليه لأنه قد ثبت فى اللغة أنه قد يجرى اسم الشيء على ما هو جزاء له ، كما يجرى اسم الجزاء على الفعل ، ولذلك قالوا : الجزاء بالجزاء ولذلك قال عز وجل : (وَجَزاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُها) وإن كان ما يفعله تعالى ليس سيئة ، وهذه الطريقة فى مذهب العرب معروفة ، فيجب أن تحمل الآية عليها.

فأما قوله : (وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيانِهِمْ يَعْمَهُونَ) فليس فى ظاهر قوله (وَيَمُدُّهُمْ) أن الطغيان من فعله فيهم ، وإنما أراد أنه يمدهم فى العمر نعمة منه عليهم ؛ لكى يستدركوا ما فاتهم فيتوبوا ، وهم مع ذلك يعمهون فى طغيانهم ، ولا يزدادون إلا شرا ، فالذى يضاف إليه هو المدّ فى العمر ، والطغيان والعمه إليهم يضاف ، على ما بيناه.

ثم يقال للقوم : لو كان الطغيان من فعله تعالى ، لما صح أن يضيف العمه إليهم ، فيقول : (يَعْمَهُونَ) وهو تعالى قد « خلقه ، ولما حسن أن يذمهم ويوبخهم على ذلك.

---

[33] التهذيب في التفسير للحاكم الجشمي ج1 258

[34] تفسير أبي مسلم الأصفهاني ص 34

وقوله تعالى من بعد : (أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى) يدل على ما نقوله ، لأنه لا يوصف الإنسان بذلك إلا إذا اختار الضلالة على الهدى ، فلو كان ذلك من فعل غيره ، لم يصح أن يكون مشتريا لأحدهما بالآخر ، فكيف يصح أن يصفهم تعالى ، بقوله : (فَما رَبِحَتْ تِجارَتُهُمْ) وهو الذى اضطرهم إلى الضلالة؟ وكيف يضرب لهم الأمثال ، وهو الذى خلق فيهم الضلال؟![35]

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَقُلْنَا يَـٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾﴾ البقرة: ٣٥

عن الحسن وواصل وعمرو وأبو علي: هي جنة الخلد.[36]

قال شيخنا أبو مسلم وأبو القاسم البلخي: هذه الجنة كانت في الأرض، وحملا الاهباط على الانتقال من بقعة إلى بقعة كما في قوله (اهْبِطُوا مِصْرًا) وقال أبو مسلم وقوله تعالى: (اهْبِطُوا مِصْرًا) لا يقتضي كونها في السماء، واحتجا عليه بوجوه احدهما: أن هذه الجنة لو كانت هي دار الثواب لكانت جنة الخلد ولو كان آدم في جنة الخلد لما لحقه فيها الغرور من إبليس لقوله: (هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى) ولما صح قوله: (مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ)، وثانيها: أن من دخل هذه الجنة لا يخرج منها لقوله تعالى: (وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ) وثالثها: أن إبليس لما امتنع عن السجود لعن فما كان يقدر مع غضب الله أن يصل إلى جنة الخلد. ورابعها: أن الجنة التي هي دار الثواب لا يفنى نعيمها لقوله: (أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا) ولقوله تعالى: (وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا) إلى أن قال: (عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ) أي غير مقطوع، فهذه الجنة لو كانت هي التي دخلها آدم عليه السلام لما فنيت لكنها تفنى لقوله تعالى: (كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ) ولما خرج منها آدم عليه السلام لكنه خرج منها وانقطعت تلك الراحات، وخامسها أنه لا يجوز في حكمته تعالى أن يبتدئ الخلق في جنة يخلدهم فيها ولا تكليف لأنه تعالى لا يعطي

[35] متشابه القرآن لقاضي القضاة ص 57/56
[36] التهذيب في التفسير للحاكم الجشمي ج1 ص 333

جزاء العاملين من ليس بعامل ولأنه لا يهمل عباده بل لا بد من ترغيب وترهيب ووعد ووعيد، وسادسها: لا نزاع في أن الله تعالى خرق آدم عليه السلام ولم يذكر في هذه القصة أن نقله إلى السماء ولو كان تعالى قد نقله إلى السماء لكان ذلك أولى بالذكر لأن نقله من الأرض إلى السماء من أعظم النعم فدل ذلك على أنه لم يحصل ذلك ويوجب أن المراد من الجنة التي قال الله تعالى له: (اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ) جنة أخرى غير جنة الخلد.[37]

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعۡدُودَةً ۚ قُلۡ أَتَّخَذۡتُمۡ عِندَ ٱللَّهِ عَهۡدًا فَلَن يُخۡلِفَ ٱللَّهُ عَهۡدَهُۥٓ ۖ أَمۡ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ٨٠﴾ البقرة: ٨٠

قال شيخنا الحاكم الجشمي: (وَقَالُوا) يعني علماء اليهود ورؤساؤهم: (لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا) قيل: لن يصيبنا عذاب النار (إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً)، قيل: معناه أيامًا قليلة، كقوله: (دَرَاهِمَ مَعدُودَةٍ) وقيل: أراد أيامًا معدودة مُحْصَاة، ثم اختلفوا في تلك الأيام، فقيل: سبعة أيام تقابل سبعة آلاف سنة من سني الدنيا عن ابن عباس ومجاهد. وقيل: أربعين يومًا بمقدار ما عبدوا فيها العجل، عن قتادة والأصم. وقيل: أربعين تحلة القسم، عن الحسن. وقيل: أربعين سنة، وذلك أن اليهود وجدوا في كتابهم أن ما بين طرفي جهنم مسيرة أربعين عامًا إلى أن ينتهى إلى شجرة الزقوم، فزعموا أنه إذا خلا العدد وانقضى الأجل فلا عقاب، عن ابن عباس. وقيل: أيامًا بقدر الجرائم ثم يخرج إلى الحياة، كما هو مذهب المرجئة، عن أبي علي. وقيل: أيامًا معدودة، يعني: قلائل، ثم يشفع لنا آباؤنا، وهم الأنبياء. فكذبهم اللَّه تعالى وقال: (قُلْ) يا محمد (أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا) أي موثقًا أنه لا يعذبكم إلا هذه المدة (فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّه عَهْدَهُ) يعني وعده بذلك (أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّه مَا لاَ تَعْلَمُونَ) صحته، أي تكذبون عليه.[38]

[37] تفسير أبي مسلم الأصفهاني ص 36/35
[38] التهذيب في التفسير للحاكم الجشمي ج1 ص 455 / 456

وقال الآية تدل على أن الجبر والإلجاء من دين اليهود، وتدل على أن العذاب دائم، لأن نعمت الله لما عظمت عظم الكفران فتأبد العقاب.[39]

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨١﴾﴾ البقرة: ٨١

قال شيخنا الزمخشري: (مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً) من السيئات، يعنى كبيرة من الكبائر (وَأَحاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ) تلك واستولت عليه، كما يحيط العدوّ ولم يتفص عنها بالتوبة.

وقرئ: خطاياه، وخطيئاته. وقيل في الإحاطة: كان ذنبه أغلب من طاعته. وسأل رجل الحسن عن الخطيئة قال: سبحان اللَّه: ألا أراك ذا لحية وما تدرى ما الخطيئة، انظر في المصحف فكل آية نهى فيها اللَّه عنها وأخبرك أنه من عمل بها أدخله النار فهي الخطيئة المحيطة.[40]

وقال الحسن البصري وأبو علي الجبّائي : (الخطيئة) : الذنوب الكبيرة، وقال أبو مسلم: هو الإصرار على الذنب.[41]

قال شيخنا قاضي القضاة: وقال عز وجل : (بَلى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ) فَأُولئِكَ أَصْحابُ النَّارِ هُمْ فِيها خالِدُونَ فدل بذلك على أن من غلبت كبائره على طاعاته ـ لأن هذا هو المعقول من الإحاطة فى باب الخطايا ، لأن ما سواه من الإحاطة التى تستعمل فى الأجسام يستحيل فيها ـ هو من أهل النار مخلدا فيها.

وقوله بعد ذلك : (وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ أُولئِكَ أَصْحابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيها خالِدُونَ) يدل على أن الجنة لا تستحق بالإيمان الذى هو القول ، دون أن ينضاف إليه الأعمال الصالحة ، وذلك يبطل قول المرجئة فى الوعيد ، وفى الأسماء جميعا.[42]

---

[39] التهذيب في التفسير للحاكم الجشمي ج1 ص 456
[40] الكشّاف ج1 ص 158
[41] التهذيب في التفسير ج1 ص 459
[42] متشابه القرآن للقاضي عبد الجبار ص 98

قال شيخنا الحاكم الجشمي: (بَلَى) ليس الأمر كما قالوا، ولكن (مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً) بمعنى اقترف معصية، واختلفوا في السيئة فقيل: من الشرك، عن مجاهد، وقيل: الذنوب التي وعد عليها النار، عن السدي، وهو الوجه؛ لعموم اللفظ. وقيل: الكبيرة الموجبة، عن الحسن وقتادة (وَأَحَاطَتْ بِهِ) يعني أحدقت به من كل جانب، واختلفوا في معناه، قيل: سدت عليهم مسالك النجاة، وذلك دلالة على ما لا يغفر من الذنوب، عن ابن السراج. وقيل: دل بالإحاطة على معنى الكبيرة، عن أبي علي. وقيل: (أَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ) أي أوبقته ذنوبه، يعني أهلكته، عن الكلبي. وقيل: أحاطت بما له من حسنة فأحبطتها، عن ابن عباس. (خَطِيئَتُهُ) قيل: هي الشرك، عن ابن عباس وأبي العالية وابن زيد والضحاك. وقيل: الذنوب الكبيرة، عن الحسن وأبي علي. وقيل: هو الإصرار على الذنب، عن عكرمة ومقاتل وأبي مسلم.

ومتى قيل: أليس السيئة والخطيئة بمعنى، فلماذا كرر؟

قلنا: تقدير الآية: بلى من كسب سيئة وأحاطت به تلك السيئة، وخولف بين اللفظين؛ لأنه أحسن وأفصح.

ويقال: أليس كل كبيرة محبطة، فما معنى: "وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ"؟

قلنا: لأن الصغيرة سيئة، فشرط في استحقاق النار كونها كبيرة.

(فَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ) يعني يصحبون النار ويلازمونها (هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) يعني دائمون أبدًا، عن ابن عباس والحسن وجماعة.[43]

وقال : الآية تدل أمور:

منها: أن الكبيرة يستحق فاعلها النار.

وتدل على الإحباط، لأن الإحاطة إن لم يمكن حمله على الإحاطة بالجسم كان معناه الإحاطة بطاعته. وأنه يحبطها.

ويدل قوله: (فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ) على أنه لا يدخلها سواهم، وذلك يبطل قولهم في أطفال المشركين.

[43] التهذيب في التفسير ج1 ص 459/458

ويدل قولهم: (هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) على دوام العقاب، فيبطل قول المرجئة.

ويقال: قد قيل: الآية نزلت في اليهود، فلا يصح الإستدلال بها على الوعيد.

وقيل: إن المراد بالخطيئة الشرك، ولأنها تدل على استحقاق الوعيد، ولا تدل على أنه يفعل بهم ذلك، ولأن التائب خرج منها، فيبقى الباقي محتملا؟

والجواب عن الأول: أن العلماء مختلفون فيه، فمنهم من قال: إنه عام، ومنهم من قال: إنه خاص في اليهود، ولكن حالنا في باب الوعيد كحالهم، وعلى أنه إنما يعتبر عموم اللفظ.

فكذلك الجواب عن الثاني: أن اللفظ عام في كل كبير، شركا كان أو غيره.

فأما الجواب عن الثالث: إن الظاهر ينبئ عن بطلانه؛ لأنه يقال للمستحق: إنه مصاحب لها خالد فيها.

والجواب عن الرابع: أن التائب لم تحط خطيئته به، لأن التوبة أزالتها، فكيف تحيط بغيرها، على أنا خصصنا التائب بدليل، فبقي الباقي على ظاهره.

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتۡلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلۡكِ سُلَيۡمَٰنَۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيۡمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحۡرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلۡمَلَكَيۡنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنۡ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحۡنُ فِتۡنَةٞ فَلَا تَكۡفُرۡۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنۡهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَزَوۡجِهِۦۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنۡ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمۡ وَلَا يَنفَعُهُمۡۚ وَلَقَدۡ عَلِمُواْ لَمَنِ ٱشۡتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنۡ خَلَٰقٖۚ وَلَبِئۡسَ مَا شَرَوۡاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمۡۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ١٠٢﴾ البقرة: ١٠٢

قال شيخنا الحاكم الجشمي: ومعنى (وَاتَّبَعُوا) اقتدوا به، (مَا تَتْلُو) عن أبي مسلم: تكذب على ملك سليمان، وقيل: تتحدث وتخبر عنه، عن أبي علي. (الشَّيَاطِينُ) : شياطين الإنس والجن، عن أبي

علي، قال الحاكم الجشمي : وقيل شياطين الإنس، وهو الأوجه[44]، (مُلْكِ سُلَيْمَانَ) : قال أبي مسلم: معناه على عهد ملك سليمان، ومعناه ما كانت تكذب الشياطين على ملك سليمان وعلى ما أنزل على الملكين.[45]

قال شيخنا الحاكم الجشمي: ومتى قيل: لما أضافوا السحر إلى سليمان؟

قلنا: فيه خلاف: قيل عداوة، وقيل: ليقبل منهم، وكذبوا في ذلك، عن أبي علي، (وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ) يعني أن اليهود أضافوا السحر إلى سليمان، لأن معنى قوله: (مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ) المراد به السحر عند جماعة أهل العلم، والسحر كفر، فرد الله عليهم وقال: (وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ) ولكن: أضافو السحر إليه، وزعموا أن ملكه كان به عن ابن عباس وقتادة وسعيد بن جبير.[46]

قال الحاكم: (وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ) : يعني الملكين، (حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ) قيل: نحن امتحان واختبار نبيين السحر ليتجنب ولا يكفر بعمل السحر، فإنما بعثنا لنمنع الناس منه، ونبين بطلانه، عن أبي علي، وقيل: ما أنزل عليهما السحر وما علماه، فكانا لا يعلمان أحد شيئا إلا وينصحان فيقولان: لا تكفر، ينهيان عن الكفر والسحر، عن أبي مسلم، (فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا) من الملكين، عن أكثر المفسرين، وهو قول أبو علي، وقيل: من السحر والكفر، عن أبي مسلم، وتقديره: فيتعلمون مكان ما علمناه، وقيل: من الشياطين وهاروت وماروت، عن الأصم، (مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ) قيل: إذا عمل بالسحر كفر، فحرمت عليه زوجته، فكأنما يغريه بالكفر والسحر فيفرق بينه وبين زوجته، عن أبي مسلم[47]، وقال أبو مسلم في قوله (مِنْهُمَا) : إن الضمير عائد إلى السحر والكفر، وقال: لأنه تقدم الدليل عليها في قوله كفروا، وهذا كقوله تعالى: (سَيَذَّكَّرُ مَنْ يَخْشَى (10) وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى (11)) أي يتجنب الذكرى.[48]

---

44 التهذيب في التفسير ج1 ص 521

45 تفسير أبي مسلم الأصفهاني ص 44

46 التهذيب في التفسير ج1 ص 522

47 التهذيب في التفسير ج1 ص 524

48 تفسير أبي مسلم الأصفهاني ص 45

(وَمَا هُمْ) : يعني الذين يفرقون بين المرء وزوجه، (بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ) : واختلفوا في معنى الإذن، قيل: بعلم الله تعالى، عن أبي علي والأصم، من قوله تعالى: (فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ)، وقيل: الإذن، بسكون الذال وكسر الهمزة، والأَذَن بفتحهما بمعنى: كشِبْهِ وشبَهٍ، ومِثْلٍ ومَثَلٍ، عن أبي مسلم.[49]

فصل الكلام في أحكام السحر

قال الحاكم الجشمي: يشتمل هذا المبحث على ستة فصول منها: تعليمه، ومنها تعلمه، ومنها العمل به، حقيقته وكيفيته، ومنها: بيان ما هو كفر وما ليس بكفر، ومنها: حكم الساحر، ومن يقتل ومن يعزر، ومنها هل تقبل توبته أم لا؟

أما الأول: فتدل الآية على أن تعليم السحر يحسن حيث علّمه الملَك، ولا شبهة أنهما علّما ذلك بأمر الله ووحيه.

واختلفوا هل يجوز التعليم من غير قرينة أم لا؟ فمنهم من قال: لا يحل إلا مع المنع من استعماله؛ ولذلك قالا: (فَلَا تَكْفُرْ). ومنهم من أجازه مطلقا، وإذا حسن منا أن نذكر شبه الملحدة لإزالة الإيهام؛ فذلك جاز بيان السحر لبيان طلانه وإزالة الإيهام. وكذلك يحسن منا أن نعلم النكاح الفاسد والصحيح، والبيوع الفاسدة، والأشربة، ليتبين المباح من المحظور، ولذلك بين الله تعال لنا القبيح والحسن، وأما تعلمه ليجتنب، ويفرق بينه وبين غيره فيحسن، وتعلمه للعمل به يقبح.

أما الثاني: فلا شبهة أن العمل بالسحر مذموم، ولذلك ذمهم، وفيه ما هو كفر؛ لأ الكفر لا يتعلق بالتعلم والتعليم، وهما يعلمان ذلك، فلم يبق إلا أن تعلق الكفر بالعمل بالسحر، واعتقاد صحته.

وأما الثالث: فقد قال أصحابنا: لا حقيقة للسحر وإنما هو تمويهات، ويبعد أن يكون القول بأن له حقيقة قولا لمحقق، ولأنه يؤدي إلى إطال المعجزات، وأن يلتبس فعل الله بفعلهم، وقد فصل في ذلك الشيخ أو بكر الرازي وغيره، فقالوا: السحر على وجوه خمسة منها: سحر بابل، وكانوا يعبدون الكواكب،

[49] التهذيب في التفسير ج1 ص 525

فيزعمون أنها حية فعالة، وطائفة منهم عملوا أوثانا على أسماء الكواكب السبعة، وتقربوا إليها بضروب من القربان، فمن أراد خيرا تقرب إلى المشتري، ومن أراد شرا تقرب إلى زحل، ومن أرادا غرقا أو حرقا تقرب إلى المريخ، ونحو ذلك، ويزعمون أن عند ذلك تفعل الكواكب ما شاؤوا من قل الأعيان، وتغيير الصور، ونحوها، فتجعل الإنسان كلبا، وتقطع مسافة بعيدة في مدة قريبة، فيعتقدون في الكواكب أنها تقدر على قلب الأعيان والصور والنفع والضرر، وهذا فاسد، لأنها جماد، ولأنها محدثة، قد ثبت حدوثها، ولأنها جسم، وكل ذلك يدل على أنها لا تقدر على هذه الأشياء.

ومنها: سحر آل فرعون، فإنهم الحيل يخيلون ما ليس بحي أنه حي، كما قال تعالى: {يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى} ومن هذا القبيل، من يدعي أنه يذبح عصفورا ثم يحييه، ويخزق ثوبا ثم يصححه، وهذا نوع من خفة اليد والشعبذة.

ومنه: ما يدعيه بعضهم من طاعة الجن والشياطين له، وأنه يتوصل إلى ما يريده بالعزائم، كما يعتقده كثير من الجهال، فيعتقد أنه يفعل مثل تلك الأفاعيل ويعلم الغيب؛ لأن الجن تخبره.

ومنهم ما يدعيه بعضهم بالتوصل إلى الأمور بالنميمة والتضريب، وأصناف الكلام.

ومنها: ما يتوصل إلى تمريض وإماتة بالأدوية والأطعمة التي يطعمها، أو يبخر بها فيصل الدخان إلى دماغه كالسموم أو نحوها، وقد أجرى الله العادة بإحداث أمور عند إطعامه، وأدوية من مرض وصحة وإماتة، وذلك من فعله تعالى لا فعل الساحر، وجميع ما يدعون مخاريق وتمويهات، ولا يقدرون على شيء من ذلك ولو قدروا لأبطلوا أمر النبيين، ولقتلوا المؤمنين مع دة عداوتهم لهم، فأما ما ترويه الحشوية أن اكرأة أتت عائشة، وقالت: إنيساحرة فهل لي من توبة؟ فقالت ما سحرك؟ قالت: صرت إلى بابل هاروت وماروت أطلب السحر، فقالا: يا أمة الله لا تختاري عذاب الله، اتقي الله، فأبيت فقالا: اذهبي بولي على ذلك الرماد، فذهبت وعدت، ولما أفعل، وقلت: فعلت، فقالا: فهل رأيت شيئا؟ قلت : لا، قالا: أنت على رأس أمرك لم تفعلي شيئا، اتقي الله، فأبيت حتى فعلت مرتين ثم بلت في الثالثة على الرماد فرأيت فارسا مقنعا في حديد يخرج من فرجي ، فعدت إليهما فأخبرتهما بما رأيت، فقالا: ذلك إيمانك، وقد تعلمت السحر، وما تريدين شيئا كان، فصورت في نفسي حبا من حنطة، فإذا أنا به فقلت ليزرع فخرج من ساعته سنبلة، فقلت: تطحن وتخبز، فصار خبزا، فكنت لا أريد شيئا إلا

كان، فقالت عائشة رضي الله عنها: ليست لك توبة. ورووا أكثر من هذا، قالوا: سُحِرَ النبي صلى الله عليه وآله وسلم فمرض، وقالوا: وقال: (إنه ليخيل إلي أن أقول الشيء وأفعله، ولم أقله ولم أفعله) وهذا كله أباطيل وترهات، لا تجوز على الله ولا على رسوله؛ لأنه يبطل المعجزات بل يبطل الطريق إلى إثبات الصانع، إذ لو جاز ذلك لجاز أن يقال: إن ساحرا خلق السموات والأرض، وهذا كفر ممن يُجَوِّزُه.

فأما حديث بنات لبيد بن أعصم، فيجوز أن يكونوا اعتقدوا السحر حقيقة، فاطلع الله تعالى نبيه عليه حتى يعلموا أنه ليس بشيء، وتدل على معجزة له.

فأما الرابع: فالذي هو كفر فوجهان: الأول: تجويز الاختراع والتصوير وعلم الغيب وما لا يقدر عليه إلا الله تعالى، لأنه يبطل الطريق إلى إثبات الصانع. والثاني: تجويز ما جرى مجرى المعجزات، لأن معه لا يتمكن من معرفة النبوءات، وما عدا هذين ففسق يوجب التعزير، وليس بكفر.

فمثال الأول: أن يجوز من احدهم تغيير الصور، وأخذ الدراهم من الهواء ونحوها، ولا فرق بين أن يجوز فعله من الساحر، أو من النجوم، أو من الجن، فإن جميع ذلك كفر.

ومثال الثاني: أن يجوز أن يطير بغير جناح، ويقطع المسافة البعيدة في مدة قريبة، ومن هذا القبيل سحر آل فرعون، وذلك كفر لما ذكرنا.

ومثال الثالث: ما هو من جنس التضريب والنميمة، وسقي الأدوية والسموم، لأنذلك يؤدي إلى إبطال الفضل، ولا يقدح في معجزة ، وقد نبه الله تعالى على الوجهين حيث أشار في بعضه إلى الكفر وفي بعضه إلى أنه ضرر وتفريق بين الزوجين.

فأما الفصل الخامس: فكل سحر هو كفر ففيه القتل، لأن حكمه حكم المرتد[50]، وما ليس بكفر فهو فسق، ففيه التعزير.

فإن قيل: فقد روي عن الصحابة ما يدل على أن كل سحر كفر وأن كل ساحر يقتل؟

---

[50] وعندي هذا لا يصح، أي لا يقتل لا هو ولا المرتد.

*** قلت: وهذا الكلام ظاهر البطلان، لا يخلو من أن يكون مؤمنا أو كافرا أو منافقا أو فاسقا، فإن كان مؤمنا فإن الله تعالى يقول: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحاً، وإن كان كافرا فإنه يقول: قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ ما قَدْ سَلَفَ، وإن كان منافقا فإنه يقول: إِنَّ الْمُنافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيراً إِلَّا الَّذِينَ تابُوا، وكذا في حال المرتد لا يقتل، والأصح اظهار خرافاتهم واباطيلهم للعامة وفضح جهلهم بالحجة، وتقبل توبتهم، في حال المرتد ينصح الاطلاع على كتاب شيخنا حسن فرحان المالكي حرية الاعتقاد في الاسلام فهو اكمل كتاب في هذا الباب.**

قلنا: أما إكفارهم لكل ساحر فلا يقتل فيه، وقتلهم للساحر محمول على أنهم عرفوا من سحره ما يوجب قتله، ومعلوم أن بالتضريب وسقي السم لايستحق القتل وإنما فيه التعزير والحبس على ما يراه الإمام.

وأما الفصل السادس: فقيل: إنه يقتل، ولا يستتاب، ولا تقبل توبته*؛ لأن مع كفره جمع السعي في الأرض بالفساد، إلا أن تكون توبته قل القدرة، فتقبل كحكم الساعي في الأرض بالفساد، وهذا قول أبي حنيفة وأصحابه رضي الله عنهم، وقيل: لا تقبل توبته أصلا، ويقتل بمنزلة الزنديق، لأن كفره يثبت سرا، ولا يوثق بتوبته، وهذا قول مالك، وذكر الشيخ أو بكر رحمه الله عن مالك أن ساحر أهل الكتاب لا يقتل إلا أن يضر بالمسلمين، فيقتل لنقض العهد. وقيل تختلف حاله، فإن كان سحره كفرا فهو كالمرتد، وإن كان احتيالا فهو كالجاني، فإن قتل بجنايته اجري عليه أحكام القتل من قود أو دية، وهذا قول الشافعي، ومن أصحابه من يقول للسحر حقيقة، فلابد أن يحمل على التفصيل الذي ذكرناه.[51]

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿۞ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ ۗ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٦﴾﴾ البقرة: ١٠٦

قال شيخنا أبو مسلم الأصفهاني:

الوجه الأول: إن المراد من الآيات المنسوخة هي الشرائع التي في الكتب القديمة من التوراة والإنجيل كالسبت والصلاة إلى المشرق والمغرب مما وضعه الله تعالى عنا وتعبدنا بغيره، فإن اليهود والنصارى كانوا يقولون: لا تؤمنوا إلا لمن اتبع دينكم، فأبطل الله عليهم ذلك بهذه الآية.

الوجه الثاني: المراد من النسخ نقله من اللوح المحفوظ وتحويله عنه إلى سائر الكتب وهو كما يقال: نسخت الكتاب.

---

[51] التهذيب في التفسير ج1 ص 526

الوجه الثالث: أنا بينا أن هذه الآية لا تدل على وقوع النسخ بل على أنه لو وقع النسخ لوقع خير منه[52].

قال شيخنا الحاكم الجشمي: (مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَة) قيل: في الكلام حذف ؛ لأن الآية لا تنسخ، فإما أن تريد حكم آية أو تلاوة آية، أو حفظ آية، واختلفوا في معنى.

(أَوْ نُنْسِهَا) نأمر بترك العمل بها كالذي يقرأ وينسخ حكمه. وتقديره: ما نسخناه بالكتاب، وأمرنا بتركه، ولم ننسخ بالكتاب، عن الأصم.

(نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا) في الصلاح ومثلها (أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) قيل: خطاب للرسول، والمراد جميع المكلفين.

تدل الآية على جواز النسخ في القرآن، وحمله على غيره عدول عن الظاهر.....واتفقوا على نسخ القرآن بالقرآن إلا أبو مسلم أبى ذلك، واختلفوا في نسخ الكتاب بالسنة، أو السنة بالكتاب.....[53] *

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾﴾ البقرة: ١٣٤

قال شيخنا الزمخشري: تِلْكَ إشارة إلى الأمّة المذكورة التي هي إبراهيم ويعقوب وبنوهما الموحدون. والمعنى: أنّ أحداً لا ينفعه كسب غيره متقدّماً كان أو متأخراً، فكما أن أولئك لا ينفعهم إلا ما اكتسبوا، فكذلك أنتم لا ينفعكم إلا ما اكتسبتم. وذلك أنهم افتخروا بأوائلهم. ونحوه قول رسول اللَّه

---

[52] تفسير أبي مسلم الأصفهاني ص 45

[53] التهذيب في التفسير ج1 ص 540/539

* أما أبو مسلم فهو على حق في انكاره للنسخ، وغلط من قال به من شيوخنا وغيرهم، ألا أن شيخنا أبي مسلم لم يصب في التأويل وقال المراد هو ما في الكتب السماوية، والحق عندي هو أن المقصودة من كلمة آية في هذه الآية الكريمة هي معجزة و سياق الآية القرآنية يقول هذا، ففي آخر الآية قال تعالى: أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ فذيل الآية بالقدرة و هذا دليل آخر أن المقصود بالآية هي المعجزات النبوة و دلالات الخالق فهي تحتاج قدرة أي فعل و ليس آية تتلى و الآية التي بعدها {أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ} وهنا يتضح المعنى أكثر أن المقصود بالآية المعجزة و ليس النص القرآني،قال تعالى: أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ، يعني أن الله يخاطب المنافقين أو اليهود بحكم أن السورة مدنية و ليست مكية فمستبعد أن يكون خطابا لكفار قريش، فالمقصود من قوله مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أو نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا: ما ننسخ من معجزة نأت بخير منها أم ننسها و قد تكون هناك معجزات نبي أقوى تأثيرا في النفس من معجزات أخرى، {وَمَا نُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ} ، ثم قال أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ فذيل الآية بالقدرة على عليها و هو القدير طبعا سبحانه و تعالى.

صلى اللَّه عليه وسلم: ((يا بنى هاشم، لا يأتينى الناس بأعمالهم وتأتونى بأنسابكم)) وَلا تُسْئَلُونَ عَمَّا كانُوا يَعْمَلُونَ ولا تؤاخذون بسيئاتهم كما لا تنفعكم حسناتهم.[54]

قال شيخنا الحاكم الجشمي: (تِلْكَ أُمَّةٌ) : أي جماعة، والخطاب لليهود والنصارى*، لأن الإحتجاج بذكرهم إنما يصح على المعترف بهم، والمراد بالأمة إبراهيم وأولاده، وهم جماعة قد مضت (لَهَا مَا كَسَبَتْ) أي ما عملت من طاعة أو معصية، ولكم يا معشر اليهود والنصارى ما عملتم من طاعة ومعصية، (وَلَا تُسْأَلُونَ) عن أعمالهم، أي لا تجزون بها ولا تسألون عنها.

والآية تدل على أن كل أحد يؤخذ بكسبه، ولا يؤخذ بكسب غيره، فيبطل قول المجبرة في أطفال المشركين، وقولهم تحمل ذنوب المسلمين على الكفار، وتدل على بطلان التقليد، وتدل على أن طاعة الآباء لا تنفع الأولاد وكذالك ينبغي على كل مكلف ألا يتكل على غيره في دينه وأعماله.[55]

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٤﴾﴾

البقرة: ١٥٤

قال شيخنا الحاكم الجشمي: (وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ) :أي في الجهاد، (أَمْوَاتٌ) : يعني هم أموات، (بَلْ) : هم، (أَحْيَاءٌ) : قيل: فيه عدة أقوال:

الأول: أنهم أحياء لا في المستقبل كأنهم نشروا في قبورهم وأثيبوا، عن ابن عبّاس والحسن وقتادة ومجاهد وأبي علي وأي بكر والقاضي.

الثاني: ولا تقولوا: هم أموات في الدين، بل هم أحياء، خلاف ما يقوله المشركون، (وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ) أيها المشركون أن من قتل على دين محمد فهو على هدى من ربه، عن الأصم، ومثله: (أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ).

---

[54] الكشاف ج1 ص 194

* قلت: ومن الممكن أن الآية عامة.

[55] التهذيب في التفسير ج1 ص 603

الثالث: ولا تقولوا: إنهم لا ينشرون ولا ينتفعون بما لقوا، بل اعلموا أنهم أحياء أو يستحيون ويثابون، عن أبي القاسم وأبي مسلم. (وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ) يعني الكفار لا يعلمون ذلك.[56]

عن الكعبي وأبي مسلم أيضا: أن المشركين كانوا يقولون: إن أصحاب محمد صلى الله عليه وآله وسلم يقتلون أنفسهم ويخسرون حياتهم فيخرجون من الدنيا بلا فائدة ويضيعون أعمارهم إلى غير شيء، وهؤلاء الذين قالوا ذلك يحتمل أنهم كانوا دهرية ينكرون المعاد، ويحتمل أنهم كانوا مؤمنين بالمعاد إلا أنهم كانوا منكرين لنبوة محمد صلى الله عليه وسلم، لذلك قالوا هذا الكلام، فقال الله تعالى ولا تقولوا كما قال المشركون إنهم أموات، لا يبشرون ولا ينتفعون بما تحملوا من الشدائد في الدنيا، ولكن اعلموا أنهم أحياء، أي سيحيون ويثابون وينعمون في الجنة، وتفسير قوله: (أَحْيَاءٌ) بأنهم سيحيون غير بعيد، قال تعالى: (إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ (13) وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ (14))، وقال: (أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا) وقال: (إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ)، وقال: (فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ)، على معنى أنهم سيصيرون كذلك.[57]

فصل الكلام في عذاب القبر

قال ابو الحسن: سألت أبا علي عن عذاب القبر فقال: سألت الشحّام فقال: ما منّا احد انكره، وانما يحكى ذلك عن ضرار [58]

وذكر قاضي القضاة رحمه الله تعالى : أنه لم يعرف معتزليا نفى عذاب القبر ، لا من متقدميهم ولا من متأخريهم ، قال : وإنما نفاه ضرار بن عمرو ، ولمخالطته لاصحابنا وأخذه عن شيوخنا ، ما نسب قوله إليهم .[59]

56 التهذيب في التفسير ج1 ص 606
57 تفسير أبي مسلم الأصفهاني ص 52
58 طبقات المعتزلة لابن المرتضى ص 72
59 شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ج1 ص 198

واعلم أن لقاضي القضاة في كتاب طبقات المعتزلة في باب (القبر وسؤال منكر ونكير) كلاما أنا أورد هاهنا بعضه ، قال رحمه الله تعالى : إن عذاب القبر إنما أنكره ضرار بن عمرو ، ولما كان ضرار من أصحاب واصل بن عطاء ، ظن كثير من الناس أن ذلك مما أنكرته المعتزلة ، وليس الامر كذلك ، بل المعتزلة رجلان : أحدهما يجوز عذاب القبر ، ولا يقطع به ، وهم الاقلون ، والاخر يقطع على ذلك ، وهم أكثر أصحابنا لظهور الاخبار الواردة فيه ، وإنما تنكر المعتزلة قول طائفة من الجهلة إنهم يعذبون وهم موتى ، لان العقل يمنع من ذلك ، وإذا كان الانسان مع قرب العهد بموتة ، ولما يدفن يعلمون أنه لا يسمع ولا يبصر ولا يدرك ، ولا يألم ولا يلتذ ، فكيف يجوز عليه ذلك وهو ميت في قبره ! وما روى من أن الموتى يسمعون لا يصح إلا أن يراد به أن الله تعالى أحياهم ، وقوى حاسة سمعهم ، فسمعوا وهم أحياء .

قال رحمه الله تعالى : وأنكر أيضا مشايخنا أن يكون عذاب القبر دائما في كل حال لان الاخبار إنما وردت بذلك في الجملة ، فالذي يقال به هو قدر ما تقتضيه الاخبار دون ما زاد عليه مما لا دليل عليه ، ولذلك لسنا نوقت في التعذيب وقتا ، وإن كان الاقرب في الاخبار أنها الاوقات المقارنة للدفن ، وإن كان لا نعنيها بأعيانها .

هكذا قال قاضى القضاة ، والذى أعرفه أنا من مذهب كثير من شيوخنا قبل قاضى القضاة أن الاغلب أن يكون عذاب القبر بين النفختين .[60]

ولم ينكره ضرار فقط ولم ينكره ضرار فقط (وهو ليس معتزلي) بل أنكره أيضا بشر بن المريسي ويحي بن كامل[61]، وزعم شيوخنا وغيرهم أن الأخبار المروية حول عذاب القبر ونعيمه ومنكر ونكير هي أخبار متواترة، وهذا كلام لا يصح، أما معتزلة زماننا فهي بين من يثبته على نهج شيوخنا رضي الله عنهم، ومنهم من يخالفهم وينكره، والكلام الأخير هو الأوجه، وهو الذي أقول به،وهو إنكار عذاب القبر ونعيمه ما قيل فيه، وقد أنكره شيخ المعتزلة المعاصرة واحث الفكر الاعتزالي العلاّمة أمين نايف ذياب قدّس الله سره، حيث كان يرى أن عذاب القبر فكر يهودي ولا علاقة له بالإسلام، وقال: لا بد من الاعتراف بأنّ فكر أهل الحديث ، يجعل عذاب القبر معتقداً يـجب الإيمان به ، وأنه واقع لا

[60] شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ج6 ص 274 / إقرأ أيضا فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة ص 167
[61] البحر الزخار الجامع لمذاهب علماء الأمصار ج1 ص 182

محالة ، وأنه يقع في الحفرة التي اسمها القبر ، وأنه وقوعٌ حسي ، يجعلون كل ذلك جزءاً من اعتقادهم اعتماداً على أحاديث مرفوعة إلى الرسول ـ صلوات الله عليه ، ويرون صحة هذا الرفع ، ويأتون بالآيات وهي آيات لم تصرح بعذاب القبر أبداً ، بل لم تلمح إليه ، ويديرون تفسيرها كما يريدون ، ويجعلونـها تعضد المضامين التي ذكرتـها الأحاديث في عذاب القبر .

مع كل هذا التأكيد على موضوع عذاب القبر ، فإنَّ هناك إجماعاً تقريباً على عدم تكفير من ينكر هذه الأحاديث ، ويراها موضوعة على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولا يحكمون بتبديع من أولـها تأويلاً مقبولاً ، أو قال : إنَّـها ـ وإن كانت أحاديث صحيحة حسب السند ـ إلاَّ إنَّـها تفيد الظن ، ولا تفيد الجزم ، والعقائد والمطالب الإيمانية عند أكثرية المسلمين لا يجوز بناؤها على الظن ، فهذه الأحاديث بالتالي ليست من الإيمان الإسلامي ، وإنما هي مجرد مسلّمات ، قد تصح ، وقد لا تصح .

ذلك هو القول الفصل والحاسم في أمر أحاديث عذاب القبر ، رغم ورودها في الكتب المعتبرة من كتب الحديث ، وهذه الحقيقة معلومة ومعروفة ، يعلمها ويعرفها كل من له أدنى عناية بما يُسمى (حشو المعتقدات) ، مثل : عذاب القبر ، وتأثير الجن والسحر على الحقيقة في الحياة الإنسانية ، ومثل ذلك تفصيلات قبض الروح ، أو تفصيلات البعث والنشور ، وكيفية الحساب وأهوال يوم القيامة ، وتفصيلات الإسراء والمعراج بعد الإيمان به على الجملة ، فكل ذلك هو (حشو معتقدات) قال بـها بعض المسلمين ورفضها أو أولها البعض الآخر .[62]

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۗ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾ ﴾ البقرة: ١٧٠

قال شيخنا الزمخشري: (لَهُمُ) الضمير للناس. وعدل بالخطاب عنهم على طريقة الالتفات للنداء على ضلالهم، لأنه لا ضال أضل من المقلد، كأنه يقول للعقلاء: انظروا إلى هؤلاء الحمقى ماذا يقولون. قيل: هم المشركون. وقيل: هم طائفة من اليهود دعاهم رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم إلى الإسلام

[62] رسائل جدل الأفكار – رسالة حول عذاب القبر بين الاثبات والإنكار، للاطلاع حول رأي شيخ المعتزلة المعاصرة حول الموضوع يرجي الرجوع إليها.

فقالوا: (بَلْ نَتَّبِعُ ما أَلْفَيْنا عَلَيْهِ آباءَنا) فإنهم كانوا خيرا منا وأعلم. وألفينا: بمعنى وجدنا، بدليل قوله: (بَلْ نَتَّبِعُ ما وَجَدْنا عَلَيْهِ آباءَنا * أَوَلَوْ كانَ آباؤُهُمْ...) الواو للحال، والهمزة بمعنى الردّ والتعجيب، معناه: أيتبعونهم ولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا من الدين ولا يهتدون للصواب.[63]

قال شيخنا الحاكم الجشمي: (وإِذَا قِيلَ لَهُمُ) اختلفوا في الضمير في قوله: (لَهُمُ) على ثلاثة أقوال: فقيل: يعود على مَنْ في قوله: (مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَندَادًا) وهم مشركو العرب وقد سبق ذكرهم، وقيل: على الناس في قوله: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ) فعدل عن المخاطبة إلى المعاينة للتصرف في الكلام، كقوله تعالى: (حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ) وقيل: يعود على الكفار من اليهود وغيرهم، وقد جرى ذكرهم، والضمير قد يعود على المعلوم كما يعود على المذكور، والقائل النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمون (اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّه) قيل: القرآن وشرائع الإسلام، وقيل: في التحريم والتحليل (قَالُوا) يعني الكفار (بَلْ نتبعُ مَا أَلْفَينَا) وجدنا (عَلَيهِ آبَاءَنَا) من عبادة الأصنام، فالخطاب للمشركين، وقيل: في التمسك باليهودية فيكون خطابًا لليهود. وقيل: من تحريم الحرث والأنعام (أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ شَيئًا) أي لا يعلمون شيئًا من أمور الدين (وَلاَ يَهْتَدُونَ) أي لا يصيبون طريقة الحق، واختلفوا في وصفهم بذلك، فقيل: هو على النفي، عن أبي علي، أي لا ينظرون ولا يعلمون ما لزمهم معرفته. وقيل: هو على جهة الذم، كما يقال: فلان أعمى القلب، عن أبي القاسم.

ويقال: كيف الاحتجاج بهذا عليهم؟

قلنا: معناه أكنتم تتبعونهم وإن ظهر لكم أنهم لا يعقلون شيئًا من أمور الدين ولا يهتدون إلى الحق أم كنتم تنصرفون عن اتباعهم إن وجب الانصراف؟ فوجب في الاتباع أن يعلم أولاً أنهم على حق أم لا فيجب إذًا اتباع الدليل دون هَؤُلَاءِ.

ويقال: في قوله: (لاَ يَعْقِلُونَ) هو عام.

قلنا: لا، بل المراد به الخصوص، يعني لا يعقلون من أمر الدين شيئًا، ولا يهتدون إلى حق.[64]

---

[63] الكشّاف ج1 ص 213

[64] التهذيب في التفسير ج ص 706/705

وقال: تدل الآية على بطلان التقليد؛ لأنه ليس بطريق إلى المعرفة؛ إذ ليس تقليد بعضهم أولى من بعض.

وتدل على جواز النظر والحجاج في الدين، لأن قوله (اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ) أولا، ثم قوله: (أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ) طريقة للحجاج، نبه بذلك على أن المعتبر الحجة دون إتباع الأشخاص.

وتدل على بطلاق قول أصحاب المعارف لأنه يدل على أنهم كانوا على ضلال في الاعتقاد، عن أبي علي.[65]

قَالَ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ فِي ٱلۡقَتۡلَىۖ ٱلۡحُرُّ بِٱلۡحُرِّ وَٱلۡعَبۡدُ بِٱلۡعَبۡدِ وَٱلۡأُنثَىٰ بِٱلۡأُنثَىٰۚ فَمَنۡ عُفِيَ لَهُۥ مِنۡ أَخِيهِ شَيۡءٞ فَٱتِّبَاعُۢ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيۡهِ بِإِحۡسَٰنٖۗ ذَٰلِكَ تَخۡفِيفٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَرَحۡمَةٞۗ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٞ ١٧٨﴾ البقرة: ١٧٨

قال الحاكم الجشمي: (كُتِبَ عَلَيْكُمُ) : فُرِضَ عليكم، (الْقِصَاصُ) : يعني المساواة، فيفعل بالقاتل كما فعل بالمقتول.[66]

قَالَ الْمَاوَرْدِيُّ: دِيَةُ الْمَرْأَةِ فِي نَفْسِهَا عَلَى النِّصْفِ مِنْ دِيَةِ الرَّجُلِ وَهُوَ قَوْلُ الْجُمْهُورِ، وَقَالَ الْأَصَمُّ وَابْنُ عُلَيَّةَ دِيَتُهَا كَدِيَةِ الرَّجُلِ لِأَمْرَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: أَنَّ تَسَاوِيَهُمَا فِي الْقِصَاصِ يُوجِبُ تَسَاوِيَهُمَا فِي الدِّيَةِ.

وَالثَّانِي: أَنَّ اسْتِوَاءَ الْغُرَّةِ فِي الْجَنِينِ الذَّكَرِ وَالْأُنْثَى يُوجِبُ تَسَاوِيَ الدِّيَةِ فِي الرَّجُلِ والمرأة، لأن الغرة أحد الدِّيَتَيْنِ.[67]

قَالَ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ١٨٣﴾ البقرة: ١٨٣

---

[65] التهذيب في التفسير ج1 ص 706

[66] التهذيب في التفسير ج1 ص 733 / **مختصرا بتصرف، اجتنابا للإطالة وذكر كلام الفقهاء، فمن أراد التوسع في تفسير الآية يرجع للمصدر.**

[67] الحاوي الكبير للماوردي ج12 ص 289

قال الحاكم الجشمي: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ): فُرِضَ عليكم، (الصِّيَامُ) : وهو العبادة المعروفة في الشرع، (كَمَا كُتِبَ) : فُرِضَ[68]، (عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ) : أنه شبه فرض صومنا بفرض صوم من تقدمنا من الأمم أي كتب عليكم صيام أيام كما كتب عليهم صيام أيام و ليس فيه تشبيه عدد الصوم المفروض علينا و لا وقته بعدد الصوم المفروض عليهم أو وقته و هو اختيار أبي مسلم و الجبائي[69]، وقال ابراهيم بن سيّار النظّام (متهكما) : وجعلوا الدليل على أنّ شهر رمضان قد كان فرضا على جميع الأمم وأنّ الناس غيّروه، قوله تعالى (كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيامُ كَما كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ)[70] *، (لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ) : أي لكي تتقوا المعاصي بفعل الصوم عن الجبائي[71].

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ ۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۚ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ ۖ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ ۚ وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٤﴾﴾ البقرة: ١٨٤

(أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ) : المعني بالمعدودات: شهر رمضان عن الجبائي و أبو مسلم[72]، (وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ) : الذين يطيقون الفدية، عن الحسن والأصم وأبي مسلم، وهذا لا يصح ؛ لأنه لم يجر له ذكر ، ولأن الإضمار مذكر[73].

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ۚ وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٤٥﴾﴾ البقرة: ٢٤٥

---

68 التهذيب في التفسير ج1 ص 756

69 تفسير مجمع البيان ج2 ص 3

70 الحيوان ج1 ص 228

*** الآية صريحة فلا أعرف سبب اعتراض النظّام هنا، ولا ندري ماذا فسّرها، إلا أن يكون قاصدا أنه كتب على اهل الكتاب فقط من قبل وليس كل الأمم، وأظن أن له رأي كتفسير الجبائي : انه كتب عليكم صيام أيام، كما كتب عليهم صيام أيام، ناقضا تفسير الشعبي والحسن: انه فرض علينا شهر رمضان كما فرض شهر رمضان على النصارى. وإنما زادوا فيه وحو لوه إلى زمان الربيع.**

71 تفسير مجمع البيان ج2 ص 3

72 تفسير مجمع البيان ج2 ص 6

73 التهذيب في التفسير ج1 ص 762

قال شيخنا الحاكم الجشمي: (مَنْ ذَا الَّذِي): هو استفهام والمراد الأمر والترغيب، (يُقْرِضُ اللَّهَ) : أي ينفق في سبيله وطاعته، وليس هذا القرض حاجة، وإنما هو مجاز وتوسع، عن أبي علي، (وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ) : قيل : يمسك، ويضيق على من شاء، ويوسع على من شاء في الرزق، بحسب المصالح، عن الحسن، أبي علي، أبي مسلم، وقيل: يقبض الصداقات بالقبول، ويبسط الجزاء عليها عاجلا وآجلا، عن الأصم[74]*.

قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَاۚ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ٢٥٥﴾

البقرة: ٢٥٥

قال شيخنا الحاكم الجشمي: (اللَّه) قيل: من تحق له العبادة لقدرته على أصول النعم، وقيل: مَنْ يفزع إليه الخلق، وقيل: من يتحير الخلق في كنه عظمته (لاَ إِلَهَ إِلَّا هُوَ) أي لا أحد يستحق الإلهية، وتحق العبادة له غيره (الْحَيُّ) يعني على الصفة التي بها يدرك المدركات، وبها يصح أن يعلم ويقدر (الْقَيُّومُ) القائم بتدبير خلقه عن قتادة، وقيل: العالم بالأمور من قولهم: فلان يقوم بهذا الكتاب أي هو عالم به، وقيل: معناه الدائم الوجود، عن سعيد بن جبير والضحاك، وقيل: القائم على كل نفس بما كسبت حتى يجازيها من حيث هو عالم بها، عن الحسن (لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ) يعني نعاس وهو ابتداء النوم، ولا نوم ثقيل مزيل للقوة، وقيل: معناه لا يغفل عن الخلق كما يقال للغافل: أنت نائم، وإنك لوَسْنانُ. (لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ) ملكًا وخلقًا (مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ) هو

---
[74] التهذيب في التفسير ج2 ص 975
* وتفسير الأصم هو الراجح عندي والله أعلم.

استفهام، والمراد المبالغة في النفي يعني لا يشفع يوم القيامة أحد إلا بإذنه أي بأمره (يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ) قيل: ما بين أيديهم: ما مضى من الدنيا، وما خلفهم: من الآخرة، عن مجاهد وابن جريج والسدي، وقيل: ما بين أيديهم من الآخرة؛ لأنهم يقدمون عليها، وما خلفهم من الدنيا؛ لأنهم خلفوها وراء ظهورهم، عن الضحاك، وقيل: ما مضى أمامهم وما يكون بعدهم، عن ابن جريج، وقيل: ما فعلوه من خير أو شر وما هم فاعلوه، وقيل: خلفهم: بعد وفاتهم، عن أبي مسلم (وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ) أي معلومه كما يقال: اللَّهم اغفر علمك فينا أي معلومك، والإحاطة بالشيء علمًا أن يعلمه على الحقيقة كما هي (إِلَّا بِمَا شَاءَ) يعني ما شاء أن يعلمهم ويطلعهم عليه (وَسِعَ) أي ملأ وأحاط (كُرْسِيُّهُ) يعني كرسيه أوسع من السماوات والأرض، عن أبي مسلم، واختلفوا في الكرسي فقيل: علمه، عن ابن عباس ومجاهد، ومنه الكراسة لما كتب فيها من العلم، ويسمى العلماء كراسي، وقيل: الكرسي العرش، عن الحسن، وقيل: سرير دون العرش، وقيل: أصله ملكه وسلطانه وقدرته، والعرب تسمي الملك القديم كرسيًّا، ويسمى أصل كل شيء الكِرْس (وَلاَ يَئُودُهُ) لا يثقله ولا يشق عليه، والهاء تعود على اسم اللَّه تعالى، وقيل: على الكرسي. (حِفْظُهُمَا) يعني حفظ السماوات والأرض (وَهُوَ الْعَلِيُّ) قيل: العلي بالاقتدار ونفوذ السلطان، وقيل: العلي على الأشباه والأنداد (الْعَظِيمُ) يعني عظيم الشأن قادر لا يعجزه شيء، عالم لا يخفى عليه شيء، موجود دائم البقاء، واحد لا ثاني له.[75]

وقال: تدل الآية على جميع ما يختص به القديم تعالى من الصفات الموجبة لتعظيمه وعبادته، فيدخل فيه جميع صفاته إما تصريحا أو تشبيها.

فقوله (الله) يدل أن العبادة تحق له لكونه قادرا على أصول النعم وفعله ذلك.

و (لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ) يدل على التوحيد، ويدل على كونه حي مدرك للمدركات، سميع بصي، ولا يكون كذلك إلا وهو موجود قديم.

ويدل القيوم على دوامه، والقيام بتدبير خلقه.

75 التهذيب في التفسير ج2 ص 1000/999/998

و (لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ) يدل على أنه ليس بجسم، ولا تجوز عليه الآفات، وتدل على أنه خلق السموات والأرض وملكهما، ولا يكون كذلك إلا وهو مختص بالقدرة على خلق الأجسام وكثير من الأعراض.

و (يَعْلَمُ) يدل على كونه عالما.

ويدل قوله: (يَئُودُهُ) أنه ليس بجسم. ويدل (مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ) على أن الشفاعة داخل تدبيره، ولا تقع إلا بحسب إذنه.

و (الْعَظِيمُ) يدل على عظم شأنه في كونه قادرا عالما ملكا، فيدخل (ينظر) جميع مسائل التوحيد والعدل في هذه الآية، وتدخل النبوات والشرائع ضمنا، لأنه مما يجب عليه.[76] وقال في تفسير (وَسِعَ كُرْسِيُّهُ) : (وَسِعَ) : أي ملأ وأحاط، (كُرْسِيُّهُ) : قيل علمه، عن ابن عباس ومجاهد، ومنه الكراسة لما كتب فيها من العلم، ويسمى العلماء كراسي[77]، وقيل: أصله ملكه وسلطانه وقدرته، والعرب تسمي الملك القديم كرسياً[78].

قال قاضي القضاة: وإن سأل فقال : وقد ذكر ما يدل على أنه جسم ، فقال : (وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ) وذلك يدل على أنه يستوى عليه ، وإلا لم يكن لإضافته إليه معنى؟!

وجوابه : أن ظاهر الآية يدل على أن الكرسى بهذه الصفة ، فأما أنه تعالى يستوى عليه ، أو يكون مكانا له فليس له فى الآية ذكر. والإضافة قد تكون على وجوه ، فلا ظاهر له يصح تعلقهم به. ألا ترى أنه يقال : إحسانه ، بمعنى الفعلية ، ويقال : لونه بمعنى الصفة ، ويقال : رأسه ويده ، إذا كان بعضا له. ويقال : داره وبيته ، وقد صح بالإطباق أن يقال فى الكعبة : إنها بيت الله ، لا لأنه يسكنها ، تعالى الله

---

[76] التهذيب في التفسير ج2 ص 1000

[77] **قال الشاعر:**

تحف بهم بيض الوجوه وعصبة /// كراسي بالاحداث حين تنوب

أي علماء بحوادث الامور.

وقال آخر:

نحن الكراسي ما تعد هوازن /// أفعالنا في النائبات ولا أسد

وقال آخر:

مالي بأمرك كرسي كاتمه /// وهل بكرسي علم الغيب مخلوق

[78] التهذيب في التفسير ج2 ص 1000/999

عن ذلك ، لكن لمزية لها فى باب العبادة الراجعة إلى العباد. وكذلك (5) القول فى الكرسى : إن إضافته إليه تعالى ، هو لما بيناه ، لا لما ذهبوا إليه.[79]

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ٢٥٦﴾ البقرة: ٢٥٦

قال شيخنا الحاكم الجشمي: (لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ) فيه عدة أقوال: قيل: هو في أهل الكتاب خاصة، ومن يؤخذ منهم الجزية، عن الحسن وقتادة والضحاك، وقيل: هو في جميع الكفار ونسخت بآية السيف في (براءة)، عن السدي وابن زيد، وقيل: لا تقولوا لمن دخل في الدين بعد الحرب: إنه دخل مكرهًا؛ لأنه إذا رضي بعد الحرب وصح إسلامه فليس بمكره، عن الزجاج، ومعناه لا تنسبوا إِلَيَّ الإكراه، وقيل: إنها نزلت في قوم خاص من الأنصار كانوا يهودًا فأريد إكراههم على الإسلام على ما ذكرنا، عن ابن عباس وسعيد بن جبير، وقيل: لا إكراه في الدين بعد إسلام العرب؛ لأن العرب كانوا لا يقبل منهم إلا الإسلام أو السيف، فلما أسلموا نزل (لا إكراه في الدين)، عن قتادة وعطاء والواقدي، وقيل: معناه ليس في الدين ما يكرهه أهله، وإنما يكرهه المنافق، عن الأصم وحمله على الكراهة يعني ليس شيء منه ينبغي أن يُكْرَهَ، وقيل: ليس في الدين إكراه من اللَّه تعالى، ولكن العبد مخير فيه؟ (فِي الدِّينِ) قيل: دين الإسلام، وقيل: دين الحق ودين اللَّه (قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ) أي الكفر من الإيمان، والحق من الباطل بالحجج الدالة عقلاً وسمعًا، والمعجزات التي ظهرت على النبي صلى الله عليه وسلم، وقيل: قد ظهر بما إذا تمسك به صار راشدًا، وإذا تركه صار في الغي، وهو الخيبة والحرمان (فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ) فيه عدة أقوال:

الأول: هو الشيطان، عن عمر ومجاهد وقتادة.

والثاني: الكاهن، عن سعيد بن جبير.

والثالث: الساحر، عن أبي العالية.

---

[79] متشابه القرآن للقاضي عبد الجبّار ص 133/132

الرابع: الأصنام.

الخامس: مَرَدَة الإنس والجن وكل من يطغى.

(وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ) أي يصدق ما جاء من عنده، ويعمل به (فَقَدِ اسْتَمْسَكَ) استعصم (بِالْعُرْوَةِ الْوُثقَى) بالعصمة الوثيقة وهو الإيمان بِاللَّهِ ورسله، عن مجاهد "لاَ انفِصَامَ لَهَا" أي لا انقطاع عن السدي وجماعة يعني كما لا ينقطع مَنْ تمسك بالعروة لا ينقطع أمر مَنْ تمسك بالإسلام (وَاللَّهُ سميعٌ) لأقوالكم (عَلِيمٌ) بضمائركم.[80]

فِي تَأْوِيلِ الْآيَةِ وُجُوهٌ أَحَدُهَا: وَهُوَ قَوْلُ أَبِي مُسْلِمٍ وَالْقَفَّالِ وَهُوَ الْأَلْيَقُ بِأُصُولِ الْمُعْتَزِلَةِ: مَعْنَاهُ أَنَّهُ تَعَالَى مَا بَنَى أَمْرَ الْإِيمَانِ عَلَى الْإِجْبَارِ وَالْقَسْرِ، وَإِنَّمَا بَنَاهُ عَلَى التَّمَكُّنِ وَالِاخْتِيَارِ، ثُمَّ احْتَجَّ الْقَفَّالُ عَلَى أَنَّ هَذَا هُوَ الْمُرَادُ بِأَنَّهُ تَعَالَى لَمَّا بَيَّنَ دَلَائِلَ التَّوْحِيدِ بَيَانًا شَافِيًا قَاطِعًا لِلْعُذْرِ، قَالَ بَعْدَ ذَلِكَ: إِنَّهُ لَمْ يَبْقَ بَعْدَ إِيضَاحِ هَذِهِ الدَّلَائِلِ لِلْكَافِرِ عُذْرٌ فِي الْإِقَامَةِ عَلَى الْكُفْرِ إِلَّا أَنْ يُقْسَرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَيُجْبَرَ عَلَيْهِ، وَذَلِكَ مِمَّا لَا يَجُوزُ فِي دَارِ الدُّنْيَا الَّتِي هِيَ دَارُ الِابْتِلَاءِ، إِذْ فِي الْقَهْرِ وَالْإِكْرَاهِ عَلَى الدِّينِ بُطْلَانُ مَعْنَى الِابْتِلَاءِ وَالِامْتِحَانِ، وَنَظِيرُ هَذَا قَوْلُهُ تَعَالَى: (فَمَنْ شاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شاءَ فَلْيَكْفُرْ) [الْكَهْفِ: 29] وَقَالَ فِي سُورَةٍ أُخْرَى (وَلَوْ شاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ) [الشعراء: 3، 4] وَقَالَ فِي سُورَةِ الشُّعَرَاءِ (لَعَلَّكَ باخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ، إِنْ نَشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّماءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْناقُهُمْ لَها خاضِعِينَ) وَمِمَّا يُؤَكِّدُ هَذَا/ الْقَوْلَ أَنَّهُ تَعَالَى قَالَ بَعْدَ هَذِهِ الْآيَةِ (قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ) يَعْنِي ظَهَرَتِ الدَّلَائِلُ، وَوَضَحَتِ الْبَيِّنَاتُ، وَلَمْ يَبْقَ بَعْدَهَا إِلَّا طَرِيقُ الْقَسْرِ وَالْإِلْجَاءِ وَالْإِكْرَاهِ، وَذَلِكَ غَيْرُ جَائِزٍ لِأَنَّهُ يُنَافِي التَّكْلِيفَ فَهَذَا تَقْرِيرُ هَذَا التَّأْوِيلِ.[81] *

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِيۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًاۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ٢٦٠﴾ البقرة: ٢٦٠

[80] التهذيب في التفسير ج 2 ص 1004/1003/1002

[81] مفاتيح الغيب : التفسير الكبير، الفخر الرازي ج7 ص 15

* وهذه الآية من أوضح الآيات في حرية الاختيار وعدم قتل المرتد، ولعل شيخنا أبي مسلم جنح لهذا القول لأنه ينكر النسخ والله أعلم.

قال شيخنا القاضي عد الجبّار: قالوا : ثم ذكر تعالى بعده ما يدل على أن الأنبياء صلوات الله عليهم يجوز عليهم الكفر والجهل بالله ، فقال تعالى : (وَإِذْ قالَ إِبْراهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتى قالَ : أَوَلَمْ تُؤْمِنْ) إلى آخر الآية [260].

والجواب عن ذلك : أن طلبه من الله تعالى أن يريه عيانا من غير تدريج ، أن يحيي الموتى ، لا يدل على أنه لم يؤمن ولم يعرف ربه ، لكنه أراد بذلك الازدياد من الإيمان ، فهو بمنزلة أن يطلب منه تعالى شرح الصدر بالألطاف والتأييد ، وهذا مما يحسن طلبه ، وقد بينا من القول فى باب الدعاء ما يغنى عن الإعادة.

وقوله تعالى : (قالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ؟ قالَ : بَلى) يدل على بطلان ما سألوا عنه ، وعلى أن المراد ما قلناه ، ولمشاهدة إحياء الموتى على طريقة التدريج المعتاد ، فى باب الدلالة ، ضرب من الظهور والكشف لا يمتنع لأجله أن يطلب الرسول من الله تعالى أن يفعله ليزداد طمأنينة قلب وشرح صدر.[82]

قال شيخنا الزمخشري: فإن قلت: كيف قال له أَوَلَمْ تُؤْمِنْ وقد علم أنه أثبت الناس إيمانا ؟
قلت: ليجيب بما أجاب به لما فيه من الفائدة الجليلة للسامعين. وبَلى إيجاب لما بعد النفي، معناه بلى آمنت (وَلكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي) ليزيد سكونا وطمأنينة بمضامة علم الضرورة علم الاستدلال وتظاهر الأدلة أسكن للقلوب وأزيد للبصيرة واليقين، ولأن علم الاستدلال يجوز معه التشكيك بخلاف العلم الضروري، فأراد بطمأنينة القلب العلم الذي لا مجال فيه للتشكيك. فإن قلت: بم تعلقت اللام في: (لِيَطْمَئِنَّ) ؟ قلت: بمحذوف تقديره: ولكن سألت ذلك إرادة طمأنينة القلب فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ قيل طاوسا وديكا وغرابا وحمامة فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ) بضم الصاد وكسرها بمعنى فأملهنّ واضممهنّ إليك.[83]

أما شيخنا أبي مسلم فقد أنكر شيخنا أن المراد من الآية تقطيع تلك الطيور وقتلها مخالفا جمهور المفسرين، وَقَالَ: إِنَّ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمَّا طَلَبَ إِحْيَاءَ الْمَيِّتِ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى أَرَاهُ اللَّهُ تَعَالَى مِثَالًا قَرَّبَ بِهِ الْأَمْرَ عَلَيْهِ، وَالْمُرَادُ بِصُرْهُنَّ إِلَيْكَ الْإِمَالَةُ وَالتَّمْرِينُ عَلَى الْإِجَابَةِ، أَيْ فَعَوِّدَ الطُّيُورَ الْأَرْبَعَةَ أَنْ

---

82 متشابه القرآن للقاضي عبد الجبّار ص 136/135
83 الكشّاف ج1 ص 309/308

تَصِيرَ بِحَيْثُ إِذَا دَعَوْتَهَا أَجَابَتْكَ وَأَتَتْكَ، فَإِذَا صَارَتْ كَذَلِكَ، فَاجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ وَاحِدًا حَالَ حَيَاتِهِ، ثُمَّ ادْعُهُنَّ/ يَأْتِينَكَ سَعْيًا، وَالْغَرَضُ مِنْهُ ذِكْرُ مِثَالٍ مَحْسُوسٍ فِي عَوْدِ الْأَرْوَاحِ إِلَى الْأَجْسَادِ عَلَى سَبِيلِ السُّهُولَةِ وَأَنْكَرَ الْقَوْلَ بِأَنَّ الْمُرَادَ مِنْهُ: فَقَطِّعْهُنَّ. وَاحْتَجَّ على بِوُجُوهٍ الْأَوَّلُ: أَنَّ الْمَشْهُورَ فِي اللُّغَةِ فِي قَوْلِهِ فَصُرْهُنَّ أَمِلْهُنَّ وَأَمَّا التَّقْطِيعُ وَالذَّبْحُ فَلَيْسَ فِي الْآيَةِ مَا يَدُلُّ عَلَيْهِ، فَكَانَ إِدْرَاجُهُ فِي الْآيَةِ إِلْحَاقًا لِزِيَادَةٍ بِالْآيَةِ لَمْ يَدُلَّ الدَّلِيلُ عَلَيْهَا وَأَنَّهُ لَا يَجُوزُ وَالثَّانِي: أَنَّهُ لَوْ كَانَ الْمُرَادُ بِصُرْهُنَّ قَطِّعْهُنَّ لَمْ يَقُلْ إليك، فَإِنَّ ذَلِكَ لَا يَتَعَدَّى بِإِلَى وَإِنَّمَا يَتَعَدَّى بِهَذَا الْحَرْفِ إِذَا كَانَ بِمَعْنَى الْإِمَالَةِ.[84]

قَالَ تَعَالَى: ﴿ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِي يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ مِنَ ٱلۡمَسِّۚ....﴿٢٧٥﴾﴾ البقرة: ٢٧٥ *

قال شيخنا الزمخشري: (إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ): إِلَّا كما يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطانُ أى المصروع. وتخبط الشيطان من زعمات العرب، يزعمون أن الشيطان يخبط الإنسان فيصرع.

والخبط الضرب على غير استواء كخبط العشواء، فورد على ما كانوا يعتقدون. والمس: الجنون. ورجل ممسوس، وهذا أيضاً من زعماتهم، وأن الجنيَّ يمسه فيختلط عقله، وكذلك جن الرجل: معناه ضربته الجنّ، ورأيتهم لهم في الجن قصص وأخبار وعجائب، وإنكار ذلك عندهم كإنكار المشاهدات. فإن قلت: بم يتعلق قوله مِنَ الْمَسِّ؟ قلت: بلا يقومون، أى لا يقومون من المسّ الذي بهم إلا كما يقوم المصروع. ويجوز أن يتعلق بيقوم، أى كما يقوم المصروع من جنونه. والمعنى أنهم يقومون يوم القيامة مخبلين كالمصروعين، تلك سيماهم يعرفون بها عند أهل الموقف. وقيل الذين يخرجون من الأجداث يوفضون، إلا أكلة الربا فإنهم ينهضون ويسقطون كالمصروعين، لأنهم أكلوا الربا فأرباه اللَّه في بطونهم حتى أثقلهم، فلا يقدرون على الإيفاض ذلِكَ العقاب بسبب قولهم إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبا.[85]

---

* اجتزأنا الآية، لأن المراد هو رأي المعتزلة في المس.

[84] مفاتيح الغيب : التفسير الكبير، الفخر الرازي ج7 ص 38/37

[85] تاكشاف ج1 ص 320

قَالَ الْجُبَّائِيُّ: النَّاس يَقُولُونَ الْمَصْرُوعُ إِنَّمَا حَدَثَتْ بِهِ تِلْكَ الْحَالَةُ لِأَنَّ الشَّيْطَانَ يَمَسُّهُ وَيَصْرَعُهُ وَهَذَا بَاطِلٌ، لِأَنَّ الشَّيْطَانَ ضَعِيفٌ لَا يَقْدِرُ عَلَى صَرْعِ النَّاسِ وَقَتْلِهِمْ وَيَدُلُّ عَلَيْهِ وُجُوهٌ:

أَحَدُهَا: قَوْلُهُ تَعَالَى حِكَايَةً عَنِ الشَّيْطَانِ (ما كانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي) [إِبْرَاهِيمَ: 22] وَهَذَا صَرِيحٌ فِي أَنَّهُ لَيْسَ لِلشَّيْطَانِ قُدْرَةٌ عَلَى الصَّرْعِ وَالْقَتْلِ وَالْإِيذَاءِ وَالثَّانِي: الشَّيْطَانُ إِمَّا أَنْ يُقَالَ: إِنَّهُ كَثِيفُ الْجِسْمِ، أَوْ يُقَالُ: إِنَّهُ مِنَ الْأَجْسَامِ اللَّطِيفَةِ، فَإِنْ كَانَ الْأَوَّلَ وَجَبَ أَنْ يُرَى وَيُشَاهَدَ، إِذْ لَوْ جَازَ فِيهِ أَنْ يَكُونَ كَثِيفًا وَيَحْضُرَ ثُمَّ لَا يُرَى لَجَازَ أَنْ يَكُونَ بِحَضْرَتِنَا شُمُوسٌ وَرُعُودٌ وَبُرُوقٌ وَجِبَالٌ وَنَحْنُ لَا نَرَاهَا، وَذَلِكَ جَهَالَةٌ عَظِيمَةٌ، وَلِأَنَّهُ لَوْ كَانَ جِسْمًا كَثِيفًا فَكَيْفَ يُمْكِنُهُ أَنْ يَدْخُلَ فِي بَاطِنِ بَدَنِ الْإِنْسَانِ، وَأَمَّا إِنْ كَانَ جِسْمًا لَطِيفًا كَالْهَوَاءِ، فَمِثْلُ هَذَا يَمْتَنِعُ/ أَنْ يَكُونَ فِيهِ صَلَابَةٌ وَقُوَّةٌ، فَيَمْتَنِعُ أَنْ يَكُونَ قَادِرًا عَلَى أَنْ يَصْرَعَ الْإِنْسَانَ وَيَقْتُلَهُ الثَّالِثُ: لَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَقْدِرُ عَلَى أَنْ يَصْرَعَ وَيَقْتُلَ لَصَحَّ أَنْ يَفْعَلَ مِثْلَ مُعْجِزَاتِ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وَذَلِكَ يَجُرُّ إِلَى الطَّعْنِ فِي النُّبُوَّةِ الرَّابِعُ: أَنَّ الشَّيْطَانَ لَوْ قَدَرَ عَلَى ذَلِكَ فَلِمَ لَا يَصْرَعُ جَمِيعَ الْمُؤْمِنِينَ وَلِمَ لَا يَخْبِطُهُمْ مَعَ شِدَّةِ عَدَاوَتِهِ لِأَهْلِ الْإِيمَانِ، وَلِمَ لَا يَغْصِبُ أَمْوَالَهُمْ، وَيُفْسِدُ أَحْوَالَهُمْ، وَيُفْشِي أَسْرَارَهُمْ، وَيُزِيلُ عُقُولَهُمْ؟ وَكُلُّ ذَلِكَ ظَاهِرُ الْفَسَادِ...[86]، عند أبي علي الجبائي لاحقيقة على وجه التشبيه بحال من تغلب عليه المرة السوداء، فتضعف نفسه ويلج الشيطان بأغوائه عليه فيقع عند تلك الحال ويحصل به الصراع من فعل الله. ونسب إلى الشيطان مجازا لما كان عند وسوسته. وكان أبوالهذيل وابن الاخشاد يجيزان أن يكون الصراع من فعل الشيطان في بعض الناس دون بعض قالا. لان الظاهر من القران يشهد به، وليس في العقل ما يمنع منه وقال الجبائي: لايجوز ذلك، لان الشيطان خلق ضعيف لم يقدره الله على كيد البشر بالقتل والتخبيط ولو قوي على ذلك لقتل المؤمنين الصالحين والداعين إلى الخير، لانهم أعداؤه، ومن أشد الاشياء عليه.[87]

طرفة

قال التنوخي: سمعت جماعة من أصحابنا، يقولون: من بركة المعتزلة، انّ صبيانهم لا يخافون الجنّ.

---

86 مفاتيح الغيب : التفسير الكبير، الفخر الرازي ج7 ص 75

87 التبيان في تفسير القرآن للطوسي ج2 ص 359

وقد حكي لنا: أنّ لصّا حصل في دار معتزليّ، فأحسّ به، فطلبه، فنزل إلى بئر في الدار.

فأخذ الرجل حجرا عظيما ليدليه عليه، فخاف اللص التلف.

فقال له: الليل لنا والنهار لكم، يوهمه أنّه من الجنّ.

فقال له المعتزليّ: [فزن معي نصف الأجرة ، ورمى بالحجر فهشمه.

فقال له: متى يأمن أهلك من الجنّ؟ فقال المعتزلي] : دع ذا عنك واخرج.

فخرج وخلّاه.[88]



قَالَ تَعَالَى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦۖ وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٧﴾ آل عمران: ٧

قال شيخنا الحاكم الجشمي: (هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ) : يا محمد، والكتاب: القرآن، (مِنْهُ) : من الكتاب: (آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ) (وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ) : قيل: المحكم ما أحكم المراد به، فيستغني عن البيان لوضوحه، والمتشابه ما يحتاج البيان لاشتباه المراد، عن ابي علي: المحكم ما لا يحتمل الا وجها واحدا كقوله: (الله لا إله إلا هو)، والمتشابه ما يحتمل وجوها، كالاستواؤ والوجه واليد ونحوه.[89] *

[88] نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة للقاض التنوخي ج2 ص 342
[89] التهذيب في التفسير ج2 ص 1099

قَالَ الْأَصَمُّ: الْمُحْكَمُ هُوَ الَّذِي يَكُونُ دَلِيلُهُ وَاضِحًا لَائِحًا، مِثْلَ مَا أَخْبَرَ اللَّهُ تَعَالَى بِهِ مِنْ إنشاء الخلق في قوله تعالى: (ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً) [الْمُؤْمِنُونَ: 14] وَقَوْلِهِ (وَجَعَلْنا مِنَ الْماءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ) [الْأَنْبِيَاءِ: 30] وَقَوْلِهِ (وَأَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَراتِ رِزْقاً لَكُمْ) [الْبَقَرَةِ: 22] وَالْمُتَشَابِهُ مَا يُحْتَاجُ فِي مَعْرِفَتِهِ إِلَى التَّدَبُّرِ وَالتَّأَمُّلِ نَحْوَ الْحُكْمِ بِأَنَّهُ تَعَالَى يَبْعَثُهُمْ بَعْدَ أَنْ صَارُوا تُرَابًا وَلَوْ تَأَمَّلُوا لَصَارَ الْمُتَشَابِهُ عِنْدَهُمْ مُحْكَمًا لِأَنَّ مَنْ قدر على الإنشاء أو لا قَدَرَ عَلَى الْإِعَادَةِ ثَانِيًا.[90]

قال شيخنا الزمخشري: (الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ) هم أهل البدع فَيَتَّبِعُونَ ما تَشابَهَ مِنْهُ فيتعلقون بالمتشابه الذي يحتمل ما يذهب إليه المبتدع مما لا يطابق المحكم ويحتمل ما يطابقه من قول أهل الحق ابْتِغاءَ الْفِتْنَةِ طلب أن يفتنوا الناس عن دينهم ويضلوهم (وَابْتِغاءَ تَأْوِيلِهِ) وطلب أن يأوّلوه التأويل الذي يشتهونه (وَما يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ) أى لا يهتدى إلى تأويله الحق الذي يجب أن يحمل عليه إلا اللَّه وعباده الذين رسخوا في العلم، أى ثبتوا فيه وتمكنوا وعضوا فيه بضرس قاطع. ومنهم من يقف على قوله إلا اللَّه، ويبتدئ والراسخون في العلم يقولون.

ويفسرون المتشابه بما استأثر اللَّه بعلمه، وبمعرفة الحكمة فيه من آياته، كعدد الزبانية ونحوه: والأوّل هو الوجه. ويقولون: كلام مستأنف موضح لحال الراسخين بمعنى هؤلاء العالمون بالتأويل (يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ) أى بالمتشابه (كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنا) أى كل واحد منه ومن المحكم من عنده، أو بالكتاب كل من متشابهه ومحكمه من عند اللَّه الحكيم الذي لا يتناقض كلامه ولا يختلف كتابه (وَما يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُوا الْأَلْبابِ) مدح للراسخين بإلقاء الذهن وحسن التأمّل. ويجوز أن يكون (يَقُولُونَ) حالا من الراسخين. وقرأ عبد اللَّه: إن تأويله إلا عند اللَّه. وقرأ أبىّ: ويقول الراسخون.[91]

قال قاضي القضاة: إن سأل سائل فقال : أتقولون إن المحكم من القرآن له مزية على المتشابه فيما يدل عليه أو لا مزية له؟

---

* وتفسير أبي علي قاله غيره أيضا وانما خصصنا بنقله هو فقط وذلك لموضوع الكتاب.

90 تفسير الرازي / مفاتيح الغيب ج7 ص 140

91 الكشاف للزمخشري ج1 ص 339

فإن قلتم : إنهما سواء فذلك خلاف الإجماع ؛ لأن الأمة تقول إن المحكم أصل للمتشابه وإن له من الحظ ما ليس للمتشابه ، وكتاب الله عز وجل قد نطق بذلك فى قوله : (هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتابَ مِنْهُ آياتٌ مُحْكَماتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتابِ).

وإن قلتم : إنه يدل على وجه لا يدل عليه المتشابه ، نقضتم الأصل الذى قدمتم الآن. لأنكم ذكرتم أن جميع كلامه تعالى سواء فى أنه إنما يدل ، بعد أن يعرف عز وجل أنه حكيم ، وإذا كان الأمر كذلك فما الفائدة فى الفصل بين المحكم والمتشابه؟ وهلا دلّكم ذلك على فساد هذا الأصل!!

قيل له : إن الذى تقوله فى هذا الباب لا ينقض ما ذكرناه من الأصل ، ولا يخرج عن الإجماع والكتاب ، وذلك أن المحكم كالمتشابه من وجه ، وهو يخالفه من وجه آخر :

فأما الوجه الذى يتفقان فيه فما قدمنا من أن الاستدلال بهما أجمع لا يمكن إلا بعد معرفة حكمة الفاعل وأنه لا يجوز أن يختار القبيح ، لأن الوجه الذى له قلنا ذلك ، لا يميز المحكم من المتشابه ، كما أن خطابه صلّى الله عليه وسلم لما لم يمكن أن تعلم صحته إلا بالمعجز ولم يميز ذلك بين المحتمل من كلامه وبين المحكم منه ، حلاّ محلا واحدا فى هذا الباب.

وأما الوجه الذى يختلفان فيه ، فهو أن المحكم إذا كان فى موضوع اللغة أو لمضامّة القرينة ، لا يحتمل إلا الوجه الواحد ، فمتى سمعه من عرف طريقة الخطاب وعلم القرائن أمكنه أن يستدل فى الحال على ما يدل عليه. وليس كذلك المتشابه ، لأنه وإن كان من العلماء باللغة ويحمل القرائن، فإنه يحتاج عند سماعه إلى فكر مبتدأ ونظر مجدّد ليحمله على الوجه الذى يطابق المحكم أو دليل العقل.

ويبين صحة ذلك أنه عز وجل بين فى المحكم أنه أصل للمتشابه ، فلا بد أن يكون العلم بالمحكم أسبق ليصح جعله أصلا له ، ولا يتم ذلك إلا على ما قلناه.

فأما إذا كان المحكم والمتشابه واردين فى التوحيد والعدل فلا بد من بنائهما على أدلة العقول ، لأنه لا يصح ممن لم يعلم أنه جل وعز واحد حكيم لا يختار فعل القبيح ، أن يستدل على أنه جل وعز بهذه الصفة بكلامه.

فالمحكم فى هذا الوجه كالمتشابه ، وإنما يختلفان فى طريقة أخرى ، وهى أن المخالفين فى التوحيد والعدل يمكن أن نحاجهم بذكر المحكم ونبين مخالفتهم لما أقروا بصحته فى الجملة ، ويبعد ذلك فى

المتشابه ، فلذلك نجد كتب مشايخنا رحمهمالله مشحونة « بذكر هذا الباب ليبينوا أن القوم كما خرجوا عن طريقة العقول ، فكذلك عن الكتاب. فأما أن يمكن أن نبين للجاهل بالله تعالى وبحكمته أن الله عز وجل لا يختار فعل القبيح وأنه لا يشبه الأعراض والأجسام ، والقرآن محكمه ومتشابهه ، فذلك مما لا يصح ؛ على ما قدمنا.

ولهذه الجملة يجب ان يرتب المحكم والمتشابه جميعا على أدلة العقول ، ويحكم بأن ما لا يحتمل إلا ما تقتضيه هذه الجملة يجب أن يثبت محكما ؛ وما احتمل هذا الوجه وخلافه فهو المتشابه ، فأقوى ما يعلم به الفرق بين المحكم والمتشابه ادلة العقول ؛ وإن كان ربما يقوى ذلك بما يتقدم المتشابه أو يتأخر عنه ، لأنه هو الذى يبين أن المراد به ما يقتضيه المحكم ، ومما يبين ذلك أن موضوع اللغة يقتضي أنه لا كلمة فى مواضعتها إلا وهى تحتمل غير ما وضعت له ، فلو لم يرجع إلى أمر لا يحتمل لم يصح التفرقة بين المحكم والمتشابه.[92]

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾﴾ آل عمران: ١٤

قال الزمخشري: (زُيِّنَ لِلنَّاسِ) : المزين هو اللَّه سبحانه وتعالى للابتلاء، كقوله: (إِنَّا جَعَلْنا ما عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَها لِنَبْلُوَهُمْ) ويدل عليه قراءة مجاهد: زين للناس، على تسمية الفاعل. وعن الحسن: الشيطان، واللَّه زينها لهم، لأنا لا نعلم أحداً أذم لها من خالقها حُبُّ الشَّهَواتِ جعل الأعيان التي ذكرها شهوات مبالغة في كونها مشتهاة محروصاً على الاستمتاع بها. والوجه أن يقصد تخسيسها فيسميها شهوات، لأن الشهوة مسترذلة عند الحكماء مذموم من اتبعها شاهد على نفسه بالهيمية.[93]

أَمَّا الْمُعْتَزِلَةُ فَالْقَاضِي نَقَلَ عَنْهُمْ ثلاثة أقوال:

[92] متشابه القرآن للقاضي عبد الجبار ص 8/7/6/5

[93] الكشاف ج1 ص 342

القول الْأَوَّلُ: حُكِيَ عَنِ الْحَسَنِ أَنَّهُ قَالَ: الشَّيْطَانُ زَيَّنَ لَهُمْ، وَكَانَ يَحْلِفُ عَلَى ذَلِكَ بِاللَّهِ، وَاحْتَجَّ الْقَاضِي لَهُمْ بِوُجُوهٍ أَحَدُهَا: أَنَّهُ تَعَالَى أَطْلَقَ حُبَّ الشَّهَوَاتِ، فَيَدْخُلُ فِيهِ الشَّهَوَاتُ الْمُحَرَّمَةُ وَمُزَيِّنُ الشَّهَوَاتِ الْمُحَرَّمَةِ هُوَ الشَّيْطَانُ وَثَانِيهَا: أَنَّهُ تَعَالَى ذَكَرَ الْقَنَاطِيرَ الْمُقَنْطَرَةَ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَحُبُّ هَذَا الْمَالِ الْكَثِيرِ إِلَى هَذَا الْحَدِّ لَا يَلِيقُ إِلَّا بِمَنْ جَعَلَ الدُّنْيَا قِبْلَةَ طَلَبِهِ، وَمُنْتَهَى مَقْصُودِهِ، لِأَنَّ أَهْلَ الْآخِرَةِ يَكْتَفُونَ بِالْغَلَبَةِ وَثَالِثُهَا: قَوْلُهُ تَعَالَى: (ذلِكَ مَتاعُ الْحَياةِ الدُّنْيا) وَلَا شَكَّ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى ذَكَرَ ذَلِكَ فِي مَعْرِضِ الذَّمِّ لِلدُّنْيَا وَالذَّمُّ لِلشَّيْءِ يَمْتَنِعُ أَنْ يَكُونَ مُزَيِّنًا لَهُ وَرَابِعُهَا: قَوْلُهُ بعد هذه الآية (قُلْ أَأُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذلِكُمْ) [آل عمران: 15] وَالْمَقْصُودُ مِنْ هَذَا الْكَلَامِ صَرْفُ الْعَبْدِ عَنِ الدُّنْيَا وَتَقْبِيحُهَا فِي عَيْنِهِ، وَذَلِكَ لَا يَلِيقُ بِمَنْ يُزَيِّنُ الدُّنْيَا فِي عَيْنِهِ.

وَالْقَوْلُ الثَّانِي: قَوْلُ قَوْمٍ آخَرِينَ مِنَ الْمُعْتَزِلَةِ وَهُوَ أَنَّ الْمُزَيِّنَ لِهَذِهِ الْأَشْيَاءِ هُوَ اللَّهُ وَاحْتَجُّوا عَلَيْهِ بِوُجُوهٍ أَحَدُهَا: أَنَّهُ تَعَالَى كَمَا رَغَّبَ فِي منافع الآخر فَقَدْ خَلَقَ مَلَاذَّ الدُّنْيَا وَأَبَاحَهَا لِعَبِيدِهِ، وَإِبَاحَتُهَا لِلْعَبِيدِ تَزْيِينٌ لَهَا، فَإِنَّهُ تَعَالَى إِذَا خَلَقَ الشَّهْوَةَ وَالْمُشْتَهَى، وَخَلَقَ لِلْمُشْتَهِي عِلْمًا بِمَا فِي تَنَاوُلِ الْمُشْتَهَى مِنَ اللَّذَّةِ، ثُمَّ أَبَاحَ لَهُ ذَلِكَ التَّنَاوُلَ كَانَ تَعَالَى مُزَيِّنًا لَهَا وَثَانِيهَا: أَنَّ الِانْتِفَاعَ بِهَذِهِ الْمُشْتَهَيَاتِ وَسَائِلُ إِلَى مَنَافِعِ الْآخِرَةِ، وَاللَّهُ تَعَالَى قَدْ نَدَبَ إِلَيْهَا، فَكَانَ مُزَيِّنًا لَهَا، وَإِنَّمَا قُلْنَا: إِنَّ الِانْتِفَاعَ بِهَا وَسَائِلُ إِلَى ثَوَابِ الْآخِرَةِ لِوُجُوهٍ الْأَوَّلُ: أَنْ يَتَصَدَّقَ بِهَا وَالثَّانِي: أَنْ يَتَقَوَّى بِهَا عَلَى طَاعَةِ اللَّهِ تَعَالَى وَالثَّالِثُ: أَنَّهُ إِذَا انْتَفَعَ بِهَا وَعَلِمَ أَنَّ تِلْكَ الْمَنَافِعَ إِنَّمَا تَيَسَّرَتْ بِتَخْلِيقِ اللَّهِ تَعَالَى وَإِعَانَتِهِ صَارَ ذَلِكَ سَبَبًا لِاشْتِغَالِ الْعَبْدِ بِالشُّكْرِ الْعَظِيمِ، وَلِذَلِكَ كَانَ الصَّاحِبُ ابْنُ عَبَّادٍ يَقُولُ: شُرْبُ الْمَاءِ الْبَارِدِ فِي الصَّيْفِ يَسْتَخْرِجُ الْحَمْدَ مِنْ أَقْصَى الْقَلْبِ وَذَكَرَ شِعْرًا هَذَا مَعْنَاهُ وَالرَّابِعُ: أَنَّ الْقَادِرَ عَلَى التَّمَتُّعِ بِهَذِهِ اللَّذَّاتِ وَالطَّيِّبَاتِ إِذَا تَرَكَهَا وَاشْتَغَلَ بِالْعُبُودِيَّةِ وَتَحَمَّلَ مَا فِيهَا مِنَ الْمَشَقَّةِ كَانَ أَكْثَرَ ثَوَابًا، فَثَبَتَ بِهَذِهِ الْوُجُوهِ أَنَّ الِانْتِفَاعَ بهذه الطيبات وسائل إلى ثواب الآخر وَالْخَامِسُ: قَوْلُهُ تَعَالَى: (هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً) [الْبَقَرَةِ: 29] وَقَالَ: (قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبادِهِ وَالطَّيِّباتِ مِنَ الرِّزْقِ) [الْأَعْرَافِ: 32] وَقَالَ: (إِنَّا جَعَلْنا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَها) [الْكَهْفِ: 7] وَقَالَ: (خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ) [الْأَعْرَافِ:31] وَقَالَ/ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ (وَأَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَراتِ رِزْقاً لَكُمْ) [الْبَقَرَةِ:

22] وَقَالَ (كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلالًا طَيِّباً) [الْبَقَرَة: 168] وَكُلُّ ذَلِكَ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ التَّزْيِينَ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى، وَمِمَّا يُؤَكِّدُ ذَلِكَ قِرَاءَةُ مُجَاهِدٍ زُيِّنَ لِلنَّاسِ عَلَى تَسْمِيَةِ الْفَاعِلِ.

وَالْقَوْلُ الثَّالِثُ: وَهُوَ اخْتِيَارُ أَبِي عَلِيٍّ الْجُبَّائِيِّ وَالْقَاضِي وَهُوَ التَّفْصِيلُ، وَذَلِكَ أَنَّ كُلَّ مَا كَانَ مِنْ هَذَا الْبَابِ وَاجِبًا أَوْ مَنْدُوبًا كَانَ التَّزْيِينُ فِيهِ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى، وَكُلُّ مَا كَانَ حَرَامًا كَانَ التَّزْيِينُ فِيهِ مِنَ الشَّيْطَانِ هَذَا مَا ذَكَرَهُ الْقَاضِي، وَبَقِيَ قِسْمٌ ثَالِثٌ وَهُوَ الْمُبَاحُ الَّذِي لَا يَكُونُ فِي فِعْلِهِ وَلَا فِي تَرْكِهِ ثَوَابٌ وَلَا عِقَابٌ وَالْقَاضِي مَا ذَكَرَ هَذَا الْقِسْمَ، وَكَانَ مِنْ حَقِّهِ أَنْ يَذْكُرَهُ وَيُبَيِّنَ أَنَّ التَّزْيِينَ فِيهِ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى، أَوْ مِنَ الشَّيْطَانِ.[94]

قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقۡتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيۡرِ حَقّٖ وَيَقۡتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡقِسۡطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ٢١ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ٢٢﴾ آل عمران: ٢١ – ٢٢

قال شيخنا الزمخشري: (إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآياتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ .....) الآية : وهم أهل الكتاب. قتل أولوهم الأنبياء وقتلوا أتباعهم وهم راضون بما فعلوا، وكانوا حول قتل رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم والمؤمنين لولا عصمة اللَّه. وعن أبى عبيدة بن الجراح: قلت يا رسول اللَّه، أى الناس أشدّ عذابا يوم القيامة؟ قال: «رجل قتل نبيا أو رجلا أمر بمعروف ونهى عن منكر»[95] [أي: رجل قتل نبيا أو قتل رجلا أمر بمعروف ونهى عن منكر].

قال شيخنا الحاكم الجشمي: تدل الآية على عظم حال من أمر بالمعروف وعظيم ذنب من قتله، وأنه بمنزلة من قتل نبيا لذلك قرنه به.

وتدل على أن الأمر بالمعروف يحسن، وإن خاف القتل؛ لأنه أطلق فيدل على صحة ما يقوله مشايخنا أنه إذا خاف على نفسه ، فالأولى أن يقوم بذلك لما فيه من إعزاز الدين، وقد روى الحسن عن النبي

94 تفسير الارازي الكبير / مفاتيح الغيب ج7 ص 161
95 الكشاف ج1 ص 347

صلى الله عليه وسلم أنه قال: ((أفضل الجهاد كلمة حق عند سلططان جائر يقتل عليه))، وقال عمرو بن عبيد: لايعلم عملا من أعمال البر أفضل من القيام بالقسط يقتل عليه.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾ آل عمران: ٤٥ - ٤٦

قال شيخنا الحاكم الجشمي: (إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ) : أي يخبرك بما يسرك، (بكلمة) : فيه قولان:

أحدهما: أنه المسيح سماه كلمة، عن ابن عباس وقتادة وجماعة من المفسرين.

وثانيها: أنه أراد بالكلمة الكلام، ومعناه البشارة، كأنه قيل: ببشارة (مِنْهُ) ولد اسمه (اسْمُهُ الْمَسِيحُ) واختلفوا لما سمي المسيح كلمة، قيل: لأنه قال له كن فكان فوصفه بأنه كلمة تفخيما، عن أبو الهذيل العلاّف، وقيل: وصف به لقبا؛ إذ لا معنى يشار إليه لأجله وصف بذلك، كغيره من أسمائه، عن النظّام، وهو نحو: زيد وعمرو كما يسمى أو ابراهيم آزر، وقيل: وصف بذلك؛ لأنه تعالى خلق كلمة فقلبها وخلق منها عيسى كما خلق آدم من تراب وبني آدم من نطفة، عن الأصم، وهذا فاسد؛ لأن العَرَضَ لا يجوز أن ينقلب جسما، وقيل: وصف بذلك من حيث تقدم الإخبار عن شأنه والبشارة به، فوصف بأنه كلمة لدلالة الكلام عليه تفخيما لأمره، والكلمة بمعنى الوعد، كقوله (لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ)، عن الجاحظ وأبي مسلم[96]، قال شيخنا الزمخشري: الْمَسِيحُ لقب من الألقاب المشرفة، كالصدّيق والفاروق، وأصله مشيحا بالعبرانية، ومعناه المبارك، كقوله: (وَجَعَلَنِي مُبارَكاً أَيْنَ ما كُنْتُ) وكذلك (عِيسَى) معرب من أيشوع، ومشتقهما من المسح والعيس، كالراقم في الماء.[97]

---

[96] التهذيب في التفسير ج2 ص 1166 / 1167
[97] الكشاف ج1 ص 363

والمهد مضجع الصبي في رضاعه، وكهلا: قيل: الكهولة **40** سنة ، (وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا) : قيل: يكلم في المهد معجزة له وبعدما صار كهلا بالوحي الذي يأتيه من الله على حد واحد، عن أبي مسلم وجماعة.[98]

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴿٥٤﴾﴾ آل عمران: ٥٤

<u>قال شيخنا الحاكم الجشمي</u>: ومكر الله مجازاتهم بالعقوبة، على ذلك سمي جزاء المكر مكراً على مزاوجة الكلام كقوله: (وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا) وقوله: (فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ).[99]

قَالَ تَعَالَى: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾﴾ آل عمران: ٥٥

<u>قال شيخنا الزمخشري</u>: (إِذْ قالَ اللَّهُ) ظرف لخير الماكرين أو لمكر اللّه (إِنِّي مُتَوَفِّيكَ) أى مستوفى أجلك.

معناه: إنى عاصمك من أن يقتلك الكفار ومؤخرك إلى أجل كتبته لك. ومميتك حتف أنفك لا قتيلا بأيديهم (وَرافِعُكَ إِلَيَّ) إلى سمائي ومقرّ ملائكتي (وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا) من سوء جوارهم وخبث صحبتهم. وقيل متوفيك: قابضك من الأرض، من توفيت مالى على فلان إذا استوفيته: وقيل: مميتك في وقتك بعد النزول من السماء ورافعك الآن: وقيل:متوفى نفسك بالنوم من قوله: (وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنامِها) ورافعك وأنت نائم حتى لا يلحقك خوف، وتستيقظ وأنت في السماء آمن مقرب فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ يعلونهم بالحجة وفي أكثر الأحوال بها وبالسيف، ومتبعوه هم المسلمون لأنهم متبعوه في أصل الإسلام وإن اختلفت الشرائع، دون الذين كذبوه وكذبوا عليه من اليهود

---
[98] التهذيب في التفسير ج2 ص 1167
[99] التهذيب في التفسير ج2 ص 1180

والنصارى فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ تفسير الحكم قوله فَأُعَذِّبُهُمْ ...) (فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ) وقرئ فيوفيهم بالياء.[100]

فصل الكلام في عودة المسيح والملحمة (الدجال والمهدي)

إعلم علّمك الله أنه لم ينقل لنا شيء من سلف المعتزلة الأوائل أنهم يقولون بعودة عيسى بن مريم وخروج الدجال أولا يقولون بها، إلا ما قيل عن الجبّائي أنه يقول بخروج الدجال إلا أنه لا يقر بتلك الخوارق، أما المتأخرون كالحاكم الجشمي وغيرهم فهم يقرون بخروجه، والحاكم يقول لا يوجد في العقل ما يمنع ذلك، أي يجوز عقلا، قلت: عجبي من رجل ينكر السحر على حقيقته لأنه يجوز على الله الظلم ويطعن في النبوة ويقول في كتاب تحكيم العقول فيما معناه أنه تعالى لا يجري المعجزات على الكذبة، ثم بعد هذا يجوز خروج الدجال، وهذا تناقض واضح، غفر الله لنا ولهم، فإن قيل: هل من المعتزلة أنكر هذه القصص؟ قيل له: نعم وليس من عوام المعتزلة ل من أبرز شيوخها في هذا العصر، وهو شيخ المعتزلة والباعث الفكر الاعتزالي أمين نايف ذياب قدّس الله سره الشريف، حيث قال مختصرا:

بخصوص الدجال:

(1) الدجال فكرة وهمية خيالية أدخلها الخرافيون للفكر الإسلامي .

(2) الإدعاء بأن الأحاديث المتعلقة بالدجال هي من أقوال الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ كلام دوغمائي ، لا يستند إلا لدعوى صحة السند عند مدعيها .

(3) الترويج لفكرة الدجال وأخواتـها علامات الساعة مقتل للفكر الإسلامي ، بل هي فكرة ضد النبوات كلها .

(4) الفكر المسيحي مصدر فكرة الدجال عند المسلمين ، فالمسيح الكذاب أو الدجال لم يرد إلا في إنجيل ، متى إصحاح (24) عدد (24) ، خلافا لدعوى انه ما من نبي إلا وقد حذر أمته الدجال والمراد من وضع فكرة الدجال إلغاء التبشير بالنبي محمد صلى الله عليه وسلم .

---

[100] الزمخشري ج1 ص 367

بخصوص عودة المسيح:

(1) المجيء الثاني للنبي عبد الله ورسوله عيسى بن مريم ، هي محاولة من رجال الفكر النصراني أثناء عملية تحريفية ؛ لإقناع اليهود بان عيسى بن مريم هو المسيا المنتظر ؛ الذي ينتظره اليهود ، معتمدين على أنَّ كلمة مسيا والكلمة بالعبرية هي [هامشيح] مشابـهة لكلمة المسيح .

(2) الأسطوريون الذين لم يتورعوا عن الكذب ، هم الذين اضافوا هذه الخرافات إلى الفكر الإسلامي عبر مؤسسة علم الحديث .

(3) القرآن الكريم لم يشر تصريحاً او تلميحاً لنـزول عيسى بن مريم .[101]

الكلام حول الأدلة المعتمدة نشرتها في بحث مستقل وكذلك شيخنا نايف، فمن أراد الاطلاع فاليطلع على ما كتبناه.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾ آل عمران: ٨٣

قال قتادة: أسلم المؤمن طوعا، والكافر كرها عند موته، كما قال: (فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا) واختاره البلخي. ومعناه التخويف لهم من التأخر عما هذه سبيله.

قال عامر، والشعبي والزجاج، والجبائي أن معناه: استسلم بالانقياد والذلة، كما قال تعالى: (قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا) أي استسلمنا، ومعناه الاحتجاج به.[102]

قال قاضي القضاة: فان سأل عن قول الله عز وجل : (وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً) فقال : أثبت الإسلام « بهذين الأمرين ، وليس هذا ما تقولون به؟.

---

101 موسوعة جدل الافكار أمين نايف ذياب علامات الساعة ج1

102 التبيان في تفسير القرآن للطوسي ج2 ص 517

فالجواب عن ذلك : أن المراد به الاستسلام والخضوع ، ولم يرد به الإسلام الذى يستحق به الثواب ، وقد بينا أن الإسلام إذا علق به تعالى لم يحمل على الإسلام المطلق ، كما أن الإيمان إذا قيل فيه : إنه بالله وبرسوله ، فهو اللغوى وإن كان إطلاقه يدل على خلافه.

وإنما أراد تعالى بذلك أن أحدا لا يمتنع عليه تعالى فيما يريد إنفاذه فيه.

فأما الإسلام فمتى وقع كرها فإنه لا يستحق به الثواب ، وهو تعالى إنما كلف ذلك تعريضا للمنفعة ، فلا يجوز أن يقع إلا على طريقة الاختيار.[103]

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ إِذۡ تَقُولُ لِلۡمُؤۡمِنِينَ أَلَن يَكۡفِيَكُمۡ أَن يُمِدَّكُمۡ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٖ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ١٢٤ بَلَىٰٓۚ إِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأۡتُوكُم مِّن فَوۡرِهِمۡ هَٰذَا يُمۡدِدۡكُمۡ رَبُّكُم بِخَمۡسَةِ ءَالَٰفٖ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ١٢٥ ﴾ آل عمران: ١٢٤ – ١٢٥

قال شيخنا الحاكم الجشمي: أَجْمَعَ أَهْلُ التَّفْسِيرِ وَالسِّيَرِ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَنْزَلَ الْمَلَائِكَةَ يَوْمَ بَدْرٍ وَأَنَّهُمْ قَاتَلُوا، غير الأصم، فإنه أنكر ذلك أشد الإنكار[104]، واحتج الأصم بحجج منها:

الْحُجَّةُ الْأُولَى: إِنَّ الْمَلَكَ الْوَاحِدَ يَكْفِي فِي إِهْلَاكِ الْأَرْضِ، وَمِنَ الْمَشْهُورِ أَنَّ جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَدْخَلَ جَنَاحَهُ تَحْتَ الْمَدَائِنِ الْأَرْبَعِ لِقَوْمِ لُوطٍ وَبَلَغَ جَنَاحُهُ إِلَى الْأَرْضِ السَّابِعَةِ، ثُمَّ رَفَعَهَا إِلَى السَّمَاءِ وقلب عاليها سَافِلَهَا، فَإِذَا حَضَرَ هُوَ يَوْمَ بَدْرٍ، فَأَيُّ حَاجَةٍ إِلَى مُقَاتَلَةِ النَّاسِ مَعَ الْكُفَّارِ؟ ثُمَّ بِتَقْدِيرِ حُضُورِهِ، فَأَيُّ فَائِدَةٍ فِي إِرْسَالِ سَائِرِ الْمَلَائِكَةِ؟

الْحُجَّةُ الثَّانِيَةُ: أَنَّ أَكَابِرَ الْكُفَّارِ كَانُوا مَشْهُورِينَ وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ مُقَابِلُهُ مِنَ الصَّحَابَةِ مَعْلُومٌ وَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ امْتَنَعَ إِسْنَادُ قَتْلِهِ إِلَى الْمَلَائِكَةِ.

الْحُجَّةُ الثَّالِثَةُ: الْمَلَائِكَةُ لَوْ قَاتَلُوا لَكَانُوا إِمَّا أَنْ يَصِيرُوا بِحَيْثُ يَرَاهُمُ النَّاسُ أَوْ لَا يَرَاهُمُ النَّاسُ فَإِنْ رَآهُمُ النَّاسُ فَإِمَّا أَنْ يُقَالَ إِنَّهُمْ رَأَوْهُمْ فِي صُورَةِ النَّاسِ أَوْ فِي غَيْرِ صُورَةِ النَّاسِ، فَإِنْ كَانَ الْأَوَّلَ فَعَلَى هَذَا

---

[103] متشابه القرآن للقاضي عبد الجبار ص 147
[104] التهذيب في التفسير ج ص 1303/1302

التَّقْدِيرِ صَارَ الْمُشَاهَدُ مِنْ عَسْكَرِ الرَّسُولِ ثَلَاثَةَ آلَافٍ، أَوْ أَكْثَرَ، وَلَمْ يَقُلْ أَحَدٌ بِذَلِكَ، وَلِأَنَّ هَذَا عَلَى خِلَافِ قَوْلِهِ تَعَالَى: {وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ} [الْأَنْفَالِ: 44] وَإِنْ شَاهَدُوهُمْ فِي صُورَةٍ غَيْرِ صُوَرِ النَّاسِ لَزِمَ وُقُوعُ الرُّعْبِ الشَّدِيدِ فِي قُلُوبِ الْخَلْقِ فَإِنَّ مَنْ شَاهَدَ الْجِنَّ لَا شَكَّ أَنَّهُ يَشْتَدُّ فَزَعُهُ وَلَمْ يُنْقَلْ ذَلِكَ أَلْبَتَّةَ.

وَأَمَّا الْقِسْمُ الثَّانِي: وَهُوَ أَنَّ النَّاسَ مَا رَأَوُا الْمَلَائِكَةَ فَعَلَى هَذَا التَّقْدِيرِ: إِذَا حَارَبُوا وَحَزُّوا الرؤوس، وَمَزَّقُوا الْبُطُونَ وَأَسْقَطُوا الْكُفَّارَ عَنِ الْأَفْرَاسِ، فَحِينَئِذٍ النَّاسُ كَانُوا يُشَاهِدُونَ حُصُولَ هَذِهِ الْأَفْعَالِ مَعَ أَنَّهُمْ مَا كَانُوا شَاهَدُوا أَحَدًا مِنَ الْفَاعِلِينَ، وَمِثْلُ هَذَا يَكُونُ مِنْ أَعْظَمِ الْمُعْجِزَاتِ، وَحِينَئِذٍ يَجِبُ أَنْ يَصِيرَ الْجَاحِدُ لِمِثْلِ هَذِهِ الْحَالَةِ كَافِرًا مُتَمَرِّدًا، وَلَمَّا لَمْ يُوجَدْ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ عُرِفَ فَسَادُ هَذَا الْقِسْمِ أَيْضًا.

الْحُجَّةُ الرَّابِعَةُ: أَنَّ هَؤُلَاءِ الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ نَزَلُوا، إِمَّا أَنْ يُقَالَ: إِنَّهُمْ كَانُوا أَجْسَامًا كَثِيفَةً أَوْ لَطِيفَةً، فَإِنْ كَانَ الْأَوَّلَ وَجَبَ أَنْ يَرَاهُمُ الْكُلُّ وَأَنْ تَكُونَ رُؤْيَتُهُمْ كَرُؤْيَةِ غَيْرِهِمْ، وَمَعْلُومٌ أَنَّ الْأَمْرَ مَا كَانَ كَذَلِكَ، وَإِنْ كَانُوا أَجْسَامًا لَطِيفَةً دَقِيقَةً مِثْلَ الْهَوَاءِ لَمْ يَكُنْ فِيهِمْ صَلَابَةٌ وَقُوَّةٌ، وَيَمْتَنِعُ كَوْنُهُمْ رَاكِبِينَ عَلَى الْخُيُولِ وَكُلُّ ذَلِكَ مِمَّا تَرَوْنَهُ.[105]

<u>وقال الحاكم</u> : والذي يبطل قوله القرآن وإجماع الأمة قله وما روي في الآثار والسير حتى دخل حد التواتر..[106] *

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٩﴾﴾ آل عمران: ١٢٩

<u>قال شيخنا الحاكم الجشمي</u>: قيل: يغفر تفضلا، ويعذب استحقاقا، وقيل: هو مجمل وتفسيره في قوله: (إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ) [النساء : 31]، وفي قوله: (وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ) [طه : 82]، فبين من يغفر له ومن لا يغفر له ..[107] *

---

[105] التفسير الكبير للرازي ج 8 ص 352/351

[106] التهذيب في التفسير ج ص 1303

* ولم تبلغ حد التواتر كما زعم شيخنا.

[107] التهذيب في التفسير ج2 1309

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ قَالُواْ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ وَقَعَدُواْ لَوۡ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْۗ قُلۡ فَٱدۡرَءُواْ عَنۡ أَنفُسِكُمُ ٱلۡمَوۡتَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ١٦٨ وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمۡوَٰتَۢاۚ بَلۡ أَحۡيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمۡ يُرۡزَقُونَ ١٦٩﴾ آل عمران: ١٦٨ – ١٦٩

المعنى: ذكر ابن عباس، وابن مسعود، وجابر بن عبدالله عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال لما أصيب أخوانكم بأحد جعل الله أرواحهم في حواصل طير خضر ترد انهار الجنة، وتأكل من ثمارها.

قال البلخي: وهذا ضعيف، لان الارواح جماد لاحياة فيها، ولو كانت حية لاحتاجت إلى أرواح أخر وأدى إلى مالا يتناهى فضعف الخبر من هذا الوجه.

وفي الناس من قال: إن تأويل الآية اخبار عن صفة حال الشهداء في الجنة من حيث فسد القول بالرجعة، وهذا ليس بشئ لانه خلاف الظاهر، ولان أحدا من المؤ منين لايحسب أن الشهداء في الجنة أموات، وأيضا، فقد وصفهم الله بأنهم أحياء فرحون في الحال، لان نصب فرحين هو على الحال.

وقوله: (لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ) يؤكد ذلك، لانهم في الآخرة قد لحقوا بهم، ومعنى الآية النهي عن أن يظن أحد أن المقتولين في سبيل الله أموات. والخطاب للنبي صلى الله عليه وآله، والمراد به جميع المكلفين، كما قال: (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ) وأنه ينبغي أن يعتقد أنهم (أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ) وبهذا قال الحسن، وعمروبن عبيد، وواصل بن عطاء واختاره الجبائي، والرماني، وأكثر المفسرين. وقال بعضهم وذكره الزجاج.

وقال البلخي معناه: لاتحسبنهم كما يقول الكفار أنهم لايبعثون بل يبعثون، وهم (أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ).[108]

وقيل: أحياء في الجنة يوم القيامة عن أبي القاسم وأبي مسلم.[109]

* وهذا رأي كل شيوخ العدلية بوجه الخصوص من المعتزلة والزيدية

108 التبيان ف تفسير القرآن للطوسي ج3 ص 45

109 التهذيب في التفسير ج2 ص 1384

أَنَّ تَفْسِيرَ الْآيَةِ بِأَنَّهُمْ سَيَصِيرُونَ فِي الْآخِرَةِ أَحْيَاءً، قَدْ ذَهَبَ إِلَيْهِ جَمَاعَةٌ مِنْ مُتَكَلِّمِي الْمُعْتَزِلَةِ، مِنْهُمْ أَبُو الْقَاسِمِ الْكَعْبِيُّ قَالَ: وَذَلِكَ لِأَنَّ الْمُنَافِقِينَ الَّذِينَ حَكَى اللَّهُ عَنْهُمْ مَا حَكَى، كَانُوا يَقُولُونَ: أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُعَرِّضُونَ أَنْفُسَهُمْ لِلْقَتْلِ فَيُقْتَلُونَ وَيَخْسَرُونَ الْحَيَاةَ وَلَا يَصِلُونَ إِلَى خَيْرٍ، وَإِنَّمَا كانوا يقولون ذَلِكَ لِجَحْدِهِمُ الْبَعْثَ وَالْمِيعَادَ، فَكَذَّبَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى وَبَيَّنَ بِهَذِهِ الْآيَةِ أَنَّهُمْ يُبْعَثُونَ وَيُرْزَقُونَ وَيُوصَلُ إليهم أنواع الْفَرَحُ وَالسُّرُورُ وَالْبِشَارَةُ.[110] *

وقوله: (عند ربهم) قيل في معناه قولان: أحدهما – أنهم بحيث لايملك لهم أحدنفعا ولاضرا إلا ربهم وليس المراد بذلك قرب المسافة لان ذلك من صفة الاجسام وذلك مستحيل عليه تعالى. والوجه الآخر عند ربهم أحياء من حيث يعلمهم كذلك دون الناس – ذكره أبوعلي –.[111]

قَالَ تَعَالَى: ﴿ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ رَبَّنَا مَا خَلَقۡتَ هَٰذَا بَٰطِلٗا سُبۡحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ١٩١﴾ آل عمران: ١٩١

قال شيخنا الزمخشري: (وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ) فهو يملك أمرهم. وهو على كل شيء قدير، فهو يقدر على عقابهم لَآياتٍ لأدلة واضحة على الصانع وعظيم قدرته وباهر حكمته لِأُولِي الْأَلْبابِ للذين يفتحون بصائرهم للنظر والاستدلال والاعتبار، ولا ينظرون إليها نظر البهائم غافلين عما فيها من عجائب الفطر. وفي النصائح الصغار: املأ عينيك من زينة هذه الكواكب، وأجلهما في جملة هذه العجائب، متفكرا في قدرة مقدّرها، متدبرا حكمة مدبرها، قبل أن يسافر بك القدر، ويحال بينك وبين النظر.[112]

---

110 التفسير الكبي للفخر الرازي ج9 ص 426

* تحت هذا الكلام مباشرة رد الفخر لكلام البلخي وغيره وقال: وَاعْلَمْ أَنَّ هَذَا الْقَوْلَ عِنْدَنَا بَاطِلٌ، ثم ذكر بعض النقاط التي يراها وجوها لنقد كلام البلخي، ويمكن أن يستدل عل كلام الفخروتأيد كلام البلخي بقولنا: قال تعالى: {وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ} [آل عمران : 178] وقوله: {وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ} [آل عمران : 180] وقوله: {وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ} [الأنفال : 59] فه\ه الآيات تدل على أن الع\اب ملاقوه يوم الحساب وكذلك تلك الآية أنهم احياء ويثيبهم الله يوم الحساب.

111 التبيان في تفسير القرآن للطوسي ج3 ص 45

112 الكشاف ج1 ص 452

قال شيخنا الحاكم الجشمي: تدل الآية على وصف المؤمنين بأنهم يذكرون الله بألسنتهم ويتفكرون بقلوبهم، وذلك غاية ما يفعله العبد جميع الأحوال، وفائدة التفكر أشياء:

أحدهما: ما يحصل من معرفة.

وثانيها: ما يعلم من موقع نعمه تعالى عليه في المنافع ودفع المضار.

وثالثها: ما يعلم من ثوابه وعقابه، فيحصل الاقدام على الطاعات ، والانتهاء عن المعاصي.

ورابعها: ما يعلم من الوعد والوعيد والثواب والعقاب وما مضت من المثلات فيكون لطفا فيه.

ويدل قوله تعالى: (رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا) على أن نتيجة التفكر الاعتراف بتوحيد الله وعدله، لأن قوله: (مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا) يدل عليهما.

وتدل على أنه تعالى لم يخلق باطلا، فيبطل قول المجبرة: إنه خلق الكفر ، وكل ذلك باطل.[113]



قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا ﴿٣﴾﴾ النساء: ٣

قال شيخنا الزمخشري: ولما نزلت الآية في اليتامى وما في أكل أموالهم من الحوب الكبير، خاف الأولياء أن يلحقهم الحوب بترك الإقساط في حقوق اليتامى، وأخذوا يتحرّجون من ولايتهم، وكان الرجل منهم ربما كان تحته العشر من الأزواج والثمان والست فلا يقوم بحقوقهنّ ولا يعدل بينهن، فقيل لهم:

113 التهذيب في التفسير ج2 ص 1430

إن خفتم ترك العدل في حقوق اليتامى فتحرّجتم منها، فخافوا أيضاً ترك العدل بين النساء فقالوا عدد المنكوحات، لأنّ من تحرج من ذنب أو تاب عنه وهو مرتكب مثله فهو غير متحرّج ولا تائب، لأنه إنما وجب أن يُتحرج من الذنب ويُتاب عنه لقبحه، والقبح قائم في كل ذنب. وقيل:

كانوا لا يتحرّجون من الزنا وهم يتحرّجون من ولاية اليتامى، فقيل: إن خفتم الجور في حق اليتامى فخافوا الزنا، فانكحوا ما حلّ لكم من النساء، ولا تحوموا حول المحرّمات. وقيل:

كان الرجل يجد اليتيمة لها مال وجمال أو يكون وليها، فيتزوجها ضناً بها عن غيره، فربما اجتمعت عنده عشر منهن، فيخاف – لضعفهن وفقد من يغضب لهن – أن يظلمهنّ حقوقهن ويفرط فيما يجب لهنَّ، فقيل لهم: إن خفتم أن لا تقسطوا في يتامى النساء فانكحوا من غيرهن ما طاب لكم. ويقال للإناث اليتامى كما يقال للذكور، وهو جمع يتيمة على القلب.[114]

قال الحسن: ان خفتم ألاتقسطوا في اليتيمة المرباة في حجركم فانكحوا ما طاب لكم من النساء مما أحل لكم من يتامى قراباتكم مثنى وثلاث ورباع، فان خفتم ألا تعدلوا فواحدة، أو ما ملكت ايمانكم، وبه قال الجبائي وقال: الخطاب متوجه إلى أولياء اليتيمة إذا أراد أن يتزوجها إذاكان هو وليها كان له أن يزوجها قبل البلوغ وله أن يتزوجها.[115]

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَٱبۡتَلُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ فَإِنۡ ءَانَسۡتُم مِّنۡهُمۡ رُشۡدٗا فَٱدۡفَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ أَمۡوَٰلَهُمۡۖ وَلَا تَأۡكُلُوهَآ إِسۡرَافٗا وَبِدَارًا أَن يَكۡبَرُواْۚ وَمَن كَانَ غَنِيّٗا فَلۡيَسۡتَعۡفِفۡۖ وَمَن كَانَ فَقِيرٗا فَلۡيَأۡكُلۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ فَإِذَا دَفَعۡتُمۡ إِلَيۡهِمۡ أَمۡوَٰلَهُمۡ فَأَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِمۡۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبٗا ٦ ﴾ النساء: ٦

قال جمهور سلفنا من المعتزلة جواز الزواج الصغيرة كغيرهم من الأمة إلا شيخنا الأصم أنكر هذا، يرى ابن شبرمة وأبو بكر الأصم وعثمان البتي رحمهم الله أنه لا يزوج الصغير والصغيرة حتى يبلغا، لقوله تعالى: (حتى إذا بلغوا النكاح) [النساء:6/ 4] فلو جاز التزويج قبل البلوغ، لم يكن لهذا فائدة،

114 الكشاف ج1 ص 467
115 البيان في تفسير القرآن ج1 ص 103

ولأنه لا حاجة بهما إلى النكاح. ورأى ابن حزم أنه يجوز تزويج الصغيرة عملاً بالآثار المروية في ذلك. أما تزويج الصغير فباطل حتى يبلغ، وإذا وقع فهو مفسوخ.[116] *

قَالَ تَعَالَى: ﴿ إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾ ﴾ النساء: ٣١

قال شيخنا الحاكم الجشمي: (إِنْ تَجْتَنِبُوا) : تتباعدوا (كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ) : يعني كبائر الذنوب وعظائمها، وقد اختلفت الروايات في الكبائر وكثرت الأقاويل، والأصل فيه أن الذنوب ثلاثة: كفر وله أحكام في الدنيا وأعظم العقوات في الآخرة، فسق وله أحكام وعقاب دون الأول، وصغير ويكون مكفرا، وقد قال تعالى: (وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ) ثم الكبائر يعرف بعضها كالقتل والزنا والربا، وغصب عشرة دراهم ونحوها، ولايعرف بعضها، أما الصغائر فلا يعرف شيء منها؛ إذ لا معصية إلا ويجوز أن تكون كبيرة، لأن في تعريفها إغراء بالمعصية؛ لأنها إذا دعته الشهوة إليه وعلم أنه لا ضرر عليه في فعله، وحد الصغيرة عند مشايخنا البصريين ما نقص عقابه عن ثواب صاحبه، ثم حال العقاب اللازم عليه ينحبط بالاتفاق، وهل ينحبط مثله من ثوابه؟ قال أبو هاشم: بلى على مذهبه في الموازنة، وقال أبو علي: بل يسقط الأقل ويبقى الأكثر بحاله، ومن مشايخنا من يقول: الصغيرة ما يقع سهوا، فأما العمد فكله كبيرة.....[117]

قَالَ تَعَالَى: ﴿ ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُوا۟ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ ۚ فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ ۚ وَٱلَّٰتِى تَخَافُونَ

---

[116] المحلى: 560/ 9، 565 / نقلا عن الفقه الإسلامي وأدلته لوهبة الزحيلي ج9 ص 6682

*** قال الزحيلي: ولم يشترط جمهور الفقهاء لانعقاد الزواج: البلوغ والعقل، وقالوا بصحة زواج الصغير والمجنون. قلت وهذا من زلات الفقهاء**

[117] التهذيب في التفسير ج2 ص 1534/1533

نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا ﴿٣٤﴾ النساء: ٣٤

وجل تفاسير سلفنا من العدلية نفس تفاسير أهل السنة والشيعة، وأجاد شيخنا أبا ياسر، أمين نايف ذياب تفسيرها، حيث قال: لا بد من التذكير بأنَّ المقصود بكلمة الرجال ؛ إنما هم الازواج في هذه الآية ؛ وأنَّ المقصود بكلمة النساء إنما هن الزوجات ، فالموضوع هو دور الرجل في الاسرة ، سواء أكانت الاسرة مؤلفة من الزوجين ؛ أو مؤلفة من الزوجين والاطفال ، والأسرة حالة إجتماعية لـها نظام علاقة ، ولا بد من رأس لهذه العلاقة ، هذه العلاقة ليست شركة ليكون رأسها المدير ، أو إدارة ليكون على رأسها رئيس مجلس الادارة ، هي إدارة من نوع آخر ، وليست دولة أو ولاية ليكون عليها رأس الدولة ؛ أو حاكم الولاية ، وليست أمارة سفر ، ليكون على رأسها أمير السفر ، الاسرة حالة إجتماعية ، يراد منها صفة الديمومة ما أمكن ، وهي دالة على السكن والمودة والرحمة ، وحالة إنجاب أي بناء أسرة ورعاية وتربية للاطفال ، وهي حالة مستمرة كتواصل وصلة رحم ـ حتى مع فراق الابن بعد بلوغه بزواجه ـ أو بلوغ الابنة وزواجها ، هذه الحالة تحتاج الى بيان للادوار في هذه الاسرة ، فالآية آية تشريعية أناطت بالزوج (الرجل) القوامة ، أي الإنفاق وقيادة الرعاية ولأجل تلك القوامة المختصة بالرجل لطبيعة هو عليها ، اقتضى دخوله النشاط الاقتصادي : الزراعة / الصناعة / التجارة / العمل بأجر / وغير ذلك ، ليقدم لهذه الاسرة ناتج عمله للانفاق ، ولا بد من قيادة للانفاق ، أي رسم سياسة للانفاق وسياسة الرعاية ، فإذا طلبت المرأه وضع أولادها في مدرسة خصوصية ، ورأي الزوج خلاف ذلك ، لعدم القدرة المادية أو لأسباب أخرى ، فلا بد من رأي ملزمٍ يُرجع اليه في قيادة هذه الاسرة ، فمفهوم القوامة مفهوم يعمل في رعاية الاسرة وقيادتـها حين الخلاف ، وعدم وجود مثل هذه الآلية يجعل الأمر فوضى ، وقديما قال الشاعر وقوله يدل على حكمته :

لا يصلح الناس فوضى لا سراة لهم　　　ولا سراة إذا جهـالـهـم سـادوا

إنَّ كثيراً من النساء هن اللواتي يباشرن القوامة ، بل إنَّ أكثر الرجال وضعوا أمر القوامة جزئياً او كلياً على النساء ، والاسلام أوجب القوامة على الرجال في الانفاق والرعاية ، ولكن حين الاتفاق لا يتدخل الإسلام في هذه القوامة ، ولا يمنع أنْ تكون القوامة للمرأه .

القوامة ضجةٌ مفتعلة ، ليس لها من مرتكز تستند اليه ، وهي مجرد توزيع صلاحيات حين الاختلاف ، وعند عدم وجود الاختلاف لا يظهر لها وجود ، فعلام هذه الضجة ولمصلحة من هذا النقاش ، الذي لا يعلم له بداية ولا نـهاية ، لانه يسير بلا أسس ولا ضوابط ، إلاَّ القبول بما أسقطه الغرب إسقاطاً متعسفاً لغاية يرجوها ، وهي إننا أطفال نحتاج الى ما نتلهى به ، للبقاء أسارى عدم الوعي على قضايانا الكبرى : الهوية ، وفك التبعية ، والوحدة فإلى متى التلهي !؟.[118]

<u>قال شيخنا الجاحظ</u>: والمرأة أيضاً أرفع حالاً من الرجل في أمور. منها: أنها التي تخطب وتراد، وتعشق وتطلب، وهي التي تفدى وتحمى. قال عنبسة بن سعيد للحجاج بن يوسف: أيفدي الأمير أهله؟ قال: والله إن تعدونني إلا شيطاناً، والله لربما رأيتني أقبل رجل إحداهن![119]

ومما يستدل به على تعظيم شأن النساء أن الرجل يستحلف بالله الذي لا شيء أعظم منه، وبالمشي إلى بيت الله، وبصدقة ماله، وعتق رقيقه. فيسهل ذلك عليه، ولا يأنف منه. فإن استحلف بطلاق امرأته تربد وجهه، وطار الغضب في دماغه، ويمتنع ويعصي، ويغضب ويأبى، وإن كان المحلف سلطاناً مهيباً، ولو لم يكن يحبها، ولا يستكثر منها، وكانت نفسها قبيحة المنظر، دقيقة الحسب، خفيفة الصداق، قليلة النسب، ليس ذلك إلا لما قد عظم الله من شأن الزوجات في صدور الأزواج.[120]

ولسنا نقول ولا يقول أحد ممن يعقل: إن النساء فوق الرجال، أو دونهم بطبقة أو طبقتين، أو بأكثر، ولكنارأينا ناساً يزرون عليهن أشد الزراية، ويحتقرونهن أشد الاحتقار، ويبخسونهن أكثر حقوقهن. وإن من العجز أن يكون الرجل لا يستطيع توفير حقوق الآباء والأعمام إلا بأن ينكر حقوق الأمهات والأخوال، فلذلك ذكرنا جملة ما للنساء من المحاسن.[121]

---

[118] موسوعة جدل الأفكار – قراءة في قضية المرأة
[119] رسائل الجاحظ ج3 ص 146
[120] رسائل الجاحظ ج3 ص 147
[121] رسائل الجاحظ ج3 ص 151

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفۡتَرَىٰٓ إِثۡمًا عَظِيمًا ٤٨﴾ النساء: ٤٨

قال شيخنا الحاكم الجشمي: (إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ) فيه قولان: قيل: لا يغفر الشرك مطلقًا.

ومتى قيل: ليس يغفره بالتوبة.

فجوابنا أن التوبة تزيل عن صاحبها إطلاق الصفة به، فإذا خرج من كونه مشركًا حسن أن يطلق مع الإيجاز الذي فيه، والتغليظ الذي يوجبه إطلاق القول، وقيل: لما علم بالعقل والشرع أن التوبة تزيل العقوبة صارت الآية مخصوصة.

الثاني: أنه لا يغفر شيئًا من ذنوبه لأجل شركه، و (أن) بمعنى مِنْ أجل، كأنه قيل: من أَجْلِ الشرك منعوا غفران ما دونه؛ لأن مع الشرك لا يغفر شيئًا من الذنوب، كما يغفر للمؤمن من الصغائر إذا اجتنبوا الكبائر عن أبي مسلم (وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ) فعلق غفران ما دون الشرك بالمشيئة، فصارت الآية مجملة، فما لم يرد شرع بأنه يشاء مغفرة بعضهم لا يقطع عليه.

فمتى قيل: هل قلتم: إنه وعد بغفران الكبائر؟

قلنا: لأربعة أوجه:

أولها: أنه مقيد بمن يشاء، والثاني: أنه يكون إغراء بالقبيح، والثالث: أنه مجمل. والرابع: أنه أخبر في آي أخر أنه يغفر لأصحاب الصغائر وأصحاب التوبة ولا يغفر لمن سواهم، كما ورد به القرآن في القتل والزنا والربا وسائر آي الوعيد.

ومتى قيل: فمتى يستحق المغفرة قد وجب له ذلك عقلاً فما فائدة الخبر؟

قلنا: ورد مؤكدًا ومصلحة، فهو بمنزلة سائر الأدلة في التوحيد ومعجزات النبي - صلى الله عليه وسلم - (مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ) قيل: ما دون الشرك يغفره لمن يشاء قيل: من الكبائر والصغائر، وقيل: من الصغائر، وقيل: ما دون ذلك من الذنوب يغفره بالتوبة. والمعنيّ بقوله: (من يشاء) التائبون، وأراد به يغفر الشرك وما دونه بالتوبة، ونظيره: (فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ) وأجمعت الأمة، المراد

اثنتين فما فوقهما عن أبي مسلم، وتلخيص الكلام لا يغفر للمشرك الشرك، وما دونه لأجل شركه وإن تاب منه، فإذا ترك الشرك، وتاب من الذنوب غفر له الشرك وما دونه (وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَى) اختلق وكذب (إِثْمًا) وزرًا (عَظِيمًا) بجحوده وحدانية اللّه وشركه به، وقيل: فقد اكتسب بكذبه في ذلك إثمًا عظيمًا عن أبي مسلم.[122]

قال شيخنا الزمخشري: فإن قلت: قد ثبت أن اللّه عزّ وجلّ يغفر الشرك لمن تاب منه، وأنه لا يغفر ما دون الشرك من الكبائر إلا بالتوبة. فما وجه قول اللّه تعالى (إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ ما دُونَ ذلِكَ لِمَنْ يَشاءُ) ؟ قلت: الوجه أن يكون الفعل المنفي والمثبت جميعاً موجهين إلى قوله تعالى: (لِمَنْ يَشاءُ) كأنه قيل إن اللّه لا يغفر لمن يشاء الشرك، ويغفر لمن يشاء ما دون الشرك على أنّ المراد بالأول من لم يتب، وبالثاني من تاب. ونظيره قولك: إنّ الأمير لا يبذل الدينار ويبذل القنطار لمن يشاء. تريد: لا يبذل الدينار لمن لا يستأهله، ويبذل القنطار لمن يستأهله فَقَدِ افْتَرى إِثْماً أى ارتكبه وهو مفتر مفتعل ما لا يصح كونه.[123]

قال شيخنا قاضي القضاة: قالوا : ثم ذكر تعالى ما يدل على أنه يغفر ، ما دون الشرك والكفر ، لأهل الكبائر من أهل الصلاة ، فقال : (إِنَّ اللّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ ما دُونَ ذلِكَ لِمَنْ يَشاءُ) .

والجواب عن ذلك : أن ظاهره إنما يدل على أنه لا يغفر الشرك قطعا ؛ لأن الخبر فيه غير مشروط ، وأن ما دون الشرك يغفره لمن يشاء ، وهذه اللفظة إذا دخلت فى الكلام اقتضت فيه الإبهام والاحتمال ؛ لأن أحدنا إذا قال : لا أؤاخذ أهل العلم بذنوبهم وأؤاخذ غيرهم من أشاء ، لم يعلم بكلامه إلا ما صدر بذكره ، ووجب التوقف فيما ثنى بذكره.

فإن قال [1] : فيجب أن تجوزوا أن يغفر تعالى الكفر الذى ليس بشرك!!

قيل له : إنه أراد بالشرك كل أنواع الكفر ، وذلك هو المتعارف فى الشرع وإن كانت اللغة بخلافه ، كما نقول فى الأسماء الشرعية.

---

[122] التهذيب في التفسير ج 2 ص 1584/ 1585

[123] الزمخشري ج1 ص 520/519

ولا خلاف أيضا فى أن جميع أنواع الكفر لا تختلف فى هذا الباب ، وإنما اختلفوا فى بعض أنواعه من حيث اعتقد فيه بعضهم أنه ليس بكفر أصلا ، كما يقوله أصحاب المعارف فى الشك والجهل بالله تعالى.

فإن قال : فيجب أن يدل الظاهر على تجويز غفران من ليس بكافر.

قيل له : هذا لا يقال إن الظاهر يدل عليه ؛ لأن هذا التجويز هو شك ، ولا يجوز أن يستدل بكتاب الله تعالى على الشك ، فتجويز غفران ما دون الشرك قد كان فى العقل ، من حيث فقدنا الدليل على أنه تعالى يعذبهم قطعا ، والآية وردت ناقلة لنا فى الشرك عن حكم العقل ، مبقية فيما دون الشرك ، على ما كنا عليه ، فيجب أن ينظر : فإن كان فى السمع ما يدل على أنه تعالى يعاقب غير الكفار فيجب أن يقال فيه ، ولا يصح فى هذه الآية « أن تكون مانعة ، كما لا يصح ذلك فى طريقة العقل. وإنما المقصد بما ذكرناه أن تخرج هذه الآية من أن يكون للقوم فيها تعلق ، لا أنا ندعيها دلالة لنا.

والمراد بذلك : أنه تعالى يغفر لأهل الصغائر ، من حيث بين ذلك بقوله تعالى : (إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبائِرَ ما تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئاتِكُمْ) فخبر بأنه إنما يكفرها بشرط اجتناب الكبائر ، وذلك يوجب حملها على الصغائر دون الكبائر.[124]

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُواْ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿٧٨﴾﴾ النساء: ٧٨

<u>قال قاضي القضاة</u>: أن القضية واردة على أمر معلوم ؛ لأنه تعالى حكى عن الكفار أنهم عند وقوع الحسنة والسيئة قالوا : إن الحسنة من عنده تعالى ، والسيئة من محمد عليه‌السلام ، وما هذا حاله لا يصح أن يدعى فيه العموم ، لأنه لا يجوز فى ذلك الواقع أن يكون إلا على صفة واحدة.

124 متشابه القرآن للقاضي عبد الجبار ص 189/188/187

وبعد ، فإن الظاهر من قوله : (وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ) وقوله : (وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ) يدل على أن ذلك من فعل غيرهم فيهم ، لأن ما يختاره الإنسان لا يطلق ذلك فيه ، ويبين ذلك أنه إن حمل على أفعال العباد أدى إلى أن القوم كانوا يقولون إن الحسنات من فعل الله تعالى وسيئاتنا من فعل محمد صلى الله عليه وسلم! وليس هذا بمذهب لأحد ؛ لأنه لا فرق بين إضافتهما إليه عليهالسلام فعلا ، وبين إضافتهما إلى غيره. ولو كان ذلك مذهبا لحكى ودوّن ؛ لأنه قد حكى ما هو أخفى منه وأقل ، وكل ذلك يمنع من التعلق بظاهره.

والمراد بذلك : ما قد حكى أنهم كانوا يقولون إذا أصابهم الرخاء والخصب والسعة ، قالوا : هذه من الله ، وإذا لحقهم الشدة والقحط ، قالوا : إن هذا لشؤم محمد ، حاشاه صلىاللهعليهوآله من ذلك! فقال تعالى مكذبا لهم : (قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللهِ) لأن هذه الأمور من فعله تعالى يفعلها بحسب المصالح ، وقد ذكر تعالى فى قوم موسى صلّى الله عليه مثله ، فقال : (فَإِذا جاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قالُوا : لَنا هذِهِ ، وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسى وَمَنْ مَعَهُ) وقال تعالى مكذبا لهم لذلك : (وَبَلَوْناهُمْ بِالْحَسَناتِ وَالسَّيِّئاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ) فبين فى هذين الأمرين أنه يفعله بلوى ومصلحة ، لكى يرجع العاصى ويقلع عن كفره ومعصيته.

وما قلناه يدل على أن هذين قد يوصفان بالحسنة والسيئة ، فليس لأحد أن يدفع ذلك من حيث اللغة ، فأما فى الحقيقة ، فالسيئة لا تكون إلا قبيحة ، كما يقولون فى الشر : إنه لا يكون إلا ضررا قبيحا ، لكنه قد يجرى على المضار من فعله تعالى ، على جهة المجاز.[125]

وقوله: (وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ) حكاية عن المنافقين، وصفة لهم. في قول الحسن، وأبي علي وأبي القاسم.

وقوله: (مِنْ عِنْدِكَ) : قال الجبائي، والبلخي، والزجاج: أي بشؤمك الذي لحقنا كما حكي عن قوم موسى (وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسى وَمَنْ مَعَهُ) فامر الله تعالى نبيه أن يقول: إن جميع ذلك من عندالله، ثم قال: " فما لهؤلاء القوم لايكادون يفقهون حديثا.[126]

[125] متشابه القران ص 198/197

[126] التبيان في تفسير القرآن للطوسي ج3 ص 262

قَالَ تَعَالَى: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنۡ حَسَنَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٖ فَمِن نَّفۡسِكَۚ وَأَرۡسَلۡنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولٗاۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدٗا ٧٩﴾ النساء: ٧٩

قَالَ أَبُو عَلِيٍّ الْجُبَّائِيُّ: قَدْ ثَبَتَ أَنَّ لَفْظَ السَّيِّئَةِ تَارَةً يَقَعُ عَلَى الْبَلِيَّةِ وَالْمِحْنَةِ، وَتَارَةً يَقَعُ عَلَى الذَّنْبِ وَالْمَعْصِيَةِ، ثُمَّ إِنَّهُ تَعَالَى أَضَافَ السَّيِّئَةَ إِلَى نَفْسِهِ فِي الْآيَةِ الْأُولَى بِقَوْلِهِ: (قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ) [النساء: 78] وَأَضَافَهَا فِي هَذِهِ الْآيَةِ إِلَى الْعَبْدِ بِقَوْلِهِ: (وَما أَصابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ) فَلَا بُدَّ مِنَ التَّوْفِيقِ بَيْنَ هَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ وَإِزَالَةِ التَّنَاقُضِ عَنْهُمَا، وَلَمَّا كَانَتِ السَّيِّئَةُ بِمَعْنَى الْبَلَاءِ وَالشِّدَّةِ مُضَافَةً إِلَى اللَّه وَجَبَ أَنْ تَكُونَ السَّيِّئَةُ بِمَعْنَى الْمَعْصِيَةِ مُضَافَةً إِلَى الْعَبْدِ حَتَّى يَزُولَ التَّنَاقُضُ بَيْنَ هَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ الْمُتَجَاوِرَتَيْنِ، قَالَ: وَقَدْ حَمَلَ الْمُخَالِفُونَ أَنْفُسَهُمْ عَلَى تَغْيِيرِ الْآيَةِ وقرءوا: (فَمِنْ تَعْسِكَ) فَغَيَّرُوا الْقُرْآنَ وَسَلَكُوا مِثْلَ طَرِيقَةِ الرَّافِضَةِ مِنَ ادِّعَاءِ التَّغْيِيرِ فِي الْقُرْآنِ.

فَإِنْ قِيلَ: فَلِمَاذَا فَصَلَ تَعَالَى بَيْنَ الْحَسَنَةِ وَالسَّيِّئَةِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ فَأَضَافَ الْحَسَنَةَ الَّتِي هِيَ الطَّاعَةُ إِلَى نَفْسِهِ دُونَ السَّيِّئَةِ وَكِلَاهُمَا فِعْلُ الْعَبْدِ عِنْدَكُمْ؟

قُلْنَا: لِأَنَّ الْحَسَنَةَ وَإِنْ كَانَتْ مِنْ فِعْلِ الْعَبْدِ فَإِنَّمَا وَصَلَ إِلَيْهَا بِتَسْهِيلِهِ تَعَالَى وَأَلْطَافِهِ فَصَحَّتِ الْإِضَافَةُ إِلَيْهِ، وَأَمَّا السَّيِّئَةُ الَّتِي هِيَ مِنْ فِعْلِ الْعَبْدِ فَهِيَ غَيْرُ مُضَافَةٍ إِلَى اللَّه تَعَالَى لَا بِأَنَّهُ تَعَالَى فَعَلَهَا وَلَا بِأَنَّهُ أَرَادَهَا، وَلَا بِأَنَّهُ أَمَرَ بِهَا، وَلَا بِأَنَّهُ رَغِبَ فِيهَا، فَلَا جَرَمَ انْقَطَعَتْ إِضَافَةُ هَذِهِ السَّيِّئَةِ مِنْ جَمِيعِ الْوُجُوهِ إِلَى اللَّه تَعَالَى. هَذَا مُنْتَهَى كَلَامِ الرَّجُلِ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ.[127]

وقيل في معنى الحسنة والسيئة: قال الجبائي: معناهما النعمة، والمصيبة. ويدخل في النعمة نعمة الدنيا، والدين. وفي المصيبة مصائب الدنيا، والدين إلا أن أحدهما من عمل العبد للطاعة، وماجر إليه ذلك العمل.[128]

127 مفاتيح الغيب للرازي ج10 ص 148

128 التبيان في تفسير القرآن للطوسي ج3 ص /263

قال القاضي عبد الجبّار: وقوله تعالى بعد ذلك : (ما أَصابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللهِ وَما أَصابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ) يدل ظاهره على أن العبد هو الفاعل للسيئات فى الحقيقة : لأنه تعالى لو أوجدها وفعلها لم يكن يضيفها إلى نفس الإنسان.

وهذه الآية تدل على صحة تأويلنا فى الآية المتقدمة [هو الذي نقلته عنه في الآية التي قبلها] ؛ لأنه لو كان المراد بتلك نفس ما أريد بهذه ، لكان الكلام يتناقض عن قرب ، لأنه فى الأولى أضافها إلى نفسه ، وفى الثانية إلى العبد ، ويتعالى الله عن ذلك ، فكأنه قال : ما أصابكم من الرخاء والشدة فكله من عنده تعالى. وليس كذلك السيئات والحسنات ، لأنها من عند أنفسكم.

فأما إضافته تعالى الحسنة إلى نفسه ؛ فلأنه تعالى أعان عليها وسهل السبيل إليها ولطف فيها ، فلم تقطع منا إلا بأمور من قبله تعالى ، فصح أن تضاف إليه ، ولا يمنع ذلك كونها من فعل العبد ؛ لأن الإضافة قد تقع على هذين الوجهين ، ولو كانت السيئة من فعله تعالى لم يكن لإضافتها إلى العبد وجه ، « ولا كان للفصل بينها وبين الحسنة فى قطع إضافتها عن الله معنى ، مع أنه الخالق لهما جميعا.

وقد قيل : إن المراد أن الحسنة بتفضل الله تعالى ، وأن السيئة التى هى الشدة ، لأمور من قبلكم ارتكبتموها ، تحل محل العقوبة ، فلذلك أضافه إليهم. وهذا وإن احتمل فالأول أظهر.

فأما من حرف التنزيل لكيلا يلزمه بطلان مذهبه ، وزعم أن المراد به : فمن نفسك؟! على جهة الإنكار ، فقد بلغ فى التجاهل ، وردّ التلاوة الظاهرة الى حيث يستغنى عن مكالمته![129]

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ٩٣﴾ النساء: ٩٣

---

[129] متشابه القران ص 199/198

* كان الحسن أيضا يقول: لا توبة لقاتل المؤمن متعمدا، فدس إليه عمرو بن عبيد رجلا وقال: قل له: لا يخلو من أن يكون مؤمنا أو كافرا أو منافقا أو فاسقا، فإن كان مؤمنا فإن الله تعالى يقول: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحاً، وإن كان كافرا فإنه يقول: قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ ما قَدْ سَلَفَ، وإن كان منافقا فإنه يقول: إِنَّ الْمُنافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيراً إِلَّا الَّذِينَ تابُوا، فقال للرجل من أين لك هذا؟ قال: شيء اختلج في صدري، قال: محال، اصدقني، فقال: عمرو بن عبيد. فقال الحسن: عمرو وما عمرو!! إذا قام بأمر قعد به، وإذا قعد بأمر قام به، ورجع.

قال شيخنا الزمخشري: هذه الآية فيها من التهديد والإيعاد والإبراق والإرعاد أمر عظيم وخطب غليظ. ومن ثم روى عن ابن عباس ما روى من أن توبة قاتل المؤمن عمداً غير مقبولة* ، وعن سفيان: كان أهل العلم إذا سئلوا قالوا: لا توبة له، وذلك محمول منهم على الاقتداء بسنة اللّه في التغليظ والتشديد، وإلا فكل ذنب ممحو بالتوبة. وناهيك بمحو الشرك دليلا. وفي الحديث «لزوال الدنيا أهون على اللّه من قتل امرئ مسلم وفيه لو أن رجلا قتل بالمشرق وآخر رضى بالمغرب لأشرك في دمه وفيه إن هذا الإنسان بنيان اللّه. ملعون من هدم بنيانه وفيه من أعان على قتل مؤمن بشطر كلمة جاء يوم القيامة مكتوب بين عينيه آيس من رحمة اللّه . والعجب من قوم يقرؤن هذه الآية ويرون ما فيها ويسمعون هذه الأحاديث العظيمة، وقول ابن عباس بمنع التوبة.

ثم لا تدعهم أشعبيتهم وطماعيتهم الفارغة واتباعهم هواهم وما يخيل إليهم مناهم، أن يطمعوا في العفو عن قاتل المؤمن بغير توبة، (أفلا يتدبرون القرآن، أم على قلوب أقفالها)؟ ثم ذكر اللّه سبحانه وتعالى التوبة في قتل الخطأ، لما عسى يقع من نوع تفريط فيما يجب من الاحتياط والتحفظ فيه حسم للأطماع وأى حسم، ولكن لا حياة لمن تنادى. فإن قلت: هل فيها دليل على خلود من لم يتب من أهل الكبائر؟ قلت: ما أبين الدليل وهو تناول قوله: (وَمَنْ يَقْتُلْ) أىَّ قاتل كان، من مسلم أو كافر، تائب أو غير تائب، إلا أن التائب أخرجه الدليل. فمن ادعى إخراج المسلم غير التائب فليأت بدليل مثله.[130]

وقال الجبائي والبلخي: الآية نزلت في اهل الصلاة. لانه تعالى بين في الآية الاولى حكم قتل الخطأ من الدية، والكفارة. وذلك يختص أهل الصلاة، ثم عقب ذلك بذكر قتل العمد منهم. وهذا ليس بصحيح، لان لزوم الدية في الخطأ يتناول المسلم، والمعاهد. وأما الكفارات فان عندنا تلزمهم أيضا لانهم متعبدون بالشرائع.[131]

---

130 الكشاف ج1 ص 552/551/550

131 البيان في تفسير القآن للطوسي ج3 ص 293

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَن يَعۡمَلۡ سُوٓءًا أَوۡ يَظۡلِمۡ نَفۡسَهُۥ ثُمَّ يَسۡتَغۡفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ۝١١٠ وَمَن يَكۡسِبۡ إِثۡمٗا فَإِنَّمَا يَكۡسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا ۝١١١﴾ النساء: ١١٠ – ١١١

قال شيخنا الزمخشري: (فَإِنَّما يَكْسِبُهُ عَلى نَفْسِهِ) : أى لا يتعدّاه ضرره إلى غيره فليبق على نفسه من كسب السوء خَطِيئَةً صغيرة أَوْ إِثْماً أو كبيرة ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئاً كما رمى طعمة زيداً فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتاناً وَإِثْماً لأنه بكسب الإثم «آثم» وبرمي البريء «باهت» فهو جامع بين الأمرين. وقرأ معاذ بن جبل رضى اللَّه عنه: ومن يكسب، بكسر الكاف والسين المشددة وأصله يكتسب.[132]

مختصر الكلام في الكسب

قال قاضي القضاة: وقوله تعالى : (وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْماً ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئاً فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتاناً وَإِثْماً مُبِيناً) [112] يدل على أنه تعالى لا يجوز أن يخلق أفعال العباد ثم يعاقبهم عليها ؛ لأنه إن (1) كان هو الخالق لها ، فهم برآء منها بأكثر من كون زيد بريئا من فعل عمرو ، فإذا كان عمرو إذن اكتسب المعصية ورمى زيدا بها فقد احتمل البهتان بذلك. والله تعالى ، لو كان الأمر كما يزعم القوم ، أولى ، تعالى الله عن ذلك.

فأما قولهم : إن العبد يكسب ـ فليس يبرأ فى الحقيقة مما خلقه الله فيه ـ فجهل ؛ لأن اكتسابه لا (2) يؤثر فى أنه تعالى قد أدخله فى الفعل وجعله بحيث لا يمكنه المحيص منه ، وبحيث لا بد من أن يكون مختارا مكتسبا ، إن صح للكسب معنى ، فلا يخرج العبد من أن يكون بريئا من ذلك.

هذا ، ولا يصح إذا قيل إنه تعالى أوجد الفعل وأحدثه وأوجد القدرة والاختيار فى القلب ـ والفعل لا يتجزأ ، لأنه معنى واحد ـ « أن يقال (3) : إنه كسب للعبد ، بل لو أراد المريد (4) أن ينفيه عن العبد بكل جهده لم يفعل إلا ما قاله القوم من أن الله تعالى خلقه بسائر جهاته وخلق ما أوجبه من القدرة والإرادة.[133]

---

[132] الكشاف ج1 ص 564/563

[133] متشابه القرآن للقاضي عبد الجبار ص 204

قال أبو ياسر: هذه كل الآيات التي ورد فيها (كسب) وما تصرف من ذلك، ورغم كثرتها إذ بلغت 65 آية كلها تدل على الفاعلية الحقيقية للإنسان، فأين هو المعنى الذي يقول به الأشعري من أن الكسب هو عدم نسبة الفعل إلى الإنسان ؟ كل ما جاء في القرآن بكلمة الكسب، أراد به القرآن نسبة الفعل على الحقيقة إلى الإنسان، ومن ثم مسؤولية الإنسان التامة عن هذا الفعل واستحقاقه الثواب إن كان تنفيذا لأمر الله، واستحقاقه العذاب إن كان فاعلا ما نهى الله عنه ولذلك لم يلجأ الأشعري ومن بعده من الإشاعرة إلى هذه الآيات، وكان يجب أن يلجأ إلى هذه الآيات التي ورد فيها الكسب ما دام قد سمى نظريته باسم الكسب، لقد جاء الأشعري بكلمة من القرآن ووضعها في غير موضعها !!!!
والعياذ بالله من هذا الفعل !!! ثم انحرف عنها أكثر بان أعطاها دلالة مخالفة لواقعها في اللغة، ومفهومها في القرآن الكريم. هل يوجد جرأة على الباطل أكبر من هذه الجرأة ؟؟. لم تفسر جميع الآيات طلبا للإختصار.

يقول المرحوم الشيخ تقي الدين النبهاني، القائد المؤسس لحزب التحرير، في كتاب الشخصية الإسلامية الجزء الأول ما نصه، بعد أن شرح رأيهم: " والحقيقة أن رأيهم ورأي الجبرية واحد فهم جبريون. وقد أخفقوا ـ أي الأشاعرة ـ كل الإخفاق في مسألة الكسب، فلا هي جارية على طريق العقل، إذ ليس عليها أي برهان عقلي، ولا عن طريق النقل، إذ ليس عليها أي دليل من النصوص الشرعية، وإنما هي محاولة مخفقة [أي فاشلة] للتوفيق بين رأي المعتزلة ورأي الجبرية. فهذا رأي الشيخ النبهاني وهو أحد علماء أهل السنة والجماعة، أي هو ليس معتزليا ولا شيعيا.

ويقول الدكتور أحمد محمود صبحي في خاتمته لكتابه الثاني في علم الكلام وهو عن الأشاعرة: " أريد أن اخلص من ذلك إلى أن أي دعوة لا بد ان تتجاوز فكر الأشاعرة حتى لا يكون مصيرها التعثر كما هو حال بعض الدعوات المعاصرة، وكيف يتسنى لها النجاح في ظل الاعتقاد بنظرية الكسب وتكليف ما لا يطاق وأن أفعال الله ليست معللة بأغراض لمصلحة العباد". [134]

[134] موسوعة جدل الأفكار - جدل حول الأشعرية

وكسب الأشاعرة غير معقول، وذلك أنهم يقولون إن الله تعالى هو الذي يخلق أفعال العباد، وللعبد كسب منها، وحينئذ فهل الكسب الذي أضافوه إلى العبد فعل من الأفعال أم غير فعل؟ ولم يردوا جوابا عن هذا السؤال إلى اليوم.[135]

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓا۟ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ۚ...... ﴾ النساء: ١٥٣ *

قال شيخنا الحاكم الجشمي: (يَسْأَلُكَ) يا محمد (أَهْلُ الْكِتَابِ) اليهود والنصارى (أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ) قيل: سألوا ذلك تعنتا، عن الحسن، ولو سألوه استرشادا لآتاهم، قيل: سألوه أن ينزل عليهم كتابا جملة، عن السدي ومحمد بن كعب، وقيل: سألوه كتابا إليهم أنه رسوله (فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى) يعني أسلاف اليهود سألوا موسى، قيل هم السبعون الذين خرجوا إلى الميقات، وإنما عاب هؤلاء بفعل أسلافهم؛ لأنهم يرضون بفعلهم، ويجرون على طريقتهم ويقتدون بهم، (أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ) أي: أعظم من هذا في التعنت والاستحالة، (فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً) قيل: أرنا الله عيانا ننظر إليه، وقيل: هو على التقديم والتأخير؛ أي قالوا: جهرة أرنا الله، عن ابن عباس وأبي عبيدة، (فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ) يعني صعقوا أمواتا، وقيل: عذاب صعقوا له، عن الأصم، (بِظُلْمِهِمْ) أي: جزاء لعظيم ما فعلوا وسألوا.[136]

فصل الكلام في الرؤية

قال شيخنا الجاحظ: قد رأينا الله استعظم الرؤية استعظاماً شديداً، وغضب على من طلب ذلك وأراده، ثم عذب عليه، وعجب عباده ممن سأله ذلك، وحذرهم أن يسلكوا سبيل الماضين، فقال في كتابه لنبيه صلى الله عليه وسلم: (يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ).

---

135 قصد السبيل إلى معرفة الجليل ص 81
* اجتزأنا هذا الجزء من الآية لأنه هو المراد
136 التهذيب في التفسير للحاكم الجشمي ج3 ص 1811/1810

فإن كان الله تعالى – في الحقيقة – يجوز أن يكون مرئياً، وببعض الحواس مدركاً، وكان ذلك عليه جائزاً، فالقوم إنما سألوا أمراً ممكناً، وقد طمعوا في مطمع، فلم غضب هذا الغضب، واستعظم سؤالهم هذا الاستعظام، وضرب به هذا المثل، وجعله غاية في الجرأة وفي الاستخفاف بالربوبية.

فإن قالوا: لأن ذلك كان لا يجوز في الدنيا؛ فقدرة الله تعالى على ذلك في الدنيا كقدرته عليه في الآخرة.

فإن قالوا: ليس لذلك استعظم سؤالهم، ولكن لأنهم تقدموا بين يديه.

قلنا: لم صار هذا السؤال تقدماً عليه واستخفافاً به، والشيء الذي طلبوه هو مجوز في عقولهم، وقد أطمعهم فيه أن جوزوه عندهم، والقوم لم يسألوا ظلماً ولا عبثاً ولا محالا. ومن عادة المسئول التفضل، وأنه فاعل ذلك بهم يوماً.

فإن قالوا: إنما صار ذلك الطلب كفراً وذنباً عظيماً لأنه قد كان قال لهم: إني لا أتجلى لأحد في الدنيا.

قلنا: فإن كان الأمر على ما قلتم لكان في تفسيره إنكاره لطلبهم دليل على ما يقولون، ولذكر تقدمهم بعد البيان، بل قال: " فقد سألوا موسى أكبر من ذلك فقالوا أرنا الله جهرة " لا غير ذلك.

فإن قالوا: إنما غضب الله عليهم لأنه ليس لأحد أن يظن أن الله تعالى يرى جهرة.

قلنا: وأي شيء تأويل قول القائل: رأيت الله جهرة إلا المعاينة، أو إعلان المعاينة؛ قال الله عز ذكره: " لا يحب الله الجهر بالسوء من القول ". والجهر هو الإعلان والرفع والإشاعة؛ فهل يراه أهل الجنة إذا رفع عنهم الحجب، ودخلوا عليه وجلسوا على الكرسي عنده إلا جهرة؟ كما تأولتم الحديث الذي رويتموه عن النبي صلى الله عليه وسلم: " لا تضامون في رؤيته كما لا تضامون في القمر ليلة البدر "، إلا أن يزعموا أنهم يرون ربهم سراً، لأنه ليس إلا السر والجهر، وليس إلا الإعلان والإخفاء، وليس إلا المعاينة.

فإن قالوا: نحن لا نقول بالمعاينة، ونقول: نراه، ولا نقول نعاينه.

قلنا: ولم، وأنتم ترونه بأعينكم؟ فمن جعل لكم أن تقولوا نراه بالعين، ومنعكم أن تقولوا نعاينه بالعين؟ وهل اشتقت المعاينة إلا من العين؟

فإن قالوا: لا يجوز أن يلفظ بالمعاينة إلا في الشيء الذي تقع عينه علي، وتقع عيني عليه. فأما إذا كان أحدنا ذا عين، والآخر ليس ذا عين، فغير جائز أن تسمى الرؤية معاينة، وإنما المعاينة مثل المخاصمة؛ ولا يجوز أن أقول: خاصمت إلا وهناك من يخاصمني.

قلنا: قد يقول الناس أسلم فلان حين عاين السيف، وليس للسيف عين، وليس هناك من يقاتله. على أنكم قد تزعمون أن لله عيناً لا كالعيون ويداً لا كالأيدي، وله عين بلا كيف، وسمع بلا كيف.[137]

قال قاضي القضاة: قالوا : وقد قال بعد ذلك ما يدل على جواز الرؤية عليه تعالى ، فقال : (وَإِذْ قُلْتُمْ يا مُوسى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً) فترك موسى عليهالسلام إنكار ذلك ، وهذا يدل على أنه مجوّز ؛ وإن كان الصلاح أن لا تروه إلا فى الآخرة.

والجواب على ذلك : أن ليس فى الظاهر إلا قولهم والحكاية عنهم ، فكيف يدل ذلك على أنه هو الحق ، مع علمنا أنه لا خلاف بين الجميع أن هذا القول منهم باطل؟ لأنه ليس لأمة النبى صلّى الله عليه ، وقد دعاهم إلى الإيمان ، أن يحتجوا بأنهم لا يؤمنون حتى يروا ربهم جهرة ؛ لأن من يقول بجواز الرؤية على الله تعالى أيضا ، لا يجوّز للمكلف أن يؤخر إيمانه إلى أن يراه ، وأن يقول ذلك ، ويجعله عذرا فى ترك الإيمان.

وبعد ، فإن الآية تدل على ضد قولهم ؛ لأنه تعالى خبر أنه عاقبهم بإنزال الصاعقة بهم لما قالوا ذلك، وإنزال العقوبة على الشيء يدل على أنه باطل ؛ لأن الله عز وجل لا يعاقب على الحق ، وإنما سأل قوم موسى عليهالسلام ذلك ؛ لكى يرد الجواب من قبله تعالى فى أنه لا يرى حسب ما سمعوه من موسى ، وإنما سأل صلّى الله عليه ، عن لسان قومه ، فلحقه ولحقهم ما ذكره تعالى ، ثم أحياهم بعد أن أماتهم ؛ لكى يطيعوه ويحولوا عن هذه الطريقة ، فلهذا قال عز وجل : (ثُمَّ بَعَثْناكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) يعنى : لكى تشكروا بالتمسك بالطاعة والعدول عن المعصية.[138]

قال الحاكم الجشمي في رسالة إبليس: وقامت المعتزلة في الرد علي وعليكم , وقالوا الرؤية توجب التجسيم والتجسيم يوجب الحدوث , واحتجوا بقوله تعالى : (لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ)وبقوله : (لَنْ تَرَانِي) ورووا عن عائشة أنها سئلت هل رأى محمد ربه ؟ فقالت : لقد قف شعري مما قلت ثلاثاً ! من زعم أن

---

[137] رسائل الجاحظ ج4 ص 13/12/11/10

[138] متشابه القرآن لقاضي القضاة ص 93/92

محمداَ رأى ربه فقد أعظم الفرية على الله ورسوله وقد قال الله تعالى : { لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ } ومن زعم أنه يعلم ما في غد وقد قال تعالى : (وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا)ومن زعم أنه لم يبلغ شيئاَ وقد قال تعالى : (بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ) وعنها وقد سئلت عن ذلك فقالت : أنا أول من سأله عن ذلك فقال : رآه قلبي ولم تره عيناي . ثم زادت المشايخ , فقالت الحنابلة بالمجالسة والمصافحة , وقالت الكرامية بأنه يرى من فوق كما ترى السماء .

ولما قامت المعتزلة بالرد عليهم في ذلك وعلم شيخنا الأشعري أن ذلك لا يتم على النظر قال : يرى بلا جهة وكيف , فجعله من باب ما لا يعقل تلبيساَ وتدليساَ وجرى ذلك في العامة.[139]

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾ ﴾ النساء: ١٥٧ – ١٥٨

<u>قال الجبائي</u>: وجه التشبيه ان رؤساء اليهود اخذوا إنسانا فقتلوه وصلبوه على موضع عال، ولم يمكنوا احدا من الدنو منه فتغيرت حليته وتنكرت صورته.

وقالوا: قتلنا عيسى، ليوهموا بذلك على عوامهم، لانهم كانوا احاطوا بالبيت الذي فيه عيسى فلما دخلوه كان رفع عيسى من بينهم، فخافوا أن يكون ذلك سبب إيمان اليهود به، ففعلوا ذلك.[140]

<u>قال شيخنا أمين نايف ذياب</u>: لقد جاءت الشبهة لهم من قضيتين هما :

1) نفي القتل والصلب عن عيسى ولهذا يثبتون بقاء حياته إلى الآن .

2) إثبات رفعه .

والجواب على نفي القتل والصلب ؛ فانه لا ينفي الموت بغير القتل الصلب ، وإذا أضيف أنَّ الآية 55 آل عمران تثبت وفاته ، وأنَّ آية المائدة تثبت وفاته أيضا ـ أي انه مات بالوفاة ـ وهي قوله تعالى : (مَا قُلْتُ

---

139 رسالة ابليس الى اخوانه المناحيس ص 22

140 التبيان في تفسير القرآن للطوسي ج3 ص 382

لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ) (المائدة:117) فتسقط هذه الدعوى .

أمّا رفعه : فهو كما ورد في القرآن (إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ) هو بعد الوفاة ، والوفاة في الفعل المزيد [فلما توفيتني] وفي اسم المفعول من الفعل المزيد [متوفيك] تدل على الوفاة ، أي الموت بالوفاة ، ما لم تأت قرينة تمنع هذا الاستعمال ، مثل قوله تعالى : (وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَى أَجَلٌ مُسَمّىً ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) (الأنعام:60) ولاحظ أيها القارئ الكريم هذه الآيات التي فيها [يَتَوَفَّاكُمْ] وتبين الفرق في المعنى بين [يتوفاكم] في الآيات التالية :

(وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ)(يونس: من الآية104)

(وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ)(النحل: من الآية70)

(قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ) (السجدة:11)

وبين [يتوفاكم] في هذه الآية :

(وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ) (الأنعام: من الآية60)

لولا شبه الجملة وهي عبارة (بِاللَّيْلِ) في هذه الآية لـحُمِلَ الكلام على وفاة الموت ، فوفاة عيسى ـ أي وفاة الموت ـ من الوضوح ؛ بحيث من الضلال إنكارها ، وقد قال ابن حزم في كتابه (الفِصَلُ في الأهواء والملل والنحل) بموت عيسى ابن مريم بالوفاة ، وقال ببعثه إلى الحياة من بعد موته بالوفاة في العودة الثانية وهو هنا يعتمد الأحاديث كما هو منهجه ، ولم يعتمد الآيات .[141]

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِن مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤۡمِنَنَّ بِهِۦ قَبۡلَ مَوۡتِهِۦۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيۡهِمۡ شَهِيدٗا ١٥٩﴾ النساء: ١٥٩

[141] موسوعة جدل الأفكار – علامات الساعة ج1

قال شيخنا أمين نايف ذياب: لابد من معرفة الضمير (الهاء) ؛ المضافة إلى موت ، فهل هي تعود إلى عيسى بن مريم ؟ أم تعود إلى : (وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَاب) ؟ (النساء: من الآية159) هناك من أعاد الضمير إلى عيسى ابن مريم ، وهناك من أعاد الضمير إلى (وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَاب) أهل الكتاب بالنسبة لعيسى عليه السلام فريقان : الأول ينكر نبوة عيسى ؛ ويراه ساحراً ؛ وأَنَّهُ ابنُ فاحشة ، وأَنَّهُ دجال ، ومن على ذلك من اهل الكتاب فهم اليهود . والنصارى من أهل الكتاب يرونه ابن الله ، أي القنوم الثاني في التثليث المسيحي ، والرأيان باطلان ، فالآية تخبرهم ، أَنَّ كلَّ واحد من أهل الكتاب تنبلج له الحقيقة حين غرغرة الموت ، فيؤمن بحقيقة عيسى بن مريم ، وليس بالأضاليل والأكاذيب فكل واحد من أهل الكتاب يؤمن بحقيقة عيسى عند موته ، وهذا الإيمان لا ينفعه ، ولهذا يوم القيامة يكون شهيداً عليهم وليس شهيداً لهم . المأمول التفريق بين شهد على وشهد إلى .

ألا يستغرب الإنسان المؤمن تمحلات بعض المفسرين ، حين يَدَّعُون أن الضمير عائد إلى عيسى ولا يقرأون أنَّه شهيد عليهم ، وليس شهيداً لهم ، ويقرأون في القرآن الكريم (وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَاب) أي بمعنى كل واحد من أهل الكتاب ، فيحولونـها بالباطل إلى بعض اهل الكتاب ، الذين يشهدون مجيء عيسى الثاني على زعمهم ، ولا يعلم المؤمن الكيفية التي سيبرهن ويدلل عيسى بـها على نفسه أنه النبي ، فيترك اليهود مقولتهم الشائنة ، ويترك النصارى مقولتهم الضالة ، أببرهان المعجزة ؟ وهل يكون برهان المعجزة للمتأخرين دون المتقدمين ، فما ذنب هؤلاء المتقدمين ؟ وثانياً هل حجة الله واحدة ، فالنصارى في زمن الدعوة الاسلامية وحتى اليوم هل هم محجوجون بحجة إعجاز القرآن ؟ أم غير محجوجين ، وهل الذين في زمن المجيء الثاني المزعوم اختصهم الله بحجج باهرة دون السابقين ؟ إذ لهم حجة المؤيدات والخوارق والغرائب المذهلة ، أمور لا يقبلها عقل ، ولا يقوم لها حجة قرآن ، ولا تقبل الترتيب الذهني .

إنَّ عيسى بن مريم قد توفاه الله ، وجعل الله له شبيها ؛ فصلبوا الشبيه ، ورفع الله جثة المسيح ؛ ليتم التشبيه ، ويحفظ الله المسيح ـ وهو آية ـ من القتل والصلب ، فظهوره آية وغيابه آية .[142]

---

[142] موسوعة جدل الأفكار – علامات الساعة ج1

*** قلت: لقد كرر شيخنا الحاكم قول ولا مانع منه او لا مانع منه عقلا كلما ذكر عودة المسيح وخروج الدجال، كأنه يعرف أن فيه مناقضة للعقل وهو نفسه يجد صعوبة في تقبلها لكنه لا يجسر ان يخالف الاجماع [أما نزوله وقت رفع التكليف فلا يعقل وهو كلام عكس العدل الالهي، اما قوله على وجه لا يعرف فهذا يفتح باب الجهالات، كقول الاشاعرة يرى الله بلا جهة ولا كيف.**

قال شيخنا الحاكم الجشمي: وقيل: وقت نزوله من السماء لقتل الدجال، وقد ورد الخبر به، ولا مانع منه غير أنه ينزل إما في وقت رفع التكليف أو ينزل على وجه لا يعرف*، لأن خلاف ذلك لا يجوز، لانه لا يخلو إما أن يكون نبيا، ولا نبي بعد محمد (ص) ، أو يكون غير نبي، ولا يجوز عزل نبي عن النبوة**.[143]

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾﴾ النساء: ١٦٤

قال البلخي: وفي الآية دلالة على أن كلام الله محدث من حيث انه كلم موسى خاصة دون غيره من الانبياء، وكلمه في وقت دون وقت، ولو كان الكلام قديما ومن صفات ذاته لم يكن في ذلك اختصاص ومن فصل بين الكليم والتكلم، فقد ابعد لان المكلم لغيره لايكون الامتكلما، وان كان يجوز ان يكون متكلما وان لم يكن مكلما فالمتكلم يجمع الامرين.[144]

قال شيخنا أمين نايف ذياب: صلة الأنبياء ليعلموا رسالة ربـهم بالسماء تكون عبر الوحي والوحي بالاستقراء يتم بأربعة صور هي :

1- سماع كلام الله من واحد من الملائكة وأهم هؤلاء جبريل عليه السلام.

2- سما ع كلام الله من وراء حجاب والحجاب هو ما يخلق الله به كلامه للنبي قال تعالى : (وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلا وَحْياً أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ) (الشورى:51) وفي كلام الله لموسى عليه السلام بقوله تعالى : (وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيماً) (النساء: من الآية164) فقد دل البحث على أنَّ الله خلق كلامه لموسى في الشجرة قال تعالى (فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الوَادِ الأَيْمَنِ فِي البُقْعَةِ المُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ العَالَمِينَ) (القصص:30)

** قلت ولا توجد الا هذه الاحتمالات اصلا يا شيخنا، فشيخنا متردد هنا.

143 التهذيب في التفسير ج3 ص 1820

144 التبيان في تفسير القرآن ج3 ص 393

وقد وثق القرآن ذهاب موسى للشجرة في ثلاث آيات إذ رأى فيها نارا قال تعالى :

*. (إِذْ رَأَى نَاراً فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَاراً لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدىً) (طـه:10)

*. (إِذْ قَالَ مُوسَى لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَاراً سَآتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُمْ بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ) (النمل:7)

*. (فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَاراً قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَاراً لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ) (القصص:29)

وعودة لصور سماع كلام الله

3- سماع كلام الله معنى بإلهام يقع على قلب النبي مباشرة في حالة اليقظة والسنن التي وردت عن الرسول عملاً أو قولاً أو إقرارا هي على هذه الصورة .

4- رؤيا المنام كما وردت لإبراهيم عليه السلام ولم يرد صريحا لغير إبراهيم .[145]



قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِي ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوْ يُصَلَّبُوٓاْ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ ٱلْأَرْضِ ۚ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي

[145] موسوعة جدل الأفكار – المحنة وقضية خلق القرآن

ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ٣٣ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبۡلِ أَن تَقۡدِرُواْ عَلَيۡهِمۡۖ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٣٤﴾ المائدة: ٣٣ - ٣٤

قال شيخنا الحاكم الجشمي: (إِنَّمَا جَزَاءُ) يعني مكافأة (الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ) اختلفوا في المراد بهم: قيل: الكفار؛ لأن الآية نزلت فيهم، ولفظ المحاربة لا يليق إلا بهم، عن الحسن والأصم*، وقيل: المراد به المرتدون، لأنها نزلت في العرنيين، وقيل: المراد قطاع الطريق من أهل القبلة، عن جماعة من المفسرين والفقهاء، وهو قول أبي علي قال: ولذلك تقبل توبتهم قبل القدرة، وتوبة الكافر مقبولة على كل حال، لأن الفقهاء حملوها عليهم، واستدلوا بها في حد قاطع الطريق، وقيل: هي محمولة عليهما جميعا، عن أبي مسلم، (يُحَارِبُونَ) يقاتلون (اللَّهَ) قيل: يحاربون أولياءه كقوله: (إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ) وقيل: أراد تعظيم فعلهم فوصف محاربة معهم تفخيما وتعظيما، وقيل: يفعلون ما يجرى مجرى المحاربة معه من ترك أوامره ، وارتكاب ما نهى عنه، ثم فسر المحاربة وقال: (وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا) يعني يسيرون بالفساد في الأرض، وليس هو بوصف، وإنما هو بيان كقولك: عصيت الله وعققته..... (أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ) قيل: هو على قدر الإستحقاق، وليس بتخيير إن قَتَلَ قُتِلَ وإن أخذ المال وقتل قتل وصلب، وإن أخذ المال ولم يقتل قطعت يده ورجله وإن أخاف الطريق النفي، عن ابن عباس وسعيد بن جبير وقتادة وابراهيم وأبي علي..[146]



قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلۡقَاهِرُ فَوۡقَ عِبَادِهِۦۚ وَهُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡخَبِيرُ ١٨﴾ الأنعام: ١٨

---

[146] التهذيب في التفسير ج3 ص 1940

* قلت وهذا لا يصح، لم تنزل في الكفار حصرا، قال تعالى : {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (278) فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ (279)} [البقرة : 278 - 279] فدلت على أنها في قطاع الطريق من أهل القبلة.

قال شيخنا الزمخشري: (فَوْقَ عِبادِهِ) تصوير للقهر والعلوّ بالغلبة والقدرة، كقوله وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قاهِرُونَ الشيء أعم العام لوقوعه على كل ما يصح أن يعلم ويخبر عنه، فيقع على القديم والجرم والعرض والمحال والمستقيم. ولذلك صحّ أن يقال في الله عزّ وجلّ: شيء لا كالأشياء، كأنك قلت: معلوم لا كسائر المعلومات، ولا يصح: جسم لا كالأجسام.[147]

وقال قاضي القضاة: ثم ذكر تعالى بعده فيها ما يدل على أن المكان يجوز عليه ، فقال : (وَهُوَ الْقاهِرُ فَوْقَ عِبادِهِ) و « فوق » إنما تستعمل فى اللغة بمعنى المكان إذا علا على مكان غيره.

والجواب عن ذلك : أنه تعالى قد نبه فى الكلام على ما أراد ، بقوله (وَهُوَ الْقاهِرُ) « ثم ذكر ما يقتضى ـ [بيان] حاله فى ذلك فقال (فَوْقَ عِبادِهِ) وهذا كقوله : (يَدُ اللهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ) ومتى قيل هذا القول فى بعض الأو صاف فالمراد به المبالغة فى تلك الـ صفة ؛ لأنا إذا قلنا : زيد عالم « فوق غيره فإنما يفهم منه المبالغة فيما قدمناه من الصفة ، يبين ذلك أنا إن حملنا الآية على ظاهرها وجب كونه فى السماء فقط ، وينقض ما تقدم من استدلالهم على أنه فى السموات والأرضين.[148]

وقال شيخنا الحاكم: (فَوْقَ عِبادِهِ) يعني فوقهم بالعلو والقدرة والسلطان، ولم يرد فوقهم في المكان؛ لأن المكان لا يجوز عليه تعالى؛ لأنه تعالى ليس لجسم ولا جوهر ، ولأن الآية تمدح، فليس في كونه فوق الخلق بالمكان والتمدح، فهذا كما يقال: فلان فوق كل أحد، ولا يريدون المكان والمراد القدرة والسلطان..[149]

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيۡهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمۡثَالُكُمۚ مَّا فَرَّطۡنَا فِي ٱلۡكِتَٰبِ مِن شَيۡءٖۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ يُحۡشَرُونَ ٣٨﴾ الأنعام: ٣٨

قال شيخنا الحاكم الجشمي: ذكر في أول السورة خلق السموات والأرض، وخلق السموات والأرض، وخلق البشر من الطين، وما قضى من الآجال، ثم ذك الحِاج مع الكفار في تلك الجملة، ثم

[147] الكشاف ج2 ص 11
[148] متشابه القرآن للقاضي عبد الجبار ص 238/237
[149] التهذيب في التفسير ج3 ص 2268

ذكر أصناف الخلق ههنا من الدوا والسباع والطيور، وأعلم أنها مثلهم في خلقه إياها، وتبقيتها إلى أجل، ثم يحشرون كما يحشر الإنسان، عن أبي مسلم.[150]

(وَمَا مِنْ دَابَّةٍ) يعني قل لهم: ما من حيوان يمشي على وجه الأرض من الدواب والسباع، وإنما خص دواب الأرض لأن الحجاج يقتضيه من وجهين: أحدهما: الإحالة في الدليل لما هو أظهر، والآخر: على ما حاجته أشد؛ ولم يذكر تدبير الجماد (وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ).

ومتى قيل: لم قال (بِجَنَاحَيْهِ) والطائر لا يطير إلا بجناحيه؟

قلنا: قيل: إنه تأكيد على ما تقدم، وقيل: لأن العرب تذكر الطائر، وتريد غيره، ويقولون: ما بالدار طائر، يعني أحدا، ويقولون: لو استطعت لطرت إليك، قال شاعرهم:

عوى الذئب فاستأنست بالذئب إذا عوى　　وصَوَّتَ الإنسان فكدت أطير

فذكر الجناح ليعلم أنه أراد الطير المعروف، وأزال الإبهام، وقيل: لأن الملائكة تطير بأكثر من جناحين، فبين أن الطائر يطير بجناحين، وقيل: لأن الطير ما يثب (إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ) أشباهكم في إبداع الله تعالى إياها وخلقه لها، ودلالاتها أنها مفعولة ولها صانع.....[151]

قال القاضي عبد الجبّار: قالوا : ثم ذكر تعالى فيها ما يدل على أنه يكلف من لا يعقل ، فقال (وَما مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلا طائِرٍ يَطِيرُ بِجَناحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثالُكُمْ).

والجواب عن ذلك : أن ظاهره أنها أمثالنا فى أنها أمم ، وليس فيه ما يدل على أنها بمنزلتنا فى التكليف ، أو يدل على أنها جماعات أمثالنا. ولم يبين الوجه الذى صارت أمثالا لنا فيه ، فلا يصح تعلقهم بالظاهر. والمراد بذلك : أنها جماعات أمثالنا ، لأن الأمة حقيقتها أنها جماعة ، فإذا قيل : من الناس ، فالمراد به جماعة من الناس ، وإنما أراد تعالى : أمثالنا فى أنه تعالى خلقها وتكفل بأرزاقها وقدر أقواتها ، ولا يصح أن يريد التكليف ؛ لأن من حقه ألا يصح إلا فى المميز العاقل ، وذلك بالضد من حالها ، وقد صح أن الطفل ومن لم يقارب حال البلوغ أمثل حالا فى التمييز من الطير ، ولا يصح مع ذلك أن يكلف!

150 التهذيب في التفسير ج3 ص 2223/2222
151 التهذيب في التفسير ج3 ص 2224/2223

فأما ما يتعلقون به من قوله تعالى : (وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلا فِيها نَذِيرٌ) فالمراد به الإنس والجن دون الدواب وغيرها من الحيوان (1) ، لما بيناه من الدلالة ، لأن المقصد بالنذير أن يحذر من المعاصى ويبعث على مجانبتها ، وذلك لا يصح فى الدواب!.[152]

قَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيۡهِ ٱلَّيۡلُ رَءَا كَوۡكَبٗاۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلۡأٓفِلِينَ ٧٦ فَلَمَّا رَءَا ٱلۡقَمَرَ بَازِغٗا قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمۡ يَهۡدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلضَّآلِّينَ ٧٧ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمۡسَ بَازِغَةٗ قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكۡبَرُۖ فَلَمَّآ أَفَلَتۡ قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ٧٨ إِنِّي وَجَّهۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ حَنِيفٗاۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٧٩﴾ الأنعام: ٧٦ – ٧٩

الوجه الأول ما قاله الجبائي: ان ماحكى الله عن ابراهيم في هذه الاية كان قبل بلوغه، وقبل كمال عقله ولزوم التكليف له، غير انه لمقاربته كمال العقل خطرت له الخواطر وحركته الشبهات والدواعي على الفكر فيما يشاهده من هذه الحوادث، فلما رأى الكوكب – وقيل: انه الزهرة – وبان نوره مع تنبيهه بالخواطر على الفكر فيه وفي غيره ظن انه ربه، وأنه هو المحدث لما شاهده من الاجسام وغيرها (فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ) لانه صار منتقلا من حال إلى حال وذلك مناف لصفات القديم (فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا) عند طلوعه رأى كبره واشراق ما انبسط من نوره في الدنيا (قَالَ هَذَا رَبِّي) فلما راعاه وجده يزول ويأفل، فصار عنده بحكم الكوكب الذي لا يجوز ان يكون بصفة الاله، لتغيره وانتقاله من حال إلى حال، (فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً) أي طالعة قد ملات الدنيا نورا ورأى عظمها وكبرها (قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ) وزالت وغابت، فكانت شبيهة بالكوكب والقمر قال حينئذ لقومه (إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ) فلما أكمل الله عقله ضبط بفكره النظر في حدوث الاجسام بأن وجودها غير منفكة من المعاني المحدثة، وأنه لابدلها من محدث، قال حينئذ لقومه (إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ.....) إلى آخرها.

[152] متشابه القرآن للقاضي عبد الجبار ص 246/245

والوجه الثاني - ماقاله البلخي وغيره: من أن هذا القول كان من ابراهيم في زمان مهلة النظر، لان مهلة النظر مدة، الله العالم بمقدارها، وهي اكثر من ساعة.

وقال البلخي: وأقل من شهر، ولايدري مابينهما الا الله، فلما أكمل الله عقله وخطر بباله مايوجب عليه النظر وحركته الدواعي على الفكر والتأمل له. قال ماحكاه الله، لان ابراهيم (ع) لم يخلق عارفا بالله، وانما اكتسب المعرفة لما أكمل الله عقله، وخوفه من ترك النظر بالخواطر، فلما رأى الكوكب - وقيل هو الزهرة - رأى عظمها واشراقها وماهي عليه من عجيب الخلق، وكان قومه يعبدون الكواكب، ويزعمون أنها آلهة - قال هذا ربي؟ ! على سبيل الفكر والتأمل لذلك، فلما غابت وأفلت، وعلم ان الافول لا يجوز على الله علم انها محدثة متغيرة لتنقلها، وكذلك كانت حاله في رؤية القمر والشمس، وأنه لما رأى افولهما قطع على حدوثهما واستحالة إلهيتهما، وقال في آخر كلامه " اني برئ مما تشركون اني وجهت وجهي للذي فطر السماوات والارض حنيفا ومأأنا من المشركين " وكان هذا القول منه عقيب معرفته بالله وعلمه بأن صفات المحدثين لاتجوز عليه.

فان قيل: كيف يجوز ان يقول: هذا ربي مخبرا، وهويجوز أن يكون مخبره لاعلى مااخبر، لانه غير عالم بذلك، وذلك قبيح في العقول، ومع كمال عقله لابد أن يلزمه التحرز من الكذب؟ ! قلنا عن ذلك جوابان: احدهما - انه قال ذلك فارضا مقدرا، لامخبرا بل على سبيل الفكر والتأمل، كما يقول الواحد منا لغيره اذاكان ناظرا في شئ ومحتملا بين كونه على إحدى صفتين: انا نفرضه على احداهما لننظر فيما يؤدي ذلك الفرض اليه من صحة او فساد، ولايكون بذلك مخبرا، ولهذا يصح من احدنا اذا نظر في حدوث الاجسام وقدمها ان يفرض كونها قديمة ليتبين مايؤدي اليه ذلك الفرض من الفساد.

والثاني - انه اخبر عن ظنه وقد يجوز ان يكون المفكر المتأمل ظانا في حال نظره وفكره مالا اصل له ثم يرجع عنه بالادلة والعلم ولايكون ذلك منه قبيحا.

فان قيل: ظاهر الايات يدل على ان ابراهيم ماكان رأى هذه الكواكب قبل ذلك، لان تعجبه منها تعجب من لم يكن رآها، فكيف يجوز ان يكون إلى مدة كمال عقله لم يشاهد السماء ومافيها من النجوم؟ ! قلنا: لايمتنع ان يكون مارأى السماء الا في ذلك الوقت، لانه روي أن أمه ولدته في مغارة لايرى السماء، فلماقارب البلوغ وبلغ حد التكليف خرج من المغارة ورأى السماء وفكر فيها. وقد

يجوز أيضا ان يكون رآها غير انه لم يفكر فيها ولانظر في دلائلها، لان الفكر لم يكن واجبا عليه، فلما كمل عقله وحركته الخواطر فكر في الشئ الذي كان يراه قبل ذلك ولم يكن مفكرا فيه.[153]

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾﴾ الأنعام: ١٠٢ – ١٠٣

قال شيخنا الحاكم الجشمي: (ذَلِكُمُ اللَّهُ) يعني الذي خلق هذه الأشياء، ودبر هذه التدابير لكم أيها الناس هو اللَّه (رَبُّكُمْ) خالقكم وسيدكم ومالككم (لاَ إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُل شَيءٍ) يعني كل مخلوق من الأجسام والأعراض التي لا يقدر عليها غيره (فاعْبُدُوهُ)؛ لأنه المستحق للعبادة (وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيءٍ وَكِيلٌ) يعني حافظ ومدبر (لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ) يعني لا يراه المبصرون، وهو عام؛ لأن التمدح بنفي صفة عن ذاته يعم كقوله: (لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ) يعني المبصرون، ومعناه: أنه يَرى ولا يُرَى، ولهذا خالف جميع المخلوقات؛ لأن منها ما يَرَى ويُرَى كالأحياء، ومنها ما يُرَى ولا يَرَى كالجمادات والأعراض المدركة، ومنها ما لا يرى ولا يرى كالأعراض التي هي غير المدركة، واللَّه تعالى خالف جميعها، بأن يَرى ولا يُرى، ونظيره: (لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ) (وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ) (وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ) قيل: معناه اللطف لعباده بسبوغ الإنعام إلا أنه عدل إلى فَعِيلٍ للمبالغة، وقيل: معناه لطيف التدبير إلا أنه حذف لدلالة الكلام عليه، وقيل: الرفيق بعباده، وقيل: اللطيف الذي إن قصدته آواك، وإن دعوته لبَّاك، وإن أحببته أدناك، وإن أطعته كافاك، وإن عصيته عافاك، وإن أعرض عنه دعاك، وإن أقبلت إليه هداك، وقيل: اللطيف من يغني المفتقر إليه، ونعم المفتخر به، وقيل: اللطيف مَنْ أَمْرُهُ تقريب، ونهيه تأديب، وقيل: اللطيف من نَوَّرَ قلبك بالهدى، وربَّى جسمك بالغذاء، وأسبغ عليك نعم الدين قال أبو مسلم: هذا من عجيب لطفه في التنبيه والتعليم، فإنه كلما مر آية أو آيات فيها دلائل نِعَمِ خَلْقِهِ، وأفعال يعجز عنها غيره، أتبعه بذكر اللَّه، وأنه هو الرب الذي يُعبد، وأن هذا الذي صنع هذه الأشياء هو اللَّه دون غيره، وتعليم للعبد أنه يستدل عليه بأفعاله.[154]

---

153 التيان في تفسير القرآن للطوسي ج4 ص 183/182/181

154 التهذيب في التفسير ج 3 ص 2348/ 2349

قال شيخنا الزمخشري: البصر: هو الجوهر اللطيف الذي ركبه الله في حاسة النظر، به تدرك المبصرات. فالمعنى أن الأبصار لا تتعلق به ولا تدركه، لأنه متعال أن يكون مبصراً في ذاته، لأن الأبصار إنما تتعلق بما كان في جهة أصلا أو تابعا، كالأجسام والهيئات (وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصارَ) وهو للطف إدراكه للمدركات يدرك تلك الجواهر اللطيفة التي لا يدركها مدرك (وَهُوَ اللَّطِيفُ) يلطف عن أن تدركه الأبصار (الْخَبِيرُ) بكل لطيف فهو يدرك الأبصار، لا تلطف عن إدراكه وهذا من باب اللطف.[155]

وقال قاضي القضاة: يدل على أنه تعالى لا يجوز أن يرى بالأبصار والعيون ، على وجه ، فى كل وقت ، من غير تخصيص ، لأنه تعالى عم بالنفى ، وذكر ذلك على جهة « التنزه والمدح وما تمدح بنفيه ، مما يرجع إلى ذاته ، لم يقع إثباته إلا ذما ، فيجب أن يدل الظاهر على ما قلناه ، كما كان يدل لو قال : لا تراه الأبصار ، لأن الإدراك إذا قرن بالبصر زال عنه الاحتمال ، ولا يجوز فى اللغة أن يراد به إلا الرؤية بالبصر ، ولذلك يجريان فى النفى والإثبات على حد واحد.[156]

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾﴾ الأنعام: ١١٠

قال شيخنا أبو مسلم: أقسموا بالله لئن جاءتهم آية ليؤمنن بها، والله قلب قلوبهم وأبصارهم عالم بما فيها، ويعلم أنهم إذا جاءتهم الآيات لا يؤمنون، وقال شيخنا أبو علي: نقلب قلوبهم وأبصارهم على لهب جهنم عقوبة؛ لما لم يؤمنوا به أول مرة في الدنيا، وعن أبي بكر الأصم: نقلب أفئدتهم وأبصارهم بالحجج والأدلة التي نوردها عليهم، يعني أنا نورد الأدلة فتتقلب قلوبهم في ذلك، ولا تستقر على ما هم عليه..[157]

155 الكشاف ج 2 ص 54
156 متشابه القرآن للقاضي عبد الجبار ص 255
157 التهذيب في التفسير ج3 ص 2365

قال قاضي القضاة: أنه تعالى ذكر تقلب ذلك فيهم فى المستقبل ، فمن أين أن المراد به فى الدنيا ، ولا توقيت فى الكلام؟

وبعد ، فإنه تعالى بين أنه يفعل ذلك ، من حيث لم يؤمنوا به ، ولا يكون ذلك على جهة العقوبة إلا فى الآخرة ، وهذا هو المراد ؛ لأنه تعالى يفعل بهم ذلك فى النار حالا بعد حال ، لأجل كفرهم وسوء أفعالهم.

ولو حمل على أن المراد به أن يفعل بهم ذلك فى الدنيا بأن يضيق صدورهم بما يرد عليهم من الغم لتعظيم المؤمنين ، وبما يرد عليهم من الشبه ، وبما يقع [للمؤمنين] من الظفر بالحجة وغيرها ، لم يمتنع.

وقوله تعالى : (وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيانِهِمْ يَعْمَهُونَ) ظاهره يقتضى التخلية فقط ، وهو تعالى قد ثبت أنه خلى بين الكافر وكفره ؛ لأنه لو منعه قهرا لزال التكليف والذم والمدح ، وإنما منعه بالنهى والزجر ، وذلك لا يخرجه عن التخلية.[158]

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ * وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴿١١١﴾ ﴾ الأنعام: ١١١

(إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ) ومعناه احد أمرين: أحدهما – قال الحسن: إلاأن يشاء الله أن يجبرهم على الايمان بأن يمنعهم من اضداد الايمان كلها منهم الايمان. الثاني – قال أبوعلي الجبائي: الا ان يشاء الله ان يلجئهم بأن يخلق فيهم العلم الضروري بانهم ان راموا خلافه منعوا منه كما ان الانسان ملجأالى ترك قتل بعض الملوك بمثل هذا العلم.[159]

قالت المعتزلة دل الدليل على أنه تعالى أراد الإيمان من جميع الكفار والجبائي ذكر الوجوه المشهورة التي لهم في هذه المسألة. أولها أنه تعالى لو لم يرد منهم الإيمان لما وجب عليهم الإيمان كما لو لم يأمرهم لم يجب عليهم. وثانيها لو أراد الكفر من الكافر لكان الكافر مطيعا لله بفعل الكفر لأنه لا

158 متشابه القرآن لقاضي القضاة ص 258

159 التبيان في تفسير القرآن ج 4 ص 239

معنى للطاعة إلا بفعل المراد وثالثها لو جاز من الله أن يريد الكفر لجاز أن يأمر به ورابعها لو جاز أن يريد منهم الكفر لجاز أنه يأمرنا بأن نريد منهم الكفر. قالوا فثبت بهذه الدلائل أنه تعالى ما شاء إلا الإيمان منهم وظاهر هذه الآية يقتضي أنه تعالى ما شاء الإيمان منهم والتناقض بين الدلائل ممتنع فوجب التوفيق وطريقه أن نقول إنه تعالى شاء من الكل الإيمان الذي يفعلونه على سبيل الاختيار وأنه تعالى ما شاء منهم الإيمان الحاصل على سبيل الإلجاء والقهر وبهذا الطريق زال الإشكال..[160]

قال قاضي القضاة: أن المراد به : إلا أن يشاء الله أن يلجئهم ويحملهم على الإيمان ، وقد بينا فى نظائر ذلك الكلام فيه.

وإنما أراد تعالى أن هؤلاء الكفار معلوم من حالهم أنهم قد انتهوا فى التمرد وشدة التمسك بالكفر إلى حد لا يؤثر فيهم شيء من الآيات ، وأنه لو كان المعلوم أن شيئا منها يؤثر لفعله تعالى ، لكنه قد أقام الحجة بما فعل وأزاح العلة ، ولم يدع ما لو فعل كانوا إلى الإيمان أقرب ، فمن قبل أنفسهم أتوا.

وهذا أقوى فى الدلالة على أنه تعالى يلطف لعباده ، وأنه متى علم من حالهم أو حال بعضهم ، أنه يؤمن عند شيء فلا بد من أن يفعله ؛ لأنه لو جاز أن لا يفعله ؛ لم يكن لهذا القول الدال على أنه لم يفعل هذه الآيات ؛ من حيث علم أنهم لا يؤمنون ، معنى.[161]

قال الزمخشري: (وَلَوْ أَنَّنا نَزَّلْنا إِلَيْهِمُ الْمَلائِكَةَ) كما قالوا (لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلائِكَةُ)، (وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتى) كما قالوا: (فَأْتُوا بِآبائِنا، وَحَشَرْنا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا) كما قالوا (أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ قَبِيلًا) قبلا كفلاء بصحة ما بشرنا به وأنذرنا، أو جماعات. وقيل قُبُلًا مقابلة. وقرئ قَبْلًا أى عيانا (إِلَّا أَنْ يَشاءَ اللَّهُ) مشيئة إكراه واضطرار (وَلكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ) فيقسمون بالله جهد أيمانهم على ما لا يشعرون من حال قلوبهم عند نزول الآيات. أو ولكنّ أكثر المسلمين يجهلون أن هؤلاء لا يؤمنون إلا أن يضطرّهم فيطمعون في إيمانهم إذا جاءت الآية المقترحة.[162]

---

160 مفاتيح الغيب للرازي ج 13 ص 118

161 متشابه القرآن لقاضي القضاة ص 259/258

162 الكشاف ج2 ص 59/58

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِن تُطِعۡ أَكۡثَرَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنۡ هُمۡ إِلَّا يَخۡرُصُونَ ١١٦﴾ الأنعام: ١١٦

قال شيخنا الزمخشري: (وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ) أى من الناس أضلوك، لأنّ الأكثر في غالب الأمر يتبعون هواهم، ثم قال (إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ) وهو ظنهم أنّ آباءهم كانوا على الحق فهم يقلدونهم (وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ) يقدّرون أنهم على شيء. أو يكذبون في أنّ الله حرّم كذا وأحلّ كذا.

قال الحاكم الجشمي: تدل الآية أن الواجب إتباع الأدلة دون التقليد الذي لا يميز حقا عن باطل، فيبطل قول الحشوية في جواز القليد، ثم بَيَّنَ العلة فيه، وهو إتباع الظن لأن اتبع غيره لا يعلم يقينا أنه على الحق، ولكن يحسن الظن به، فيظن أنه على الحق، وبَيَّنَ أنهم يخرصون في القول، وهذا الذي ذكره الله تعالى العمدة في بطلان التقليد.

وتدل على أنه لا ينبغي أن يعتبر بالأكثر، فقد يضلون ويهتدي الأقل، وبهذا أشار أمير المؤمنين حيث قال: (يا حارِ: الحق لا يعرف بالرجال، اعرف الحق تعرف أهله) وتدل على أن الظن في الدين خطأ، وهذا في أصول الدين بابه العلم.

أما في مسائل الاجتهاد، فإن الظن قد يحسن، ومن مشايخنا من يقول هناك لا يتبع الظن؛ لأنه قام دليل قاطع على وجوب العمل به، وإن كان الطريق مظنونا فالعمل يتبع الدليل لا الظن.

وتدل على التحذير من النفاقث والرياء؛ لأنه عالم بالسرائر.

وتدل على التحذير من الاغترار بعلماء السوء، وإن كثروا وكثر أتباعهم وجاههم.[163]

وقال قاضي القضاة: أنه تعالى لم يذكر فيمن أراد أن يهديه إلى ما ذا؟ والهدى مما يتعلق بغيره ، فمتى حذف ذلك المعنى وزال التعارف ، لم يكن له ظاهر ، وقد بينا من قبل أنه يحتمل الدلالة ، ويحتمل الأخذ بهم فى طريق الجنّة ، ويحتمل الثواب ، وأن كل ذلك مما يجوز عليه تعالى ، فمن أين أن المراد بهذه الآية نفس الإيمان؟

---

163 التهذيب في التفسير ج3 ص 2381

فإن قال : لأنه تعالى قال : (يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلامِ) فجعل شرح الصدر كالموجب عما أراده به من الهدى.

قيل له : لو قلنا ذلك ، لكان إنما يدل على أنه تعالى قد أراد التمسك بالإيمان ، ولا يدل على أنه خلق!! وهذا قولنا.

فإن قالوا : أفيلزم أن تقولوا بمثله فى قوله تعالى : (وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ).

قيل له : لا يجب إذا حملنا الظاهر الأول على حقيقته أن نحمل الثانى مع قيام الدلالة المضطرة إلى حمله على التوسع ؛ لأن القياس لا يستعمل فيما هذا حاله.

وبعد ، فإن ظاهر الكلام يقتضى أنه أراد بقوله : (وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ) عما هدى إليه الفرقة الأولى ، بأن يضله عن الأدلة والبيان وهذا مما يطلقه القوم ؛ لأنهم لا يجوزون التكليف مع فقد الأدلة والبيان، كما يجيزونه مع فقد القدرة.

والمراد عندنا بالآية : أنه أراد بقوله : فمن يرد الله أن يهديه إلى الثواب فى الآخرة جزاء له على إيمانه ، يشرح صدره للإسلام ، ومن يرد أن يضله عن الثواب فى الآخرة يجعل صدره ضيقا حرجا ، وظاهر الكلام يقتضى أن المراد مستقبل ، ولا يمكن أن يمنع من حمله على ما قلناه!

فإن قيل : فما الفائد فى شرح الله الصدر وضيقه فى الفريقين ، وأى تعلق لهما بالهداية والضلالة اللذين ذكرتموهما؟

قيل له : إنه تعالى بين أن من يرد الله أن يهديه إلى الثواب فى الآخرة. يلطف له فى الدنيا بضروب من الألطاف والتأييد وزيادات الهدى ، فيشرح بذلك صدره للإيمان ، ومن يرد عقابه يفعل فيه ما يقتضى ضيق صدره بما هو فيه من إظهار الأدلة ، إلى ما شاكله ، وهذا يؤذن أنه أراد من كل واحد منهما الطاعة ؛ لأنه إن أراد شرح صدر المؤمن كان أقرب إلى تثبيته « على إيمانه ، وإذا ضيق صدر الكافر كان أقرب إلى أن يقلع عن الكفر ؛ لأن المتعالم من حال من ضاق صدره بشيء وتحير فيه ، أن يطلب التخلص منه.[164]

[164] متشابه القرآن 264/263/262

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَرَبُّكَ ٱلۡغَنِيُّ ذُو ٱلرَّحۡمَةِۚ إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ وَيَسۡتَخۡلِفۡ مِنۢ بَعۡدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوۡمٍ ءَاخَرِينَ ١٣٣﴾ الأنعام: ١٣٣

قال أبو مسلم: المراد أنه قادر على ان يخلق خالقا ثالثا مخالفا للجن والإنس، قال القاضي: وهذا الوجه أقرب لأن القوم يعلمون بالعادة أنه تعالى قادر على إنشاء أمثال هذا الخلق فمتى حمل على خلق ثالث ورابع يكون أقوى في دلالة القدرة فكأنه تعالى نبه على أن قدرته ليست مقصورة على جنس دون جنس من الخلق الذين يصلحون لرحمته العظيمة التي هي النواب فبين بهذا الطريق أنه تعالى لرحمته لهؤلاء القوم الحاضرين أبقاهم وأمهلهم ولو شاء لأماتهم وأفناهم وأبدل بهم سواهم ثم بين تعالى علة قدرته على ذلك فقال: كما أنشأكم من ذرية قوم آخرين لأن المرء العاقل إذا تفكر علم أنه تعالى خلق الإنسان من نطفة ليس فيها من صورته قليل ولا كثير فوجب أن يكون ذلك بمحض القدرة والحكمة وإذا كان الأمر كذلك فكما قدر تعالى على تصوير هذه الأجسام بهذه الصورة الخاصة فكذلك يقدر على تصويرهم بصورة مخالفة لها.[165] *

---

[165] تفسير الرازي ج13 ص 156.

* قلت: وفيها إشارة ظريفة للتطور الموجه، أي آية (من ذرية قوم آخرين) ذكر شيخنا الجاحظ في الحيوان اشارة لهذا فقال: وقد خبّرنا من لا يحصى من النّاس أنّهم قد أدركوا رجالا من نبط بيسان ، ولهم أذناب إلّا تكن أذناب التماسيح والأسد والبقر والخيل؛ وإلّا كأذناب السّلاحف والجرذان، فقد كان لهم عجوب طوال كالأذناب.

وربّما رأينا الملّاح النّبطيّ في بعض الجعفريّات على وجهه شبه القرد. وربّما رأينا الرّجل من المغرب فلا نجد بينه وبين المسخ، إلّا القليل.

وقد يجوز أن يصادف ذلك الهواء الفاسد، والماء الخبيث، والتربة الرديّة، ناسا في صفة هؤلاء المغربيّين والأنباط، ويكونون جهّالا، فلا يرتحلون؛ ضنانة بمساكنهم وأوطانهم، ولا ينتقلون. فإذا طال ذلك عليهم زاد في تلك الشعور، وفي تلك الأذناب، وفي تلك الألوان الشّقر، وفي تلك الصّور المناسبة للقرود.

قالوا: ولم نعرف، ولم يثبت عندنا بالخبر الذي لا يعارض، أنّ الموضع الذي قلب صور قوم إلى صور الخنازير، هو الموضع الذي نقل صور قوم إلى صور القرود.

وقد يجوز أن تكون هذه الصّور انقلبت في مهبّ الريح الشمالي، والأخرى في مهبّ الجنوب. ويجوز أن يكون ذلك كان في دهر واحد؛ ويجوز أن يكون بينهما دهر ودهور.

قالوا: فلسنا ننكر المسخ إن كان على هذا الترتيب؛ لأنّه إن كان على مجرى الطّبائع، وما تدور به الأدوار، فليس ذلك بناقض لقولنا، ولا مثبت لقولكم.

قال أبو إسحاق: الذي قلتم ليس بمحال، ولا ينكر أن يحدث في العالم برهانا وذلك المسخ كان على مجرى ما أعطوا من سائر الأعاجيب، والدّلائل والآيات. ونحن إنّما عرفنا ذلك من قبلهم. ولولا ذلك لكان الذي قلتم غير ممتنع.

ولو كان ذلك المسخ في هذا الموضع على ما ذكرتم، ثمّ خبر بذلك نبيّ، أو دعا به نبيّ، لكان ذلك أعظم الحجّة.

فأما أبو بكر الأصمّ، وهشام بن الحكم، فإنّهما كانا يقولان بالقلب، ويقولان:

إنّه إذا جاز أن يقلب الله خردلة من غير أن يزيد فيها جسما وطولا أو عرضا جاز أن يقلب ابن آدم قردا من غير أن ينقص من جسمه طولا أو عرضا.

وأمّا أبو إسحاق فقد كان- لولا ما صحّ عنده من قول الأنبياء وإجماع المسلمين على أنّه قد كان، وأنّه قد كان حجّة وبرهانا في وقته- لكان لا ينكر مذهبهم في هذا الموضع.

وقوله هذا قول جميع من قال بالطّبائع، ولم يذهب مذهب جهم، وحفص الفرد.

قَالَ تَعَالَى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَـٰتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَـٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَـٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَـٰنِهَا خَيْرًا ۗ قُلِ ٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٥٨﴾﴾ الأنعام: ١٥٨

(هَلْ يَنْظُرُونَ) قال ابوعلي: معناه هل تنتظر انت يامحمد واصحابك الاهذا؟ وهم وان انتظروا غيره فذلك لايعتد به في جنب ما تنتظرونه من الاشياء المذكورة لعظم شأنها، وهو مثل قوله " ومارميت اذ رميت ولكن الله رمى ، وتكلمت ولم تتكلم بمالا يعتد به.[166]

قال شيخنا الحاكم الجشمي: (أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ) فيه أقوال:

الأول: أو يأتي أمر ربك بالعذاب، عن الحسن، وجاز هذا الحذف كما جاز في قوله: (إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ) يعني أوليائه، وكقولهم عند ظهور جور وحيف بني أمية: جاءنا بني أمية يعني جورهم، وعند ظهور عدل عمر: جاءنا عمر أي: عدله.

الثاني: أو يأتي ربك بجلائل آياته، فيكون المعنى يأتي به ، على معنى الفعل المتعدى.

الثالث: أنهم يعرفونه ضرورة، فكأنه أتاهم فشاهدوه.

الرابع: يأتي بالوقت الذي يكون الأمر فيه كله لله، يعني يوم القيامة، فأما حقيقة الإتيان فلا تجوز عليه تعالى؛ لأن ذلك من صفات الأجسام، والله تعالى ليس بجسم.

(أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ) قيل: طلوع الشمس من مغربها، عن مجاهد وقتادة والسدي، وروي ذلك مرفوعا، وقيل: عذاب استئصال، فيكون تقدير الآية: ما ينتظرون إلا نتزول الملائكة تقبض الأرواح، أو أمر الله بأخذهم في القيامة، أو عذاب الاستئصال ينزل بهم، عن الأصم وأبي مسلم، وقيل: كلآية تضظر إلى المعرفة، فيزول التكليف بها، وقيل: بعض آيات ربك ما وعدهم من الانتقام منهم في الدنيا إن لم يتوبوا، (يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ) التي تضظرهم إلى المعرفة، فيزول التكليف (لَا يَنْفَعُ نَفْسًا

166 البيان في تفسير القرآن للطوسي ج4 ص 326

* وقد بيّنا سابقا خرافة الدجال وعودة المسيح وأنها مجرد اساطير تسربت للاسلام.

إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ) قيل: الآيات الحواجب عن التوبة ستة، وروي عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: (بادروا بالأعمال ستة: طلوع الشمس من المغرب، والدابة والدجال، والدخان، وخويصة أحدكم – أي موته – وأمر العامة – يعني القيامة* - ، عن الحسن عن النبي، وقيل: (طلوع الشمس من المغرب، والدجال، ودابة الأرض). ابن مسعود وأبو هريرة، ورفعه إلى النبي، وقيل: هو طلوع الشمس من مغربها، رواه جماعة عن النبي، (لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا) ليس المراد به الإيمان الشرعي؛ لأنه ينفع متى وجد، واختلفوا فقيل: أراد جنس الإيمان الذي لو وقع مع التخلية لَنَفَعَ، وقيل: المراد به التصديق.

(أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا) فيه ثلاثة أقوال:

الأول: الإيهام في أحد الأمرين.

الثاني: التغليب؛ لأن الأكثر ممن ينتفع بإيمانه حينئذ مَنْ كان كسب في إيمانه خيرا قبل.

الثالث: لأنه لا ينفعه إيمانه حينئذ، وإن اكتسب فيه خيرا إلا أن يكون ممن آمن قبل، عن السدي، وكسب الخير في الإيمان هو الاستكثار من أعمال البر...[167]



قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ يُغۡشِي ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَ يَطۡلُبُهُۥ حَثِيثٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتِۭ بِأَمۡرِهِۦٓۗ أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٥٤﴾ الأعراف: ٥٤

[167] التهذي في التفسير ج4 ص 2479/2478/2477

قال شيخنا الحاكم الجشمي: الاستواء: الاستقرار، ومنه: (وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ)، والاستواء: القصد، ومنه: (ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ)، وكل مرفوع من أمره قصد لغيره فقد استوى له، وإليه.

قال ابن عرفة: الاستواء من الله الإقبال على الشيء والقصد له.

قال الفراء: تقول العرب: استوى إلي يخاصمني؛ أي: أقبل عليّ، والاستواء: الاستيلاء، قال الشاعر:

قد استوى بشر على العراق

وقال الآخر:

فلّما علونا واستوينا عليهم   تركناهم صرعى لنسر وكاسر

والإستواء: العلو، قال تعالى: (فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ).

والعرش: السرير، ومنه: (وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ)، والعرش: الملك، يقال: ثُل عرشهم، والعرش: السقف، وعرش البيت سقفه، قال تعالى: (وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا)، ومنه الحديث: (أو كالقناديل المعلق بالعرش)، والعرش: البناء، ومنه: (وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ) أي يبنون، ومنه عريش الكَرِم، ومنه: (وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ)، قال أبو مسلم: يعني بنى السماوات والأرض على الماء، وذلك أبلغ في القدرة وأعجب، وقيل: عَرَشَ، ويَعْرِشُ بكسر الراء وضمها، ومنه: العريش: ما يستظل به، قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم: ألا نبني لك عريشا.[168]

قال شيخنا الزمخشري: (يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثاً) وقرئ يغشى بالتشديد، أى يلحق الليل النهار، والنهار بالليل يحتملهما جميعاً. والدليل على الثاني قراءة حميد بن قيس: يغشى الليل النهار، بفتح الياء ونصب الليل ورفع النهار، أى يدرك النهار الليل ويطلبه حثيثاً، حسن الملاءمة لقراءة حميد (بِأَمْرِهِ) بمشيئته وتصريفه، وهو متعلق بمسخرات أى خلقهنّ جاريات بمقتضى حكمته وتدبيره، وكما يريد أن يصرفها سمى ذلك أمرا على التشبيه، كأنهنّ مأمورات بذلك. وقرئ: والشمس والقمر

[168] التهذيب في التفسير ج4 ص 2588/2587

والنجوم مسخرات، بالرفع. ولما ذكر أنه خلقهنّ مسخرات بأمره قال (أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ) أى هو الذي خلق الأشياء كلها، وهو الذي صرفها على حسب إرادته.[169]

والوجه في خلقه إياهما " في ستة أيام " مع أنه قادر على إنشائهما دفعة واحدة قيل فيه وجوه: أحدها: قال أبوعلي: ذلك لاعتبار الملائكة بخلق شئ بعد شئ.

وقال الرماني: يجوز أن يكون الاعتبار بتصور الحال في الاخبار، ومعناه إذا أخبر الله تعالى بأنه " خلق السماوات والارض في ستة أيام " كان فيه لطف للمكلفين، وكان ذلك وجه حسنه.[170]

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكّٗا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقٗاۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٤٣﴾ الأعراف: ١٤٣

قال شيخنا الزمخشري: (لِمِيقاتِنا) لوقتنا الذي وقتنا له وحدّدنا. ومعنى اللام الاختصاص، فكأنه قيل: واختص مجيئه بميقاتنا، كما تقول: أتيته لعشر خلون من الشهر وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ من غير واسطة كما يكلم الملك، وتكليمه: أن يخلق الكلام منطوقا به في بعض الأجرام كما خلقه مخطوطا في اللوح ورُوى: أن موسى عليه السلام كان يسمع ذلك الكلام من كل جهة. وعن ابن عباس رضى الله عنه: كلمه أربعين يوما وأربعين ليلة، وكتب له الألواح. وقيل إنما كلمه في أول الأربعين، (أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ) ثانى مفعولي أرنى محذوف أى أرنى نفسك أنظر إليك. فإن قلت: الرؤية عين النظر، فكيف قيل: أرنى أنظر إليك؟ قلت: معنى أرنى نفسك، اجعلنى متمكناً من رؤيتك بأن تتجلى لي فأنظر إليك وأراك، فإن قلت: فكيف قال لَنْ تَرانِي ولم يقل لن تنظر إلىّ، لقوله (أَنْظُرْ إِلَيْكَ)؟ قلت: لما قال (أَرِنِي) بمعنى اجعلنى متمكناً من الرؤية التي هي الإدراك، علم أن الطلبة هي الرؤية لا النظر الذي لا إدراك معه، فقيل: لن تراني، ولم يقل لن تنظر إلىّ. فإن قلت: كيف طلب موسى عليه السلام ذلك- وهو من أعلم الناس بالله وما يجوز عليه وما لا يجوز، وبتعاليه عن الرؤية التي هي إدراك ببعض الحواس، وذلك إنما

---

[169] الكشاف ج2 ص 110

[170] التبيان في التفسير للطوسي ج4 ص 423/422

يصحّ فيما كان في جهة. وما ليس بجسم ولا عرض فمحال أن يكون في جهة. ومنعُ المجبرة إحالته في العقول غير لازم، لأنه ليس بأوّل مكابرتهم وارتكابهم، وكيف يكون طالبه وقد قال- حين أخذت الرجفة الذين قالوا أرنا الله جهرة- (أَتُهْلِكُنا بِما فَعَلَ السُّفَهاءُ مِنَّا) إلى قوله (تُضِلُّ بِها مَنْ تَشاءُ) فتبرأ من فعلهم ودعاهم سفهاء وضلالا-؟ قلت: ما كان طلب الرؤية إلا ليبكت هؤلاء الذين دعاهم سفهاء وضلالا. وتبرأ من فعلهم، وليلقمهم الحجر، وذلك أنهم حين طلبوا الرؤية أنكر عليهم وأعلمهم الخطأ ونبههم على الحق، فلجوا وتمادوا في لجاجهم وقالوا: لا بدَّ، ولن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة، فأراد أن يسمعوا النص من عند الله باستحالة ذلك، وهو قوله (لَنْ تَرانِي) ليتيقنوا وينزاح عنهم ما دخلهم من الشبهة، فلذلك قال: (رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ). فإن قلت: فهلا قال: أرهم ينظروا إليك؟ قلت: لأنّ الله سبحانه إنما كلم موسى عليه السلام وهم يسماعون، فلما سمعوا كلام رب العزة أرادوا أن يرى موسى ذاته فيبصروه معه، كما أسمعه كلامه فسمعوه معه، إرادة مبنية على قياس فاسد. فلذلك قال موسى: أرنى أنظر إليك، ولأنه إذا زجر عما طلب، وأنكر عليه في نبوّته واختصاصه وزلفته عند الله تعالى، وقيل له: لن يكون ذلك: كان غيره أولى بالإنكار، ولأنّ الرسول إمام أمته، فكان ما يخاطب به أو ما يخاطب راجعاً إليهم. وقوله (أَنْظُرْ إِلَيْكَ) وما فيه من معنى المقابلة التي هي محض التشبيه والتجسيم، دليل على أنه ترجمة عن مقترحهم وحكاية لقولهم، وجل صاحب الجمل أن يجعل الله منظوراً إليه، مقابلا بحاسة النظر، فكيف بمن هو أعرق في معرفة الله تعالى من واصل بن عطاء، وعمرو بن عبيد، والنظام، وأبى الهذيل والشيخين، وجميع المتكلمين؟ فإن قلت: ما معنى (لَنْ)؟ قلت: تأكيد النفي الذي تعطيه «لا» وذلك أن «لا» تنفى المستقبل. تقول: لا أفعل غداً، فإذا أكدت نفيها قلت: لن أفعل غداً. والمعنى: أنّ فعله ينافي حالى، كقوله (لَنْ يَخْلُقُوا ذُباباً وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ) فقوله (لا تُدْرِكُهُ الْأَبْصارُ) نفى للرؤية فيما يستقبل. ولن تراني تأكيد وبيان، لأنّ المنفي مناف لصفاته. فإن قلت: كيف اتصل الاستدراك في قوله (وَلكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ) بما قبله؟ قلت: اتصل به على معنى أنّ النظر إلىّ محال فلا تطلبه ولكن عليك بنظر آخر: وهو أن تنظر إلى الجبل الذي يرجف بك وبمن طلبت الرؤية لأجلهم، كيف أفعل به وكيف أجعله دكا بسبب طلبك الرؤية؟ لتستعظم ما أقدمت عليه بما أريك من عظم أثره، كأنه عزّ وعلا حقق عند طلب الرؤية ما مثله عند نسبة الولد إليه في

قوله (وَتَخِرُّ الْجِبالُ هَدًّا، أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمنِ وَلَداً. فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكانَهُ) كما كان مستقراً ثابتاً ذاهباً في جهاته (فَسَوْفَ تَرانِي) تعليق لوجود الرؤية بوجود ما لا يكون من استقرار الجبل مكانه حين يدكه دكا ويسويه بالأرض، وهذا كلام مدمج بعضه في بعض، وارد على أسلوب عجيب ونمط بديع. ألا ترى كيف تخلص من النظر إلى النظر بكلمة الاستدراك؟ ثم كيف بنى الوعيد بالرجفة الكائنة بسبب طلب النظر على الشريطة في وجود الرؤية؟ أعنى قوله (فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكانَهُ فَسَوْفَ تَرانِي. فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ) فلما ظهر له اقتداره وتصدى له أمره وإرادته (جَعَلَهُ دَكًّا) أى مدكوكا مصدر بمعنى مفعول كضرب الأمير....[171]

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِذۡ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ وَأَشۡهَدَهُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَلَسۡتُ بِرَبِّكُمۡۖ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدۡنَآۚ أَن تَقُولُواْ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنۡ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ١٧٢﴾ الأعراف: ١٧٢

قال قاضي القضاة: أن ظاهر الكلام بخلاف ما يتعلق به الحشوية ؛ لأنهم يزعمون أنه تعالى أخذ الميثاق على كل أولاد آدم وهم بمنزلة الذر فى ظهره ، وهذا بخلاف الظاهر ، لأنه قال : (وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ)

وذلك يقتضى أن المراد هم بنو آدم ، وهذا الاسم لا يقع على الأجزاء المركبة فى ظهر آدم ، ويقتضى أن المراد به ظهورهم ، يعنى : ظهور بنى آدم التى خرج منها ذريتهم ، وذلك بخلاف ما قالوه ، ولأنه لو كان كل ولد آدم فى ظهره لوجب أن يكون ظهره فى العظم بالحد الذى قد علمنا خلافه ، ولأنه تعالى قد بين أنه يخلق الإنسان من نطفة ، وأقل ما يخلق منه ما يقع هذا الاسم عليه ، وقد علمنا أن ظهر آدم لم يشتمل على القدر الذى يخلق منه سائر أولاده.

وبعد ، فإن الأجزاء إذا كانت غير حية لم يصح أخذ الميثاق عليها ولا إشهادها على أنفسها ، فكيف يصح التعلق بما ذكره؟

171 الكشاف ج2 ص 155/151

وبعد ، فإنه تعالى ذكر فى آخر الآية ما يدل على أن المراد بالآية الكفار ؛ لأن المؤمنين لا يجوز أن يقولوا: (إِنَّا كُنَّا عَنْ هذا غافِلِينَ) لأن من غفل عن أنه تعالى ربه ومالكه لا يكون مؤمنا. وكل ذلك يمنع مما يذكرون من الجهالة.

والمراد بالآية : أنه تعالى أخذ فى الحقيقة الميثاق على طائفة من ذرية آدم الخارجين من ظهور بنى آدم المخلوقين من أصلابهم ، بأن أرسل إليهم الرسل وعرفهم ذلك من قبلهم بالحجج ، ثم بين أنهم خالفوا وتركوا التمسك بذلك ، وأنهم يوم القيامة يعتذرون بالغفلة!

ومتى حمل على هذا الوجه طابق الظاهر ووافق ما يقتضيه العقل من أن الغرض بأخذ العهد والميثاق أن يتذكره من يؤخذ ان عليه ، ليكون ذلك حجة عليه إذا عذب وأخذ بذنبه ، وذلك لا يصح إلا فى العاقل المميز المتذكر للخطاب.

ولو كان الأمر كما قالوا من أنه تعالى قد أخذ العهد على كل ولد آدم عند كونهم فى ظهره لوجب أن يذكروا ذلك على بعض الوجوه ، لأن من حق العاقل أن يذكر بعض أحواله المتقدمة ، فى حال كمال عقله وإن تطاول بينهما الزمان ، إلا أن يقولون : إنه تعالى أخذ الميثاق والعهد عليهم ولما يحيهم. وقد بينا أن ذلك عبث!.[172]

<u>قال شيخنا الزمخشري</u>: (مِنْ ظُهُورِهِمْ) بدل من بنى آدم بدل البعض من الكل. ومعنى أخذ ذرّياتهم من ظهورهم:

إخراجهم من أصلابهم نسلا وإشهادهم على أنفسهم. وقوله أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ؟ قالُوا: بَلى شَهِدْنا من باب التمثيل والتخييل ! ومعنى ذلك أنه نصب لهم الأدلة على ربوبيته ووحدانيته، وشهدت بها عقولهم وبصائرهم التي ركبها فيهم وجعلها مميزة بين الضلالة والهدى، فكأنه أشهدهم على أنفسهم وقررهم وقال لهم: ألست بربكم؟ وكأنهم قالوا: بلى أنت ربنا، شهدنا على أنفسنا وأقررنا بوحدانيتك. وباب التمثيل واسع في كلام الله تعالى ورسوله عليه السلام، وفي كلام العرب.[173]

---

[172] متشابه القرآن لقاضي القضاة ص 304/302
[173] الكشاف ج2 ص 176



قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ فَلَمۡ تَقۡتُلُوهُمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمۡۚ وَمَا رَمَيۡتَ إِذۡ رَمَيۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ وَلِيُبۡلِيَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡهُ بَلَآءً حَسَنًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ١٧ ﴾ الأنفال: ١٧

قال شيخنا قاضي القضاة: قالوا : ثم ذكر تعالى بعده ما يدل على أنه الفاعل لتصرف العبد وكسبه ، فقال : (فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلٰكِنَّ اللّهَ قَتَلَهُمْ ، وَما رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلٰكِنَّ اللّهَ رَمى ...) [17] فأضاف قتلهم ورميهم إلى نفسه.

والجواب عن ذلك : أن ظاهر الكلام يقتضى أنه تعالى هو الذى قتل الكفار دون المؤمنين ، وذلك يوجب فى كل قتل أن يكون تعالى فعله ، وأن يوصف بأنه قتل الأنبياء والصالحين!

ويلزمهم أن تكون الأسماء المشتقة من هذه الأفعال لله تعالى دون العبد ، وهذا مما لا يبلغه مسلم ؛ لأن القوم إن أضافوا الفعل إلى الله ، فمن قولهم إن الظالم القاتل المجبر هو العبد ، دونه ، لعلل باطلة يذكرونها فى ذلك! والآية تنقض هذا القول منهم ، فتعلقهم بظاهرها لا يمكن.

ويجب بالآية أن لا يجوز وصف العبد بأنه قتل وهو قاتل ، وهذا مما لا يقول به أحد ، ويوجب أن يكون تعالى هو الموصوف بأنه رمى ؛ من الرمى الواقع من العبد.

وفى ذلك ما قدمناه من وجوب وصفه تعالى بكل اسم مشتق من فعل العبد!

وبعد ، فإن حمله على ظاهره يوجب التناقض ؛ لأنه تعالى أثبت الرمى له بقوله : (إِذْ رَمَيْتَ) ثم نفاه عنه بقوله : (وَما رَمَيْتَ) ، (وَلٰكِنَّ اللّهَ رَمى) ، فلا بد من تأويله على خلاف الظاهر ، ومتى وجب الدخول فى التأويل بطل التعلق لهم بالظاهر!

والمراد بالآية : أنه تعالى بين للمؤمنين أن ما فعلوه من قتل الكفار ، لم يكن على جهة الاستبداد منهم وبحولهم وقوتهم ، وأنهم وصلوا إليه بمعونته تعالى وألطافه ؛ لأنهم لو لم ينصرهم بالإمداد بالملائكة ،

والربط على القلب وتثبيت القدم ، وإلقاء الرعب فى قلوب الكفار ؛ لم يتم لهم من قتلهم ما تم ، وقد بينا جواز إضافة الطاعة إليه تعالى إذا وقعت بتيسيره وألطافه ومعونته ، فلا وجه لإعادة ذكره.

فأما قولى تعالى : (وَما رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلكِنَّ اللّهَ رَمى) فقد يصح حمله على ما قلناه ، لأنه بألطافه وتأييده تم له فى الرمى ما تم.

ويجوز أن يريد به : وما بلغت الرمى حيث بلغ إذ رميت ، ولكن الله بلغه ؛ لأنه على ما روى تناول التراب والحصى فرمى به وجوه الكفار فقال : (شاهت الوجوه) ، فوصل ذلك إلى عيونهم وأوهى قلبهم ، وذلك منه تعالى وإن كان صلّى الله عليه وسلم ابتدأ الرمى.

ثم يقال للقوم : إن كان تعالى قتل ورمى فيجب أن لا يكون للمؤمنين فيه صنع ولا يستحقون المدح ، وكان لا يصح التمدح بقوله تعالى : (لا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقاتَلَ) لأن ذلك القتل والقتال من الله تعالى لا منهم. وهذا ظاهر الفساد.

وقوله تعالى : (وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلاءً حَسَناً) يدل على أن القتل والرمى فعلهم ؛ وأنه تعالى أضافهما إلى نفسه من الوجوه التى بيناها ، فكأنه بين أنه لفضل ألطافه يبتلى المؤمنين وينعم عليهم ويحسن ؛ لأن كل ذلك من نعمه وأفضاله ، ولو كان الأمر كما قالوا لم يصح أن يوصفوا بأن ما فعلوه من البلاء الحسن ، وكل ذلك بين.[174]

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ٢٤﴾ الأنفال: ٢٤

(وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ) : أي يحول بين المرء و بين الانتفاع بقلبه بالموت فلا يمكنه استدراك ما فأت فبادروا إلى الطاعات قبل الحيلولة و دعوا التسويف عن الجبائي[175] ، وقال قاضي القضاة: وأما قوله تعالى من بعد : (وَاعْلَمُوا أَنَّ اللّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ) فلا يصح أن يتعلق به

---

174 متشابه القرآن ص 319/318/317

175 تفسير مجمع البيان ج4 ص 401

المجبرة فى أنه تعالى يمنع من الإيمان ؛ لأن ظاهره يقتضى أنه يحول بين المرء وقلبه لا بينه وبين أفعال قلبه ، ولأنه لو أراد الحيلولة فى الحقيقة لم يكن فيه فائدة ؛ لأن بيننا وبين القلب حائلا ، ولذلك لا نراه كما لا نرى المستور المحجوب ، فلا ظاهر للقوم!

والمراد بذلك : أن يحول بين المرء وقلبه بالإماتة فيخرج من أن يمكنه التلافى بالتوبة والندم ، ورغب تعالى بذلك فى المبادرة إلى التوبة وتلافى المعصية ، ويؤكد ذلك ما تقدمه من قوله : (اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذا دَعاكُمْ لِما يُحْيِيكُمْ) « فأمر بالمبادرة إلى طاعة الله ورسوله قبل حلول الموت الذى يفوت ذلك.

وقوله (لِما يُحْيِيكُمْ) قد حمله أبو على رضى الله عنه على وجهين : أحدهما :

أن المراد به حال الثواب ، لأنه يقتضى الإحياء الدائم.

والثانى : أنه أراد به المبالغة فى الجهاد لكيلا يقوى العدو فيقدم عليهم بالقتل ، فيكون ذلك إحياء فى المعنى ويقارب قوله تعالى : (وَلَكُمْ فِي الْقِصاصِ حَياةٌ).[176]



قَالَ تَعَالَى: ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلۡأَشۡهُرُ ٱلۡحُرُمُ فَٱقۡتُلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡ وَخُذُوهُمۡ وَٱحۡصُرُوهُمۡ وَٱقۡعُدُواْ لَهُمۡ كُلَّ مَرۡصَدٖۚ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٥ وَإِنۡ أَحَدٞ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٱسۡتَجَارَكَ فَأَجِرۡهُ حَتَّىٰ يَسۡمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبۡلِغۡهُ مَأۡمَنَهُۥۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَعۡلَمُونَ ٦﴾ التوبة: ٥ – ٦

---

[176] متشابه القرآن ص 322/321

قال الزمخشري: انسلخ الشهر، كقولك انجرد الشهر، وسنة جرداء. و(الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ) التي أبيح فيها للناكثين أن يسيحوا (فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ) يعنى الذين نقضوكم وظاهروا عليكم (حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ) من حلّ أو حرم (وَخُذُوهُمْ) وأسروهم. والأخيذ: الأسير (وَاحْصُرُوهُمْ) وقيدوهم وامنعوهم من التصرف في البلاد. وعن ابن عباس رضى الله عنه: حصرهم أن يحال بينهم وبين المسجد الحرام (كُلَّ مَرْصَدٍ) كلّ ممرّ ومجتاز ترصدونهم به، وانتصابه على الظرف كقوله (لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِراطَكَ الْمُسْتَقِيمَ)
فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ فأطلقوا عنهم بعد الأسر والحصر. أو فكفوا عنهم ولا تتعرّضوا لهم كقوله: خَلِّ السَّبِيلَ لِمَنْ يَبْنِي الْمَنَارَ بِهِ ، وعن ابن عباس رضى الله عنه: دعوهم وإتيان المسجد الحرام إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ يغفر لهم ما سلف من الكفر والغدر.
(أَحَدٌ) مرتفع بفعل الشرط مضمراً يفسره الظاهر، تقديره: وإن استجارك أحد استجارك ولا يرتفع بالابتداء، لأنّ «إن» من عوامل الفعل لا تدخل على غيره. والمعنى: وإن جاءك أحد من المشركين بعد انقضاء الأشهر لا عهد بينك وبينه ولا ميثاق، فاستأمنك ليسمع ما تدعو إليه من التوحيد والقرآن، وتبين «2» ما بعثت له فأمّنه (حَتَّى يَسْمَعَ كَلامَ اللَّهِ) ويتدبره ويطلع على حقيقة الأمر (ثُمَّ أَبْلِغْهُ) بعد ذلك داره التي يأمن فيها إن لم يسلم. ثم قاتله إن شئت من غير غدر ولا خيانة، وهذا الحكم ثابت في كل وقت. وعن الحسن رضى الله عنه: هي محكمة إلى يوم القيامة.[177]

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٧﴾ كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا۟ فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ يُرْضُونَكُم بِأَفْوَٰهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨﴾﴾ التوبة: ٧ – ٨

قال شيخنا الحاكم الجشمي: (كَيْفَ يَكُونُ) أي: لا يكون، وقيل: تعجيب من حال المشركين (لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ) مع ما ظهر من غدرهم ونكثهم (إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ

[177] الكشاف ج2 ص 248/247

الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ) قيل: قريش، وقيل: قبائل بكر، وقيل: خزاعة، وأراد بالمسجد الحرام مسجد مكة (فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ) أي: ما داموا باقين معكم على العهد والطريقة المستقيمة فكونوا معهم كذلك (إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ) قيل: يحب من اتقى معاصيه، وقيل: يحب من اتقى النكث والغدر، ولا يجوز حمله على من اتقى نقض العهد وبقي على الكفر؛ لأنه تعالى لا يحب من هذه حاله إلا أن يُحْمَل على أنه يحب هذه الخصلة دون غيرها، فيجوز على بعد التأويل[178].

قال شيخنا الزمخشري: (كَيْفَ) تكرار لاستبعاد ثبات المشركين على العهد ، وحذف الفعل لكونه معلوماً كما قال:

وَخَبَّرْتُمَانِي أَنَّمَا الْمَوْتُ بِالْقُرَى ... فَكَيْفَ وَهَاتَا هَضْبَة وَقَليبُ

يريد: فكيف مات، أى: كيف يكون لهم عهد وَحالهم أنهم (إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ) بعد ما سبق لهم من تأكيد الأيمان والمواثيق، لم ينظروا في حلف ولا عهد ولم يبقوا عليكم (لا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا) لا يراعوا حلفاً. وقيل: قرابة. وأنشد لحسان رضى الله عنه:

لَعَمْرُكَ إِنَّ إِلَّكَ مِنْ قُرَيْش ... كَإِلِّ السَّقْبِ مِنْ رَأَلِ النَّعَامِ

وقيل إِلًّا إلها. وقرئ: إيلا، بمعناه. وقيل: جبرئيل، وجبرئيل، من ذلك. وقيل: منه اشتق الآل بمعنى القرابة، كما اشتقت الرحم من الرحمن، والوجه أن اشتقاق الإلّ بمعنى الحلف، لأنهم إذا تماسحوا وتحالفوا رفعوا به أصواتهم وشهروه، من الأول وهو الجؤار، وله أليل: أى أنين يرفع به صوته. ودعت ألليها: إذا ولولت ، ثم قيل لكل عهد وميثاق: إلّ. وسميت به القرابة، لأن القرابة عقدت بين الرجلين مالا يعقده الميثاق (يُرْضُونَكُمْ) كلام مبتدأ في وصف حالهم من مخالفة الظاهر الباطن، مقرّر لاستبعاد الثبات منهم على العهد. وإباء القلوب مخالفة ما فيها من الأضغان، لما يجرونه على ألسنتهم من الكلام الجميل (وَأَكْثَرُهُمْ فاسِقُونَ) متمرّدون خلعاء لا مروءة تزعهم ، ولا شمائل مرضية تردعهم، كما يوجد ذلك في بعض الكفرة، من التفادى عن الكذب والنكث، والتعفف عما يثلم العرض ويجرّ أحدوثة السوء.[179]

178 التهذيب في التفسير ج4 ص 3039/3038

179 الكشاف ج2 ص 250/249

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ ٱشۡتَرَوۡاْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنٗا قَلِيلٗا فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِهِۦٓۚ إِنَّهُمۡ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ۝٩ لَا يَرۡقُبُونَ فِي مُؤۡمِنٍ إِلّٗا وَلَا ذِمَّةٗۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُعۡتَدُونَ ۝١٠ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخۡوَٰنُكُمۡ فِي ٱلدِّينِۗ وَنُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ۝١١ وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُم مِّنۢ بَعۡدِ عَهۡدِهِمۡ وَطَعَنُواْ فِي دِينِكُمۡ فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلۡكُفۡرِ إِنَّهُمۡ لَآ أَيۡمَٰنَ لَهُمۡ لَعَلَّهُمۡ يَنتَهُونَ ۝١٢ ﴾ التوبة: ٩ – ١٢

قال شيخنا الزمخشري: (اشْتَرَوْا) استبدلوا (بِآياتِ اللَّهِ) بالقرآن والإسلام (ثَمَناً قَلِيلًا) وهو اتباع الأهواء والشهوات (فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِهِ) فعدلوا عنه أو صرفوا غيرهم. وقيل: هم الأعراب الذين جمعهم أبو سفيان وأطعمهم (هُمُ الْمُعْتَدُونَ) المجاوزون الغاية في الظلم والشرارة.

(فَإِنْ تابُوا) عن الكفر ونقض العهد (فَإِخْوانُكُمْ فِي الدِّينِ) فهم إخوانكم على حذف المبتدإ، كقوله تعالى (فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آباءَهُمْ فَإِخْوانُكُمْ). (وَنُفَصِّلُ الْآياتِ) ونبينها. وهذا اعتراض، كأنه قيل: وإن من تأمّل تفصيلها فهو العالم بعثاً وتحريضاً على تأمّل ما فصل من أحكام المشركين المعاهدين، وعلى المحافظة عليها.

(وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ) وثلبوه وعابوه (فَقاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ) فقاتلوهم، فوضع أئمة الكفر موضع ضميرهم: إشعاراً بأنهم إذا نكثوا في حال الشرك تمرّداً وطغيانا وطرحاً لعادات الكرام الأوفياء من العرب، ثم آمنوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وصاروا إخوانا للمسلمين في الدين، ثم رجعوا فارتدوا عن الإسلام ونكثوا ما بايعوا عليه من الإيمان والوفاء بالعهود، وقعدوا يطعنون في دين الله ويقولون ليس دين محمد بشيء، فهم أئمة الكفر وذوو الرياسة والتقدّم فيه، لا يشق كافر غبارهم. وقالوا: إذا طعن الدمى في دين الإسلام طعنا ظاهراً، جاز قتله، لأن العهد معقود معه على أن لا يطعن، فإذا طعن فقد نكث عهده وخرج من الذمّة (إِنَّهُمْ لا أَيْمانَ لَهُمْ) جمع يمين. وقرئ: لا إيمان لهم، أى لا إسلام لهم. أو لا يعطون الأمان بعد الردّة والنكث، ولا سبيل إليه. فإن قلت: كيف أثبت لهم الأيمان في قوله (وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمانَهُمْ) ثم نفاها عنهم؟

قلت: أراد أيمانهم التي أظهروها ثم قال: لا أيمان لهم على الحقيقة، وأيمانهم ليست بأيمان. وبه استشهد أبو حنيفة رحمه الله على أن يمين الكافر لا تكون يمينا. وعند الشافعي رحمه الله: يمينهم يمين. وقال: معناه أنهم لا يوفون بها، بدليل أنه وصفها بالنكث (لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ) متعلق بقوله (فَقاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ) أى ليكن غرضكم في مقاتلتهم بعد ما وجد منهم ما وجد من العظائم أن تكون المقاتلة سببا في انتهائهم عما هم عليه. وهذا من غاية كرمه وفضله وعوده على المسيء بالرحمة كلما عاد. فإن قلت: كيف لفظ أئمة؟ قلت: همزة بعدها همزة بين بين، أى: بين مخرج الهمزة والياء. وتحقيق الهمزتين قراءة مشهورة، وإن لم تكن بمقبولة عند البصريين. وأما التصريح بالياء فليس بقراءة. ولا يجوز أن تكون قراءة. ومن صرح بها فهو لا حن محرف.[180]

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوۡمٗا نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ وَهَمُّواْ بِإِخۡرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٍۚ أَتَخۡشَوۡنَهُمۡۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَوۡهُ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ١٣ قَٰتِلُوهُمۡ يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ بِأَيۡدِيكُمۡ وَيُخۡزِهِمۡ وَيَنصُرۡكُمۡ عَلَيۡهِمۡ وَيَشۡفِ صُدُورَ قَوۡمٖ مُّؤۡمِنِينَ ١٤ وَيُذۡهِبۡ غَيۡظَ قُلُوبِهِمۡۗ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ١٥﴾ التوبة: ١٣ – ١٥

قال شيخنا الزمخشري: (أَلا تُقاتِلُونَ) دخلت الهمزة على (لا تُقاتِلُونَ) تقريراً بانتفاء المقاتلة. ومعناه: الحض عليها على سبيل المبالغة (نَكَثُوا أَيْمانَهُمْ) التي حلفوها في المعاهدة (وَهَمُّوا بِإِخْراجِ الرَّسُولِ) من مكة حين تشاوروا في أمره بدار الندوة، حتى أذن الله تعالى له في الهجرة، فخرج بنفسه (وَهُمْ بَدَؤُكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ) أى: وهم الذين كانت منهم البداءة بالمقاتلة، لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم جاءهم أولا بالكتاب المنير وتحداهم به، فعدلوا عن المعارضة لعجزهم عنها إلى القتال فهم البادءون بالقتال والبادئ أظلم، فما يمنعكم من أن تقاتلوهم بمثله، وأن تصدموهم بالشر كما صدموكم؟ وبخهم بترك مقاتلتهم وحضهم عليها، ثم وصفهم بما يوجب الحض عليها. ويقرر أن من كان في مثل صفاتهم من نكث العهد وإخراج الرسول والبدء بالقتال من غير موجب، حقيق بأن لا

[180] الكشاف ج2 ص 251/250

تترك مصادمته، وأن يوبخ من فرط فيها (أَتَخْشَوْنَهُمْ) تقرير بالخشية منهم وتوبيخ عليها (فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ) فتقاتلوا أعداءه (إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ) يعنى أن قضية الإيمان الصحيح أن لا يخشى المؤمن إلا ربه، ولا يبالى بمن سواه، كقوله تعالى (وَلا يَخْشَوْنَ أَحَداً إِلَّا اللَّهَ).[181]

(أَلا تُقاتِلُونَ نَكَثُوا أَيْمانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْراجِ الرَّسُولِ) هم اليهود الذين نقضوا العهد و خرجوا مع الأحزاب و هموا بإخراج الرسول من المدينة كما أخرجه المشركون من مكة عن الجبائي و القاضي.[182]

(وَهُمْ بَدَؤُكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ) قال ابن اسحاق والجبائي: بدؤوا بنقض العهد.[183] وكذا عن الأصم.[184]

قال الزمخشري: لما وبخهم الله على ترك القتال، جرّد لهم الأمر به فقال (قاتِلُوهُمْ) ووعدهم- ليثبت قلوبهم ويصحح نياتهم- أنه يعذبهم بأيديهم قتلا، ويخزيهم أسراً، ويوليهم النصر والغلبة عليهم (وَيَشْفِ صُدُورَ) طائفة من المؤمنين، وهم خزاعة، قال ابن عباس رضى الله عنه: هم بطون من اليمن وسبأ قدموا مكة فأسلموا، فلقوا من أهلها أذى شديداً، فبعثوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يشكون إليه، فقال: أبشروا فإن الفرج قريب (وَيُذْهِبْ غَيْظَ) قلوبكم لما لقيتم منهم من المكروه، وقد حصل الله لهم هذه المواعيد كلها، فكان ذلك دليلا على صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحة نبوّته (وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلى مَنْ يَشاءُ) ابتداء كلام، وإخبار بأن بعض أهل مكة يتوب عن كفره، وكان ذلك أيضا، فقد أسلم ناس منهم وحسن إسلامهم.[185]

(يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ) قال ابوعلي: ذلك مجاوز والمعنى انه لما كان ذلك بأمر الله اضافه إلى نفسه.[186]

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾﴾ التوبة: ٥١

181 الكشاف ج2 ص 252
182 تفسير مجمع البيان للطبرسي ج5 ص 17
183 التبيان في تفسير القرآن ج5 ص 178
184 التهذيب في التفسير للحاكم الجشمي ج4 ص 3047
185 الكشاف ج2 ص 253
186 البيان في تفسير القرآن ج5 ص 179

قال شيخنا قاضي القضاة: أن ظاهره إنما يقتضى أنه لن يصيبهم إلا ما كتب الله لهم وخبّر عن وقوعه ، وهذا قولنا. وإنما الخلاف فى هل يقدر على خلاف ما علمه تعالى وكتبه ، وهل يحسن التعبد به ، وليس فى ظاهر الكلام بيان ذلك فلا يصح تعلقهم به.

وقد بينا أنه لو كان لا يقدر العبد على خلاف ما علمه تعالى وكتبه ، لوجب أن يكون كالمحمول على ذلك وكالممنوع من خلافة ، وأن يكون هذا حال القديم تعالى فيما يقدر عليه من المتضادات وتقديم الأمور وتأخيرها ، وبينا أن ذلك يوجب كونه تعالى فى حكم المجبر على الفعل المحمول عليه ، فضلا عن العبد!

والمراد بالآية ما ينزل بالعبيد من الرخاء والشدة : لأنه تعالى قال قبله : (إِنْ تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنا أَمْرَنا مِنْ قَبْلُ) ثم بين تعالى أنه لا يصيبهم إلا ما كتبه وقدره ، مما علمه صلاحا وأنه لا معتبر بقولهم ولا بفرحهم وبجزعهم.[187]

قال الزمخشري: قرأ ابن مسعود رضى الله عنه: قل هل يصيبنا. وقرأ طلحة رضى الله عنه: هل يصيبنا، بتشديد الياء. ووجهه أن يكون «يفيعل» لا «يفعل» لأنه من بنات الواو، كقولهم: الصواب، وصاب السهم يصوب، ومصاوب في جمع مصيبة، فحق «يفعل» منه «يصوّب» ألا ترى إلى قولهم: صوّب رأيه، إلا أن يكون من لغة من يقول: صاب السهم يصيب. ومن قوله أسهمى الصائبات والصيب، واللام في قوله إِلَّا ما كَتَبَ اللَّهُ لَنا مفيدة معنى الاختصاص كأنه قيل: لن يصيبنا إلا ما اختصنا الله به بإثباته وإيجابه من النصرة عليكم أو الشهادة. ألا ترى إلى قوله (هُوَ مَوْلانا) أى الذي يتولانا ونتولاه، ذلك بأنّ الله مولى الذين آمنوا وأنّ الكافرين لا مولى لهم (وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ) وحق المؤمنين أن لا يتوكلوا على غير الله، فليفعلوا ما هو حقهم.[188]

كل ما يصيبنا من خير أو شر فهو ما كتبه الله في اللوح المحفوظ من أمرنا و ليس على ما تظنون و تتوهمون من إهمالنا من غير أن يرجع أمرنا إلى تدبير عن الحسن و قيل معناه لن يصيبنا في عاقبة أمرنا إلا ما كتب الله لنا في القرآن من النصر الذي وعدنا و أنا نظفر بالأعداء فتكون النصرة حسني لنا أو نقتل فتكون الشهادة حسني لنا أيضا أي فقد كتب الله لنا ما يصيبنا و علمنا ما لنا فيه من

---

[187] متشابه القرآن لقاضي القضاة ص 336/335

[188] الكشاف ج2 ص 278

الحظ عن الزجاج و الجبائي[189]، وقيل في معناه قولان: احدهما - ان كل ما يصيبنا من خير أو شر فهو مما كتبه الله في اللوح المحفوظ من أمرنا، وليس على ما تظنون وتتوهمون من اهمالنا من غير أن نرجع في أمرنا إلى تدبير ربنا، هذا قول الحسن. الثاني - قال الجبائي والزجاج: يحتمل أن يكون معناه لن يصيبنا في عاقبة أمرنا إلا ما كتب الله لنا في القرآن من النصر الذي وعدنا، وقال البلخي: يجوز ان يكون (كتب) بمعنى علم ويجوز ان يكون بمعنى حكم[190].

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ٱلۡأَعۡرَابُ أَشَدُّ كُفۡرٗا وَنِفَاقٗا وَأَجۡدَرُ أَلَّا يَعۡلَمُواْ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ٩٧ وَمِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغۡرَمٗا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَۚ عَلَيۡهِمۡ دَآئِرَةُ ٱلسَّوۡءِۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ٩٨ وَمِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ مَن يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِۚ أَلَآ إِنَّهَا قُرۡبَةٞ لَّهُمۡۚ سَيُدۡخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِي رَحۡمَتِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٩٩﴾ التوبة: ٩٧ - ٩٩

قال شيخنا الزمخشري: (الْأَعْرابُ) أهل البدو (أَشَدُّ كُفْراً وَنِفاقاً) من أهل الحضر لجفائهم وقسوتهم وتوحشهم، ونشئهم في بعد من مشاهدة العلماء ومعرفة الكتاب والسنة (وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا) وأحق بجهل حدود الدن وما أنزل الله من الشرائع والأحكام. ومنه قوله صلى الله عليه وسلم «إن الجفاء والقسوة في الفدّادين» (وَاللَّهُ عَلِيمٌ) يعلم حال كل أحد من أهل الوبر والمدر (حَكِيمٌ) فيما يصيب به مسيئهم ومحسنهم ومخطئهم ومصيبهم من عقابه وثوابه.

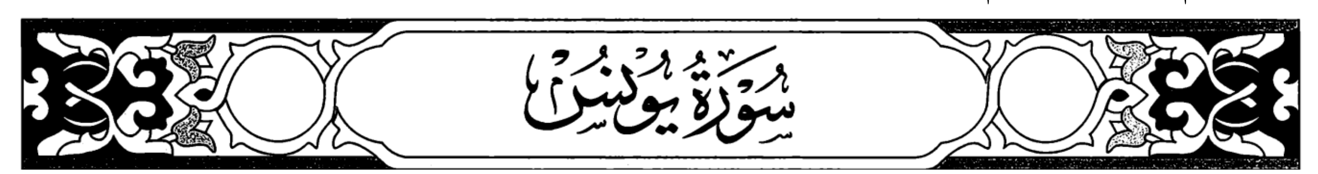
(مَغْرَماً) غرامة وخسراناً. والغرامة: ما ينفقه الرجل وليس يلزمه، لأنه لا ينفق إلا تقية من المسلمين ورياء، لا لوجه الله عزّ وجلّ وابتغاء المثوبة عنده (وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوائِرَ) دوائر الزمان: دوله وعقبه لتذهب غلبتكم عليه ليتخلص من إعطاء الصدقة عَلَيْهِمْ (دائِرَةُ السَّوْءِ) دعاء معترض، دعى عليهم

---

[189] تفسير مجمع البيان للطبرسي ج5 ص 57

[190] التبيان في تفسير القرآن ج5 ص 228 * **وتفسير البلخي طريف ومقبول اكثر على مذهب العدلية.**

بنحو ما دعوا به، كقوله عز وجل (وَقالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ) وقرئ السوء بالضم وهو العذاب، كما قيل له سيئة. والسوء بالفتح، وهو ذمّ للدائرة، كقولك: رجل سوء، في نقيض قولك: رجل صدق، لأنَّ من دارت عليه ذامّ لها (وَاللَّهُ سَمِيعٌ) لما يقولون إذا توجهت عليهم الصدقة (عَلِيمٌ) بما يضمرون. وقيل هم أعراب أسد وغطفان وتميم (قُرُباتٍ) مفعول ثان ليتخذ. والمعنى: أنّ ما ينفقه سبب لحصول القربات (عند الله وَصَلَواتِ الرَّسُولِ) لأن الرسول كان يدعو للمتصدقين بالخير والبركة ويستغفر لهم، كقوله «اللّهُمَّ صل على آل أبى أو في وقال تعالى (وَصَلِّ عَلَيْهِمْ) فلما كان ما ينفق سبباً لذلك قيل: يتخذ ما ينفق قربات وصلوات (أَلا إِنَّها) شهادة من الله للمتصدق بصحة ما اعتقد، من كون نفقته قربات وصلوات وتصديق لرجائه على طريق الاستئناف، مع حرفى التنبيه والتحقيق المؤذنين بثبات الأمر وتمكنه، وكذلك (سَيُدْخِلُهُمُ) وما في السين من تحقيق الوعد، وما أدل هذا الكلام على رضا الله تعالى عن المتصدقين، وأن الصدقة منه بمكان إذا خلصت النية من صاحبها. وقرئ قُرْبَةٌ بضم الراء. وقيل: هم عبد الله وذو البجادين ورهطه.[191]



قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي ضَرّٗا وَلَا نَفۡعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۗ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌۚ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ فَلَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ سَاعَةٗ وَلَا يَسۡتَقۡدِمُونَ ٤٩﴾ يونس: ٤٩

قال قاضي القضاة: والواجب عن ذلك : أن ظاهر الآية يدل على أن العبد يملك لنفسه من الضر والنفع ما شاء الله أن يملكه ، ولو كان كما قالوا لم يصح دخول الاستثناء فى الكلام!

وبعد ، فإن إطلاق الضر والنفع يفيد ما ينزل بالإنسان من الرخاء والشدة ، إلى غير ذلك مما لا يتصل باختياره ، وهذا مما لا يملكه العبد ، بل يتعلق بمشيئته تعالى .

---

[191] الكشاف ج2 ص 304/303

وبعد ، فلا يمتنع فى نفس فعل العبد أن يقال : إنه لا يملك الضر والنفع إلا ما شاء : من حيث كان تعالى الممكن له فيه بالقدرة وغيرها ، والقادر على منعه منه ، والمعين له عليه إذا كان طاعة ، فقد يجوز من هذا الوجه أن يقال : إنه لا يملك لنفسه منه الضر والنفع ، ويراد به أنه لا يصح أن يستبد بذلك على وجه يستغنى فيه عن تفضله تعالى وإحسانه.

ثم يقال للقوم : إن كان الكلام على ظاهره فيجب أن لا يملك الرسول عليهالسلام لنفسه التوصل إلى الثواب بالطاعات ، والتخلص من العقاب باجتناب المعاصى ، ولو كان كذلك لم يكن له مزية فى الفضل والرفعة ، ولزال عنه المدح والذم ، ولما صح منه تعالى أن يؤنبه على [بعض] الأمور ، ويتوعده إن هو أقدم على الشرك وغيره ، وهذا ظاهر الفساد.[192]



قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ * وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا وَيَعۡلَمُ مُسۡتَقَرَّهَا وَمُسۡتَوۡدَعَهَاۚ كُلّٞ فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ٦ ﴾ هود: ٦

قال شيخنا الحاكم الجشمي: (وَمَا مِنْ دَابَّةٍ) أي: ليس دابة صغرت أو كبرت، ومن كل حيوان يدب على الأرض، وقيل: كل ما أكل فهو دابة، (إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا) يعني قوتها، وهو المتكفل لذلك، و (على) تنبيه على الوجوب، وقيل: بمعنى (من) أي: من الله رزقها، لأنه تعالى خالق الأرزاق، (وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا) فيه أقوال:

أولها: مستقرها حيث تأوي إليه على وجه الأرض، ومستودعها حيث تموت وتبعث منه، عن ابن عباس والربيع.

وقيل: مستقرها في الرحم ومستودعها في الصلب، عن مجاهد.

---

[192] متشابه القرآن 308

وقيل: مستقرها في اصلاب آبائهم، ومستودعها في أرحام امهاتهم.

وقيل: مستقرها الرحم، ومستودعها مكان موتها، عن عبد الله

وقيل: مستقرها حيث تستقر فيه في حياته، والمستودع الرحم، عن أبي مسلم، قال: ويجوز أن يراد بالمستودع: ما أودعته وهو الباطن من أمرها.

وقيل: يعلم حيث يتصرف وينقلب، ويعلم حيث يسكن، عن أبي علي.

وقيل: مستقرها مأواها الذي تأوي إليه، ومستودعها يعني يعلم ما أودعها من تدبير الله الذي خلقها، عن الأصم.

وقيل: مستقرها وجه الأرض، ومستودعها باطن الأرض.

(كُلٌّ) يعني كل ذلك (فِي كِتَابٍ مُبِينٍ) أي: مثبت في اللوح المحفوظ، فثبته لطفا للملائكة وغيرهم، وفي الاخار لطفا لنا، وقيل: (فِي كِتَابٍ مُبِينٍ) أي: في علم الله قبل كونه، يعني إذا علم كل شيء قبل كونه، فكيف يقدرون على اخفائه، عن أبي مسلم.[193]

قال شيخنا الزمخشري: فإن قلت: كيف قال (عَلَى اللَّهِ رِزْقُها) بلفظ الوجوب وإنما هو تفضل؟ قلت: هو تفضل إلا أنه لما ضمن أن يتفضل به عليهم، رجع التفضل واجباً كنذور العباد. والمستقرّ: مكانه من الأرض ومسكنه. والمستودع حيث كان مودعا قبل الاستقرار، من صلب، أو رحم، أو بيضة كُلٌّ كل واحد من الدواب ورزقها ومستقرّها ومستودعها في اللوح، يعنى ذكرها مكتوب فيه مبين.[194]

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ وَكَانَ عَرۡشُهُۥ عَلَى ٱلۡمَآءِ لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗاۗ وَلَئِن قُلۡتَ إِنَّكُم مَّبۡعُوثُونَ مِنۢ بَعۡدِ ٱلۡمَوۡتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ٧﴾ هود: ٧

[193] التهذيب في التفسير ج5 ص 3456/3455
[194] الكشاف ج2 ص 380/379

قال شيخنا الزمخشري: وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ أى ما كان تحته خلق قبل خلق السموات والأرض. وارتفاعه فوقها إلا الماء. وفيه دليل على أنّ العرش والماء كانا مخلوقين قبل السموات والأرض.

وقيل: وكان الماء على متن الريح، والله أعلم بذلك، وكيفما كان فالله ممسك كل ذلك بقدرته، وكلما ازدادت الأجرام كانت أحوج إليه وإلى إمساكه (لِيَبْلُوَكُمْ) متعلق بخلق، أى خلقهن لحكمة بالغة، وهي أن يجعلها مساكن لعباده، وينعم عليهم فيها بفنون النعم، ويكلفهم الطاعات واجتناب المعاصي، فمن شكر وأطاع أثابه، ومن كفر وعصى عاقبه. ولما أشبه ذلك اختبار المختبر قال: ليبلوكم. يريد: ليفعل بكم ما يفعل المبتلى لأحوالكم كيف تعملون. فإن قلت: كيف جاز تعليق فعل البلوى؟ قلت: لما في الاختبار من معنى العلم، لأنه طريق إليه فهو ملابس له، كما تقول: انظر أيهم أحسن وجهاً واسمع أيهم أحسن صوتا، لأنّ النظر والاستماع من طريق العلم. فإن قلت: كيف قيل: (أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا) وأعمال المؤمنين هي التي تتفاوت إلى حسن وأحسن، فأمّا أعمال المؤمنين والكافرين فتفاوتها إلى حسن وقبيح؟ قلت: الذين هم أحسن عملا هم المتقون، وهم الذين استبقوا إلى تحصيل ما هو غرض الله من عباده، فخصهم بالذكر واطرح ذكر من وراءهم تشريفاً لهم وتنبيهاً على مكانهم منه، وليكون ذلك لطفاً للسامعين، وترغيباً في حيازة فضلهم. وعن النبي صلى الله عليه وسلم «ليبلوكم أيكم أحسن عقلا، وأورع عن محارم الله وأسرع في طاعة الله قرئ: ولئن قلت إنكم مبعوثون، بفتح الهمزة.

ووجهه أن يكون من قولهم: ائت السوق عنك تشترى لنا لحماً، وأنك تشترى بمعنى علك، أى: ولئن قلت لهم لعلكم مبعوثون، بمعنى: توقعوا بعثكم وظنوه، ولا تبتوا القول بإنكاره، لقالوا: (إِنْ هذا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ باتين القول ببطلانه. ويجوز أن تضمن «قلت» معنى «ذكرت» ومعنى قولهم إِنْ هذا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ) أنّ السحر أمر باطل، وأن بطلانه كبطلان السحر تشبيهاً له به. أو أشاروا بهذا إلى القرآن لأنّ القرآن هو الناطق بالبعث، فإذا جعلوه سحراً فقد اندرج تحته إنكار ما فيه من البعث وغيره. وقرئ: إن هذا إلا ساحر، يريدون الرسول، والساحر: كاذب مبطل،[195]

[195] الكشاف ج2 ص 381/380

وقال قاضي القضاة: لا ظاهر لإضافة العرش إليه فى أنه مكانه ؛ لأن الإضافات ـ على هذا الحد ـ تفترق وتنقسم ، على ما بينا القول فيه.

وقد قيل : إن المراد بالعرش العز والاقتدار ، دون الجسم العظيم ، وهذا يبطل تعلقهم به.

فأما أبو على رحمهالله ، فإنه حمل الكلام على العرش فى الحقيقة. فقال : كان الماء ساكنا واقفا لتعتبر به الملائكة قبل خلق السموات والأرضين ، ثم نقله تعالى إلى فوق السموات [والأرض] بعد خلقه لهما ، وبين بذلك اقتداره.

وقوله تعالى : (لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً) يدل على أنه أراد أن يستدل بهذه الأمور ، والبلوى هو التكليف منه وإن كان فى ظاهره يوهم أن المبتلى يتعرف ويستخبر ما لا يعرف ، لكن ذلك يستحيل على الله تعالى.

وليس فيه دلالة على أنه الخالق لأفعالهم ، بل يدل على خلافه ، لأن الابتلاء والامتحان والتكليف لا يصح إلا مع القدرة والتمكين من الأفعال ، على ما نقوله فى هذا الباب.[196]

قال ابن أبي الحديد: قال شيخنا أبو علي وابو القاسم رحمهما الله في تفسيريهما هذه الاية داله على أن الماء والعرش كانا قبل خلق السموات والارض قالا وكان الماء على الهواء قالا وهذا يدل ايضا على أن الملائكة كانوا موجودين قبل خلق السموات والارض لان الحكيم سبحانه لا يجوز أن يقدم خلق الجماد على خلق المكلفين لانه يكون عبثا .

وقال علي بن عيسى الرماني من مشايخنا انه غير ممتنع أن يخلق الجماد قبل الحيوان إذا علم أن في اخبار المكلفين بذلك لطفا لهم ولا يصح أن يخبرهم الا وهو صادق فيما اخبر به وانما يكون صادقا إذا كان المخبر خبره على ما اخبر عنه وفى ذلك حسن تقديم خلق الجماد على خلق الحيوان..[197]

قال أبو بكر الأصم: معنى قوله: (وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ)كقولهم: السماء على الأرض. وليس ذلك على سبيل كون أحدهما ملتصقا بالآخر وكيف كانت الواقعة فذلك يدل على أن العرش والماء كانا قبل السموات والأرض، ....وأما أبو مسلم الأصفهاني فقال معنى قوله: وكان عرشه على الماء أي بناؤه

---

[196] متشابه القرآن ص 375/374

[197] شرح نهج البلاغة لابن ابي الحديد ج 11 ص 53

السموات كان على الماء، وقد مضى تفسير ذلك في سورة يونس، وبين أنه تعالى إذا بنى السموات على الماء كانت أبدع وأعجب، فإن البناء الضعيف إذا لم يؤسس على أرض صلبة لم يثبت، فكيف بهذا الأمر العظيم إذا بسط على الماء؟ [198]

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾﴾

هود: ٣٧

قال شيخنا الزمخشري: (بِأَعْيُنِنا) في موضع الحال، بمعنى: اصنعها محفوظا، وحقيقته: ملتبساً بأعيننا، كأن لله معه أعينا تكلؤه أن يزيغ في صنعته عن الصواب، وأن لا يحول بينه وبين عمله أحد من أعدائه.[199]

وقال الجبائي : بأعين أوليائنا من الملائكة الذين يعلمونك كيفية عملها، والموكلين بك.[200]

وقيل: بحفظنا إياك عن قومك، وعلى ما علمك الله، عن الأصم.[201]

قال قاضي القضاة: ظاهره يقتضى أنه أمره أن يصنع الفلك بأعينه ، ولا يقول أحد من المجسمة إن الفاعل منا يفعل بعينه تعالى ، أو بأعينه ، وإنما يفعل بقدرة ، وبحسب آلاته وعلومه.

وبعد ، فإنه يقتضى أن لله أعينا ، وليس ذلك مذهب القوم ، لأنهم يقولون إن له عينا واحدة ، ومنهم من يثبت له عينين ، وهذا يقتضى أن له أعينا ، من غير أن بوقف على عدده ، لأن لفظة الجمع لا تخصص ، وهذا بخلاف دين المسلمين ، فلا بد ضرورة للقوم من الرجوع إلى أن يتأولوا الآية ، ويعترفوا بأن الظاهر لا يدل ولا يشهد بصحة قولهم.

والمراد بذلك : أن اصنع الفلك بما أعطيناك من البصيرة والمعرفة ، وسمى ذلك أعينا ، على جهة التوسع كما يقول القائل لغيره : افعل ذلك بمرأى مني ومسمع.

---

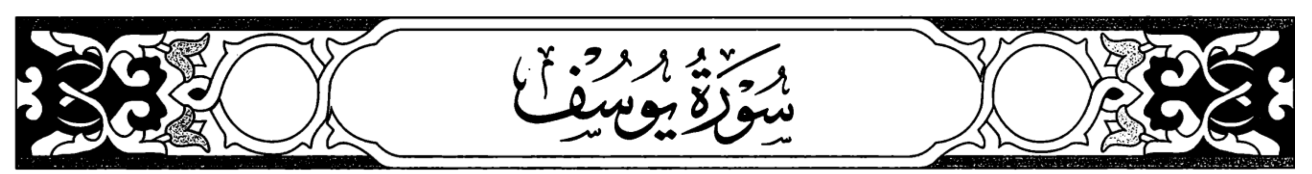
198 مفاتيح الغيب/ التفسر الكبير للرازي ج 17 ص 319

199 الكشاف ج2 ص 392

200 التبيان في تفسير القرآن ج5 ص 475

201 التهذيب في التفسير ج5 ص 3494

وقد قيل : إنه أراد تعالى : واصنع الفلك مستعينا بالملك وما حمله من الوحى فى تعريفك كيف تصنعه فسمى الملك أعينا له ، من حيث كان يبلغ ويبين ، كما يقال فى رسول الإنسان ، وقد ورد متعرفا : إن هذا عين فلان ، يراد بذلك أنه المتعرف عنه الأحوال ، أو المبين لغيره ما صدر عنه من الدلالة والبيان.[202]



قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَقَالَ يَٰبَنِيَّ لَا تَدۡخُلُواْ مِنۢ بَابٖ وَٰحِدٖ وَٱدۡخُلُواْ مِنۡ أَبۡوَٰبٖ مُّتَفَرِّقَةٖۖ وَمَآ أُغۡنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍۖ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۖ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُۖ وَعَلَيۡهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ ٦٧﴾ يوسف: ٦٧

(يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ) قيل: خاف عليهم العين، لانهم كانوا ذوي جمال وهيئة وكمال، وهم إخوة ولد رجل واحد، عن ابن عباس، والحسن، وقتادة، والضحاك، والسدي، والأصم، وأبي مسلم.[203]

قال الجبائي (أبي علي): انه خاف عليهم حسد الناس لهم، وان يبلغ الملك قوتهم وشدة بطشهم فيقتلهم محوفا على ملكه، وانكر العين، وقال لم ثثبت بحجة، وانما هو شئ يقول الجهال العامة.[204]

قال أبو هاشم وأبو القاسم البلخي إنه لا يمتنع أن تكون العين حقا، ويكون معناه أن صاحب العين إذا شاهد الشيء وأعجب به استحسانا كان المصلحة له في تكليفه أن يغير الله ذلك الشخص وذلك الشيء حتى لا يبقى قلب ذلك المكلف متعلقا به، فهذا المعنى غير ممتنع، ثم لا يبعد أيضا أنه لو ذكر ربه عند تلك الحالة وعدل عن الإعجاب وسأل ربه تقية ذلك، فعنده تتعين المصلحة ولما كانت هذه العادة مطردة لا جرم قيل العين حق.[205]

---

[202] متشابه القرآن ص 381/380

[203] التهذيب في التفسير ج5 ص 3677

[204] التبيان في تفسير القرآن للطوسي ج6 ص 164 / تفسير مجمع البيان للطبرسي ج5 ص 380 / التهذيب في التفسير ج5 ص 3677

[205] مفاتيح الغيب التفسير الكبير ج18 ص 482



قَالَ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ﴿١١﴾ ﴾ الرعد: ١١

قال قاضي القضاة: ظاهره يقتضى أن العبد هو الذى يغير ما بنفسه ، وأنه تعالى يغير عند ذلك بعض أحواله ، وليس فيه بيان ما يغيره تعالى ، فلا ظاهر إذا يدل على ما قالوه ، بل يدل ظاهره على أن العبد قد يفعل ، كما أنه تعالى يفعل!

والمراد بالآية : أنه تعالى لا يغير بالعبد ما أنعم عليه من الصحة والسلامة وسائر النعم ، ولا ينزل به العقوبات إلا بعد أن يغير ما بنفسه من الإيمان إلى الكفر. وهذا يدل على أنه تعالى لا يفعل العقاب إلا على جهة الجزاء على ما يكون من العبد ، ويبطل قول المجبرة فى أنه تعالى يعذب أطفال المشركين فى النار من غير ذنب وجرم ، ويبطل قول من قال منهم : لو شاء أن يعذب الأنبياء لحسن منه!

وقوله تعالى : (وَإِذا أَرادَ اللهُ بِقَوْمٍ سُوْءاً فَلا مَرَدَّ لَهُ) لا ظاهر له « فى أنه قد أراد ذلك ؛ لأن هذا اللفظ إنما ينبئ عن أنه إذا أراد لم يكن له مرد ، وهل أراده أم لا؟ لا ظاهر له « يدل عليه .

والمراد بذلك : أنه إذا أراد بقوم إنزال العقوبة ـ وسماها سوءا على جهة التوسع « فلا يصح لما كانت فى كونها مضرة جارية مجرى السوء ، على ما بيناه من قبل ـ « لم يمكن أحد أن يرده ؛ لأنه تعالى هو الغالب فلا يصح أن يمنع مما يريده من إنزال العقوبات بالعصاة.[206]

احتج أبو علي الجبائي والقاضي بهذه الآية في مسألتين:

المسألة الأولى: أنه تعالى لا يعاقب أطفال المشركين بذنوب آبائهم، لأنهم لم يغيروا ما بأنفسهم من نعمة فيغير الله حالهم من النعمة إلى العذاب.

[206] متشابه القرآن ص 406

المسألة الثانية: قالوا: الآية تدل على بطلان قول المجبرة إنه تعالى يبتدئ العبد بالضلال والخذلان أول ما يبلغ وذلك أعظم من العقاب، مع أنه ما كان منه تغيير.[207]



قَالَ تَعَالَى: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي ۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم ۖ مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ ۖ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾ إبراهيم: ٢٢

قال شيخنا الزمخشري: (لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ) لما قطع الأمر وفرغ منه، وهو الحساب، وتصادر الفريقين ودخول أحدهما الجنة ودخول الآخر النار. وروى أنّ الشيطان يقوم عند ذلك خطيباً في الأشقياء من الجنّ والإنس فيقول ذلك (إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ) وهو البعث والجزاء على الأعمال فوفى لكم بما وعدكم (وَوَعَدْتُكُمْ) خلاف ذلك (فَأَخْلَفْتُكُمْ وَما كانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطانٍ) من تسلط وقهر فأقسركم على الكفر والمعاصي وألجئكم إليها (إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ) إلا دعائي إياكم إلى الضلالة بوسوستي وتزييني، وليس الدعاء من جنس السلطان، ولكنه كقولك: ما تحيتهم إلا الضرب. (فَلا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ) حيث اغتررتم بى وأطعتمونى إذ دعوتكم، ولم تطيعوا ربكم إذ دعاكم. وهذا دليل على أنّ الإنسان هو الذي يختار الشقاوة أو السعادة ويحصلها لنفسه، وليس من الله إلا التمكين، ولا من الشيطان إلا التزيين. ولو كان الأمر كما تزعم المجبرة لقال: فلا تلوموني ولا أنفسكم، فإنّ الله قضى عليكم الكفر وأجبركم عليه. فإن قلت: قول الشيطان باطل لا يصح التعلق به. قلت: لو كان هذا القول منه باطلا لبين الله بطلانه وأظهر إنكاره، على أنه لا طائل له في

[207] تفسير الرازي ج19 ص 20

النطق بالباطل في ذلك المقام: ألا ترى إلى قوله (إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ) كيف أتى فيه بالحق والصدق، وفي قوله (وَما كانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطانٍ) وهو مثل قول الله تعالى: (إِنَّ عِبادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغاوِينَ)، (ما أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَما أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ) لا ينجى بعضنا بعضا من عذاب الله ولا يغيثه. والإصراخ: الإغاثة. وقرئ: بمصرخي، بكسر الياء وهي ضعيفة، واستشهدوا لها ببيت مجهول:

قَالَ لَهَا هَلْ لَكِ يَا تَافِيِّ ... قَالَتْ لَهُ مَا أَنْتَ بِالمَرْضِى

وكأنه قدّر ياء الإضافة ساكنة وقبلها ياء ساكنة، فحرّكها بالكسر لما عليه أصل التقاء الساكنين، ولكنه غير صحيح، لأنَّ ياء الإضافة لا تكون إلا مفتوحة، حيث قبلها ألف في نحو عصاي، فما بالها وقبلها ياء؟ فإن قلت: جرت الياء الأولى مجرى الحرف الصحيح لأجل الإدغام، فكأنها ياء وقعت ساكنة بعد حرف صحيح ساكن، فحرّكت بالكسر على الأصل.

قلت: هذا قياس حسن، ولكن الاستعمال المستفيض الذي هو بمنزلة الخبر المتواتر تتضاءل إليه القياسات. «ما» في (بِما أَشْرَكْتُمُونِ) مصدرية، و (مِنْ قَبْلُ) متعلقة بأشركتمونى، يعنى: كفرت اليوم بإشراككم إياى من قبل هذا اليوم، أى في الدنيا، كقوله تعالى (وَيَوْمَ الْقِيامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ) ومعنى كفره بإشراكهم إياه: تبرؤه منه واستنكاره له، كقوله تعالى (إِنَّا بُرَآؤُا مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنا بِكُمْ) وقيل: (مِنْ قَبْلُ) يتعلق بكفرت.

وما موصولة، أى: كفرت من قبل حين أبيت السجود لآدم بالذي (أَشركتمونيه) وهو الله عز وجل، تقول: شركت زيداً، فإذا نقلت بالهمزة قلت: أَشركنيه فلان، أى: جعلني له شريكا.

ونحو «ما» هذه «ما» في قولهم: سبحان ما سخركنّ لنا. ومعنى إشراكهم الشيطان بالله: طاعتهم له فيما كان يزينه لهم من عبادة الأوثان وغيرها، وهذا آخر قوله إبليس. وقوله (إِنَّ الظَّالِمِينَ) قول الله عزّ وجلّ. ويحتمل أن يكون من جملة قول إبليس، وإنما حكى الله عزّ وعلا ما سيقوله في ذلك الوقت، ليكون لطفا للسامعين في النظر لعاقبتهم والاستعداد لما لا بدّ لهم من الوصول إليه، وأن يتصوّروا في

أنفسهم ذلك المقام الذي يقول الشيطان فيه ما يقول، فيخافوا ويعملوا ما يخلصهم منه وينجيهم.
وقرئ: فلا يلوموني، بالياء على طريقة الالتفات، كقوله تعالى حَتَّى إِذا (كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ).[208]

قال الجبائي: وفي الآية دلالة على ان الشيطان لايقدر على الاضرار بالانسان اكثر من إغوائه ودعائه إلى المعاصي، فأما بغير ذلك فلايقدر عليه، لانه اخبر بذلك، ويجب ان يكون صادقا، لان الآخرة لايقع فيها من احد قبيح لكونهم ملجئين إلى تركه.[209]

قال قاضي القضاة: يدل على بطلان القول بالجبر من جهات : منها :
أنه تعالى لو كان الخالق فيهم الضلال لم يصح وصفهم بأنهم استجابوا للشيطان ، لأن المستجيب لغيره إنما يوصف بذلك إذا اختار لأجل قوله ما لولاه لكان يصح أن يختار خلافه ، ولذلك لا يوصف من رمى من شاهق فانهبط إلى الأرض أنه يستجيب فى ذلك لغيره ، لما لم يمكنه الانفكاك منه.
ومنها : أنه أضاف اللوم إليهم ونفاه عن نفسه ، ولو كان تعالى هو الذى خلق فيهم الضلال والكفر لكان الواجب فى الخطاب أن يقال : فلا تلوموني ولوموا خالقكم الذى فعل فيكم الكفر ، وأوجبه بالقدرة الموجبة له ، وجعلكم بحيث لا محيص لكم. وبطلان ذلك يبين صحة ما نقول.
ومنها : أن الوجه الذى له زال اللوم عن الشيطان ـ على قولهم ـ هو موجود فى العبد نفسه ، فهو بأن يزول عنه اللوم أحق ، لأنه بدعائه إياهم إلى الضلال لم يخلق فيهم ذلك ولا اضطرهم إليه ، ولا أزالهم عن طريقة الاختيار و [أما] العبد فحاله مع الكفر فى ذلك أبعد! لأنه لم يفعله ولا حصل له سبيل إلى إزالته عن نفسه ؛ لأنه تعالى هو المختار لفعله فيه ، ولا يجوز أن يقف اختياره على إرادته ، فكان يجب أن يكون بزوال اللوم عنه أحق.
ومنها : أنه كان يجب ـ على قولهم ـ أن لا يكون لهذه المخاطبة الجارية بين الشيطان ومن اتبعه معنى ؛ لأنه تعالى هو الذى فعل فيه الدعاء ، وفيمن اتبعه الاستجابة ، وهما كالظرف لفعله ، فما وجه هذا الخطاب الذى يقتضى تحقيق الذم فى أحدهما دون الأخر؟ وقد كان الأولى أن يظهر العذر ويذكر أنهما محمولان على ما وقع فيهما ، مضطران إليه ، فاللوم عنهما جميعا زائل.[210]

---

208 الكشاف ج2 ص 552/250
209 التبيان في تفسير القرآن ج6 ص 286
210 متشابه القرآن ص 417/416



قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَٰكَ سَبۡعٗا مِّنَ ٱلۡمَثَانِي وَٱلۡقُرۡءَانَ ٱلۡعَظِيمَ ۝٨٧﴾ الحجر: ٨٧

قال شيخنا الزمخشري: (سَبْعاً) سبع آيات وهي الفاتحة. أو سبع سور وهي الطوال، واختلف في السابعة فقيل: الأنفال وبراءة، لأنهما في حكم سورة واحدة، ولذلك لم يفصل بينهما بآية التسمية. وقيل سورة يونس. وقيل: هي آل حم، أو سبع صحائف وهي الأسباع. والْمَثانِي من التثنية وهي التكرير، لأن الفاتحة مما تكرر قراءتها في الصلاة وغيرها، أو من الثناء لاشتمالها على ما هو ثناء على الله، الواحدة مثناة أو مثناة أو مثنية صفة للآية. وأمّا السور أو الأسباع فلما وقع فيها من تكرير القصص والمواعظ والوعد والوعيد وغير ذلك، ولما فيها من الثناء، كأنها تثنى على الله تعالى بأفعاله العظمى وصفاته الحسنى. و «من» إما للبيان أو للتبعيض إذا أردت بالسبع الفاتحة أو الطوال، وللبيان إذا أردت الأسباع. ويجوز أن يكون كتب الله كلها مثاني، لأنها تثنى عليه، ولما فيها من المواعظ المكررة، ويكون القرآن بعضها، فإن قلت: كيف صح عطف القرآن العظيم على السبع، وهل هو إلا عطف الشيء على نفسه؟ قلت: إذا عنى بالسبع للفاتحة أو الطوال، فما وراءهنّ ينطلق عليه اسم القرآن، لأنه اسم يقع على البعض كما يقع على الكل. ألا ترى إلى قوله (بِما أَوْحَيْنا إِلَيْكَ هذَا الْقُرْآنَ) يعنى سورة يوسف، وإذا عنيت الأسباع فالمعنى: ولقد آتيناك ما يقال له السبع المثاني والقرآن العظيم، أى: الجامع لهذين النعتين، وهو الثناء أو التثنية والعظم.[211]

[211] الكشاف ج2 ص 588/587

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَٱلۡخَيۡلَ وَٱلۡبِغَالَ وَٱلۡحَمِيرَ لِتَرۡكَبُوهَا وَزِينَةٗۚ وَيَخۡلُقُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ۝٨﴾ النحل: ٨

قال شيخنا الزمخشري: (وَالْخَيْلَ وَالْبِغالَ وَالْحَمِيرَ) عطف على الأنعام، أى: وخلق هؤلاء للركوب والزينة، وقد احتج على حرمة أكل لحومهن بأن علل خلقها بالركوب والزينة، ولم يذكر الأكل بعد ما ذكره في الأنعام. فإن قلت: لم انتصب (وَزِينَةً)؟ قلت: لأن مفعول له، وهو معطوف على محل لتركبوها. فإن قلت: فهلا ورد المعطوف والمعطوف عليه على سنن واحد؟ قلت: لأنّ الركوب فعل المخاطبين، وأما الزينة ففعل الزائن وهو الخالق. وقرئ: لتركبوها زينة، بغير واو، أى: وخلقها زينة لتركبوها. أو تجعل زينة حالا منها، أى: وخلقها لتركبوها وهي زينة وجمال (وَيَخْلُقُ ما لا تَعْلَمُونَ) يجوز أن يريد به: ما يخلق فينا ولنا مما لا نعلم كنهه وتفاصيله ويمنّ علينا بذكره كما منّ بالأشياء المعلومة مع الدلالة على قدرته. ويجوز أن يخبرنا بأن له من الخلائق ما لا علم لنا به، ليزيدنا دلالة على اقتداره بالإخبار بذلك، وإن طوى عنا علمه لحكمة له في طيه، وقد حمل على ما خلق في الجنة والنار، مما لم يبلغه وهم أحد، ولا خطر على قلبه.[212]

النظّام وحديث إنزاء الحمير على الخيل:

لما روى المدائنيّ والواقديّ وغيرهما، أنّ عليّ بن أبي طالب عليه السلام، لمّا استأذن النبيّ صلى الله عليه وسلم في إنزاء الحمير على الخيل، قال: " إنمّا يفعل ذلك اللّذين لا يعْلمون ". قال قوم: جاء الحديث عامّاً في ذكر الخيل، ولم يخُصّ العتاق دون البراذين؛ لأنّ اسم الخيل واقع عليهما جميعاً، قال الله سبحانه: {والخيْلَ والبغالَ والحْمير لترْكبُوها }، أفتظنُّون أنه ذكر إنعامه عليهم بما خوَّلهم من المراكب، فذكر البغال والحمير وترك البراذين؟ فأما أبو إسحاق فإنه قال: هذا الحديث مختلفٌ فيه، وله أسانيد

[212] الكشاف ج2 ص 596/595

طوال، ورجالٌ ليسوا بمشهورين من الفقهاء بحمل صحيح الحديث. ويجوز أن ينهى عن إنزاء الحمير على الحجور والرِّماك جميعاً، فإن جلب جالب ذلك النّتاج جاز بيعه وابتياعه، وملْكه وعتقه. وخصاؤه في الأصل حرام، وقد أهدى المُقوقس عظيم القبْط إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم خصيّاً؛ وكان هذا الخصيّ أخا مارية أمّ إبراهيم ابن النبيّ صلى الله عليه وسلم، فقبل هديَّته، وأرسل إليه ببغلة من نتاج ما بين حجْر وعيْر، وليس في هذين الكلام، إنما الكلام في الإخصاء وحده، والإنزاء وحده في أصل العمل، فإما إذا ما تمّ الأمر بينهما، فإن بيعهما وابتياعهما حلال.

قال: ولا نترك قولاً عامّاً قاله الله تعالى في كتابه ونصَّه، لحديثٍ لا ندري كيف هو، وقد قال الله جلّ وعزّ، وهو يريد إذْكار الناس نعمهُ السابغة، وأياديه المجلّلة حين عدَّد عليهم، فقال: " والخيل والبغال والحمير لترْكبوها "؛ فمن أين جاز لنا أن نخصَّ شيئاً دون شيء.[213]

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدۡنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖ نَّحۡنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمۡنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ فَهَلۡ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ٣٥﴾ النحل: ٣٥

قال شيخنا الزمخشري: هذا من جملة ما عدّد من أصناف كفرهم وعنادهم، من شركهم بالله وإنكار وحدانيته بعد قيام الحجج وإنكار البعث واستعجاله، استهزاء منهم به وتكذيبهم الرسول، وشقاقهم، واستكبارهم عن قبول الحق، يعني: أنهم أشركوا بالله وحرّموا ما أحل الله، من البحيرة والسائبة وغيرهما، ثم نسبوا فعلهم إلى الله وقالوا: لو شاء لم نفعل، وهذا مذهب المجبرة بعينه كَذلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أى أشركوا وحرموا حلال الله ، فلما نبهوا على قبح فعلهم ركّوه على ربهم فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إلا أن يبلغوا الحق، وأن الله لا يشاء الشرك والمعاصي بالبيان والبرهان، ويطلعوا على بطلان الشرك وقبحه وبراءة الله تعالى من أفعال العباد، وأنهم فاعلوها بقصدهم وإرادتهم واختيارهم، والله تعالى باعثهم على جميلها وموفقهم له، وزاجرهم عن قبيحها وموعدهم عليه.[214]

[213] رسائل الجاحظ ج2 ص 355
[214] الكشاف ج2 ص 605/604

قال قاضي القضاة: فقد بينا فى سورة الأنعام وجه الاستدلال بها على أنه لا يريد الكفر والشرك ، وأن القائل بذلك مخطئ ومتخرص وقائل بالظن ، وكاذب على الله تعالى ، ومكذب لرسله !
وقوله عقيب هذه الآية : (فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ) يدل على أنهم بينوا لهم خلاف قولهم إن الشرك بمشيئة الله ، فلما لم يقبلوا ، بين تعالى أنهم لم يؤتوا من قبل البيان فقد ظهر وبان ، وإنما أتوا فيه من قبل أنفسهم.[215]

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾ ﴾ النحل: ٤٠

قال أبو علي : لفظة «كن» وإن كانت على لفظة الأمر فليس القصد بها هاهنا الأمر إنما هو والله أعلم الإخبار عن كون الشيء وحدوثه، وإذا كان الأمر كذلك فحينئذ يبطل قوله إنه نصب على جواب كن والله أعلم.[216]

قال الزمخشري: (قَوْلُنا) مبتدأ، و(أَنْ نَقُولَ) خبره. (كُنْ فَيَكُونُ) من كان التامة التي بمعنى الحدوث والوجود، أى: إذا أردنا وجود شيء فليس إلا أن نقول له: أحدث، فهو يحدث عقيب ذلك لا يتوقف، وهذا مثل لأنّ مراداً لا يمتنع عليه، وأنّ وجوده عند إرادته تعالى غير متوقف، كوجود المأمور به عند أمر الآمر المطاع إذا ورد على المأمور المطيع الممتثل، ولا قول ثم، والمعنى: أنّ إيجاد كل مقدور على الله تعالى بهذه السهولة، فكيف يمتنع عليه البعث الذي هو من شق المقدورات. وقرئ: فيكون، عطفاً على نَقُولَ.[217]

قال شيخنا الحاكم الجشمي: (إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ) يعني إذا أردنا أن نبعث من يموت، فلا تعب علينا ولا نصب في إحيائه، كما في جميع أحواله، فإنما قولنا لشيء إذا أردنا إيجاده (أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ) لسرعته ولوجوده كما شاء، تدل على أن المراد التشبيه، ولأن المعدوم لا يخاطب، وكذلك

---

215 متشابه القرآن ص 440/439
216 التفسير الكبير للرازي ج20 ص 208
217 الكشاف ج2 ص 606

الجماد، ولأن ذلك الشيء هو الذي يكونه، وهو قول أبي علي، وأبي مسلم وأكثر مشائخنا، وقيل: إن قوله: (كُنْ) علامة للملك أنه يحدث أمرا عند سماعه، عن أبي الهذيل والأصم.[218]

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾﴾ النحل: ١٠١

قال شيخنا الحاكم الجشمي: (وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ) قيل: نسخنا حكم آية أخرى لما في النسخ من المصلحة، وقيل: إذا نسخنا آية فرفعنا تلاوتها وحكمها بآية أخرى نثبت تلاوتها وحكمها، وقيل: هي الشريعة التي هي معمول بها عند أهل الكتب المتقدمة، فأتى الله تعالى هذا الدين وعلى لسان النبي صلى الله عليه وآله وسلم بغيرها بدلا منها ناسخا لها، عن أبي مسلم، وإنما بناها على أصله أن النسخ في القرآن وأحكامه لا يجوز (وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ) يعني أعام بما يصير وينزل، فيأمر بما هو أصلح لخلقه، وينهى عما يكون فيه مفسدة، (قَالُوا) يعني المشركين (إِنَّمَا أَنْتَ) يا محمد (مُفْتَرٍ) كاذب أن هذا من عند الله، قيل: قالوا ذلك انكارا للنسخ، ولأنهم لم يعلموا الفرق بين البدا والنسخ، وتوهموا أن ذلك هذا فنسبوه إليه (بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ) أي: ليس كما قالوا، ولا التكذيب إلا لجهلهم، ولو علموا الحقيقة لما كذبوا..[219]

قال أبي مسلم الأصفهاني: أن النسخ غير واقع في هذه الشريعة، فقال المراد هاهنا: إذا بدلنا آية مكان آية في الكتب المتقدمة مثل أنه حول القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة، قال المشركون: أنت مفتر في هذا التبديل.[220]

218 التهذيب في التفسير ج6 ص 4036
219 التهذيب في التفسير ج6 ص 4115
220 التفسير الكبير للرازي ج20 ص 270



قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ لَيۡلٗا مِّنَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ إِلَى ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡأَقۡصَا ٱلَّذِي بَٰرَكۡنَا حَوۡلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنۡ ءَايَٰتِنَآۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ١﴾ الإسراء: ١

قال شيخنا الزمخشري: (سُبْحانَ) علم للتسبيح كعثمان للرجل، وانتصابه بفعل مضمر متروك إظهاره، تقديره: أسبح الله سبحان، ثم نزل سبحان منزلة الفعل فسد مسدّه، ودل على التنزيه البليغ من جميع القبائح التي يضيفها إليه أعداء الله . وأَسْرى وسرى لغتان. ولَيْلًا نصب على الظرف.

فإن قلت: الإسراء لا يكون إلا بالليل، فما معنى ذكر الليل؟ قلت: أراد بقوله (لَيْلًا) بلفظ التنكير: تقليل مدّة الإسراء، وأنه أسرى به في بعض الليل من مكة إلى الشأم مسيرة أربعين ليلة، وذلك أنّ التنكير فيه قد دلّ على معنى البعضية. ويشهد لذلك قراءة عبد الله وحذيفة: من الليل، أى: بعض الليل، كقوله (وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نافِلَةً) يعنى الأمر بالقيام في بعض الليل. واختلف في المكان الذي أسرى منه فقيل: هو المسجد الحرام بعينه، وهو الظاهر.

وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم «بينا أنا في المسجد الحرام في الحجر عند البيت بين النائم واليقظان إذ أتانى جبريل عليه السلام بالبراق وقيل: أسرى به من دار أم هانئ بنت أبى طالب والمراد بالمسجد الحرام: الحرم، لإحاطته بالمسجد والتباسه به. وعن ابن عباس: الحرم كله مسجد. وروى أنه كان نائماً في بيت أم هانئ بعد صلاة العشاء فأسرى به ورجع من ليلته، وقص القصة على أم هانئ، وقال: مثل لي النبيون فصليت بهم وقام ليخرج إلى المسجد فتشبثت أم هانئ بثوبه فقال: مالك؟ قالت: أخشى أن يكذبك قومك إن أخبرتهم، قال: وإن كذبوني، فخرج فجلس إليه أبو جهل فأخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم بحديث الإسراء، فقال أبو جهل: يا معشر بنى كعب بن لؤي، هلم فحدّثهم، فمن بين مصفق وواضع يده على رأسه تعجباً وإنكاراً.

وارتد ناس ممن كان قد آمن به، وسعى رجال إلى أبي بكر رضى الله عنه فقال: إن كان قال ذلك لقد صدق. قالوا: أتصدقه على ذلك؟ قال: إنى لأصدقه على أبعد من ذلك، فسمى الصدّيق.

وفيهم من سافر إلى ما ثمّ، فاستنعتوه المسجد فجلى له بيت المقدس، فطفق ينظر إليه وينعته لهم، فقالوا: أمّا النعت فقد أصاب، فقالوا: أخبرنا عن عيرنا، فأخبرهم بعدد جمالها وأحوالها، وقال: تقدم يوم كذا مع طلوع الشمس، يقدمها جمل أورق، فخرجوا يشتدون ذلك اليوم نحو الثنية، فقال قائل منهم: هذه والله الشمس قد شرقت، فقال آخر: وهذه والله العير قد أقبلت يقدمها جمل أورق كما قال محمد، ثم لم يؤمنوا وقالوا: ما هذا إلا سحر مبين، وقد عرج به إلى السماء في تلك الليلة، وكان العروج به من بيت المقدس وأخبر قريشاً أيضاً بما رأى في السماء من العجائب وأنه لقى الأنبياء وبلغ البيت المعمور وسدرة المنتهى واختلفوا في وقت الإسراء فقيل كان قبل الهجرة بسنة. وعن أنس والحسن أنه كان قبل البعث واختلف في أنه كان في اليقظة أم في المنام فعن عائشة رضى الله عنها أنها قالت «والله ما فقد جسد رسول الله صلى الله عليه وسلم ولكن عرج بروحه» وعن معاوية: إنما عرج بروحه. وعن الحسن، كان في المنام رؤيا رآها. وأكثر الأقاويل بخلاف ذلك. والمسجد الأقصى: بيت المقدس، لأنه لم يكن حينئذ وراءه مسجد (بارَكْنا حَوْلَهُ) يريد بركات الدين والدنيا، لأنه متعبد الأنبياء من وقت موسى ومهبط الوحى، وهو محفوف بالأنهار الجارية والأشجار المثمرة. وقرأ الحسن: ليريه بالياء، ولقد تصرف الكلام على لفظ الغائب والمتكلم «فقيل: أسرى ثم باركنا ثم ليريه، على قراءة الحسن، ثم من آياتنا، ثم إنه هو، وهي طريقة الالتفات التي هي من طرق البلاغة (إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ) لأقوال محمد (الْبَصِيرُ) بأفعاله، العالم بتهذبها وخلوصها، فيكرمه ويقرّبه على حسب ذلك.[221]

قال شيخنا الحاكم الجشمي: نزلت الآية في إسرائه صلى الله عليه وآله وسلم، وكان ذلك بمكة صلى النبي صلى الله عليه وسلم المغرب في المسجد الحرام، فأما الموضع الذي أسري إليه فالإسراء إلى بيت المقدس لا يدفعه مسلم، ونطق به القرآن وتظاهرت به الرواية، وروي بعضهم أنه كان في النوم، وهذا ظاهر البطلان إذ لا معجز فيه، والاجماع يحجه، ثم روي أنه عرج إلى السماء رواية مستفيضة، وروي في تفاصيل ذلك أخبار طويلة كثيرة، جملتها تنقسم إلى أربعة أوجه:

221 الكشاف ج2 ص 648/647/646

أولها: إلى ما نقطع بصحته لتواتره، وإحاطة العلم بصحته.

وثانيا: ما ورد مما يجوز ولا يخالف أصلا، فنجوزه.

وثالثها: ما ظاهره يخالف أصلا إلا أنه يمكن تأويلها بتأويل لا تعسف فيه، فوجب أن يؤوّل.

ورابعها: ما لا يصح تظاهره ولا يمكن تأويله إلابما فيه تعسف، فوجب أن يرد، ونحن نذكر جملة من ذلك، ونشير إلى الوجوه، وروى حديث المعراج الحسن وحذيفة وأم هاني وجماعة، والأكثر أن ليلة المعراج كانت في الليلة التي أسري به إلى بيت المقدس، ولا خلاف أنها كانت بمكة.[222]

وقال أيضا: أما ما نقطع به: أنه أسري به على الجملة.

وأما ما نجوزه: فما روي أنه طاف في السموات، ورأى الملائكة والأنبياء والعرش، ونحو ذلك.

وأما ما نتأوله من أنه رأى الجنة والنار، وقوما في الجنة وقوما يعذبون في النار، فنتأول ذلك أنه رأى صفاتهم وأسمائهم.

وأما ما نرده: ما روي أنه فرض خمسين صلاة تاقصة بطولها، لأنه تعالى إذا علم المصالح فلا يوجب إلا الأصلح، ولأنه أرحم بعباده من موسى، ولأنه لا يجوز نسخ الشيء قبل وقوع فعله، وكذلك ما روي أن النبي صلى الله عليه وسلم كلم الله جهرة، وأنه رآه، وأنه قعد معه على سريره، ونحو ذاك مما يوجب التشبيه، فنحن ننزهه عن ذلك، وكذلك ما روي أنه شق بطنه، وغسل، لأن بطنه كان طاهرا من كل عيب والاعتقادات لا تطهر بالماء، والله تعالى قادر على إزالة ذلط بغير الماء.[223]

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِي ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾﴾ الإسراء: ٤

قال شيخنا الحاكم الجشمي: القضاء: فصل الأمر على الأحكام ومنه سمي القاضي، ثم يستعمل على ثلاثة أوجه: بمعنى الخلق كقوله: (فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ) وبمعنى الإيجاب كقوله: (وَقَضَى

---

[222] التهذيب في التفسير ج6 ص 4147/4146

[223] التهذيب في التفسير ج6 ص 4151/4150

رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ) وبمعنى الإخبار والإعلام بما يكون من الأمر، وهو المعنى هاهنا، وأصله الإحكام.[224]

وقال: (وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ) أي: أخبرناهم وأعلمناهم (فِي الْكِتَابِ) قيل: التوراة، وقيل: على لسان بعض الأنبياء فيما كتب لهم، وقيل: فيما كتب في اللوح المحفوظ (لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ) قيل: إنه ذكر فسادهم ومعاصيهم ولم يبين ما هو، فلا يقطع على شيء، عن أبي علي، (وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا) أي: لتستكبرن ولتظلمن الناس ظلما كبيرا، قيل: كانوا مؤمنين في ذلك الوقت، فأخبرهم أنهم يتغيرون.[225]

قال القاضي عبد الجبّار: قد بينا أن القضاء قد ينطلق على الإعلام والإخبار ، وهو المراد بهذه الآية. يبين ذلك أنه ذكر الفساد على وجه الاستقبال ، والقضاء على وجه الماضى ، ولو كان المراد له الخلق لما صح ذلك ، ولأن لفظ « القضاء » إذا عدوى بـ « إلى » فظاهره الخبر ، ومتى أريد به الفعل عدى بغير ذلك ، أو لم يعدّ بحرف. فإذا صح ذلك دل الظاهر على أنه تعالى خبر بفسادهم الذى يكون ، ودل على ذلك لضرب من المصلحة ، وهذا مما لا ننكره ، وإنما ندفع القول بأنه تعالى يقضى الفساد ؛ بمعنى الخلق والإيجاد ، والتقدير والتدبير ، لما فى ذلك من ارتفاع الحمد والذم وبطلان التكليف ، ولما فيه من وجوب الرضا بالفساد ، أو القول بأن فى قضائه ما لا يجب الرضا به ، وقد شرحنا ذلك من قبل.[226]

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾ مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾﴾ الإسراء: ١٣ – ١٥

قال شيخنا الحاكم الجشمي: (وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ) قيل: عمله في الدنيا، يقرن بينه وبينه فيصير كالطوق له إن خير فخير وإن شر فشر، عن الحسن، وقيل: يمنه وشؤمه، عن الحسن

224 التهذيب في التفسير ج6 ص 4154
225 التهذيب في التفسير ج6 ص 4157
226 متشابه القرآن 456

والأصم، وهو ما يتطير منه، وقيل: أراد بالعنق النفس، وبالطائر الدليل معناه جعلنا لكل إنسان دليلا من نفسه بأن له صانعا حكيما على ما بينا له وهديناه إليه وشاهدا عليها فلزمته الحجة، ثم خص أعماله، كقوله: (بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ) ، عن أبي مسلم، وإنما خص العنق لأن إضافة ما يزين كالطوق، أو يشين كالغل يضاف إلى الأعناق، وإنما يضاف العمل إلى الأيدي وإن كان كسبه لغيره، أضاف ذلك إلى الأعناق على عادة العرب، وقيل: لأنه يذكر ويراد به جميع النفس، تقول: هذه أمانة في عنقي أي: علي (وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا) وهو مكتبه الحفظة عليهم من أعمالهم، (يَلْقَاهُ) يرى ذلك (مَنْشُورًا) أي ينشر له ويعرض عليه حتى يقرأه ويعلم ما فيه، وقيل: ظاهر لا يغيب عنه شيء من أعماله، عن الأصم. (اقْرَأْ) فيه حذف، ويقال له: (اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا) قال الحسن: لقد أنصفك من جعلك حسيب نفسك، (مَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ) أي: نفع الاهتداء يعود عليه، (وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا) أي: ضرر ضلالته تعود عليه، ولايضر إلا نفسه (وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى) قيل: لا يؤاخذ أحد بذنب غيره، والوزر: الإثم، وقيل: لا يجوز لأحد أن يعمل الإثم؛ لأن غيره عمله، والأول أظهر (وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ) أحدا (حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا) قيل: لا نعذب بعذاب الدنيا والآخرة إلابعد البعثة، وإقامة الحجة قطعا للعذر، وقيل: لما فيه من اللطف الذي لا يجوز منعه، قالوا: ولا يجوز أن ينفرد التكليف العقلي والسمعي، وهو قول كثير من مشايخنا، وقيل: لا نؤاخذ بطاعة ومعصية لا تقوم بها الحجة إلا من قبل الرسول و من ينوب عنه، ولا نعذب عليه، لأنه يكون ظلما، فأما ما يعلم بالعقل فيجوز أن يعاقب عليه وإن لم يعلم بآية الرسول، قالوا: ويجوز أن ينفرد التكليف العقلي والسمعي، وهو قول مشايخنا، وقيل: أراد عذاب الاستئصال، فإن عادة الله تعالى لا يعذب به إلا بعد أن يبعث رسولا.[227]

قال شيخنا الزمخشري: وما صحّ منا صحة تدعو إليها الحكمة أن نعذب قوما إلا بعد أن (نَبْعَثَ) إليهم (رَسُولًا) فتلزمهم الحجة. فإن قلت: الحجة لازمة لهم قبل بعثة الرسل، لأنّ معهم أدلة العقل التي بها يعرف الله، وقد أغفلوا النظر وهم متمكنون منه، واستيجابهم العذاب لإغفالهم النظر فيما معهم، وكفرهم لذلك، لا لإغفال الشرائع التي لا سبيل إليها إلا بالتوقيف، والعمل بها لا يصح إلا بعد

[227] التهذيب في التفسير (مختصرا) ج6 ص 4173/4172/4171

الايمان. قلت: بعثة الرسل من جملة التنبيه على النظر والإيقاظ من رقدة الغفلة، لئلا يقولوا: كنا غافلين فلولا بعثت إلينا رسولا ينبهنا على النظر في أدلة العقل.[228]

قال شيخنا ابن أبي الحديد: فإن قلت : فهذا يناقض مذهب المعتزلة في قولهم بالواجبات عقلا ، ولو لم تبعث الرسل ! قلت : صحة مذهبهم تقتضي أن تحمل عموم الالفاظ على أن المراد بها الخصوص ، فيكون التأويل : لئلا يكون للناس على الله حجة فيما لم يدل العقل على وجوبه ولا قبحه ، كالشرعيات ، وكذلك : " وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا " على ما لم يكن العقل دليلا عليه حتى نبعث رسولا .

الاعذار : تقديم العذر .[229]

قال قاضي القضاة: قوله تعالى: (مَنِ اهْتَدى فَإِنَّما يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّما يَضِلُّ عَلَيْها ، وَلا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرى ، وَما كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً) : يدل على أمور : منها : أن العبد هو الذى يفعل الاهتداء والضلال.

ومنها : أنه يؤتى فى أن يضل من قبل نفسه.

ومنها : أنه لا يجوز أن يضر أحدا ضلاله ؛ لأنه لو أضرّ به ذلك لم يكن ضلاله على نفسه ، بل كان عليها وعلى غيره ، وذلك يدل على أن أحدا لا يؤخذ بذنب غيره ، كما يدل قوله تعالى : (وَلا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرى) على ذلك.

ومنها : أنه تعالى نبه بهذا على أن العبد لا يجوز أن يؤخذ بما يخلق فيه ؛ لأنه لو جاز ذلك لكان الضلال من الخالق ، ولا يكون حكمه وعقوبته عليه ، بل يكون على من أوجده فيه ، ولو جاز ذلك لجاز أن يؤخذ بفعل غيره.

وقوله تعالى : (وَما كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً) يدل على بطلان قولهم فى المخلوق من جهات : منها : أنه لو عذبهم على ما خلقه فيهم لم يكن لبعثه الرسول معنى ، فضلا عن أن يجعل شرطا فى تعذيبهم!

---

228 الكشاف ج2 ص 653

229 شرح نهج البلاغة ج9 ص 85 / في شرحه لكلام امير المؤمنين علي عليه السلام

ومنها : أنه تعالى نبه بذلك على أن تعذيبهم لا يقع إلا بعد إزاحة العلة ببعثه الرسل ، فإن لم يكن تصرفهم يقع من قبلهم لم يحتج إلى ذلك ، لأن وجوده كعدمه.

ومنها : أنه بين « أنه لا يعذبهم حتى يبعث إليهم رسولا فبأن لا يعذبهم على ما لا يقدرون عليه أولى ، لأنه إذا لم يعذّب القادر العاقل على فعله من حيث لم يبعث إليه من يبين له الأمور ، فبأن لا يعاقب من لا يتمكن من الفعل أولى!

فإن قال : فما المراد بذلك ، وعندكم أن المكلف بالتكليف العقلى يحسن تعذيبه وإن لم تبعث إليه الرسل؟

قيل له : إن المراد به العذاب المعجّل فى دار الدنيا ؛ لأن عادة الله تعالى لم يجرها إلا بعد بعثه الرسل ، ووقوع التكذيب منهم.

وقد قيل : إن المراد بذلك : من المعلوم من حاله أن مصالحه موقوفة على شريعة الرسل ؛ لأن من هذه حاله لا يجوز أن يخلّى من رسول يبعث إليه ، ولو لم يبعث إليه لم يحسن تعذيبه!

وقد قيل : إن المراد بذلك الخواطر الواردة على المكلف على كل حال ؛ لأن التكليف كان لا يصح إلا بعدها. وعلى جميع الوجوه ؛ فالذى ذكرناه من الأدلة صحيح.[230]

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِذَآ أَرَدۡنَآ أَن نُّهۡلِكَ قَرۡيَةً أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيۡهَا ٱلۡقَوۡلُ فَدَمَّرۡنَٰهَا تَدۡمِيرٗا ١٦﴾

الإسراء: ١٦

قال شيخنا الزمخشري: (وَإِذا أَرَدْنا) وإذا دنا وقت إهلاك قوم ولم يبق من زمان إمهالهم إلا قليل، أمرناهم (فَفَسَقُوا) أى أمرناهم بالفسق ففعلوا، والأمر مجاز، لأن حقيقة أمرهم بالفسق أن يقول لهم: افسقوا، وهذا لا يكون فبقى أن يكون مجازاً ، ووجه المجاز أنه صب عليهم النعمة صباً، فجعلوها ذريعة إلى المعاصي واتباع الشهوات، فكأنهم مأمورون بذلك لتسبب إيلاء النعمة فيه، وإنما خولهم إياها ليشكروا ويعملوا فيها الخير ويتمكنوا من الإحسان والبرّ، كما خلقهم أصحاء أقوياء، وأقدرهم على الخير والشرّ، وطلب منهم إيثار الطاعة على المعصية فآثروا الفسوق، فلما فسقوا حق عليهم القول

---

230 متشابه القرآن لقاضي القضاة ص 460/459/458

وهو كلمة العذاب فدمّرهم. فإن قلت: هلا زعمت أن معناه أمرناهم بالطاعة ففسقوا؟ قلت: لأن حذف ما لا دليل عليه غير جائز، فكيف يحذف ما الدليل قائم على نقيضه، وذلك أن المأمور به إنما حذف لأن فسقوا يدل عليه، وهو كلام مستفيض.[231]

قال شيخنا الحاكم الجشمي: (وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا) لما لم يجز تقديم إرادة العذاب على المعصية لأنه عقوبة عليها فيما لم توجد لا يحسن العقاب، ومالم يحسن فعله لا يحسن إرادته فعند ذلك اختلفوا في معنى الآية وتقديرها على وجوه:

أولها: إذا أردنا أن نحكم بهلاكها أن نخبر بذلك، ولا يصح الحكم إلا ونريد ذلك الحكم فتقديره إذا حكمنا بهلاك قرية أمرنا مترفيها على لسان الرسل بالطاعات، فإذا فسقوا حق عليهم القول، أي: القول الذي أراده بإهلاكهم، ومثله: إذا أراد الحاكم الفصل بين الخصوم أمر بتقديمهم إليه، أي: إذا أراد الحاكم بالفصل، وعلى هذا المراد بالإرادةحقيقة الإرادة، وما يتعلق به الإرادة محذوف وهو الحكم.

ومتى قيل: لما جاز تقديم الإرادة؟

قلنا: لأن الحكم إخبار عما يفعله في الثاني جزاء على فعلهم، فيكون فيه إعتبار للملائكة فيحسن، فأما الإرادة فلا فائدة في تقديمها على المراد، ولأن تقديم الإرادة على المراد بزمان كثير لا يجوز بخلاف الحكم، وهذا هو معنى قول الأصم.

الثاني: أن المراد بالإرادة قرب الهلاك والعلم بكونه لا محالة، لا حقيقة الإرادة، وهو مجاز وتوسع، كقوله: (جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ) وكقولهم: إذا أراد المريض أن يموت اشتدت أمراضه، وإذا أراد التاجر أن يفتقر أتته الوضائع من كل جهة، وليس المراد إثبات حقيقة الإرادة، فعلى هذا إذا قرب إهلاك قرية أمرناهم بالطاعات ففسقوا، فحق عليها القول فدمرناهم، عن أبي علي.

الثالث: أن في الآية تقديم وتأخير، تقديره: إذا أمرنا مترفي قرية بالطاعات ففسقوا عن أمرنا وعصونا حق عليهم القول، وهو الوعيد أردنا عند ذلك إهلاكهم، فأهلكناهم، وهذا كقوله تعالى: (إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ) وغسل الأعضاء يجب قبل القيام إلى الصلاة، وتقديره: إذا أردتم

---

[231] الكشاف ج2 ص 654

القيام إلى الصلاة فاغسلوا، ولكن عند أهل العربية ذكر الإرادة وحذفها والتقديم والتأخير لها، وعلى هذا يكون المعنى (إِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً) أي: إذا أهلكنا قرية فإنما نهلكها بفسق مترفيها واستحقاقهم العذاب، عن أبي مسلم.

والرابع: هو أن يكون جواب (إذا) محذوف لما في باقي القصص من الدليل عليه، ويكون (أمرنا مترفيها) من صفة القرية، ولا يكون كلاما مستأنفا ولا جوابا، فإن القرية في هذاالموضع نكرة، والنكرة إذا أريد تعريفها وصفت فلحقت بالمعرفة، وتقديره: إذا أردنا أن نهلك قرية قد كنا أمرنا مترفيها بالطاعات ففسقوا فحق عليهم فحق عليهم القول فدمرناهم، وأحللنا بهم ما نريد، عن أبي مسلم أيضا.

ومتى قيل: لم لا يجوز أن يتعلق الهلاك بإرادته تعالى وأمره؟

قلنا: فأما الإرادة فلا يجوز تقديم العذاب قبل الإستحقاق، فلا يجوز ارادة العقاب، ولأنه لا يجوز إرادة العقاب على المراد، وأما الأمر فأوامره تعالى لا توجب الهلاك وإنما الموجب له مخالفتهم للأمر، وقد قال تعالى (وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ) ، (وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ) فلا بد من حمله علىما ذكرناه.

ومتى قيل: فما معنى المترفين ولما خصهم بالذكر؟

قلنا: معناه: المنعمون، وخصهم بالذكر لأنهم الرؤساء وعليهم مدار الأمر، وحكم بعضهم البلد ثابت بهم، ومن عداهم تابع لهم كفرعونفي قومه، فصاروا فسقة بفسقهم، قيل: ولأن النعمة إذاكثرت أوجبت الشكر، فإذا ازدادوا، كفرا على كفرهماستحقوا زيادة العقوبة، ومعنى (أمرنا) أي: أمرناهم بالطاعات فعصوا وفسقوا، عن ابن عباس، وسعيد بن جبير.

ومعنى (فَفَسَقُوا فِيهَا) أي: خرجواعن طاعة الله وتمردوا في العصيان.

(فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ) أي: وجب عليها الوعيد، (فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا) أي: أهلكناهم إهلاكا.[232]

---

[232] التهذيب في التفسير ج6 ص 4181/4180/4179/4178

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا ﴿٤٦﴾﴾ الإسراء: ٤٦

قال شيخنا الحاكم الجشمي: (وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً) غطاء (أَنْ يَفْقَهُوهُ) يعلموه، قيل: جعلنا بالحكم أنهم بهذه المنزلة، ذما لهم على الامتناع على تفهم الحق والاستماع إليه عداوة له، عن الحسن وجماعة، وقيل: إنه منعهم من ذلك في وقت مخصوص لئلا يؤذوا النبي صلى الله عليه وآله وسلم، عن أبي علي، وسماه أكنة ووقرا إتساعا، وإلا كان يسمع بعضهم ويفقه، عن أبي علي.[233]

قال الجبائي: إن القوم كانوا يستمعون لقراءة الرسول صلى الله عليه وسلم ليتوسلوا بسماع قراءته إلى معرفة مكانه بالليل فيقصدوا قتله وإيذاءه فعند ذلك كان الله سبحانه وتعالى يلقي على قلوبهم النوم، وهو المراد من الأكنة، ويثقل أسماعهم عن استماع تلك القراءة بسبب ذلك النوم، وهو المراد من قوله وفي آذانهم وقرا.[234]

وقيل: صار القرآن لاستثقالهم استماعه والنظر فيه ولما فيه من الرد عليهم وقرا في آذانهم، وعمى في أعينهم، وغطاء على قلوبهم، وأضاف ذلك إلى نفسه لأنه حصل عند إنزاله القرآن، كما يقال: ما زادتك موعظتي إلا شرا، عن أبي مسلم. (أَنْ يَفْقَهُوهُ) أي: كراهة أن يعلموه، (وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا) أي: ثقلا للقرآن (وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ) قيل: قلت عند تلاوة القرآن: أن لا إله إلا الله، وقيل: ذكرت التوحيد وأبطلت الشريك، (وَلَّوْا عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا) أي: ولوا عنك مدبرين نافرين، قيل: هم كفار قريش، وقيل: هم الشياطين، عن ابن عباس، قال الأصم: قال بعضهم: هذه الآية في الجن، إذا سمعوا هذا القرآن هربوا، والآية الأولى في الإنسيين.[235]

---

233 التهذيب في التفسير ج6 ص 4223

234 التفسير الكبير للرازي ج12 ص 505

235 التهذيب في التفسير ج6 ص 4224/4223

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِ ۚ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَٰنًا كَبِيرًا ﴿٦٠﴾﴾ الإسراء: ٦٠

قال شيخنا الحاكم الجشمي: (وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ) قيل: هي رؤيا العين لا رؤيا منام، وهو ما رأى ليلة المعراج من الآيات والعبر، فأسري به إلى بيت المقدس ثم السماء، فلما أخبر المشركين كذبوه، عن ابن عباس وسعيد بن جبير والحسن وقتادة وابراهيم وابن جريج والضحاك وابن زيد ومجاهد والأصم ومسروق، وكان ذلك امتحانا صدق به بعضهم، وأولهم أو بكر الصديق رضي الله عنه فسمي صديقا، وكذب به آخرون ومنهم أبو جهل، وقيل: هي رؤيا نوم، وهي أنه رأى في المنام أنه سيدخل مكة وهو بالحديبية فقصدها فصد عنها، وهي عام الحديبية، فرجع ودخلها العام القابل، ونزل: (لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ) عن ابن عباس وأبي علي وأبي مسلم، وإنما كان فتنة وهو الامتحان والاختبار لأنه لما رجع الحديبية قال أناس: حدثنا أنه سيدخلها، وقال بعضهم ومنهم أو بكر: لم وقت النبي صلى الله عليه وآله وسلم وقتا وسيدخلها، فكان ذلك ابتلاء وامتحانا، وقيل: هو ما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم في منامه بني أمية ينزون على منبره فاغتم، فيما رواه سهل بن سعد، وعلى هذا التأويل قيل: الشجرة الملعونة في القرآن هي بنو أمية، يعني: وما جعلناالرؤيا التي أريناك والشجرة الملعونة إلا فتنة...[236]

قال شيخنا الزمخشري: (وَإِذْ قُلْنا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحاطَ بِالنَّاسِ) واذكر إذ أوحينا إليك أن ربك أحاط بقريش، يعنى: بشرناك بوقعة بدر وبالنصرة عليهم. وذلك قوله (سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ) ، (قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ) وغير ذلك، فجعله كأن قد كان ووجد، فقال: أحاط بالناس على عادته في إخباره، وحين تزاحف الفريقان يوم بدر والنبي صلى الله عليه وسلم في العريش مع أبى بكر رضى الله عنه كان يدعو ويقول: «اللّهُمَّ إنى أسألك عهدك ووعدك» ثم خرج وعليه الدرع يحرض الناس ويقول «سيهزم الجمع ويولون الدبر» ولعلّ الله تعالى أراه مصارعهم في منامه، فقد كان يقول

[236] التهذيب في التفسير ج6 ص 4244/4243

حين ورد ماء بدر «والله لكأنى أنظر إلى مصارع القوم» وهو يومئ إلى الأرض ويقول: هذا مصرع فلان، هذا مصرع فلان، فتسامعت قريش بما أوحى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من أمر يوم بدر وما أرى في منامه من مصارعهم، فكانوا يضحكون ويستسخرون ويستعجلون به استهزاء وحين سمعوا بقوله: «إن شجرة الزقوم طعام الأثيم» جعلوها سخرية وقالوا: إن محمدا يزعم أن الجحيم تحرق الحجارة، ثم يقول ينبت فيها الشجر. وما قدر الله حق قدره من قال ذلك، وما أنكروا أن يجعل الله الشجرة من جنس لا تأكله النار! فهذا وبر السمندل وهو دويبة ببلاد الترك تتخذ منه مناديل، إذا اتسخت طرحت في النار فذهب الوسخ وبقي المنديل سالما لا تعمل فيه النار. وترى النعامة تبتلع الجمر وقطع الحديد الحمر كالجمر بإحماء النار فلا تضرها، ثم أقرب من ذلك أنه خلق في كل شجرة نارا فلا تحرقها، فما أنكروا أن يخلق في النار شجرة لا تحرقها. والمعنى: أنّ الآيات إنما يرسل بها تخويفا للعباد، وهؤلاء قد خوفوا بعذاب الدنيا وهو القتل يوم بدر. فما كان ما أَرَيْناكَ منه في منامك بعد الوحى إليك (إِلَّا فِتْنَةً) لهم حيث اتخذوه سخريا وخوّفوا بعذاب الآخرة وشجرة الزقوم فما أثر فيهم، ثم قال فيهم (وَنُخَوِّفُهُمْ) أى نخوفهم بمخاوف الدنيا والآخرة فَما يَزِيدُهُمْ التخويف إِلَّا طُغْياناً كَبِيراً فكيف يخاف قوم هذه خالهم بإرسال ما يقترحون من الآيات. وقيل: الرؤيا هي الإسراء ، وبه تعلق من يقول: كان الإسراء في المنام، ومن قال: كان في اليقظة، فسر الرؤيا بالرؤية. وقيل: إنما سماها رؤيا على قول المكذبين حيث قالوا له: لعلها رؤيا، رأيتها، وخيال خيل إليك، استبعاداً منهم، كما سمى أشياء بأساميها عند الكفرة، نحو قوله: (فَراغَ إِلى آلِهَتِهِمْ)، (أَيْنَ شُرَكائِيَ)، (ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ) وقيل: هي رؤياه أنه سيدخل مكة. وقيل: رأى في المنام أن ولد الحكم يتداولون منبره كما يتداول الصبيان الكرة. فإن قلت: أين لعنت شجرة الزقوم في القرآن؟ قلت: لعنت حيث لعن طاعموها من الكفرة والظلمة، لأنّ الشجرة لا ذنب لها حتى تلعن على الحقيقة، وإنما وصفت بلعن أصحابها على المجاز. وقيل: وصفها الله باللعن، لأن اللعن الإبعاد من الرحمة، وهي في أصل الجحيم في أبعد مكان من الرحمة. وقيل: تقول العرب لكل طعام مكروه ضار: ملعون، وسألت بعضهم فقال: نعم الطعام الملعون القشب الممحوق. وعن ابن عباس: هي الكشوث التي تتلوى بالشجر يجعل في الشراب. وقيل: أبو جهل.

وقرئ: والشجرة الملعونة بالرفع، على أنها مبتدأ محذوف الخبر، كأنه قيل: والشجرة الملعونة في القرآن كذلك.[237]

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَٱسۡتَفۡزِزۡ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتَ مِنۡهُم بِصَوۡتِكَ وَأَجۡلِبۡ عَلَيۡهِم بِخَيۡلِكَ وَرَجِلِكَ﴾ الإسراء: ٦٤

قال الحاكم الجشمي: (وَاسْتَفْزِزْ) قيل: استخفهم وازعجهم واستزلهم، وقيل: هو الاستنهاض ومعناه: ادع (مَنِ اسْتَطَعْتَ) عليه، عن أبي مسلم، (مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ) قيل بدعائك إلى معصية الله تعالى، عن ابن عباس وقتادة وابي علي، وقيل: بالغناء والمزامير واللهو، عن مجاهد. وقيل كل صوت دعي به إلى الفساد فهو من صوت الشياطين، كالغناء والنياحة والدعاء إلى الباطل ونحوها (وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ) قيل: اجمع ما قدرت عليه من مكائدك، وقيل: استعن عليهم، عن مقاتل، (بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ) كل راكب وماش في معصية الله من الإنس والجن، عن ابن عباس ومجاهد وقتادة، وقالوا كل راكب قاتل في معصية الله فهو من خيل ابليس، وكل اجل قاتل في معصية الله تعالى فهو من رجل ابليس. وقيل: خيله ورجله كل داع إلى معصية الله، وإنما هو مثل، عن أبي علي[238]..

قال شيخنا ابن أبي الحديد: فان قلت فهل لابليس خيل تركبها جنده قلت يجوز أن يكون ذلك ، وقد فسره قوم بهذا والصحيح انه كلام خرج مخرج المثل ، شبهت حاله في تسلطه على بنى آدم بمن يغير على قوم بخيله ورجله فيستأصلهم وقيل بصوتك ، أي بدعائك الى القبيح وخيله ورجله كل ماش وراكب من اهل الفساد من بنى آدم .[239]

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجۡتَمَعَتِ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِمِثۡلِ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لَا يَأۡتُونَ بِمِثۡلِهِۦ وَلَوۡ كَانَ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٖ ظَهِيرٗا ۝٨٨﴾ الإسراء: ٨٨

237 الكشاف ج2 ص 676/675/674
238 التهذيب في التفسير ج6 ص 4253/4252
239 شرح نهج البلاغة ابن ابي الحديد ج13 ص 139

قال شيخنا الزمخشري: (لا يَأْتُونَ) جواب قسم محذوف، ولولا اللام الموطئة، لجاز أن يكون جوابا للشرط، كقوله: يقول لا غائب مالى ولا حرم.

لأن الشرط وقع ماضيا، أى: لو تظاهروا على أن يأتوا بمثل هذا القرآن في بلاغته وحسن نظمه وتأليفه، وفيهم العرب العاربة أرباب البيان لعجزوا عن الإتيان بمثله، والعجب من النوابت ومن زعمهم أن القرآن قديم مع اعترافهم بأنه معجز ، وإنما يكون العجز حيث تكون القدرة، فيقال: الله قادر على خلق الأجسام والعباد عاجزون عنه. وأما المحال الذي لا مجال فيه للقدرة ولا مدخل لها فيه كثانى القديم، فلا يقال للفاعل: قد عجز عنه، ولا هو معجز. ولو قيل ذلك لجاز وصف الله بالعجز، لأنه لا يوصف بالقدرة على المحال، إلا أن يكابروا فيقولوا هو قادر على المحال، فإن رأس ما لهم المكابرة وقلب الحقائق.[240]

استطراد موجز في إعجاز القرآن:

يتفق اكثر اهل القبلة أن وجه اعجاز القرآن الفصاحة والنظم، وقد خالفهم عدة من العلماء وقالوا بالصرفة، الصرفة فهي صرف الهمم عن المعارضة , وعلى ذلك كان يعتمد بعض أهل العلم في أن القرآن معجز من جهة صرف الهمم عن المعارضة؛ وذلك خارج عن العادة كخروج سائر المعجزات التي دلت على النبوة , وهذا عندنا أحد وجوه الإعجاز التي يظهر منها للعقول[241]، منهم الشريف المرتضى وإمام الحرمين الجويني وغيرهم، وعلى رأسهم النظّام، وهذا الأخير هو أولهم، إذن الثابت أنهم اختلفوا في وجه الاعجاز لكن هم متفقين على انه معجز، قال الشريف المرتضى: الحمد لله الذي جعل اختلاف مذاهب المختلفين في وجه الإعجاز (وإن تفرعت وتنوعت) فالقرآن غير خارج عن بينها أن يكون معجزا للبرية، وعلما على النبوة، وجعل ما يتردد بينهم فيه من المسائل والجوابات (وإن قدحت في صحة بعض مذاهبهم في تفصيل الاعجاز) فإنها غير قادحة في أصل الاعجاز وجملة الدلالة، لأنه لا فرق بين أن يكون خارقا للعادة بفصاحته دون طريقة نظمه، أو بنظمه دون فصاحته، أو يكون

240 الكشاف ج2 ص 692

241 النكت في إعجاز القرآن ص 110

متضمنا للإخبار عن الغيوب، أو بأن يكون الله صرف عنه العرب وسلبهم العلم به، في أنه على الوجوه كلها معجز دال على النبوة وصدق الدعوة، وان اختلف وجه دلالته بحسب اختلاف الطرق.[242]

وأقول وبالله التوفيق: بعد الاطلاع على ما نقل عن شيخنا النظّام من عدة مصادر أقول: إن شيخنا ابراهيم النظّام رضي الله عنه يرى أن القرآن حجة للنبي عليه الصلاة والسلام لنبوته، ووجه اعجازه من ثلاثة أوجه: الوجه الأول هو الصرفة، والثاني اخباره بالغيوب، والثالث اخباره بما في نفوس القوم وبما سيقولونه (ويمكن دمج الوجه الثالث مع الثاني)، وهذا الذي ثبت عندي، فهناك من يقول ان النظّام يرى وجه اعجازه من وجه واحد، من الصرفة كما نقل هذا عنه جل المعتزلة والزيدية، وهناك من يقول الوجهان الثاني والثالث فقط كما نقل لنا الخياط في الانتصار، وقال صاحب البحر الزخار أن النظّام يقول بالصرفة وقيل بإخباره بالغيب، وهذا مما يثبت لنا أن النظام كان يقول أن وجه اعجازه عدة أوجه، وهذا كلام سليم، أي اعجاز القرآن ليس من وجه واحد فقط وانما من عدة أوجه، وفي الحديث عن آراء شيخنا النظّام حول الاعجاز ننقل ما نقل عنه، ونبدأ بقول الإمام أحمد بن يحي المرتضى(عليه السلام) حيث قال: قال النَّظَّامُ : بَلْ صَرْفُهُ عَنْ مُعَارَضَتِهِ ، وَقِيلَ الْإِخْبَارُ بِالْغَيْبِ.[243] ، وقال الخياط في الانتصار: اعلم –علّمك الله الخير- أن القرآن حجة للنبي عليه السلام على نبوته عند ابراهيم من غير وجه فأحدها الاخبار عن الغيوب ثم استدلّ بآيات الى أن قال: ومثل اخباره بما في نفوس القوم وبما سيقولونه وهذا وما أشبهه في القرآن كثير.[244]، وقال أبو القاسم البلخي في كتاب المقالات في حديثه عن النظّام ومما تفرد به: وأن الحجة في القرآن إنما هو ما فيه من الإخبار عن الغيوب لا النظم والتأليف، لأن النظم عنده مقدور عليه لولا أن الله منع منه.[245]

إلا أننا نجد أن الجاحظ يميل للقول بالصرفة أحيانا كما صرح في كتابه الحيوان حيث قال في ردّه على الدهرية:

وكذلك القول في موسى بن عمران ومن كان معه في التّيه، فقد كانوا أمّة من الأمم يتكسّعون أربعين عاما، في مقدار فراسخ يسيرة ولا يهتدون إلى المخرج. وما كانت بلاد التّيه إلّا من ملاعبهم

[242] الموضح عن جهة اعجاز القرآن (الصرفة) لشيخنا ابن المرتضى عليه السلام ص 45
[243] البحر الزخار الجامع لمذاهب علماء الأمصار ج1 ص 122
[244] الانتصار والرد على ابن الروندي الملحد للخياط ص 28
[245] فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة ص 14

ومنتزهاتهم. ولا يعدم مثل ذلك العسكر الأدلّاء والجمّالين، والمكارين، والفيوج، والرّسل، والتّجار. ولكنّ الله صرف أوهامهم، ورفع ذلك الفصل من صدورهم ومثل ذلك ما رفع من أوهام العرب، وصرف نفوسهم عن المعارضة للقرآن، بعد أن تحدّاهم الرّسول بنظمه. ولذلك لم نجد أحدا طمع فيه. ولو طمع فيه لتكلفه، ولو تكلف بعضهم ذلك فجاء بأمر فيه أدنى شبهة لعظمت القصّة على الأعراب وأشباه الأعراب، والنّساء وأشباه النساء، ولألقى ذلك للمسلمين عملا، ولطلبوا المحاكمة والتراضي ببعض العرب، ولكثر القيل والقال.[246]

وقوله: فإنّا نقول بالصّرفة في عامّة هذه الأصول. وفي هذه الأبواب، كنحو ما ألقي على قلوب بني إسرائيل وهم يجولون في التّيه، وهم في العدد وفي كثرة الأدلّاء والتجّار وأصحاب الأسفار، والحمّارين والمكارين، من الكثرة على ما قد سمعتم به وعرفتموه؛ وهم مع هذا يمشون حتّى يصبحوا، مع شدّة الاجتهاد في الدّهر الطويل، ومع قرب ما بين طرفي التّيه. وقد كان طريقا مسلوكا. وإنّما سمّوه التّيه حين تاهوا فيه، لأنّ الله تعالى حين أراد أن يمتحنهم ويبتليهم صرف أوهامهم.

ومثل ذلك صنيعه في أوهام الأمة التي كان سليمان ملكها ونبيّها، مع تسخير الريح والأعاجيب التي أعطيها. وليس بينهم وبين ملكهم ومملكتهم وبين ملك سبأ ومملكة بلقيس ملكتهم بحار لا تركب، وجبال لا ترام. ولم يتسامع أهل المملكتين ولا كان في ذكرهم مكان هذه الملكة.

وقد قلنا في باب القول في الهدهد ما قلنا ، حين ذكرنا الصّرفة، وذكرنا حال يعقوب ويوسف وحال سليمان وهو معتمد على عصاه، وهو ميّت والجنّ مطيفة به وهم لا يشعرون بموته، وذكرنا من صرف أوهام العرب عن محاولة معارضة القرآن، ولم يأتوا به مضطربا ولا ملفّقا ولا مستكرها؛ إذا كان في ذلك لأهل الشّغب متعلّق، مع غير ذلك، ممّا يخالف فيه طريق الدّهريّة، لأنّ الدّهريّ لا يقر إلّا بالمحسوسات والعادات على خلاف هذا المذهب.[247]

---

[246] حيوان ج4 ص 307/303
[247] حيوان ج6 ص 455

سُورَةُ الْكَهْفِ

قَالَ تَعَالَى: ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ ۖ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ۚ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ۗ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴿٢٢﴾﴾ الكهف: ٢٢

قال شيخنا الحاكم الجشمي: (سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ) رجال و (رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ) ، (وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ) قيل: هذا قاله نصارى نجران، وقيل: غيرهم، تقديره: سيقول بعض الخائضين، وقيل: أراد بعض اليهود، عن الأصم. (رَجْمًا بِالْغَيْبِ) قيل: قذفا بالظن من غير يقين، عن قتادة. (وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ) قيل: هذا من قول المختلفين، وقيل: بل من قول المسلمين (قُلْ) يا محمد (رَبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ) قيل: قليل من الناس، عن قتادة، وقيل: قليل من أهل الكتاب عن عطاء، قال ابن عباس: أنا من ألئك القليل الذين يعرفونهم، هم سبعة وثامنهم كلبهم، فيحتمل أن بن عباس عرف ذلك من جهة الرسول صلى الله عليه وسلم، ويحتمل أنه علم ذلك بالآية لدخول الواو لأنه لتحقيق الكلام، وقيل: ذلك القليل هو النبي صلى الله عليه وسلم لأنه عرفه ذلك، عن أبي علي.[248]

قال الزمخشري: (فَلا تُمارِ فِيهِمْ) فلا تجادل أهل الكتاب في شأن أصحاب الكهف إلا جدالا ظاهرا غير متعمق فيه، وهو أن تقص عليهم ما أوحى الله إليك فحسب ولا تزيد، من غير تجهيل لهم ولا تعنيف بهم في الردّ عليهم، كما قال (وَجادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ). (وَلا تَسْتَفْتِ) ولا تسأل أحدا منهم

[248] التهذيب في التفسير ج6 ص 4389

عن قصتهم سؤال متعنت له، حتى يقول شيئا فتردّه عليه وتزيف ما عنده، لأن ذلك خلاف ما وصيت به من المداراة والمجاملة، ولا سؤال مسترشد، لأن الله قد أرشدك بأن أوحى إليك قصتهم.[249]

فصل في ذكر الكلب وتحريم قتله وحسن تربيته

لما قال معبد في قتل الكلب، وتلا قول الله عزّ وجلّ: (وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْناهُ آياتِنا فَانْسَلَخَ مِنْها فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطانُ فَكانَ مِنَ الْغاوِينَ. وَلَوْ شِئْنا لَرَفَعْناهُ بِها وَلكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَواهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ)، قال أبو إسحاق [النّظام] : وإن كنت إنّما جعلت الكلب شرّ الخلق بهذه العلّة، فقد قال على نسق هذا الكلام: وَلَقَدْ ذَرَأْنا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لا يَفْقَهُونَ بِها وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لا يُبْصِرُونَ بِها وَلَهُمْ آذانٌ لا يَسْمَعُونَ بِها أُولئِكَ كَالْأَنْعامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ، فالذي قال في الإبل والبقر والغنم أعظم، فأسقط من أقدارها بقدر معنى الكلام.

وأدنى ذلك أن تشرك بين الجميع في الذمّ فإنّك متى أنصفت في هذا الوجه، دعاك ذلك إلى أن تنصفها في تتبّع ما لها من الأشعار والأمثال والأخبار والآيات، كما تتبّعت ما عليها.[250]

قال إبراهيم النّظّام: قدّمتم السّنّور على الكلب، ورويتم أن النبيّ صلى الله عليه وسلم أمر بقتل الكلاب واستحياء السنانير وتقريبها وتربيتها، كقوله عند مسألته عنها: «إنّهنّ من الطّوّافات عليكم». وكلّ منفعة عند السّنّور إنّما هي أكل الفأر فقط، وعلى أنّكم قلّما تجدون سنّورا يطلب الفأر، فإن كان مما يطلب ويأكل الفأر، لم يعدمكم أن يأكل حمامكم وفراخكم والعصافير التي يتلهّى بها أولادكم، والطائر يتّخذ لحسنه وحسن صوته. والذي لابدّ منه الوثوب على صغار الفراريج. فإن هو عفّ عن أموالكم لم يعفّ عن أموال جيرانكم، ومنافع الكلب لا يحصيها الطّوامير، والسّنّور مع ذلك يأكل الأوزاغ والعقارب، والخنافيس، وبنات وردان ، والحيّات، ودخّالات الآذان والفأر

---

[249] الكشاف ج2 ص 714
[250] الحيوان ج1 ص 238

والجرذان، وكلّ خبيثة وكلّ ذات سمّ، وكلّ شيء تعافه النفس. ثمّ قلتم في سؤر السّنّور وسؤر الكلب ما قلتم. ثمّ لم ترضوا به حتّى أضفتموه إلى نبيّكم صلى الله عليه وسلم!![251]

قال شيخنا الجاحظ في تأويل آيات سورة الكهف حيث قال: ثم قال: فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرفَقاً. وَتَرَى الشَّمْسَ إِذا طَلَعَتْ تَتَزاوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذاتَ الْيَمِينِ وَإِذا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذاتَ الشِّمالِ ثمّ قال بعد هذه الصّفة لحالهم، والتمكين لهم من قلوب السّامعين، والأعجوبة التي أتاهم بها: وَكَلْبُهُمْ باسِطٌ ذِراعَيْهِ بِالْوَصِيدِ، ثمّ قال: لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِراراً وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْباً، فخبّر أنّهم لم يستصحبوا من جميع من يألف النّاس ويرتفقون به، ويسكنون إليه، شيئا غير الكلب، فإنّ ممّا يألف النّاس ويرتفقون به، ويسكنون إليه، شيئا غير الكلب، فإنّ ممّا يألف النّاس ويرتفقون به، ويسكنون إليه: الفرس والبعير والحمار والبغل، والثّور والشاة، والحمام والدّيكة، كلّ ذلك مما يرتفق به ويستصحب في الأسفار، وينقل من بلد إلى بلد.

والناس يصطادون بغير الكلب، ويستمتعون بأمور كثيرة، فخبّر عنهم بعد أن جعلهم خيارا أبرارا، أنّهم لم يختاروا استصحاب شيء سوى الكلب، وليس يكون ذلك من الموفّقين المعصومين المؤيّدين، إلّا بخاصّة في الكلب لا تكون في غيره.

ثمّ أعاد ذكر الكلب، ونبّأ عن حاله، بأن قال عزّ وجلّ: إِذْ يَتَنازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقالُوا ابْنُوا عَلَيْهِمْ بُنْياناً رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِداً. سَيَقُولُونَ ثَلاثَةٌ رابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْماً بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ ما يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ. فَلا تُمارِ فِيهِمْ إِلَّا مِراءً ظاهِراً وَلا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَداً وفي قولهم في الآية ثَلاثَةٌ رابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْماً بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ دليل على أنّ الكلب رفيع الحال، نبيه الذكر، إذ جعل رابعهم، وعطف ذكره على ذكرهم، واشتقّ ذكره من أصل ذكرهم، حتّى كأنّه واحد منهم، ومن أكفائهم أو أشباههم أو ممّا يقاربهم. ولولا ذلك لقال: سيقولون ثلاثة معهم كلب لهم. وبين قول القائل معهم كلب لهم، وبين قوله رابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ فرق بيّن وطريق واضح.

---

[251] الحيوان ج2 ص 332

فإن قلتم: هذا كلام لم يحكه الله تعالى عن نفسه، وإنّما حكاه عن غيره، وحيث يقول: ثَلَاثَةٌ رابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ وقد صدقتم، والصّفة على ما ذكرتم؛ لأنّ الكلام لو كان منكرا لأنكره الله تعالى، ولو كان معيبا لعابه الله، فإذ حكاه ولم يعبه، وجعله قرآنا وعظّمه بذلك المعنى، ممّا لا ينكر في العقل ولا في اللغة، كان الكلام إذا كان على هذه الصفة مثله؛ إذ كان الله عزّ وجلّ المنزل له.[252]

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ۝٢٣ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ۝٢٤﴾ الكهف: ٢٣ - ٢٤

قال قاضي القضاة: ولم يخص شيئا من شيء ، فدخول المعصية فيه كالطاعة ، وذلك يوجب أنه متى فعل ، فإنما يفعله بمشيئة الله ، ولو لا ذلك لم يكن لهذا القول معنى!

والجواب عن ذلك : أن ظاهر ذلك ليس بقول لأحد ، لأن أحدا من المسلمين لا يقول إنه يجوز أن يقول الرجل : أزنى غدا إن شاء الله ، وأسرق وأقطع الطريق ، وأقتل إن شاء الله ، بل يمنعون من ذلك أشد منع ، ويجيزون هذا القول فيما يخبر به الإنسان من الأمور الحسنة ، وذلك يمنع من تعلقهم بهذا الظاهر.

وبعد ، فليس فى الظاهر بيان هذه المشيئة ، والوجه الذى تحصل عليه ، وقد بينا أنه تعالى قد يشاء من العبد الفعل على جهة الإلجاء ، وعلى طريق الاختيار ، فإذا لم يكن فى الظاهر بيان ذلك فمن أين أن المراد بهذا القول الذى أدب الله تعالى نبيه به مشيئة الاختيار ، ليصح أن يتعلق به!!

والمراد عندنا بذلك : أنه أدب رسوله عليهالسلام والعباد ، بأن لا يخبروا فى الأمور المستقبلة على القطع ، لأن المخبر لا يأمن أن يخترم دونه ويمنع منه ، فيكون كاذبا أو واقعا موقع التهمة ، فإذا أدخل فيه اشتراط المشيئة خرج عن هذا الباب ، فحسن منه.

---

[252] الحيوان ج2 ص 352/351

* ومن يروي الخرافات وأساطير السابقين غيره هو وكعب الأحبار؟

* الكلام حول لماذا سمي بهذا الإسم كله عندي لا يصح لسذاجته، وهذا ليس موضع الخلاف، لأن موضع الخلاف في هذه الآية هو من هو هذا العبد الصالح؟ هل الخضر عالم رباني أم نبي؟

وقد اختلف الناس فى المراد بهذه المشيئة ، وذكروا فيها وجوها : فمنهم من قال : ينبغى أن يريد بذلك مشيئة الإلجاء. ومنهم من قال : يجب أن يريد به مشيئة المنع والحيلولة : ومنهم من قال : يجب أن يريد به كل مشيئة تمكن فيه. وفى العلماء من قال : إن المقصد به إيقاف الكلام على الوجه الذى ابتدئ عليه ، لئلا يعتقد فى المتكلم أنه قاطع على ما أخبر به ، ولا يجب أن ينوى فى ذلك الإلجاء ولا غيره ، وقد حكى ذلك عن الحسن ، رحمه‌الله. وطريقة الإلجاء هو مذهب أبى على ، رحمه‌الله ، ولذلك قال فى الحالف : إنه إنما لم يحنث إذا اشترط المشيئة فى يمينه ، من حيث يريد به الإلجاء ، ولو أراد به الاختيار وعينه ولم يقصد به سواه ، وما كان ما حلف عليه مما يعلم أنه قد أراده ، يحنث. وقد بينا ذلك فى مواضع ، وتقصيه هاهنا يطول.[253]

وقال المبرد، وجماعة: إن قوله (وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا * إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ) ضم الاستثناء إلى الكلام الذي قبله.

ثم قال (وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَى) استأنف كلاما آخر وقصة أخرى.

وقال الجبائي هذا استئناف كلام من الله، وأمر منه لنبيه صلى الله عليه وآله أنه اذا أراد فعلا من الافعال فنسيه فليذكر الله وليقل عسى أن يهديني ربي لاقرب مما نسيته رشدا.[254]

قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾

الكهف: ٦٥

قال شيخنا الحاكم الجشمي: (فَوَجَدَا) يعني موسى وفتاه عند الصخرة لما انصرفا (عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا) قيل: هو الخضر، وسمي خضرا لأنه قعد على فروة بيضاء فاهتزت تحته خضراء ، وروي ذلك مرفوعا، رواه أبو هريرة *، وقيل: كان إذا صلى اخضر ما حوله فسمي خضرا، وقيل: رآه على طنفسه خضراء فسلم عليه فقال: وعليك السلام يا نبي بني اسرائيل، قال له موسى: وما أدراك بي؟ ومن أخرك أنني نبي؟ قال: من دلك عليّ...

---

253 متشابه القرآن ص 473/472

254 التبيان في تفسير القرآن للطوسي ج7 ص 27

واختلفوا في هذاالعالم، فقيل: هو الخضر، وقيل: هو لقب واسمه بَلْيَا بن مَلْكَان، وقيل: هو ابن فرعون موسى، عن ابن لهيعة. وقيل: كان عبدا صالحا، وقيل: كان نبيا، عن أبي علي، وهو الصحيح؛ لأنه اختص بعلوم ومعجزات، وعلم موسى ما يجري مجرى الغيب، ولأن تعلم النبي ممن ليس بنبي ينفر، وقيل: لم يكن نبيا، عن أبي بكر بن أحمد بن علي، وليس بالوجه.

فأما اسمه فيحتمل أنه الخضر وهو الخضر الذي ارسل في بني اسرائيل؛ لأنه كان بعد موسى بزمان، وأبو علي أنكر أن يكون ذلك، فأما الاسم فلا ينكره، والذي يقطع بأنه نبي.[255]

احتج الأصم على نبوته بقوله في أثناء القصة: (وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي) ومعناه فعلته بوحي الله، وهو يدل على النبوة.*[256]

قال الجبائي و غيره أنه كان نبيا لأنه لا يجوز أن يتبع النبي من ليس بنبي ليتعلم منه العلم لما في ذلك من الغضاضة على النبي و كان ابن الإخشيد يجوز أن لا يكون نبيا و يكون عبدا صالحا أودعه الله من علم باطن الأمور ما لم يودعه غيره..[257]

(آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا) أي: أعطيناه نعمة منا، قيل: هو الرسالة وما اختص به من المعجزات (وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا) أي: علم الدين والشرع.[258]

قَالَ تَعَالَى: ﴿فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمٗا فَقَتَلَهُۥ قَالَ أَقَتَلۡتَ نَفۡسٗا زَكِيَّةَۢ بِغَيۡرِ نَفۡسٖ لَّقَدۡ جِئۡتَ شَيۡـٔٗا نُّكۡرٗا ﴿٧٤﴾﴾ الكهف: ٧٤

قال شيخنا الحاكم الجشمي: (فَانْطَلَقَا) سارا (حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلَامًا) قيل: مر الخضر بغلمان يلعبون، فأخذ غلاما ظريفا وضيء الوجه فذبحه بالسكين، عنسعيد بن جبير، وقيل: كان غلاما يعمل بالفساد وتأذى منه أبواه، عن الضحاك، وقيل: كان فتى يقطع الطريق ويلجأ إلى أبويه فيحلفان له

255 التهذيب في التفسير ج6 ص 4458/4457
* قال الفخر الرازي تعقيبا على هذا الكلام: وهذا أيضا دليل ضعيف وضعفه ظاهر..
256 التفسير الكبير للرازي ج21 ص 482
257 تفسير مجمع البيان للطبرسي ج6 ص 329
258 التهذيب في التفسير ج6 ص 4458

فأخذه الخضر، عن الكلبي، وقيل: كان شابا بالغا، عن الأصم. وسمي غلاما لقرب عهده به (فَقَتَلَهُ) قيل: ذبحه بالسكين، وقيل: صرعه ثم نزع رأسه من جسده، وقيل: ضرب برجله فقتله، وقيل: ضرب رأسه بالجدار فقتله (قَالَ) موسى (أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً) طاهرة من الذنوب لأنها كانت صغيرة لم تكلف، وقل: برية من استحقاق القتل، يعنيقتلت نفسا لا تستحق القتل، وإنما قال ذلك لأنه صار كالمغلوب عليه حين رأى قتله فقال ذلك، (لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا) قيل: منكرا، وقيل: أنكر من السفينة، عن الأصم، وقيل: المنكر أشد من الإمر، عن قتادة..[259]

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾﴾ الكهف: ٨٠ – ٨١

قال شيخنا الحاكم الجشمي: (وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ) قيل: هو قولا الخضر، وقيل: هو من قول الله تعالى، حكاه الأصم، (فَخَشِينَا) قيل: علمنا، وقيل: كرهنا، عن قطرب، يقول: فرقت بينهما خشيت أن يفتننا أي: كراهية ذلك، وقيل: خفنا (أَنْ يُرْهِقَهُمَا) قيل: يهلكهما، وقيل: يغشيهما، وقيل: يكلفهما، عن الكلبي، وقيل: يكرهما على الكفر، وقيل: يحملهما على أن يدخلا في دينه، عن سعيد بن جبير، (طُغْيَانًا) مجاوزة للحد في العصيان، (وَكُفْرًا) وذلك مفسدة في الدين، (فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا) ولدا (خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً) صلاحا وإسلاما، وقيل: رزق جارية فولدت سبعين نبيا، غن جعفر بن محمد عن أبيه عليهما السلام، وقيل: تزوجها نبي من الأنبياء فولدت له نبيا فهدى الله على يديه أمة، عن الأصم، والكلبي، وقيل: أبدله بغلام مسلم، وكان المقتول كافرا، عن ابن جريج، وكان أُبَي يقرأ: (وأما الغلام فكان كافرا وكان أبواه مؤمنين) وهذايحمل على أنه فسره به ، قال قتادة: فرح به أبواه حين ولد وحزنا عليه حين قتل، ولو بقي كان فيه هلاكهما، فقضاء الله للمؤمن فيما يكره خير له من قضائه

---

[259] التهذيب في التفسير ج6 ص 4466

فيما يجب (وَأَقْرَبَ رُحْمًا) قيل: أبر بوالديه، وأرحم من المقتول، عن قتادة، وأبي مسلم، وقيل: أوصل للرحم، وقيل: أقرب أن يرحما به، عن الفراء، وقيل: وأقرب رحمة، عن أبي علي.[260]

وقال: يدل قتل الغلام على وجوب اللطف على ما بينا.

ومتى قيل: إن حصل لنا العلم كما حصل لذلك العالم أكان يحسن منا القتل؟

قلنا: يجوز إلا أن ذلك العلم لا يحصل إلا من الأنبياء. وقيل: إنما حسن ذلك في شريعته بالوحي ولا يجب أن تتفق الشرائع.

ومتى قيل: ما وجه حسن قتله؟

قلنا: كونه لطفا وكون بقائه مفسدة.

ومتى قيل: أيستوى في ذلك قتله وإماتته؟

قلنا: هو على وجوه، قد يكون الموت لطفا دون القتل فيجب الموت، وقد يكون القتل لطفا فيجب القتل، وقد يستويان فيخير.

ومتى قيل: كيف يحسن قتل الغير لنفع حتى يحسن قتل صبي لمنفعة بالغ؟

قلنا: يصلح به على لمكلف فيعوضه، ويدخله الجنة فيحصل اللطف والعوض، ويحصل الغرضان.

ومتى قيل: ما وجه المفسدة فيه؟

قلنا بقاؤه لا خلقه.

وتدل على أن المحبة الشديدة قد تصرف عن الهدى لأن أبويه من فرط محبتهما كانا يتبعانه لو بقي.

ومتى قيل: فهب أن قتله كان لطفا فإبدال الآخر ما هو؟

قلنا: هو يحتمل كونه لطفا، ويحتمل أن يكون تفضلا.

ومتى قيل: لم لا يجب إماتة من المعلوم أنه لو بقي لارتد كما تجب إماتة من المعلوم أن غيره عند بقائه يرتد؟

قلنا: لأن بقاءه في الأول تمكين وفي الثاني مفسدة.[261]

---

[260] التهذيب في التفسير ج6 ص 4473/4472

[261] التهذيب في التفسير ج6 ص 4476

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِي ٱلْقَرْنَيْنِۖ قُلْ سَأَتْلُواْ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِي ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًاۗ قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾﴾ الكهف: ٨٣ – ٨٧

قال شيخنا الحاكم الجشمي: (وَيَسْأَلُونَكَ) يا محمد، قيل: اليهود، وقيل: المشركون (عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ) عن خبره وقصته لا عن شخصه، لأنه كان معروفا عند العرب والعجم، واختلفوا، فقيل: كان نبيا ودلوا عليه بقوله: (قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ) ، وقيل كان عبدا صالحا، ولم يكن نبيا، والذي عليه شيوخنا رحمهم الله أنه لا بد أن يكون نبيا أو يكون معه نبي لأنه ظهر هناك ما لا يجوز ظهوره إلا على نبي فاحتمل أنه فعل ذلك بأمر نبي، ومنهم من قال: إنه عدول عن الظاهر والظاهر أنه كان نبيا، وعنعلي عليه السلام أنه كان عبدا صالحا نصر الله فنصره، وناصح فنصح، وقيل: كان ملكا عادلا، عن مجاهد، ملك الأرض أربعة: مؤمنان وكافران، فالمؤمنان: سليمان وذو القرنين، والكافران: نمرود وبخت نصر، وليس بشيء لأنهما لم يملكا إلا بعض الأرض (قُلْ) يا محمد : (سَأَتْلُو) سأقرأ (عَلَيْكُمْ مِنْهُ) أي من ذي القرنين (ذِكْرًا) أي: خبرا تعرفون به صحة نبوة محمد صلى الله عليه وسلم.

(إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ) أي ملكناه وأوطنا له الأرض (وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا) قيل: أعطيناه علما يتسبب به على ما يريد، عن ابن عباس وقتادة والضحاك وابن زيد وابن جريج، وقيل: ومن كل شيء يستعين به الملوك على فتح البلاد ومحاربة الأعداء، عن أبي علي، وقيل: الإعداد في الحروب، وقيل: حيلة الأمور، وقيل: بلاغا إلى حيث أراد، عن الحسن. وقيل: قربنا له أقطار الأرض كما سخرنا لسليمان الريح (فَأَتْبَعَ) بالتشديد سلك وسار، وبالتخفيف لحق (سَبَبًا) طريقا بين المشرق والمغرب، عن مجاهد والضحاك وابن زيد. يعني طريقا طاف به البلاد وفتح المدائن وحارب الأعداء، وقيل: طريقا إلى ما أريد منه، وقيل: حمل الخشب على الجمال فإذا بلغ البحر اتخذ السفن وأدخلها الحمأة، حكاه

الأصم، (حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ) يعني: موضع غروبها، وقد سمي المغرب وإن بعد في موضع الغروب (وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ) يعني وجد الشمس تغرب في عين حارة ذات حمأة؛ لأن القرآتين كالآيتين فيحمل عليها الكلام، واختلفوا فقيل: معناه وجدها كأنها تغيب في عن حمئة وإن كانت تغيب وراءها، عن أبي علي، وأبي مسلم والقاضي. لأن الشمس لا تزايل الفلك ولا تدخل في عين الماء، ولأنه قال: (وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا) ولا يمكن المقام عند غروب الشمس لعظم حرها ولكن لما كان ذلك الموضع غاية ما أحاط به نظر ذي القرنين ولم يجد وراءه شيئا يرى قاله كأنها تغرب في عين حمئة كمن يترءى له أنها تغرب خلف جبل وشجر ونحوهافيقول غربت خلف جبل كذا، ولأن الشمس أكبر من الأرض بكثير فكيف تتسع عين لها، وأنكر هذا القول أبو بكر أحمد بن علي وقال: بل هي في عين حمئة في الحقيقة على ظاهر القرآن، وعليه أكثر المفسرين، وعن كعب: أجدها في التوراة تغرب في ماء وطين، ويحتمل أن يكون الفلك يدور في تلك العين أو يكون الفلك عبارة عن مجرى الشمس فلا يلزمما قال أبو علي.[262] *

أن ذا القرنين لما بلغ موضعها في المغرب ولم يبق بعده شيء من العمارات وجد الشمس كأنها تغرب في عين وهدة مظلمة وإن لم تكن كذلك في الحقيقة كما أن راكب البحر يرى الشمس كأنها تغيب في البحر إذا لم ير الشط وهي في الحقيقة تغيب وراء البحر، هذا هو التأويل الذي ذكره أبو علي الجبائي في تفسيره.[263]

(وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا) أي: ناسا، (قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا) قيل: إما أن تعذب بالقتل من أقام منهم على الشرك (وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا) قيل: تعفو وتصفح، وقيل: تأمرهم وتعلمهم الهدى والرشاد، وقيل: خيرهم بين عقابهم وبين العفو عنهم، وقيل: أراد إما أن تعذب من أصر أو تتخذ حسنا فيمن آمن فـ(قَالَ) ذو القرنين (أَمَّا مَنْ ظَلَمَ) قيل: من كفر ولم يتب،

---

[262] التهذيب في التفسير ج6 ص 4483/4482/4481

*** وهذا القول (لابن الأخشيد وميل الحاكم الجشمي) قول ساذج متهافت عكس ما يقتضيه العقل والعلم وهو عين المكابرة، وكلامهما مردود يرده كلام ابي علي والعلم والعقل، أما كلام كعب الأحبار فلا يلتفت إليه، لا كلامهولا هو كشخص، من أكبر المصائب التي حلت على الإسلام اظهار بعض اليهود الاسلام والدخول فيه لنشر خرافاتهم والطعن في الدين ومنهم هذا اليهودي الخبيث..**

[263] التفسير الكبير للرازي ج21 ص 496

عن الأصم. وقيل: عصى وظلم نفسه بالكبيرة (فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ) بالقتل (عَذَابًا نُكْرًا) : منكرا غير معهود وهو أشد من القتل.[264]

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴿٩٠﴾ ﴾ الكهف: ٨٨ – ٩٠

قال شيخنا الحاكم الجشمي: (وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا) قيل: عدة جميلة من الله له، وقيل: نأمره من طاعته بما تيسر عليه، وقيل: نبين له القول، ونكرر عليه الأمر، وقيل: (يُسْرًا) معروفا، عن مجاهد.

ثم بين تعالى سيره إلى المشرق فقال سبحانه: (ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا) أي: سلك طريقا، وقيل: سلك طريقا للجهاد (حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ) قيل: بلغ إلى موضع أي: قرب من مطلع الشمس فأراد بلوغه مطلع الشمس بلوغ مطرح شعاع الشمس في أول ما تبدوا مما ليس يراه أحد الناس (وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَى قَوْمٍ لَمْ نَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سِتْرًا) قيل: لم يكن بها شجر ولا جبل ولا بناء؛ لأن أرضهم لم يكن يثبت عندهم بناء، فكانوا إذا طلعت الشمس يغورون في المياه والأسراب، وإذا غربت تصرفوا في أمورهم، عن الحسن وقتادة وابن جريج. (كَذَلِكَ) قد بينا معناه (وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا) قيل: علمنا ما لنا عند ذي القرنين من الطاعة في حاضره وغائبه، وقوله (بِمَا لَدَيْهِ) إشارة إلى حسن الثناء عليه والرضى عنه لامتثاله لأمر الله تعالى..[265]

---

264 التهذيب في التفسير ج6 ص 4483/4482

265 التهذيب في التفسير ج6 ص 4487/4486

قَالَ تَعَالَى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيۡنَ ٱلسَّدَّيۡنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوۡمٗا لَّا يَكَادُونَ يَفۡقَهُونَ قَوۡلٗا ۝٩٣ قَالُواْ يَٰذَا ٱلۡقَرۡنَيۡنِ إِنَّ يَأۡجُوجَ وَمَأۡجُوجَ مُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَهَلۡ نَجۡعَلُ لَكَ خَرۡجًا عَلَىٰٓ أَن تَجۡعَلَ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَهُمۡ سَدّٗا ۝٩٤ قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيۡرٞ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجۡعَلۡ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُمۡ رَدۡمًا ۝٩٥﴾ الكهف: ٩٣ – ٩٥

قال شيخنا الحاكم الجشمي: (حَتَّى إِذَا بَلَغَ) وصل (بَيْنَ السَّدَّيْنِ) قل: هم جبلان ، عن ابن عباس، وقتادة، والضحاك وجعل الردم بينهما، وقال الكسائي: هما جبلان سدّ ذو القرنين ما بينهما حاجزا بين يأجوج ومأجوج ومن وراءهم، وقيل: هي بجانب الشمال، وقيل: السد ما بينأرمينية وأذربيجان، عن ابن عباس. وقيل: أراد بالسدين الموضع الذي فيه السدين اليوم لأنه لو كان هناك سدا لم يكن لطلبه أولئك السد معنى، والسد الموضع المسدود لا المنفتح (وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا) أي خصوا بلغة كادوا لا يفقهون قولا على القراءتين.

ومتى قيل: كيف قال: (لا يفقهون) ثم قال: (قالوا يا ذا القرنين)؟

قلنا: قال: (لا يكادون) وكاد يفعل، معناه قرب وكان قريبا ألا يفهم، وقيل: لا يفقهون خيرا وشرا وهدى وضلالا، وقيل: كلم عنهم غير مترجما.

(قَالُوا) يعني الذين حضروا السدين (إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ) قيل: هم ولد يافث بن نوح، عن وهب، ومقاتل. وقيل: قوم من الترك، عن الضحاك، وقيل: احتلم آدم فاختلطت نطفته بالتراب فخلق الله من ذلك الماء يأجوج ومأجوج، فهم متصلون بنا من جهة الأب دون الأم، عن كعب. وليس بشيء[266].

قال شيخنا الزمخشري: (يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ) اسمان أعجميان بدليل منع الصرف. وقرئا: مهموزين. وقرأ رؤبة: آجوج ومأجوج، وهما من ولد يافث. وقيل: يأجوج من الترك، ومأجوج من الجيل والديلم مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ قيل: كانوا يأكلون الناس، وقيل: كانوا يخرجون أيام الربيع فلا يتركون شيئا أخضر إلا أكلوه، ولا يابسا إلا احتملوه، وكانوا يلقون منهم قتلا وأذى شديدا. وعن النبيّ صلى الله عليه وسلم

[266] التهذي في التفسير ج6 ص 4461

في صفتهم: لا يموت أحد منهم حتى ينظر إلى ألف ذكر من صلبه، كلهم قد حمل السلاح . وقيل: هم على صنفين، طوال مفرط والطول، وقصار مفرطو القصر.[267]

وقال الحاكم الجشمي أيضا: تدل الآية على أن يأجوج ومأجوج أمة من الأمم، وفيه مسائل:

أولها: هل هم من بني آدم، واتفق المفسرون والعلماء على أنهم من بني آدم، ورووا أنهم من ولد يافث بن نوح، وذكر أبو علي أنهم من جنس الترك والصين غير أنهم اعتزلوا في ذلك الموضع لكثرة فسادهم، ولأنه لا يتمكن الناس من محاربتهم.

وثانيها: هل هم مكلفون أم لا؟ فقد يحتمل حالهم الوجهين، وقوله : (مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ) لا يدل على التكليف لأن البهائم توصف بذلك.

وثالثها: إن كانوا مكلفين هل بلغتهم الدعوة أم لا؟ وكلاهما يحتمل حتى لو قيل لم تبلغهم؛ إذ لا طريق لوصول ذلك إليهم لم يبعد ولو قيل: الذين يتناوبون الباب سمعوا خبر النبي صلى الله عليه وسلم لم يبعد، والله أعلم.

ورابعها: أين هم؟ فقيل: وراء الصين، وقيل: من جان أرمينية، وقيل: وراء الجزر والترك.

وخامسها: متى يخرجون؟ وليس في القرآن ما يذكر ذلك، وأجمعت الأمة ووردت الآثار أنهم يخرجون عند قرب الساعة، فيأكلون ما في الأرض ويهلكهم الله، وقيل: لا يدخلون مكة والمدينة وبيت المقدس.[268]

قال الحاكم الجشمي: (فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا) أي جعلنا نخرجه لك من أموالنا لك (عَلَى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا) موثقا لا يقدرون على الخروج منه للفساد، وإنما سألوه ذلك لما علموا أنه نبي وأن المعجز يحصل على يديه، فـ (قَالَ) ذو القرنين (مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ) أي: ما مكن الله لي من الأموال والآلات خير، قيل: ما مكني فيه الله من الآلات و الأموال خير مما عرضتم، وقيل: الثواب الذي وعدني الله على تحمل المشاق خير من الأجرة العاجلة (فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ) قيل: بآلة العمل، وكذلك زبر الحديد

---

267 الكشاف ج2 ص 747

268 التهذيب في التفسير ج6 ص 4493/4492

والصفر، وقيل: برجال يعينوني بأنفسهم في عمل السد (أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا) عن أبي علي.
وقيل: الردم أشد الحجاب، عن ابن عباس.وقيل: السد المتراكب بعضه على بعض.[269]

قال شيخنا أمين نايف ذياب: تلك هي الآيات التي ورد فيها ذكرُ يأجوج ومأجوج ، وقد وصفتْهُمْ آيات سورة الكهف بما يلي : (1) إنـهم قوم لا يفقهون قولا (2) وجدوا في عهد ذي القرنين (3) إنـهم مفسدون في الأرض (4) إنَّ القوم الذين يجاورونـهم طلبوا من ذي القرنين بناء سد بينهم وبين قوم يأجوج ومأجوج وبالتالي حصروا خلف السد .

القرآن يخبر أن السد سينهار ويجعله دكاً ، فمن أين استمد المحدثون أنـهم من علامات الساعة ؟ وأنـهم خارجون بعد عيسى في المجيء الثاني ، وأنـهم كثرةٌ لا تحصى ، وأنـهم يقاتلون بالرماح والسيوف والأترسة والمجان ، وأنَّ عيسى ومن معه من المؤمنين في نزوله يعجزون عن قتالهم ، ما هي مرتكز أهل الحديث للقول بأنَّ قوم يأجوج ومأجوج من علامات الساعة ؟ دعواهم ترتكز إلى صدر الآية 97 من الأنبياء وهي : (وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقّ) على اعتبار أنَّ الوعد الحق هو يوم القيامة ، وإذا سلم المسلم بأنَّ الوعد أو الوعد الحق هو يوم القيامة ، فكيف إثبات أنَّ خروج قوم يأجوج ومأجوج لم يحدث في ما مضى ؟ وإنما خروجهم يحدث في زمن سموه زمن علامات الساعة ، دون أنْ يشير القرآن لمثل هذا الزمن ، إلاَّ أنها بغتة ، واختص الله بعلمها ، ومعلوم أن الله تعالى قال : (اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ). وانشقاق القمر عند أهل الحديث علامات مضت.

أكثر المفسرين يقولون بحدوث انشقاق القمر في عهد الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ فاقتراب الساعة وحصولها بغتة هو الأساس الإيماني عند المسلمين ، منذ الرسول وحتى قيام الساعة ، فاقتربت الساعة أيضاً في أيام رسالة عيسى ، واقتربت الساعة قبل ذلك أيضاً في أيام ذي القرنين ، فالاقتراب ليس هو علامات الساعة ، الاقتراب انقضاء زمن وهو يعني اقتراب نحو قيام الساعة أي نـهاية تكليف الإنسانية .

[269] التهذيب في التفسير ج6 ص 4492

الذي يقرأ الصورة التي وَصَفَتْ بـها الأحاديث قوم يأجوج ومأجوج ، يعلم أن تلك الصورة غير مأخوذة من القرآن الكريم ، ويعلم أن الرسول ليس قائلاً تلك الصورة ، لان الرسول صلى الله عليه وسلم لا يأتي بما يخالف القرآن ، ولا يقول الجور ، ولا يقول أساطير الأولين .

الصورة منتزعة من الإصحاح **38** و **39** من سفر حزقيال من كتب العهد القديم..[270]

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ ءَاتُونِي زُبَرَ ٱلۡحَدِيدِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيۡنَ ٱلصَّدَفَيۡنِ قَالَ ٱنفُخُواْۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارٗا قَالَ ءَاتُونِيٓ أُفۡرِغۡ عَلَيۡهِ قِطۡرٗا ٩٦ فَمَا ٱسۡطَٰعُوٓاْ أَن يَظۡهَرُوهُ وَمَا ٱسۡتَطَٰعُواْ لَهُۥ نَقۡبٗا ٩٧ قَالَ هَٰذَا رَحۡمَةٞ مِّن رَّبِّيۖ فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ رَبِّي جَعَلَهُۥ دَكَّآءَۖ وَكَانَ وَعۡدُ رَبِّي حَقّٗا ٩٨ ﴾ الكهف: ٩٦ – ٩٨

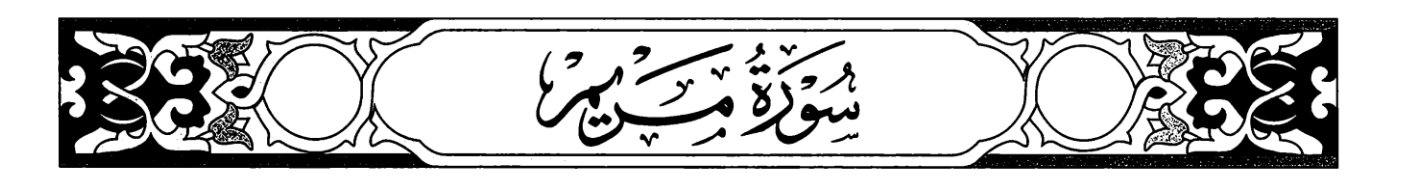
قال شيخنا الحاكم الجشمي: (آتُونِ) اعطوني (زُبَرَ الْحَدِيدِ) قيل: قطع الحديد، عن ابن عباس ومجاهد، وقيل: فلق الحديد، عن قتادة. وفي الكلام حذف دل عليه مابقي وهو أنه أتوه بذلك فبناه (حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ) جانبي الجبل مما جعل بينهما من زبر الحديد، وقيل: كان يضع الحطب على الحديد والحديد على الحطب، والصدفان، قيل: جبلان، عن ابن عباس،ومجاهد والضحاك وابراهيم. (قَالَ انْفُخُوا) وفيه حذث أي: أرسل عليها نار ثم قال انفخوا، قيل: معناه انفخوا النار على الزبر، (حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَارًا) كالنار، عن الأصم، (قَالَ آتُونِي) أعطوني (أُفْرِغْ عَلَيْهِ) أصب، أي: على الحديد، (قِطْرًا) القطر النحاس، عن ابن عباس ومجاهد والضحاك وقتادة، وأراد أنيلزق بعضه ببعض، وقيل: القطر الحديد المذاب، عن ابي عبيدة، وقيل:الرصاص، وقيل: الصفر. (فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ) أي: يعلوه (وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا) في أسفله، عن قتادة. وقيل: السد طريقة سوداء وطريقةحمراء صار النحاس مكان الحطب، فـ (قَالَ) ذو القرنين (هَذَا) السد (رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي) نعمة من عنده لأني بقوته وإرادته فعلته، وقيل: أراد بالرحمة كفايية شر أولئك، عن الأصم، (فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي) قيل: أشراط الساعة عن أبي علي، وقيل: وعد خروجهم عن السد، عن أبي مسلم. (جَعَلَهُ دَكَّاءَ) قيل: مستويا بالأرض،

270 موسوعة جدل الأفكار علامات الساعة ج1

ويصير السد مندك دكا ملصقا بالأرض، عن القتيبي، وقيل: مدقوقا، وقيل: إنمت يكون ذلك بعد قتل عيسى بن مريم الدجال، عن ابن مسعود في حديث يرفعه، (وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا) لا خلف فيه..[271]

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا ﴿٩٩﴾﴾ الكهف: ٩٩

قال شيخنا الزمخشري: (وَتَرَكْنا) وجعلنا (بَعْضَهُمْ) بعض الخلق (يَمُوجُ فِي بَعْضٍ) أى يضطربون ويختلطون إنسهم وجنهم حيارى. ويجوز أن يكون الضمير ليأجوج ومأجوج، وأنهم يموجون حين يخرجون مما وراء السد مزدحمين في البلاد. وروى: يأتون البحر فيشربون ماءه ويأكلون دوابه، ثم يأكلون الشجر، ومن ظفروا به ممن لم يتحصن منهم من الناس، ولا يقدرون أن يأتوا مكة والمدينة وبيت المقدس، ثم يبعث الله نغفا في أقفائهم فيدخل في آذانهم فيموتون.[272]



قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾﴾ مريم: ٢٣

قال شيخنا الحاكم الجشمي: (فَأَجَاءَهَا) أي: ألجأها، عن ابن عباس، ومجاهد، وقتادة والسدي، (الْمَخَاضُ) الطلق، وقيل: الحمل (إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ) قيل: كان جدع نخلة يابسة في الصحراء ولم يكن لها سعف، وقيل: كان في الشتاء ولم يكن للنخلة رأس فجعله الله آية، والألف واللام دخلا للعهد لا للجنس، وكانت نخلة معروفة معهودة، وقيل: أنبت الله جدعا فتعلقت به كما تتعلق المرأة بالمرأة أثناء الولادة، وقيل: ولدت بناحية بيت المقدس، فلما ولدت (قَالَتْ) مريم (يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ

---

[271] التهذيب في التفسير ج6 ص 4497/4496
[272] الكشاف ج2 ص 748

نَسْيًا مَنْسِيًّا) متروكا، عن ابن عباس، وقيل: نسيا لا يذكر ولا يعرف، عن قتادة. وقيل: حيضة ملقاة، عن عكرمة، والضحاك ومجاهد. وقيل: هو السقط عن الربيع. وقيل: كالشيء الهالك، عن مقاتل.
وقيل: يعني: لم أخلق، عن عطاء. وقيل: هو ما نسي من شيء حقير، وقيل: هي ماتلقيه المرأة من خوف اعتلالها.

ومتى قيل: لم تمنت الموت وهو مكروه؟

قلنا: أما التمني فقيل: لخوف الفضيحة وطعن الناس، وقيل: لما أصابها من شدة الطلق، عن الأصم. وقيل: خافت أن يعصي الناس بسببها، وقيل: خافت الذل الذي يلحقها فتمنت الموت.
وأما تمني الموت فلايكره إن كان عن بصيرة كما تمنت هي، وكما روي عن علي (عليه السلام)، وقيل: إنها قالت ذلك على وجه الضجر، وقيل: تمنت ألا تكون مشهورة في قومها بتلك الشهرة، ولم تعرف بما عرفت وكانت معروفة بالصلاح، وكثر الخوض في حديثها، وقيل: قالت استحياء من الناس، عن السدي.[273]

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾﴾ مريم: ٢٤

قال شيخنا الزمخشري: (مِنْ تَحْتِها) هو جبريل عليه السلام. قيل: كان يقبل الولد كالقابلة. وقيل: هو عيسى، وهي قراءة عاصم وأبي عمرو. وقيل (تَحْتِها) أسفل من مكانها، كقوله (تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ) وقيل: كان أسفل منها تحت الأكمة، فصاح بها (أَلَّا تَحْزَنِي) وقرأ نافع وحمزة والكسائي وحفص (مِنْ تَحْتِها) وفي ناداها ضمير الملك أو عيسى. وعن قتادة: الضمير في تحتها للنخلة. وقرأ زرّ وعلقمة: فخاطبها من تحتها.
سئل النبي صلى الله عليه وسلم عن السرىّ فقال: «هو الجدول . قال لبيد: فتوسّطا عرض السّري فصدّعا ... مسجورة متجاورا قلّامها، وقيل: هو من السرو . والمراد: عيسى. وعن الحسن: كان والله عبدا سريا، فإن قلت : ما كان حزنها لفقد الطعام والشراب حتى تسلى بالسرى والرطب؟ قلت: لم تقع

[273] التهذيب في التفسير ج6 ص 4545/4544

التسلية بهما من حيث أنهما طعام وشراب، ولكن من حيث أنهما معجزتان تريان الناس أنها من أهل العصمة والبعد من الريبة، وأن مثلها مما قرفوها به بمعزل، وأن لها أمورا إلهية خارجة عن العادات خارقة لما ألفوا واعتادوا، حتى يتبين لهم أنّ ولادها من غير فحل ليس ببدع من شأنها.[274]

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿يَٰٓأُخۡتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمۡرَأَ سَوۡءٖ وَمَا كَانَتۡ أُمُّكِ بَغِيّٗا ٢٨﴾ مريم: ٢٨

قال شيخنا الزمخشري: (يا أُخْتَ هارُونَ) كان أخاها من أبيها من أمثل بنى إسرائيل. وقيل: هو أخو موسى صلوات الله عليهما. وعن النبي صلى الله عليه وسلم: «إنما عنوا هرون النبيّ وكانت من أعقابه في طبقة الإخوة، بينها وبينه ألف سنة وأكثر. وعن السدى: كانت من أولاده، وإنما قيل: يا أخت هرون، كما يقال يا أخا همدان، أى: يا واحدا منهم. وقيل: رجل صالح أو طالح في زمانها، شبهوها به، أى: كنت عندنا مثله في الصلاح، أو شتموها به، ولم ترد إخوة النسب، ذكر أن هرون الصالح تبع جنازته أربعون ألفا كلهم يسمى هرون تبركا به وباسمه، فقالوا: كنا نشبهك بهرون هذا. وقرأ عمر بن لجاء التيمي (ما كانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ) وقيل احتمل يوسف النجار مريم وابنها إلى غار، فلبثوا فيه أربعين يوما حتى تعلت من نفاسها ، ثم جاءت تحمله فكلمها عيسى في الطريق فقال: يا أماه، أبشرى فإنى عبد الله ومسيحه، فلما دخلت به على قومها وهم أهل بيت صالحون تباكوا وقالوا ذلك. وقيل: هموا برجمها حتى تكلم عيسى عليه السلام. فتركوها.[275]

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِن مِّنكُمۡ إِلَّا وَارِدُهَاۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتۡمٗا مَّقۡضِيّٗا ٧١﴾ مريم: ٧١

قال شيخنا الزمخشري: (وَإِنْ مِنْكُمْ) التفات إلى الإنسان، يعضده قراءة ابن عباس وعكرمة رضى الله عنهما: وإن منهم، أو خطاب للناس من غير التفات إلى المذكور، فإن أريد الجنس كله فمعنى الورود دخولهم فيها وهي جامدة، فيعبرها المؤمنون وتنهار بغيرهم. عن ابن عباس رضى الله عنه:

---

[274] الكشاف ج3 ص 13/12

[275] الكشاف ج3 ص 15/14

يردونها كأنها إهالة. وروى دواية، وعن جابر بن عبد الله أنه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك؟ فقال: إذا دخل أهل الجنة الجنة قال بعضهم لبعض: أليس قد وعدنا ربنا أن نرد النار، فيقال لهم: قد وردتموها وهي جامدة . وعنه رضى الله عنه أنه سئل عن هذه الآية؟ فقال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول «الورود الدخول، لا يبقى برّ ولا فاجر إلا دخلها، فتكون على المؤمنين بردا وسلاما كما كانت على إبراهيم، حتى إنّ للنار ضجيجا من بردها» وأما قوله تعالى أُولئِكَ عَنْها مُبْعَدُونَ فالمراد عن عذابها. وعن ابن مسعود والحسن وقتادة: هو الجواز على الصراط، لأنّ الصراط ممدود عليها. وعن ابن عباس: قد يرد الشيء الشيء ولا يدخله، كقوله تعالى وَلَمَّا وَرَدَ ماءَ مَدْيَنَ ووردت القافلة البلد، وإن لم تدخله ولكن قربت منه. وعن مجاهد: ورود المؤمن النار هو مس الحمى جسده في الدنيا، لقوله عليه السلام «الحمى من فيح جهنم» وفي الحديث «الحمى حظ كل مؤمن من النار» ويجوز أن يراد بالورود: جثوّهم حولها. وإن أريد الكفار خاصة، فالمعنى بين.[276]

قال شيخنا قاضي القضاة: أن الورود لا يوجب الوقوع فى الشيء ، وإنما يقتضى الدنو والمقاربة ـ وعلى هذا الوجه يحمل قوله تعالى : (وَلَمَّا وَرَدَ ماءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ) لأن المتعالم فى ذلك أنه لم يخض الماء وإنما قرب منه ـ فذكر تعالى من قبل ما يدل على أنه أحضر الجميع حول جهنم جثيا ، على ما ذكره ، ثم بين أن الكل وارد عليه ، على هذا الحد ، ثم بين أنه ينجى الذين اتقوا ويذر الظالمين فيها جثيا ، وإنما أراد تعالى بذلك أن المؤمنين إذا قربوا منها وعاينوها وعلموا أن المخلص لهم منها ما فعلوه من الطاعات فيما سلف ، وأن أعداءهم يقعون فيها لأجل معاصيهم السابقة عظم عند ذلك سرورهم ، فيكون ذلك زائدا فى سرورهم ونعيمهم.

ولو لم يحمل على ما قلناه لوجب أن يقال فى الأنبياء والمؤمنين : إن الله يدخلهم النار ، وليس ذلك بمذهب لأحد ، ولو كان فيه خلاف لم يمتنع أن يقال : إنهم يردون النار ويجنبهم تعالى الضرر فيها ، كما نقوله فى الملائكة الموكلة بالعذاب.[277]

---

[276] الكشاف ج3 ص 35/34

[277] متشابه القرآن ص 486/485

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴿٨٣﴾﴾ مريم: ٨٣

قال شيخنا الحاكم الجشمي: (أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ) قيل: أراد خلينا بينهم وبين الشياطين إذا وسوسوا إليهم ودعوهم إلى الضلال، قال أبو علي: وهو مجاز، وقيل: توسع، كما يقال لمن خلى بين الكلب وبين غيره أرسل كلبه عليه، وقيل: سَلَّطْنَاهُ عليهم وأغويناهم به، وليس بشيء؛ لأنه لو كان كذلك لكان الكافر بقبوله الشيطان مطيعا له، كما أن المؤمن بقبوله من الرسول مطيعا له (تَؤُزُّهُمْ أَزًّا) قيل: تزعجهم إزعاجا من الطاعة إلى المعصية، عن ابن عبّاس، وقيل: تغريهم، عن سعيد بن جبير. وقيل: تأمرهم بالمعاصي عن الضحاك، وقيل: تهزهم وتجُرُّهم ومعناه الحث والبعث على الكفر، عن أبي علي.[278]

قال شيخنا الزمخشري: الأز، والهزّ، والاستفزاز: أخوات، ومعناها التهييج وشدة الإزعاج، أى: تغريهم على المعاصي وتهيجهم لها بالوساوس والتسويلات. والمعنى: خلينا بينهم وبينهم ولم نمنعهم ولو شاء لمنعهم قسرا. والمراد تعجيب رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد الآيات التي ذكر فيها العتاة والمردة من الكفار، وأقاويلهم، وملاحتهم، ومعاندتهم للرسل، واستهزاؤهم بالدين: من تماديهم في الغيّ وإفراطهم في العناد، وتصميمهم على الكفر، واجتماعهم على دفع الحق بعد وضوحه وانتفاء الشكّ عنه، وإنهما كهم لذلك في اتباع الشياطين وما تسوّل لهم.[279]

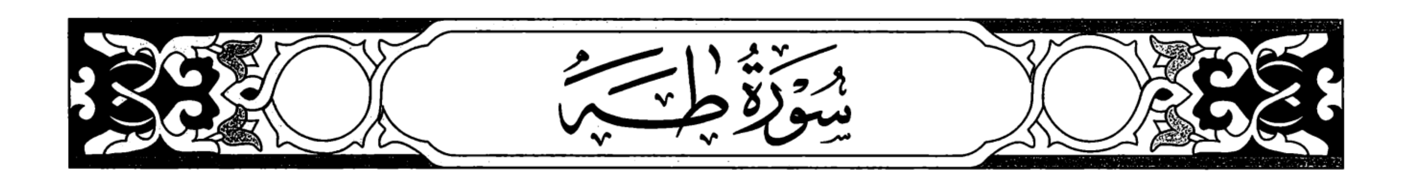
قال شيخنا القاضي عبد الجبّار: أن ظاهره يقتضى أنه أرسل الشياطين لهذه العلة ، كما أرسل الأنبياء للدعاء إلى سبيل ربهم ، وليس ذلك بقول لأحد.

والمراد عندنا به : أنه تعالى خلى بينهم وبين الكافرين مع قدرته على المنع والحيلولة من كل وجه ، فقيل توسعا : إنه أرسلهم ، كما يقال فيمن « يمكنه أن يمنع كلبه من الإقدام على الإضرار بغيره إذا تركه وذاك : إنه أرسل كلبه على الناس ، وكما يقال فى الملك إذا أمكنه ضبط جنده وكفهم عن الفساد وقطع الطريق : إنه قد أرسلهم على الناس ، إذا هو لم يمنعهم.

278 التهذيب في التفسير ج6 ص 4613

279 الكشاف ج3 ص 42

ثم يقال لهم : إن مذهبكم ينافى ما تقتضيه الآية ، لأنه تعالى إذا كان هو الذى يؤزهم ويخلق فيهم الكفر فلا تأثير للشيطان ، ولا فرق بين أن يرسل عليهم أو لا يرسل ، على أنه إذا عدى الإرسال بـ « على » لم يقتض ظاهره الرسالة والأمر ، وإنما يفيد ما ذكرناه ، فأما إذا عدى ب « إلى » فالمراد به الرسالة ، ولذلك لا يقول أحدنا : أرسلت غلامى على فلان ، إذا بعثه إليه برسالة. وهذا ظاهر.[280]



قَالَ تَعَالَى: ﴿طه ۝١ مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ ۝٢﴾ طه: ١ – ٢

[ذكرنا الخلاف في تفسير هذه الحروف المقطعة في الكتاب العزيز في بداية سورة البقرة فلا وجه لإعادة الكلام هنا، ونذكر رأي آخر حول هذه الحروف وكلمة طه خاصة.]

قال شيخنا الحاكم الجشمي: وقيل: إشارة إلى أن القرآن محدث من حيث أُلِفَ، ومن حيث رُكِبْ من هذه الحروف، عن أبي بكر الزبيري....وقيل: اختصار من كلام يعلمه النبي صلى الله عليه وآله وسلم، قيل: معناه: بالسريانية: يا رجل، عن ابن عباس وسعيد بن جبير وعكرمة والحسن ومجاهد والأصم. قال الحسن: هو جواب المشركين لما قالوا: إنه شقى، فقال الله تعالى: (طه) أي: يا رجل (مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى)، وقولهم بالسريانية يعني اتفقت فيه اللغات، أو عَرَّبته العرب، قال الكعبي: هو يا رجل بلغة عك.. (مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ) يا محمد (الْقُرْآنَ لِتَشْقَى) قيل: لتتعب، لتصير به شقيا في الدنيا، وقيل: ما أنزلناه لتشقى به في الآخرة، بل لتسعد به، إذ بلغته وعملت بما فيه.

وذكر أبو مسلم في قوله : (لِتَشْقَى) وجهين:

[280] متشابه القرآن لقاضي القضاة ص 487/486

أحدهما: أنك لا تؤخذ بفعل قومك ولا تلام وإنما عليك البلاغ، ونحو ذلك: (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا) .

الثـاني: لا تحزن عليهم ولا تعذب نفسك، فإنما أنزلنا القرآن تذكرة، فمن آمن فلنفسهومن كفر فلا يحزنك كفره، نظيره: (فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا) الآية.[281]

قال قاضي القضاة: يدل على حدوث القرآن ، من جهات :

أحدها : أنه وصفه بالتنزيل ، وذلك لا يصح إلا فى الحوادث.

وثانيها : أنه وصفه بأنه تذكرة ، وذلك لا يصح إلا فيما يفيد بالمواضعة ، ولا يصح ذلك إلا فيما يحدث على وجه مخصوص ، ولو كان قديما لاستحال جميع ذلك فيه ، لأن ما لا مواضعة عليه لا يصح أن يعلم به الفائدة المقصود إليها. وما هذا حاله لا يجوز أن يكون له معنى ، فيصير تذكرة لمن يخشى.

وثالثها : أنه تعالى بين أنه أنزله عليه لهذا الغرض ، والقصد إنما يؤثر فى الحوادث ، ومتى قالوا : إن المراد بذلك أنه أنزل العبارة عنه فقد تركوا الظاهر وادّعوا أمرا مجهولا ، وسلّموا أن القرآن محدث ، وهو الذى نريده.

فإن قالوا : إذا كان القرآن عندكم عرضا ، والأعراض لا يصح فيها الإنزال ، فكيف يصح تعلقكم بالظاهر؟

قيل له : إن الكلام وإن كان عرضا ، ولا يصح فيه ما ذكرته فى الحقيقة ، فقد يقال فى التعارف : إنه أنزل ، إذا تحمله من يحكيه ويؤديه على جهته ، وهذا بالتعارف قد صار كالحقيقة ، لأن المنشد منا لقصيدة امرئ القيس يقال : إن ما أنشده هو شعر امرئ القيس ، ولا يدعى فى ذلك الخروج عن التعارف والحقيقة ، فيصح من هذا الوجه ما تعلقنا به.[282]

---

[281] التهذيب في التفسير ج6 ص 4633/4632

[282] متشابه القرآن ص 489/488

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ يَٰمُوسَىٰٓ ۝١١ إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَ إِنَّكَ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوٗى ۝١٢﴾ طه: ١١ - ١٢

قال شيخنا الحاكم الجشمي: (نُودِيَ) أي: ناداه الله تعالى، الله تعالى (يَا مُوسَى، إِنِّي أَنَا رَبُّكَ) قيل: كرر الكناية لتأكيد الدلالة وإزالة الشبهة وتحقيق المعرفة، وقيل: لما كلمه الله تعالى فقال: من يكلمني؟ فقال الله:إني أنا ربك، عن أبي علي.[283]

قال قاضي القضاة: وقوله تعالى من بعد : (فَلَمَّا أَتاها نُودِيَ يا مُوسى إِنِّي أَنَا رَبُّكَ) يدل أيضا على حدث النداء ، من حيث علقه بإتيانه المكان ، والقديم لا يصح ذلك فيه ، لأن التوقيت إنما يصح فى الحوادث. من حيث تحدث فى وقت دون وقت.

ومن وجه آخر : وهو أنه لو كان قديما لكان لم يزل قائلا : (يا مُوسى إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ) وقد علمنا أن ذلك يقتضى النقص من جهات كثيرة : أحدها أن المتكلم إنما يكون حكيما متى استفاد بكلامه أو أفاد غيره ، وذلك يستحيل فيما لم يزل ، فإثباته على هذا الوجه نقص ، يتعالى الله عنه ، كما أن أحدنا لو قال وهو منفرد : السماء فوق والأرض تحتى ، ولم يزل يكرره ، فإن ذلك وإن كان صدقا ، فإنه من أقوى الدلالة على السّفه والنقص.

ومنها : أنه لا يجوز أن يكون مناديا على جهة المخاطبة للمعدوم ، لأن ذلك يتعالى الله عنه.

ومنها : أنه [لا] يجوز فيما لم يزل أن يقول : (إِنَّكَ بِالْوادِ الْمُقَدَّسِ) وهو معدوم ؛ لأن ذلك كذب ، تعالى الله عن ذلك ، فلا يجوز ـ إذن ـ إلا أن يكون حادثا فى ذلك الوقت.[284]

283 التهذيب في التفسير ج6 ص 4642
284 متشابه القرآن ص 490/489

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ ۝٤٦﴾ طه: ٤٦

قال شيخنا الزمخشري: (مَعَكُما) أى حافظكما وناصركما (أَسْمَعُ وَأَرى) ما يجرى بينكما وبينه من قول وفعل، فأفعل ما يوجبه حفظي ونصرتي لكما، فجائز أن يقدّر أقوالكم وأفعالكم، وجائز أن لا يقدّر شيء، وكأنه قيل: أنا حافظ لكما وناصر سامع مبصر. وإذا كان الحافظ والناصر كذلك، تمّ الحفظ وصحت النصرة، وذهبت المبالاة بالعدّو.[285]

قال شيخنا الحاكم الجشمي: يدل قوله: (إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى) أنه مع العبد بالحفظ والحراسة، ولا يجوز حمله على المكان؛ لأنه من صفات الجسم.

ويدل قوله: (أَسْمَعُ وَأَرى) أنه سامع مبصر، وهما صفتان غير كونه عالما على ما يقوله مشايخنا خلاف ما تقوله البغدادية أنه يرجع إلى كونه عالما.

ومتى قيل: هل هما حالتان؟

قلنا: كونه سميعا بصيرا لا لأن معناه أنه حي لا آفة به، فأما سامعا مبصرا مدركا لسائر المدركات فهي حالة مقتضاة عن كونه حيا عند وجود المدركات.[286]



قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿مَا يَأۡتِيهِم مِّن ذِكۡرٖ مِّن رَّبِّهِم مُّحۡدَثٍ إِلَّا ٱسۡتَمَعُوهُ وَهُمۡ يَلۡعَبُونَ ۝٢﴾ الأنبياء: ٢

قال قاضي القضاة: يدل على حدث القرآن ؛ لأنه تعالى قد نص على أن الذكر محدث ، وبين بغير آية أن الذكر هو القرآن ، بقوله : (إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ) وقوله. (وَهذا ذِكْرٌ مُبارَكٌ أَنْزَلْناهُ). فإذا صح أنه ذكر ، وثبت بهذه الآية حدوث الذكر ، فقد وجب القول بحدوث القرآن.

---

[285] الكشاف ج3 ص 66

[286] التهذيب في التفسير ج8 ص 4675

فإن قالوا : الوصف بالحدوث يرجع إلى قوله : (ما يَأْتِيهِمْ) لا إلى الذكر.
قيل له : إن الذى يقتضيه الظاهر أن الذكر هو المحدث دون ما ذكرته ، فلا يصح تعلقك به ؛ لأنه جعله صفة للذكر ، ثم قال : (إِلاَّ اسْتَمَعُوهُ) فبين أن الذى يصح أن يسمع هو المختص بالحدث.
وقد قال بعض الجهال : إن هذا القول يوجب أن فى الأذكار ما ليس هذا حاله ، وهذا جهل ؛ لأنه تعالى إنما ذكر الذكر من حيث عقبه بما يعمله الكفار عند استماعه ، فلذلك نكره ، وخصه ، لا لأن ما عداه ليس بحادث ، ومتى صح فى بعض الأذكار أنه محدث وجب مثله فى سائره ، لأن القرآن فى هذا الحكم لا يجوز أن يتبعض ، فيكون بعضه حادثا وبعضه قديما .
فإن قالوا : المراد بذلك العبارة عن كلام الله ، دون نفس الكلام.
قيل لهم : إنما يدل على حدث ما نعقله من القرآن ، فأما ما يدعون من إثبات أمر لا يعقل فمحال أن يتكلم فى حدثه أو قدمه ، لأن القول فى ذلك فرع على إثبات ذاته على كونه معقولا.[287]
قال الحاكم الجشمي: (مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ) قيل: أي شيء من القرآن محدث ينزله سورة فسورة وآية فآية، تنبئهم عن ذكر يوم القيامة والوعد والوعيد، وقيل: الذكر هو محمد صلى الله عليه وآله وسلم، والأول الوجه، وقيل: الذكر ما يذكرهم من أمر الآخرة وتحذيرهم المعاصي، عن أبي مسلم، (إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ) قيل: كلما جدد لهم الذكر استمروا على الجهل، عن الحسن وقتادة، وقيل: يلعبون أي يفعلون ما لا يعنيهم ولا يتعظون ولا يتعبرون..[288]

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۖ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ٧﴾ الأنبياء: ٧

قال شيخنا الزمخشري: أمرهم أن يستعلموا أهل الذكر وهم أهل الكتاب، حتى يعلموهم أن رسل الله الموحى إليهم كانوا بشرا ولم يكونوا ملائكة كما اعتقدوا، وإنما أحالهم على أولئك لأنهم كانوا

---

[287] متشابه القران ص 497/496
[288] التهذيب يفي التفسير ج7 ص 4781

يشايعون المشركين في معاداة رسول الله صلى الله عليه وسلم. قال الله تعالى (وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذىً كَثِيراً) فلا يكاذبونهم فيما هم فيه ردء لرسول الله صلى الله عليه وسلم.[289]

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿١٦﴾ لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٧﴾﴾ الأنبياء: ١٦ – ١٧

قال شيخنا الزمخشري: : وما سوينا هذا السقف المرفوع وهذا المهاد الموضوع وما بينهما من أصناف الخلائق مشحونة بضروب البدائع والعجائب، كما تسوّى الجبابرة سقوفهم وفرشهم وسائر زخارفهم، للهو واللعب، وإنما سويناها للفوائد الدينية والحكم الربانية، لتكون مطارح افتكار واعتبار واستدلال ونظر لعبادنا، مع ما يتعلق لهم بها من المنافع التي لا تعدّ والمرافق التي لا تحصى. ثم بين أنّ السبب في ترك اتخاذ اللهو واللعب وانتفائه عن أفعالي: هو أن الحكمة صارفة عنه، وإلا فأنا قادر على اتخاذه إن كنت فاعلا لأني على كل شيء قدير. وقوله (لَاتَّخَذْناهُ مِنْ لَدُنَّا كقوله رِزْقاً مِنْ لَدُنَّا) أي من جهة قدرتنا. وقيل: اللهو الولد بلغة اليمن. وقيل المرأة. وقيل من لدنا، أي من الملائكة لا من الإنس، ردّا لولادة المسيح وعزير.[290]

قال قاضي القضاة: يدل على أنه تعالى لم يخلق أعمال العباد : لأنه لو خلقها وفيها لعب ، لوجب كونه لاعبا بها ، فكان لا يصح أن ينزه عن ذلك!

هذا إن حمل على ظاهره. وإن أريد به : إنى ما خلقتهما وما بينهما على وجه العبث ، فهو أقوى فى الدلالة، من الوجه الذى قدمنا ذكره ، فى غير موضع.[291]

---

289 الكشاف ج3 ص 104

290 الكشاف ج3 ص 107/106

291 متشابه القرآن لقاضي القضاة ص 497

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ٢٣﴾ الأنبياء: ٢٣

قال شيخنا الجشمي: (لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ) قيل: جميع أفعاله حكمة وصواب، ولا يقال: لِمَ فعلت الصواب؟ وإنما يُسألون؛ لأنهم يفعلون الحق والباطل، وقيل: ليس لأحد عليه نعمة يسأله عن شكرها وكفرانها؛ بل له النعم على جميعهم فيسألهم عنها شكروا أم كفروا، عن أبي مسلم، وقيل: من حق المعبود ألا يُسأل عما فعله؛ لأن فعله حكمة، وكان يجب ألا يسأل المسيح والملائكة، فلما كان من حقه أن يسألهم دل على أنهم عبيد لا معبودون، وأنهم كسائر العباد، عن أبي علي.

قال شيخنا الزمخشري: إذا كانت عادة الملوك والجبابرة أن لا يسألهم من في مملكتهم عن أفعالهم وعما يوردون ويصدرون من تدبير ملكهم، تهيبا وإجلالا، مع جواز الخطإ والزلل وأنواع الفساد عليهم- كان ملك الملوك وربّ الأرباب خالقهم ورازقهم أولى بأن لا يسئل عن أفعاله، مع ما علم واستقرّ في العقول من أن ما يفعله كله مفعول بدواعى الحكمة، ولا يجوز عليه الخطأ ولا فعل القبائح (وَهُمْ يُسْئَلُونَ) أى هم مملوكون مستعبدون خطاءون، فما خلقهم بأن يقال لهم: لم فعلتم؟ في كل شيء فعلوه.[292]

قال قاضي القضاة: أن ظاهره لا يقتضى إلا أنه تعالى لا يسأل عما يفعل وليس فيه بيان ما يفعل مما لا يفعل من الأمور المعيبة ، فالتعلق بظاهره لا يصح!

وبعد ، فإنه لا خلاف بيننا وبينهم فى أنه تعالى لا يسأل عما يفعل ، لكنا نقول : إن الذى يفعله هو الأمور الحسنة ، وهم يقولون : إنه يفعل مع ذلك القبائح. والخلاف فى ما الذى يدخل فى أفعاله ولا يعلم صحيحه من سقيمه ، فمن حيث ثبت أنه لا يسأل عما يفعل ، لأن إحدى المسألتين غير الأخرى، ولهذا صح الوفاق فى أحدهما مع الخلاف فى الأخرى.

---

[292] الكشاف ج3 ص 111/110

وبعد ، فإن الخلاف بيننا وبينهم فى العلة التى لها [لا] يسأل عما يفعل وفى حكمها ، فنقول : إن كان الأمر كما تقولون من أنه يفعل كل قبيح ، فينبغى أن يسأل عما يفعل ، وإنما يسلم ذلك متى نزه عن القبيح. ويقول القوم : إنما لا يسأل عما يفعل لأنه مالك ، إلى غير ذلك من عللهم ، وهذا الخلاف لا تعرف صحة الصحيح منه من ثبوت القول بأنه لا يسأل عما يفعل!

وقد استدل شيوخنا ، رحمهمالله ، بهذه الآية على ما نقول ؛ لأنه تعالى إنما وصف نفسه بذلك من حيث كان لا يفعل إلا الحكمة والعدل ، ومن لا يكون فعله إلا بهذه الصفة لم يجز أن يسأل « عن فعله ، لأن المحسن منا إذا ظهر فيما يفعله وانكشف أنه إحسان لم يجز أن يسأل فيقال له : لم فعلت؟ وإنما يسأل عن ذلك الظالم والمسيء والفاعل للقبيح ، فلو لا أنه تعالى منزه عن القبائح لم يصح أن يوصف بذلك.

وبعد ، فإنه تعالى قال : (وَهُمْ يُسْئَلُونَ) فلا يخلو من أن يريد به : أنهم يسألون عما يفعله ، أو عن فعلهم ، وقد علمنا فساد الوجه الأول ، فليس إلا أنهم يسألون عن فعلهم ، وهذا يوجب فى فعلهم أنه ليس بفعل له ، وإلا لم يصح أن يقع السؤال عنه لأجل قوله : (لا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ). ولوجب دخوله تحت هذا العموم. يبين ذلك أن العبد إذا كان لا يصح أن يتصرف إلا بأن يخلق الله تعالى فيه الفعل ، فمتى لم يسأل : لم فعلت؟ عادت المسألة إلى أنها تتجه على من خلقها فيه ؛ لأنه لو لا خلقه لما صح أن يكسب ويتصرف ، فيجب أن يكون الصحيح متى يسأل عن ذلك أن يقول : فعلت لأنه تعالى خلقه فى ، فمتى قيل مرة ثانية : ولم خلق فيك؟ عادت المسألة إلى أنها متجهة إلى الله تعالى فيما فعل ، وقد نزه الله نفسه عن ذلك بقوله : (لا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ) فلو لم يكن فى القرآن ما يدل على قولنا فى « المخلوق والعدل إلا هذه الآية لكفى .[293]

[293] متشابه القران ص 499/498/497

سُورَةُ الحَجِّ

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيۡطَٰنٖ مَّرِيدٖ ٣﴾ الحج: ٣

قال شيخنا الحاكم الجشمي: (وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ) أي في اثباته وصفاته وما يتصل به من العدل والتوحيد، وقيل: كانت المجادلة في عبادة الأصنام، وقيل: كان في النشأة الثانية، زعم أنه لا يقدر على إحياء العظام وهي رميم، وفي المعجزات، قيل: جادلوا اسخفافا وهزوا، والمجادلة المخاصمة (بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَرِيدٍ) يعني لا يعتمد في مناظراته على علم، بل يعتمد التقليد فيتبع كل شيطان مريد عاص عاد، قيل: الجن، وقيل: من الجن والإنس.[294]

قال شيخنا الزمخشري: قيل: نزلت في النضر بن الحرث، وكان جدلا يقول: الملائكة بنات الله، والقرآن أساطير الأولين، والله غير قادر على إحياء من بلى وصار ترابا. وهي عامة في كل من تعاطى الجدال فيما يجوز على الله وما لا يجوز من الصفات والأفعال، ولا يرجع إلى علم ولا يعضّ فيه بضرس قاطع، وليس فيه اتباع للبرهان ولا نزول على النصفة، فهو يخبط خبط عشواء، غير فارق بين الحق والباطل وَيَتَّبِعُ في ذلك خطوات كُلَّ شَيْطانٍ عات، علم من حاله وظهر وتبين أنه من جعله وليا له لم تثمر له ولايته إلا الإضلال عن طريق الجنة والهداية إلى النار. وما أرى رؤساء أهل الأهواء والبدع والحشوية المتلقبين بالإمامة في دين الله إلا داخلين تحت كل هذا دخولا أوليا، بل هم أشدّ الشياطين إضلالا وأقطعهم لطريق الحق، حيث دوّنوا الضلال تدوينا ولقنوه أشياعهم تلقينا، وكأنهم ساطوه بلحومهم ودمائهم، وإياهم عنى من قال:

ويا ربّ مقفوّ الخطا بين قومه ... طريق نجاة عندهم مستو نهج

294 التهذيب في التفسير ج7 ص 4911

ولو قرءوا في الّلوح ما خطّ فيه من ... بيان اعوجاج في طريقته عجّوا[295]

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿كُتِبَ عَلَيۡهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهۡدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ٤﴾ الحج: ٤

قال شيخنا قاضي القضاة: أن « الهاء » من « تولاه » ترجع إلى الشيطان الذى تقدم ذكره : (وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطانٍ مَرِيدٍ) (1) وقال بعده : (كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلاَّهُ) يعنى : الشيطان ، (فَأَنَّهُ) يعنى : الله تعالى (يُضِلُّهُ) ، لأنه استحقه باتباعه الشيطان وإقدامه على الكفر ، والمراد بهذا الضلال هو العقوبة التى يستحقها على كفره وتوليه للشيطان واتباعه إياه.[296]

قال الحاكم الجشمي: (كُتِبَ عَلَيْهِ) قيل: قضى عليه وحكم، وقيل: كتب الله في اللوح المحفوظ (عَلَيْهِ) قيل: عن الشيطان، وقيل: عن المجادل بالباطل (أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ) اتبعه ووالاه (فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ) عن الدين (وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ) يعني قضى أن الشيطان ضال يضل ويدعو إلى ما يوجب النار.[297]

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ ثُمَّ يُحۡكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ٥٢﴾ الحج: ٥٢

قال شيخنا ابن أبي الحديد: قالوا : فإلقاء الشيطان هاهنا هو إلقاء الشبهة في قلوب المشركين ، وإنما أضافه إلى أمنيته ، وهى تلاوته القرآن ، لان بغرور الشيطان ووسوسته أضاف المشركون إلى تلاوته عليه السلام ما لم يرده بها .

295 الكشاف ج3 ص 143
296 متشابه القرآن لقاضيالقضاة ص 506
297 التهذيب في التفسير ج7 ص 4911

وأنكر أصحابنا الاخبار الواردة التى تقتضي الطعن على الرسول صلى الله عليه وآله ، قالوا : وكيف يجوز أن تصدق هذه الاخبار الآحاد على من قد قال الله تعالى له : (كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ) وقال له : (سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَى) وقال عنه : (وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ * لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ* ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ)[298]

قال قاضي القضاة: أن ظاهره لا يقتضى إلا أن الشيطان يلقى أمرا ، وأن ذلك الأمر يزال ويرفع ، ولا يدل على أنه تعالى يفعل ذلك ، أو على أن ما يفعله الشيطان يؤثر فى الرسول ، ولا ينافى ذلك ما ذكره تعالى من أنه لا سلطان له على المؤمنين ، وذلك أنهم إذا لم يقبلوا وعدلوا عن ذلك زال سلطانه ، وإن كان قد يلقى إليهم ما ذكره تعالى.

وأما قوله : (لِيَجْعَلَ ما يُلْقِي الشَّيْطانُ فِتْنَةً) فظاهره أنه تعالى يجعله تشديدا فى المحنة ، وهذا مما لا نمنع منه ، وقد بينا أن الفتنة تنصرف على وجوه ، وأن ظاهرها ـ فى التعارف ـ ينطلق على تشديد المحنة، وهو الذى أراد بقوله : (إِنْ هِيَ إِلاَّ فِتْنَتُكَ) وبقوله : (الم ، أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ) وكل ذلك يمنع من تعلقهم بهذا الظاهر.

والمراد بالآية عند أبى علي ، رحمه‌الله ، أنه ما من رسول إلا إذا قرأ كتاب الله تعالى ووحيه ألقى الشيطان بوسوسة ما يشغله عن الاستمرار ، فربما لحقه سهو فى القراءة وغلط يجوز عليه ، فينسخ الله ذلك ، لئلا يقدر أنه من القرآن ، ويحكم آياته ، لكى يعلم أنه لا يلتبس بغيره ، ويبين أن التمنى ينطلق على القراءة بيت حسان :

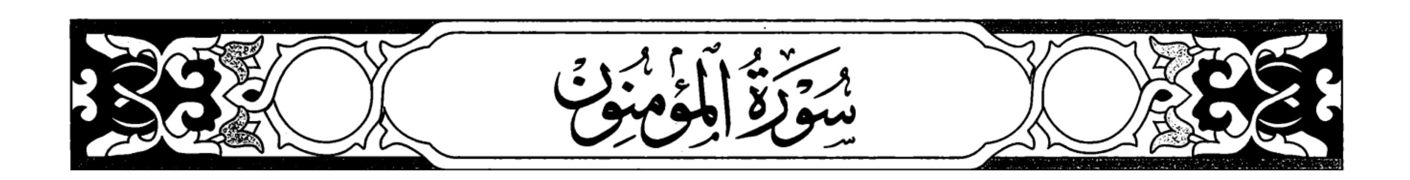
تمنى كتاب الله أول ليله   وآخره لاقى حمام المقادر

ويبين فساد ما ذكره بعضهم من أنه صلّى الله عليه غلط فى القرآن حتى أدخل فيه : تلك الغرانيق العلا ، شفاعتهم ترتجى ، وأن المشركين بمكة لما سمعوا ذلك سجدوا شكرا وفرحا ، وظنوا أن الرسول صلّى الله عليه ، قد عظم آلهتهم، بأن يقال : إن مثل ذلك لا يجوز أن يقع من الأنبياء على سبيل الغلط أيضا ، لما فيه من التنفير ، كما لا يجوز أن يقع منهم ، على جهة السهو ، العبادة لغير الله ، وإن جاز

[298] شرح نهج البلاغة ج7 ص 27/26

السهو عليهم فى الأفعال ، وبين أن المتعالم من قارئ القرآن أنه لا يجوز أن يغلط فيه بمثل هذا ، وإنما يغلط بما هو متشابه فى القرآن ، كما لا يجوز أن يغلط فيدخل فى القرآن شعر امرئ القيس ، ومتى علم ذلك من حال بعض القراء عد زائل العقل ، فكيف يجوز مثل ذلك على الرسول صلى الله عليه! وكيف يجوز ، والمعلوم من حاله بمكة أنه كان يستتر بالصلاة خوفا ، فكيف اتفق ذلك منه فى ملأ منهم ، وقد صح أن المشركين كانوا مضطرين إلى قصده فى الدعاء إلى عبادة الله والاستخفاف بمعبودهم ، فكيف ظنوا هذا الغلط الواقع حتى سجدوا شكرا ، وكيف زال عن قلوبهم العداوة الشديدة لهذا الأمر اليسير ، حتى أقدموا على هذا الصنع. وكل ذلك يبين جهل القوم.

وأما قوله : (لِيَجْعَلَ ما يُلْقِي الشَّيْطانُ فِتْنَةً) فالمراد بذلك أنه ـ عند ذلك ـ شدد المحنة والتكليف على الكفار ، فيلزمهم الدلالة على الفرق بين ما يحكمه الله وبين ما يلقيه الشيطان ، وأنه تعالى يزيل ذلك، لئلا يقع به فساد ، وينسخه ، ويحكم آياته بأن يجعلها على وجه لا يلتبس بها غيرها. وهذا بين.[299]



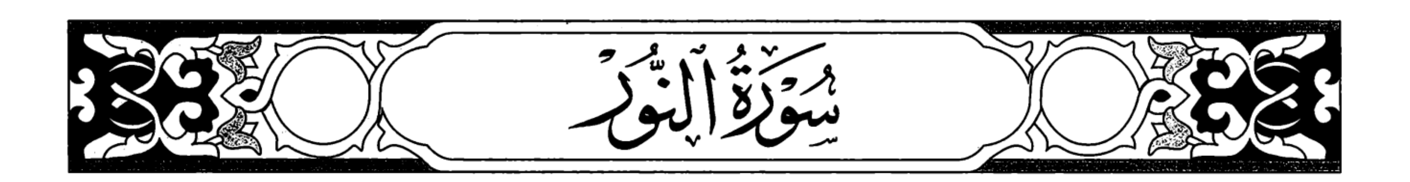
سورة المؤمنون

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٧١﴾ ﴾ المؤمنون: ٧١

<u>قال شيخنا الزمخشري</u>: دل بهذا على عظم شأن الحق، وأنّ السماوات والأرض ما قامت ولا من فيهن إلا به، فلو اتبع أهواءهم لانقلب باطلا، ولذهب ما يقوم به العالم فلا يبقى له بعده قوام. أو أراد أنّ الحق الذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم وهو الإسلام، لو اتبع أهواءهم وانقلب شركا، لجاء الله بالقيامة ولأهلك العالم ولم يؤخر. وعن قتادة: أنّ الحق هو الله. ومعناه: ولو كان الله إلها يتبع أهواءهم ويأمر بالشرك والمعاصي، لما كان إلها ولكان شيطانا، ولما قدر أن يمسك السماوات والأرض (بِذِكْرِهِمْ)

[299] متشابه القران ص 513/512/511

أي بالكتاب الذي هو ذكرهم، أي: وعظهم أو وصيتهم وفخرهم: أو بالذكر الذي كانوا يتمنونه ويقولون: لو أنّ عندنا ذكرا من الأوّلين لكنا عباد الله المخلصين. وقرئ: بذكراهم.[300]



قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ٱلۡخَبِيثَٰتُ لِلۡخَبِيثِينَ وَٱلۡخَبِيثُونَ لِلۡخَبِيثَٰتِۖ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِۚ أُوْلَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَۖ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ﴿٢٦﴾﴾ النور: ٢٦

قال شيخنا الزمخشري: أي (الْخَبِيثاتُ) من القول تقال أو تعد (لِلْخَبِيثِينَ) من الرجال والنساء (وَالْخَبِيثُونَ) منهم يتعرضون (لِلْخَبِيثاتِ) من القول، وكذلك الطيبات والطيبون. (وأُولئِكَ) إشارة إلى الطيبين، وأنهم مبرءون مما يقول الخبيثون من خبيثات الكلم، وهو كلام جار مجرى المثل لعائشة وما رميت به من قول لا يطابق حالها في النزاهة والطيب. ويجوز أن يكون (أُولئِكَ) إشارة إلى أهل البيت، وأنهم مبرءون مما يقول أهل الإفك، وأن يراد بالخبيثات والطيبات: النساء، أي: الخبائث يتزوّجن الخباث، والخباث الخبائث، وكذلك أهل الطيب. وذكر الرزق الكريم هاهنا مثله في قوله (وَأَعْتَدْنا لَها رِزْقاً كَرِيماً) ...[301]

---

[300] الكشاف ج3 ص 196
[301] الكشاف ج3 ص 255



قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ۝٢﴾ الفرقان: ٢

قال شيخنا الحاكم الجشمي: (وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ) مما يطلق عليه إسم المخلوق (فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا) قيل: تقدير يوافق الحكمة، وقيل: هدى كل شيء لما يصلح له.

قال: ويدل قوله : (وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ) أن القرآن مخلوق؛ لأنه من الأشياء المقدورة.[302]

قال قاضي القضاة: ذلك لا يدل على خلقه أفعال العباد ؛ من جهات ، وأن ظاهره فى اللغة يقتضى أنه قد قدّر كل شيء ، وذلك مما لا نأباه فى أفعال العباد ، لأنه تعالى قد قدّرها وبينها. ودللنا على أن ظاهر التقدير فى اللغة ليس هو الخلق ، ولا يفيد ذلك أن المقدّر من الفعل المقدور ، وبينا ذلك بقول الشاعر :

وبعض القوم يخلق ثم لا يفرى

فأثبته خالقا ونفى عنه القطع الذى هو الفعل.

وقوله تعالى فى هذه الآية : (فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً) يدل على أن هذا هو المراد بالخلق ، على ما ذكرناه.

وبعد ، فإن التقدير إنما يصح فى الأجسام ؛ لأنها التى يظهر فيها اختلاف الأشكال « ولذلك كثر ذكر الخلق فى الأديم دون غيره. فإذا صح ذلك وجب حمل الآية على أنه خلق الأجسام وقدّرها على ما أراده ، ولهذا ذكر هذا عقيب قوله : (الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ) فأراد أن يدل على أنه المختص بالأمور التى توجب العبادة ، ليبين أنه لا إلٰه سواه ، ولذلك قال بعده : (وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً) وإنما يتعلق الأول به متى حمل على ما ذكرناه ولذلك قال (لا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ) منبها بذلك على أن ما ادعوه إلها لا يصح منه الخلق ، وكل ذلك واضح.[303]

---

[302] التهذيب في التفسير ج7 ص 5266 / 5268

[303] متشابه القرآن ص 529/528



قَالَ تَعَالَى: ﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ۝٣٢﴾ الشعراء: ٣٢

قال شيخنا الزمخشري: (ثُعْبانٌ مُبِينٌ) ظاهر الثعبانية، لا شيء يشبه الثعبان، كما تكون الأشياء المزوّرة بالشعوذة والسحر. وروى أنها انقلبت حية ارتفعت في السماء قدر ميل، ثم انحطت مقبلة إلى فرعون، وجعلت تقول: يا موسى، مرني بما شئت. ويقول فرعون: أسألك بالذي أرسلك إلا أخذتها، فأخذها فعادت عصا.[304]

قال الشريف المرتضى*: إن سأل سائل فقال: ما تقولون فى قوله تعالى حكاية عن موسى عليه السلام: (فَأَلْقى عَصاهُ فَإِذا هِيَ ثُعْبانٌ مُبِينٌ)، وقال فى موضع آخر: (وَأَنْ أَلْقِ عَصاكَ فَلَمَّا رَآها تَهْتَزُّ كَأَنَّها جَانٌّ وَلَّى مُدْبِراً وَلَمْ يُعَقِّبْ).

والثّعبان هو الحيّة العظيمة الخلقة، والجانّ الصغير من الحيّات، فكيف اختلف الوصفان والقصة واحدة؟ وكيف يجوز أن تكون العصا فى حالة واحدة من صفة ما عظم خلقه من الحيّات، وبصفة ما صغر منها؟ وبأىّ شيء

تزيلون التناقض عن هذا الكلام؟.

الجواب: أول ما نقوله: إن الّذي ظنه السائل من كون الآيتين خبرا عن قصة واحدة باطل؛ بل الحالتان مختلفتان؛ فالحال [التى أخبر عن العصا فيها بصفة الجان] كانت فى ابتداء النبوّة، وقبل مصير موسى عليه السلام إلى فرعون، والحال التى صارت العصا فيها ثعبانا كانت عند لقائه فرعون وإبلاغه الرسالة؛ والتلاوة تدلّ على ذلك؛ وإذا اختلفت القصّتان فلا مسألة.

---

304 الكشاف ج3 ص 310

* ذكره أحمد بن يحيى بن المرتضى في طبقات المعتزلة في الطبقة الثانية عشر وأنه أخذ عن قاضي القضاة، فهو معتزلي امامي، ولا اسلمبهذا تقريبا..إلا أني أذكره لأنه عند بعض الاخوة من المعتزلة المعاصرة معتزلي..

على أن قوما من المفسّرين قد تعاطوا الجواب عن هذا السؤال؛ إمّا لظنّهم أن القصة واحدة، أو لاعتقادهم أن العصا الواحدة لا يجوز أن تنقلب فى حالتين: تارة إلى صفة الجانّ، وتارة إلى صفة الثعبان؛ أو على سبيل الاستظهار فى الحجة، وأن الحال لو كانت واحدة على ما ظنّ لم يكن بين الآيتين تناقض؛ وهذا الوجه أحسن ما تكلّفوا الجواب لأجله؛ لأن الأولين لا يكونان إلا عن غلط أو غفلة، وذكروا وجهين تزول بكل واحد منهما الشبهة فى تأويلها:

أحدهما أنه تعالى إنما شبّهها بالثعبان فى إحدى الآيتين لعظم خلقها، وكبر جسمها، وهول منظرها؛ وشبّهها فى الآية الأخرى بالجانّ لسرعة حركتها ونشاطها وخفّتها؛ فاجتمع لها مع أنها فى جسم الثعبان وكبر خلقه نشاط الجان، وسرعة حركته؛ وهذا أبهر فى باب الإعجاز، وأبلغ فى خرق العادة؛ ولا تناقض معه بين الآيتين؛ وليس يجب إذا شبّهها بالثعبان أن يكون لها جميع صفات الثعبان، ولا إذا شبّهها بالجان أن يكون لها جميع صفاته، وقد قال الله تعالى: (وَيُطافُ عَلَيْهِمْ بِآنِيَةٍ مِنْ فِضَّةٍ وَأَكْوابٍ كانَتْ قَوارِيرَا. قوارير من فضّة) . ولم يرد تعالى أنّ الفضّة قوارير على الحقيقة؛ وإنما وصفها بذلك لأنه اجتمع لها صفاء القوارير وشفوفها ورقّتها؛ مع أنها من فضة؛ وقد تشبّه العرب الشيء بغيره فى بعض وجوهه؛ فيشبّهون المرأة بالظّبية والبقرة ونحن نعلم أن فى الظباء والبقر من الصّفات ما لا يستحسن أن يكون فى النساء، وإنما وقع التشبيه فى صفة دون صفة، ومن وجه دون وجه.

والجواب الثانى أنه تعالى لم يرد بذكر الجانّ فى الآية الأخرى الحيّة؛ وإنما أراد أحد الجنّ؛ فكأنه تعالى خبّر بأن العصا صارت ثعبانا فى الخلقة وعظم الجسم؛ وكانت مع ذلك كأحد الجن فى هول المنظر وإفزاعها لمن شاهدها؛ ولهذا قال تعالى: (فَلَمَّا رَآها تَهْتَزُّ كَأَنَّها جَانٌّ وَلَّى مُدْبِراً وَلَمْ يُعَقِّبْ).

ويمكن أن يكون فى الآية تأويل آخر استخرجناه؛ إن لم يزد على الوجهين الأوّلين لم ينقص عنهما؛ والوجه فى تكلّفنا له ما بيّناه من الاستظهار فى الحجّة، وأنّ التناقض الّذي توهّم زائل على كل وجه؛ وهو أنّ العصا لمّا انقلبت حيّة صارت أولا بصفة الجانّ وعلى صورته؛ ثم صارت بصفة الثّعبان؛ على تدريج؛ ولم تصر كذلك ضربة واحدة؛ فتتّفق الآيتان على هذا التأويل، ولا يختلف حكمهما، وتكون الآية الأولى التى تتضمن ذكر الثعبان إخبارا عن غاية حال العصا، وتكون الآية الثانية تتضمّن ذكر الحال

التى ولى موسى فيها هاربا؛ وهى حال انقلاب العصا إلى خلقة الجان؛ وإن كانت بعد ذلك الحال انتهت إلى صورة الثعبان.

فإن قيل على هذا الوجه: كيف يصح ما ذكرتموه مع قوله تعالى: فَإِذا هِيَ ثُعْبانٌ مُبِينٌ؛ وهذا يقتضي أنها صارت ثعبانا بعد الإلقاء بلا فصل؟ قلنا: تفيد الآية ما ظنّ؛ وإنما فائدة قوله تعالى: (فَإِذا هِيَ) الإخبار عن قرب الحال التى صارت فيها بتلك الصّفة؛ وأنّه لم يطل الزّمان فى مصيرها كذلك، ويجرى هذا مجرى قوله تعالى/: (أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسانُ أَنَّا خَلَقْناهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ)؛ مع تباعد ما بين كونه نطفة وكونه خصيما مبينا، وقولهم: ركب فلان من منزله فإذا هو فى ضيعته، وسقط من أعلى الحائط فإذا هو فى الأرض؛ ونحن نعلم أنّ بين خروجه من منزله وبلوغه ضيعته زمانا، وأنّه لم يصل إليها إلا على تدريج؛ وكذلك الهابط من الحائط؛ وإنما فائدة الكلام الإخبار عن تقارب الزّمان؛ وأنه لم يطل ولم يمتدّ.[305]



قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوۡاْ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمۡلِ قَالَتۡ نَمۡلَةٞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ۝١٨ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكٗا مِّن قَوۡلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوۡزِعۡنِيٓ أَنۡ أَشۡكُرَ نِعۡمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنۡ أَعۡمَلَ صَٰلِحٗا تَرۡضَىٰهُ وَأَدۡخِلۡنِي بِرَحۡمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝١٩﴾ النمل: ١٨ – ١٩

305 أمالي المرتضى ص 27/26/25

قرأ أبو إسحاق النظّام قوله عز وجلّ: (وَحُشِرَ لِسُلَيْمانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ. حَتَّى إِذا أَتَوْا عَلى وادِ النَّمْلِ)، فقال : كان ذلك الوادي معروفا بوادي النمل، فكأنّه كان حمى. وكيف ننكر أن يكون حمى؟! والنّمل ربّما أجلت أمّة من الأمم عن بلادهم.

ولقد سألت أهل كسكر فقلت: شعيركم عجب، وأرزكم عجب، وسمككم عجب، وجداؤكم عجب، وبطّكم عجب، ودجاجكم عجب، فلو كانت لكم أعناب! فقالوا: كلّ أرض كثيرة النّمل لا تصلح فيها الأعناب. ثمّ قرأ: (قالَتْ نَمْلَةٌ يا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَساكِنَكُمْ) فجعل تلك الجحرة مساكن. والعرب تسميها كذلك ثمّ قال: (لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمانُ وَجُنُودُهُ) فجمعت من اسمه وعينه، وعرفت الجند من قائد الجند، ثم قالت: (وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ) فكانوا معذورين، وكنتم ملومين، وكان أشدّ عليكم. فلذلك قال: (فَتَبَسَّمَ ضاحِكاً مِنْ قَوْلِها) لما رأى من بعد غورها وتسديدها، ومعرفتها. فعند ذلك قال: (رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلى والِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صالِحاً تَرْضاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبادِكَ الصَّالِحِينَ)[306]

قال الزمخشري: قيل: هو واد بالشام كثير النمل. فان قلت: لم عدّى أَتَوْا بعلى؟ قلت: يتوجه على معنيين أحدهما أن إتيانهم كان من فوق، فأتى بحرف الاستعلاء، كما قال أبو الطيب:

ولشدّ ما قربت عليك الأنجم

لما كان قربا من فوق. والثاني: أن يراد قطع الوادي وبلوغ آخره، من قولهم: أتى على الشيء إذا أنفذه وبلغ آخره كأنهم أرادوا أن ينزلوا عند منقطع الوادي، لأنهم ما دامت الريح تحملهم في الهواء لا يخاف حطمهم، وقرئ نملة يا أيها النمل، بضم الميم وبضم النون والميم، وكان الأصل: النمل، بوزن الرجل، والنمل الذي عليه الاستعمال: تخفيف عنه، كقولهم «السبع» في السبع. قيل: كانت تمشى وهي عرجاء تتكاوس ، فنادت: يا أيها النمل: الآية، فسمع سليمان كلامها من ثلاثة أميال. وقيل: كان اسمها طاخية. وعن قتادة أنه دخل الكوفة فالتف عليه الناس، فقال: سلوا عما شئتم، وكان أبو حنيفة رحمه الله حاضرا- وهو غلام حدث-. فقال: سلوه عن نملة سليمان، أكانت ذكرا أم أنثى؟ فسألوه فأفحم،

---

306 الحيوان ج4 ص 267

فقال أبو حنيفة: كانت أنثى، فقيل له: من أين عرفت؟ قال: من كتاب الله، وهو قوله قالَتْ نَمْلَةٌ ولو كانت ذكرا لقال: قال نملة، وذلك أنّ النملة مثل الحمامة والشاة في وقوعها على الذكر والأنثى، فيميز بينهما بعلامة، نحو قولهم: حمامة ذكر، وحمامه أنثى، وهو وهي. وقرئ: مسكنكم ولا يحطمنكم، بتخفيف النون، وقرئ لا يحطمنكم بفتح الحاء وكسرها. وأصله: يحتطمنكم. ولما جعلها قائلة والنمل مقولا لهم كما يكون في أولى العقل: أجرى خطابهم مجرى خطابهم. فإن قلت: لا يحطمنكم ما هو؟ قلت: يحتمل أن يكون جوابا للأمر، وأن يكون نهيا بدلا من الأمر، والذي جوّز أن يكون بدلا منه: أنه في معنى: لا تكونوا حيث أنتم فيحطمكم، على طريقة: لا أرينك هاهنا، أراد: لا يحطمنكم جنود سليمان، فجاء بما هو أبلغ، ونحوه: عجبت من نفسي ومن إشفاقها.

ومعنى (فَتَبَسَّمَ ضاحِكاً) تبسم شارعا في الضحك وآخذا فيه، يعنى أنه قد تجاوز حدّ التبسم إلى الضحك، وكذلك ضحك الأنبياء عليهم السلام. وأما ما روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ضحك حتى بدت نواجذه فالغرض المبالغة في وصف ما وجد منه من الضحك النبوي، وإلا فبدوّ النواجذ على الحقيقة إنما يكون عند الاستغراب، وقرأ ابن السميقع: ضحكا، فان قلت: ما أضحكه من قولها؟ قلت: شيئان، إعجابه بما دل من قولها على ظهور رحمته ورحمة جنوده وشفقتهم، وعلى شهرة حاله وحالهم في باب التقوى، وذلك قولها (وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ) تعنى أنهم لو شعروا لم يفعلوا. وسروره بما آتاه الله مما لم يؤت أحدا: من إدراكه بسمعه ما همس به بعض الحكي الذي هو مثل في الصغر والقلة، ومن إحاطته بمعناه، ولذلك اشتمل دعاؤه على استيزاع الله شكر ما أنعم به عليه من ذلك، وعلى استيفاقه» لزيادة العمل الصالح والتقوى. وحقيقة (أَوْزِعْنِي) اجعلنى أزع شكر نعمتك عندي، وأكفه وأرتبطه لا ينفلت عنى، حتى لا أنفك شاكرا لك. وإنما أدرج ذكر والديه لأنّ النعمة على الولد نعمة على الوالدين، خصوصا النعمة الراجعة إلى الدين، فإنه إذا كان تقيا نفعهما بدعائه وشفاعته وبدعاء المؤمنين لهما كلما دعوا له، وقالوا: رضى الله عنك وعن والديك. وروى أن النملة أحست بصوت الجنود ولا تعلم أنهم في الهواء، فأمر سليمان الريح فوقفت لئلا يذعرن حتى دخلن مساكنهنّ، ثم دعا بالدعوة. ومعنى (وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبادِكَ الصَّالِحِينَ) واجعلنى من أهل الجنة.[307]

[307] الكشاف ج3 ص 358/357/356/355

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَالِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ۝٢٠ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ۝٢١﴾ النمل: ٢٠ – ٢١

قال شيخنا الزمخشري: (أَمْ) هي المنقطعة: نظر إلى مكان الهدهد فلم يبصره، فقال (ما لِيَ لا أَرَى) على معنى أنه لا يراه وهو حاضر لساتر ستره أو غير ذلك، ثم لاح له أنه غائب فأضرب عن ذلك وأخذ يقول: أهو غائب؟ كأنه يسأل عن صحة ما لاح له. ونحوه قولهم: إنها لإبل أم شاء، وذكر من قصة الهدهد أنّ سليمان حين تم له بناء بيت المقدس تجهز للحج بحشره ، فوافى الحرم وأقام به ما شاء، وكان يقرّب كل يوم طول مقامه بخمسة آلاف ناقة وخمسة آلاف بقرة وعشرين ألف شاة، ثم عزم على السير إلى اليمن فخرج من مكة صباحا يؤم سهيلا، فوافى صنعاء وقت الزوال، وذلك مسيرة شهر، فرأى أرضا حسناء أعجبته خضرتها، فنزل ليتغدّى ويصلي فلم يجدوا الماء، وكان الهدهد قناقنه ، وكان يرى الماء من تحت الأرض كما يرى الماء في الزجاجة فيجيء الشياطين فيسلخونها كما يسلخ الإهاب ويستخرجون الماء، فتفقده لذلك، وحين نزل سليمان حلق الهدهد فرأى هدهدا واقعا، فانحط إليه فوصف له ملك سليمان وما سخر له من كل شيء، وذكر له صاحبه ملك بلقيس، وأنّ تحت يدها اثنى عشر ألف قائد تحت كل قائد مائة ألف وذهب معه لينظر فما رجع إلا بعد العصر، وذكر أنه وقعت نفحة من الشمس على رأس سليمان فنظر فإذا موضع الهدهد خال فدعا عريف الطير وهو النسر فسأله عنه فلم يجد عنده علمه، ثم قال لسيد الطير وهو العقاب: عليّ به، فارتفعت فنظرت، فإذا هو مقبل فقصدته، فناشدها الله وقال: بحق الذي قوّاك وأقدرك عليّ إلا رحمتينى، فتركته وقالت: ثكلتك أمك، إنّ نبى الله قد حلف ليعذبنك، قال: وما استثنى؟ قالت: بلى قال: أو ليأتينى بعذر مبين، فلما قرب من سليمان أرخى ذنبه وجناحيه يجرّها عليّ الأرض تواضعا له، فلما دنا منه أخذ برأسه فمدّه إليه، فقال: يا نبى الله، اذكر وقوفك بين يدي الله، فارتعد سليمان وعفا عنه، ثم سأله. تعذيبه: أن يؤدّب بما يحتمله حاله ليعتبر به أبناء جنسه. وقيل: كان عذاب سليمان للطير أن ينتف ريشه ويشمسه.

وقيل: أن يطلى بالقطران ويشمس. وقيل: أن يلقى للنمل تأكله. وقيل: إيداعه القفص.

وقيل: التفريق بينه وبين إلفه. وقيل: لألزمنه صحبة الأضداد. وعن بعضهم: أضيق السجون معاشرة الأضداد. وقيل: لألزمنه خدمة أقرانه. فإن قلت: من أين حل له تعذيب الهدهد؟

قلت: يجوز أن يبيح له الله ذلك. لما رأى فيه من المصلحة والمنفعة، كما أباح ذبح البهائم والطيور للأكل وغيره من المنافع: وإذا سخر له الطير ولم يتم ما سخر له من أجله إلا بالتأديب والسياسة: جاز أن يباح له ما يستصلح به. وقرئ: ليأتيني. وليأتينن. والسلطان: الحجة والعذر. فإن قلت: قد حلف على أحد ثلاثة أشياء: فحلفه على فعليه لا مقال فيه، ولكن كيف صح حلفه على فعل الهدهد؟ ومن أين درى أنه يأتي بسلطان، حتى يقول والله ليأتيني بسلطان؟ قلت: لما نظم الثلاثة «بأو» في الحكم الذي هو الحلف: آل كلامه إلى قولك: ليكونن أحد الأمور، يعني: إن كان الإتيان بالسلطان لم يكن تعذيب ولا ذبح، وإن لم يكن كان أحدهما، وليس في هذا ادّعاء دراية، على أنه يجوز أن يتعقب حلفه بالفعلين وحي من الله بأنه سيأتيه بسلطان مبين، فثلث بقوله (أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ) عن دراية وإيقان.[308]

قال قاضي القضاة: أن من شيوخنا من قال إنه كان عاقلا مكلفا فى زمن سليمان ، وكان ذلك معجزة له ، فصح أن يقول هذا القول.

فأما أبو علي ، رحمهالله ، فإنه كان يقول : إنه بمنزله المراهق الذى يقارب حال العاقل ، فصح منه ذلك على جهة التأديب ، كما يصح من أحدنا مثله فى المراهق إذا أرسله وعصى فيما أراد منه. قال : ولا يمتنع مع هذا أن يقول : (وَجَدْتُها وَقَوْمَها يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللهِ) فيكون حاكيا لذلك من غير معرفة بالله تعالى ، كما يحكى مثله المراهق.[309]

---

[308] الكشاف ج3 ص 359/358

[309] متشابه القرآن ص 540/539

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ ۞ وَإِذَا وَقَعَ ٱلۡقَوۡلُ عَلَيۡهِمۡ أَخۡرَجۡنَا لَهُمۡ دَآبَّةٗ مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ تُكَلِّمُهُمۡ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾ النمل: ٨٢

قال شيخنا أمين نايف ذياب: لا يوجد في الآية ما يدل على أنَّ الدابة من علامات الساعة ؛ هذا من جهة ؛ ومن جهة أخرى فقد أعطيت الدابة وصفا من قبل نص الحديث ؛ لا ينتمي لعالم الشهادة ؛ فهي دابة أهلب الشعر ؛ لا يعلمون قبله من دبره ؛ تتكلم العربية ؛ وهي في جزيرة تميم الجزيرة العجيبة ، وتأتي الأحاديث لتقول : إنَّ لـها ثلاث خرجات تسم الناس على جباههم ، من هم هؤلاء الذين وقع القول عليهم ؟ هل هم أناس في زمن مضى وانقضى وغبر ، أم هم ناس سيظهرون في ما استقبل من الزمان ؟ أل التعريف في الناس ليست للجنس بل هي للعهد ، والقرآن حكم عليهم بأنـهم : " كَانُوا بِآياتِنَا لا يُوقِنُونَ " (النمل: من الآية82) أي بصيغة الماضي ؛ وليس بصيغة المستقبل ، هل صيغة الماضي هذه ملغية ، والمراد من الماضي المستقبل ؟ كيف يمكن فهم ذلك من نص الآية ؟ ربما يقال إنَّ الفعل المضارع [تُكَلِّمُهُمْ] دال على ذلك ، إذ المضارع دال على الحال أو الاستقبال ، والحقيقة أنَّ المضارع في الآية هو جملة لـها محل من الإعراب ، فهي جملة فعلية في محل نصب صفة لكلمة [دابة] ، فصفة الدابة التي أخرجنا في الماضي أنـها [تُكَلِّمُهُمْ] لتقيم الحجة عليهم ، فالدابة هي آية وحجة وبلاغ ، ومثل هذا الوصف ينطبق على الناقة ، إذ الناقة مبصرة فما معنى مبصرة ؟ إذا كان معنى مبصرة أنـها ذات عينين ترى بـهما ، فكل نوق الدنيا على ذلك ، إنَّ كلمة مبصرة من البصيرة ؛ أي الاحتجاج على الذين [لا يُوقِنُونَ].[310] *

[310] موسوعة جدل الأفكار – علامات الساعة ج2

* وأبطل شيخنا أمين نايف ذياب كل ما ورد في التهذيب في التفسير للحاكم الجشمي والكشاف فلا وجه لذكره فهو عين كلام أهل الحشو.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ۖ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ ﴾ القصص: ١٥

قال شيخنا الحاكم الجشمي: (وَدَخَلَ) موسى (الْمَدِينَةَ) قيل: مصر ، وقيل: أرض مصر، عن السدي، وقيل: على فرسخين من مصر، عن مقاتل، والأول أوجه، (عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا) قيل: وقت القائلة، وقيل: يوم عيد لهم هم اشتغلوا بلعبهم، عن الحسن، وقيل: بين المغرب والعشاء، عن محمد بن كعب، وقيل: غفلوا عن ذكره ليبعد عهدهم به، وكان أمر بإخراجه من المدينة، عن ابن زيد، واختلفوا في سبب دخول المدينة في هذا الوقت، قيل: كان خرج من مصر مع فرعون، فلما كان وقت القائلة دخل المدينة ليقيل، عن السدي، وقيل: كان بنو اسرائيل يجتمعون إلى موسى ويستمعون منه، فلما اشتد وعرف الحق خالف قوم فرعون، وأنكر ما كانوا فيه، فذكر ذلك منه وأخافوه، فكان لا يدخل القرية إلا خائفا، فدخلها حين غفلة، عنابن اسحاق، وقيل: كان فرعون أمر بإخراجه من بلده، فبعد عهد موسى، فلم يدخل إلا بعد أن بلغ أشده وذلك حين دعي بالجمرة والتمر واختبره، فترك قتله وأمر بإخراجه، عن ابن زيد. (فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ) قيل: كانت خصومتهما في الدين، عن أبي علي، وقيل: كان في أمر الدنيا، وقيل: كان يتخذ سخرة في عمل فرعون هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ) قبطي، عن مجاهد، وقيل: هذا مسلم والآخر كافر، عن ابن اسحاق، وقيل: كانا كافرين ولم يكن أبيح قتل الكفار حينئذ فلهذا تاب، والصحيح أن الإسرائيلي كان مؤمنا، لذلك إستغاث بموسى، ولذلك عده من شيعته أي: أتباعه (فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ) يعني الإسرائيلي إستغاث بموسى على القبطي؛ استغاث به لأنه علم منزلته من بني اسرائيل، ولم يعلم الناس من قبل الرضاعة، فقال

موسى للقبطي: خل سبيله، فقال: إنما آخذه ليحمل الحطب إلى مطبخ أبيك، فتنازعا (فَوَكَزَهُ مُوسَى) أي: دفع في صدره بجميع كفه، وقيل: الوكز: الدفع بأطراف الأصابع، عن الفراء، وأبي عبيدة (فَقَضَى عَلَيْهِ) أي: قتله وفرغ من أمره، ويقال لكل شيء فرغت منه على التمام: قد قضيته وقضيت عليه، وقضيت عليه، واختلفوا في هذا القتل: فقيل: إن موسى لم يتعمد القتل، ولكن قصد تخليص المؤمن من يد الكافر المعتدي، وبدفعه صار مقتولاً خطأ.

ومتى قيل: إذا كان قصده – وهو حسن – فلم صار مذنبا؟

قلنا: الخطأ قد يقع في الأسباب، فقد كان يمكنه ألايعجل، فيتمكن من تخليصه بالرفق والقول الجميل، ويحتمل أنه لو ضربه في غير مقتل لكان يعيش، فكان يحسن عليه التحرز من المقتل، فلم يفعل ويضرب في المقتل، وقال بعضهم: لم يكن ذنبا، وإنما ذكر ما بعده على سبيل الانقطاع على ما نبينه، وقيل: كان في دار الحرب ولم يكن يعلم الحكم فيه، واباحة القتل يعلم سمعا، وقيل: كان مباحا الدم إلاأنه نهي عن قتل؛ لما يخاف على نفسه من القصاص، وقيل: كان ذنبا إلا أنه كان صغيرا، عن أبي علي.

(قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ) أي: إغوائه ووسوسته، قيل: يعني وزري في الإيقاع به على الدفع وإن كنت لم أتعمد، فأضافه إلى الشيطان؛ لأنه دعا إليه، وقيل: الخصومة التي وقع القتل بسببها حصلت بوسوسة الشيطان (إِنَّهُ عَدُوٌّ) لبني آدم (مُضِلٌّ) يضل الناس بوسوسته عن الحق (مُبِينٌ) ظاهر العداوة والإضلال..[311]

قال قاضي القضاة: وقوله تعالى ، من بعد : (وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلى حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِها) وقوله : (قالَ هذا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطانِ) يدل على أن ما فعله لم يكن وإنما قال تعالى : (هذا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطانِ) ـ وإن كان [(1)] من عمله ـ لتقوى بذلك إضافته إليه. وقد يستعمل مثل ذلك كثيرا فى الشاهد إذا كان سبب الفعل وقع من الغير.[312]

---

311 التهذيب في التفسير ج8 ص 5481/5480

312 متشابه القران ص 544/543



قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٣﴾ العنكبوت: ٢ - ٣

قال شيخنا الزمخشري: الحسبان لا يصح تعليقه بمعاني المفردات، ولكن بمضامين الجمل. ألا ترى أنك لو قلت:

حسبت زيدا وظننت الفرس: لم يكن شيئا حتى تقول: حسبت زيدا عالما وظننت الفرس جوادا، لأنّ قولك: زيد عالم، أو الفرس جواد كلام دال على مضمون، فأردت الإخبار عن ذلك المضمون ثابتا عندك على وجه الظن لا اليقين، فلم تجد بدّا في العبارة عن ثباته عندك على ذلك الوجه، من ذكر شطرى الجملة مدخلا عليهما فعل الحسبان، حتى يتم لك غرضك. فإن قلت:

فأين الكلام الدال على المضمون الذي يقتضيه الحسبان في الآية؟ قلت: هو في قوله (أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ) وذلك أن تقديره: أحسبوا تركهم غير مفتونين، لقولهم: آمنا، فالترك أول مفعولي حسب، ولقولهم: آمنا، هو الخبر. وأما «غير مفتونين» فتتمة الترك، لأنه من الترك الذي هو بمعنى التصيير، كقوله:

فتركته جزر السّباع ينشنه

ألا ترى أنك قبل المجيء بالحسبان، تقدر أن تقول: تركهم غير مفتونين، لقولهم: آمنا، على تقدير: حاصل ومستقر، قبل اللام. فإن قلت: أَنْ يَقُولُوا هو علة تركهم غير مفتونين، فكيف يصح أن يقع

خبر مبتدأ؟ قلت: كما تقول خروجه لمخافة الشر، وضربه للتأديب، وقد كان التأديب والمخافة في قولك: خرجت مخافة الشر، وضربته تأديبا: تعليلين. وتقول أيضا:

حسبت خروجه لمخافة الشر، وظننت ضربه للتأديب، فتجعلهما مفعولين كما جعلتهما مبتدأ وخبرا. والفتنة: الامتحان بشدائد التكليف: من مفارقة الأوطان، ومجاهدة الأعداء، وسائر الطاعات الشاقة، وهجر الشهوات والملاذ، وبالفقر والقحط، وأنواع المصائب في الأنفس والأموال. وبمصابرة الكفار على أذاهم وكيدهم وضرارهم. والمعنى: أحسب الذين أجروا كلمة الشهادة على ألسنتهم وأظهروا القول بالإيمان: أنهم يتركون بذلك غير ممتحنين، بل يمحنهم الله بضروب المحن، حتى يبلو صبرهم، وثبات أقدامهم، وصحة عقائدهم، ونصوع نياتهم، ليتميز المخلص من غير المخلص، والراسخ في الدين من المضطرب، والمتمكن من العابد على حرف، كما قال (لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذىً كَثِيراً وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ) وروى أنها نزلت في ناس من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قد جزعوا من أذى المشركين. وقيل في عمار بن ياسر: وكان يعذب في الله. وقيل: في ناس أسلموا بمكة، فكتب إليهم المهاجرون: لا يقبل منكم إسلامكم حتى تهاجروا، فخرجوا فتبعهم المشركون فردّوهم، فلما نزلت كتبوا بها إليهم، فخرجوا فاتبعهم المشركون فقاتلوهم، فمنهم من قتل ومنهم من نجا. وقيل: في مهجع بن عبد الله مولى عمر بن الخطاب رضى الله عنه، وهو أوّل قتيل من المسلمين يوم بدر، رماه عامر بن الحضرمي فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: سيد الشهداء مهجع، وهو أول من يدعى إلى باب الجنة من هذه الأمة ، فجزع عليه أبواه وامرأته (وَلَقَدْ فَتَنَّا) موصول بأحسب أو بلا يفتنون، كقولك: ألا يمتحن فلان وقد امتحن من هو خير منه، يعنى: أن أتباع الأنبياء عليهم السلام قبلهم، قد أصابهم من الفتن والمحن نحو ما أصابهم. أو ما هو أشدّ منه فصبروا، كما قال: (وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَما وَهَنُوا) ... الآية وعن النبي صلى الله عليه وسلم: «قد كان من قبلكم يؤخذ فيوضع المنشار على رأسه فيفرق فرقتين، ما يصرفه ذلك عن دينه، ويمشط بأمشاط الحديد ما دون عظمه من لحم وعصب، ما يصرفه ذلك عن دينه» (فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ بالامتحان الَّذِينَ صَدَقُوا) في الإيمان (وَلَيَعْلَمَنَّ الْكاذِبِينَ) فيه. فإن قلت: كيف وهو عالم بذلك فيما لم يزل؟ قلت: لم يزل يعلمه معدوما،

ولا يعلمه موجودا إلا إذا وجد ، والمعنى: وليتميزن الصادق منهم من الكاذب. ويجوز أن يكون وعدا ووعيدا، كأنه قال: وليثيبن الذين صدقوا وليعاقبنّ الكاذبين. وقرأ على رضى الله عنه والزهري: وليعلمنّ، من الإعلام، أى: وليعرفنهم الله الناس من هم. أو ليسمنهم بعلامة يعرفون بها من بياض الوجوه وسوادها، وكحل العيون وزرقتها.[313]

قال قاضي القضاة: أن المراد بالفتنة ليس هو الكفر والمعصية ، وقد بينا ذلك فى مواضع.

وما ذكره فى هذا الموضع من أقوى ما يدل على أن المراد بها تشديد المحنة ؛ لأنه بين تخطئة القول بأنه خلق الخلق لا لتكليفهم ، فقال : (الم. أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ) وقوله : (وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ) المراد به : أنا امتحناهم بالضراء والمصائب والمحن فصبروا فى المستقبل يدل على الصبر على ما يلحق المكلف من المحن ، وهو الذى أراد به بقوله : (أَوَلا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ).[314]



قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ﴾

الروم: ٨

قال شيخنا الحاكم الجشمي: (أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا) أي: هلا تدبروا (فِي أَنْفُسِهِمْ) بما فيه من آيات الله الدالة ما على توحيده، وقيل: (في) بمعنى مع، أي مع أنفسهم بأن يرجع إلى نفسه، ويتفكر في أحواله، وتنقله من حال إلى حال ليعلم أن له مدبرا صانعا (مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ) لأنه إذا تفكر في نفسه وفي العالم علم أنه له صانعا حكيما لا بد في فعله من غرض، وأنه لا

[313] الكشاف ج3 ص 440/439/438

[314] متشابه القران ص 548

يجوز أن يفعل القبيح؛ لعلمه بقبحه وغناه عنه، فيعلم أنه خلق الأشياء بالحق. وقيل: خلق للحق، أي خَلْقٌ يُعَدُّ دلالة على صانعه، وللتعريض للثواب وفعل الطاعات.[315]

قال قاضي القضاة: وقوله تعالى : (أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ ما خَلَقَ اللهُ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ وَما بَيْنَهُما إِلاَّ بِالْحَقِ) يدل على أنه تعالى لم يفعل ولا يفعل القبائح ، وذلك أنه لو كان فاعلا لها لم يصح أن يقول : ما خلقهما وما بينهما إلا بالحق ، لأن الباطل لا يجوز أن يكون مفعولا بالحق ؛ ألا ترى أن الرجل إذا قال لغريمه : لا آخذ منك هذا المال إلا بالحق ، أن ذلك يدل أنه يأخذه على وجه يحسن ، ولو كان تعالى يفعل القبيح لم يوثق فى شيء مما فعله أنه خلقه بالحق ، بل كان يجوز أن يكون فاعلا له على وجه العبث والظلم ، لأنه مالك ، ولأنه يفعل فى ملكه ما يريد.

وقول من يقول : إن المراد بقوله : (إِلاَّ بِالْحَقِ) : قال كن فكان ، جهل ، لأن ذلك لا يعرف فى اللغة ، فيمنع أنهم يعرفون الحق والباطل ، وما يقتدى به ، فكيف يجوز أن يحمل عليه؟ وكأنه تعالى أراد أن يبين أنه خلق جميع ذلك على وجه الحكمة ، لكى يعتبر المكلف ، ويستدل ، فيصل إلى المطلوب ، ويؤديه ذلك إلى الفوز والنجاة ، وذلك لا يتم إلا على قولنا فى العدل.

ومن وجه آخر ، وذلك أن الآية تدل على أنه تعالى بعث بهذا القول على التفكر فى خلقهما وما بينهما ، والاستدلال بذلك ، وهذا لا يتم متى قيل : إن المعرفة ضرورة ، لأنه تعالى إذا خلقها فيه استغنى عن التفكر ، وإن لم يخلقها ، وخلق الجهل بدلا منها ، فلا وجه للتفكر ، وبمثل ذلك أبطلنا قول أصحاب المعارف ، وبينا أن مع الاضطرار لا يصح البعث على التفكر والاستدلال بهذه الأمور![316]

---

[315] التهذيب في التفسير ج8 ص 5602

[316] متشابه القرآن ص 522



قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡتَرِي لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ ٦ ﴾ لقمان: ٦

قال شيخناالزخشري: اللهو كل باطل ألهى عن الخير وعما يعنى (ولَهْوَ الْحَدِيثِ) نحو السمر بالأساطير والأحاديث التي لا أصل لها، والتحدث بالخرافات والمضاحيك وفضول الكلام، وما لا ينبغي من كان وكان، ونحو الغناء وتعلم الموسيقار ، وما أشبه ذلك. وقيل: نزلت في النضر بن الحرث، وكان يتجر إلى فارس، فيشترى كتب الأعاجم فيحدث بها قريشا ويقول: إن كان محمد يحدثكم بحديث عاد وثمود فأنا أحدثكم بأحاديث رستم وبهرام والأكاسرة وملوك الحيرة، فيستمحلون حديثه ويتركون استماع القرآن. وقيل: كان يشترى المغنيات، فلا يظفر بأحد يريد الإسلام إلا انطلق به إلى قينته فيقول: أطعميه واسقيه وغنيه، ويقول: هذا خير مما يدعوك إليه محمد من الصلاة والصيام وأن تقاتل بين يديه. وفي حديث النبي صلى الله عليه وسلم "لا يحل بيع المغنيات ولا شراؤهن ولا التجارة فيهنّ ولا أثمانهنّ " وعنه صلى الله عليه وسلم "ما من رجل يرفع صوته بالغناء إلا بعث الله عليه شيطانين: أحدهما على هذا المنكب والآخر على هذا المنكب، فلا يزالان يضربانه بأرجلهما حتى يكون هو الذي يسكت " وقيل: الغناء منفدة للمال، مسخطة للرب، مفسدة للقلب.[317]

قال شيخنا الحاكم الجشمي: وقيل: لهو الحديث : كل حديث يلهي عن سبيل الله وطاعته إلى ما نهى عنه، فيستميل قلوب العامة كما يفعله علماء زماننا، وقيل: هو الشرك ، عن الحسن، وقيل: هو الهزء والسخرية بالقرآن واللغو فيه، عن أبي مسلم..[318]

---

317 الكشاف ج3 ص 491

318 التهذيب في التفسير ج8 ص 5647 **[والتفسير الكامل لها بشبه تفسير الزمخشري من كلام مجاهد وغيره من المفسرين فاخترت تفاسير المعتزلة فقط هنا]**

فصل في الموسيقى والغنــاء

إن الغناء والموسيقى عند شيوخنا العدلية فيه خلاف، بين من يحرمه ومن يراه مباحا، ومن يستدل بهذه الآية على تحريم الموسيقى استدلاله باطل، لقوله: (لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ) ومن كان هذا حاله لكان كافرا، لأنه يضل عن سبيل الله ويتخذه هزوا، وقطعا من يستمع للموسيقى ليس كذلك، وتفسير أبي مسلم هو الصحيح، وقد روى عن جماعة من الصحابة والتابعين اللعب بالنرد والشطرنج ، ومنهم من روى عنهم شرب النبيذ وسماع الغناء المطرب[319]، وخرج علي عليه السلام للحج فسمع غناء راكب يغنى وهو محرم ، فقيل : يا أمير المؤمنين ، ألا تنهاه عن الغناء وهو محرم فقال : دعوه فإن الغناء زاد الراكب[320]، فلو كان محرما لما سمح له ولماقيل عنه زاد، وقال شيخنا الجاحظ: ولا نرى بالغناء بأساً إذا كان أصله شعراً مكسوّاً نغماً: فما كان منه صدقاً فحسنٌ، وما كان منه كذباً فقبيح.
وقد قال النبي عليه السلام: " إنَّ من الشِّعر لحكمةً ".
وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: " الشعر كلامٌ، فحسنه حسنٌ، وقبيحه قبيح ".
ولا نرى وزن الشعر أزال الكلام عن جهته، فقد يوجد ولا يضرُّه ذلك، ولا يزيل منزلته من الحكمة. فإذا وجب أنّ الكلام غير محرَّم فإنّ وزنه وتقفيته لا يوجبان تحريماً لعلّة من العلل. وإنّ الترجيع له أيضاً لا يخرج إلى حرام. وإنّ وزن الشعر من جنس وزن الغناء، وكتاب الموسيقي، وهو من كتاب حدّ النُّفوس، تحدُّه الألسن بحدًّ مقْنع، وقد يعرف بالهاجس كما يعرف بالإحصاء والوزن. فلا وجه لتحريمه، ولا أصل لذلك في كتاب الله تعالى ولا سنّة نبيِّه عليه السلام.
فإن كان إنمّا يحرِّمه لأنه يُلهى عن ذكر الله فقد نجد كثيراً من الأحاديث والمطاعم والمشارب والنَّظر إلى الجنان والرَّياحين، واقتناص الصيد، والتشاغل بالجماع وسائر اللذات، تصدُّ وتُلهى عن ذكر الله. ونعلم أنّ قطع الدَّهر بذكر الله لمنْ أمكنه أفضل، إلاّ أنّه إذا أدّى الرجل الفرض فهذه الأمور كلُّها له مباحة، وإذا قصَّر عنه لزمه المأثم.

---

[319] شرح نهج البلاغة لابن ابي الحديد ج 6ص 336
[320] شرح نهج البلاغة لابن ابي الحديد ج12 ص 73

ولو سلم من اللَّهو عن ذكر الله أحدٌ لسلم الأنبياء عليهم السلام. هذا سليمان بن داود عليهما السلام، ألهاه عرض الخيل عن الصَّلاة حتّى غابت الشّمس، فعرقبها وقطع رقابها.[321]

<u>وقال القاضي</u>: والأقرب هو كل ما حمله عليه <u>أبو علي</u>، وهو كل ما يتلهى به عن الباطل، ولأن الغناء لا يطلق عليه إسم الحديث، وكذلك الأصنام والطبل، ولأن الغناء لا يقال : إنه ضلال عن الدين، وإن كان فسقا.[322]



قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ٱلَّذِيٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥۖ وَبَدَأَ خَلۡقَ ٱلۡإِنسَٰنِ مِن طِينٖ ٧﴾ السجدة: ٧

<u>قال شيخنا الزمخشري</u>: (أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ) حسنه، لأنه ما من شيء خلقه إلا وهو مرتب على ما اقتضته الحكمة وأوجبته المصلحة، فجميع المخلوقات حسنة وإن تفاوتت إلى حسن وأحسن، كما قال (لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ) وقيل: علم كيف يخلقه من قوله: قيمة المرء ما يحسن.

وحقيقته، يحسن معرفته أى يعرفه معرفة حسنة بتحقيق وإتقان. وقرئ: خلقه: على البدل، أى: أحسن، فقد خلق كل شيء وخلقه: على الوصف، أي: كل شيء خلقه فقد أحسنه. سميت الذرية نسلا لأنها تنسل منه، أى: تنفصل منه وتخرج من صلبه ونحوه قولهم للولد: سليل ونجل، وسَوَّاهُ قوّمه، كقوله تعالى (فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ) ودل بإضافة الروح إلى ذاته على أنه خلق عجيب لا يعلم كنهه إلا هو، كقوله (وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ) ... الآية كأنه قال: ونفخ فيه من الشيء الذي اختص هو به وبمعرفته.[323]

---

[321] رسائل الجاحظ ج2 ص 161/160

[322] التهذيب في التفسير ج8 ص 5648

[323] الكشاف ج3 ص 509

قال قاضي القضاة: وقوله تعالى : (الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ) يدل على نفى القبائح عن فعله ؛ لأنه لو كان الخالق لما يحصل منها ، لم يجز أن يصف خلقه بذلك ؛ لأن فاعل القبيح لا يكون محسنا فيما خلق ، لا على وجه الإحسان ، ولا على وجه الحسن ، بل يجب أن يكون مسيئا بما يخلق من تعذيب الكفار ؛ لأنه أوجد الكفر فيهم ثم عذبهم ، فهنا تمدح نفسه بوجه يبين به من كل فاعل ؛ لأن سائر الفاعلين يفعلون الحسن والقبيح ، فتمدّح تعالى بأنه المختص ، بأنه لا يفعل إلا حسنا.[324]

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا ۚ لَّا يَسْتَوُونَ ﴿١٨﴾﴾ السجدة: ١٨

قال شيخنا الزمخشري: (كانَ مُؤْمِناً) (وكانَ فاسِقاً) محمولان على لفظ من، و(لا يَسْتَوُونَ) محمول على المعنى، بدليل قوله تعالى (أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا) ... (وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا) ونحوه قوله تعالى (وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ).[325]

قال الحاكم الجشمي: (أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا) استفهام، والمراد التقرير؛ يعني: إذا كان مؤمناً استحق ما تقدم (كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا) يستحق النار (لَا يَسْتَوُونَ).[326] وقال: ويدل قوله: (أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا) أن المؤمن لا يكون فاسقا، والفاسق لايكون مؤمنا، ولايستويان في الدنيا والآخرة، فيصح قولنا في المنزلة بين المنزلتين، ويبطل قول المرجئة[327]

قال قاضي القضاة: يدل على أن الفاسق لا يساوى المؤمن فى الجنة والثواب ، ولو كان الأمر كما يقوله كثير من المرجئة ، لكان قد ساواه فى ذلك. وبين بما بعده ذلك مفصلا ، فقال : (أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوى نُزُلاً بِما كانُوا يَعْمَلُونَ ، وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْواهُمُ النَّارُ كُلَّما أَرادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْها أُعِيدُوا فِيها) ولو كان الفاسق يخرج من النار ، إما بانقطاع ما يستحقه من النار ، أو

[324] متشابه القرآن ص 560
[325] الكشاف ج ص 513
[326] التهذيب في التفسير ج8 ص 5684
[327] التهذيب في التفسير ج8 ص 5685

بالشفاعة ، لما صح ما ذكره تعالى من أنه كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها ، بل كان يجب أن يقال: إنهم يريدون الخروج فلا يعادون فيها! وهذا يكذّب الظاهر!![328]



قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيۡتُنَّۚ فَلَا تَخۡضَعۡنَ بِٱلۡقَوۡلِ فَيَطۡمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلۡبِهِۦ مَرَضٞ وَقُلۡنَ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا ٣٢ وَقَرۡنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجۡنَ تَبَرُّجَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ ٱلۡأُولَىٰۖ وَأَقِمۡنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعۡنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذۡهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجۡسَ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ وَيُطَهِّرَكُمۡ تَطۡهِيرٗا ٣٣﴾ الأحزاب: ٣٢ – ٣٣

قال شيخنا الحاكم الجشمي: (يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ) في الفضل والشرف، ليس على أحد من النساء في حفظه حرمة رسول الله صلى الله عليه وسلم ماعليكن في رعاية حرمة رسول الله صلى الله عليه وسلم (إِنِ اتَّقَيْتُنَّ) أطعتن الله (فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ) أي: لا تَلِنَّ بالقول للرجال (فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ) قيل شهوة الزنا، عن عكرمة، وقيل: نفاق، عن قتادة. وقيل: من كان مائلا إلى المعاصي (قُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا) أي: صحيحا جميلا يقطع الطمع (وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ) بفتح القاف: اسْكُنَّ، وبكسرها: كنّ أهل وقار (وَلَا تَبَرَّجْنَ) أي: لا تظهرن، وقيل: التبرج: التبختر والتكبر عن مجاهد، وقتادة. وقيل: هو إظهار الزينة والمحاسن للرجال، وقيل: مشي المرأة بين الأجانب من التبرج (تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ) أي: ظهور الجاهلية (الْأُولَى) قيل: هي ما قبل الإسلام، عن قتادة. وقيل: ما بين عيسى ومحمد، عن الشعبي، وقيل: بين داود وسليمان، عن أبي العالية، وقيل: هو الزمان الذي ولد فيه ابراهيم وكانوا أهل شرك، وكانت المرأة تزين نفسها وتعرض على الرجال وكان زمن نمرود، عن

[328] متشابه القرآن 561

الكلبي، وقيل: ما بين نوح وآدم ثمانمئة سنة، عن الحكم، وقيل: ما بين نوح وإدريس كان ألف سنة. وقيل: ما كان عليه نساء العرب في الجاهلية من البروز وترك الحجاب، وأما الثانية فحال من عمل في الإسلام بعمل أولئك (وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ) إقام الصلاة: أداؤها في أوقاتها بشرائطها (وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ) فيما أمركم به ونهاكم عنه (إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ) قيل: إنما يذهب بأمره ونهيه فيأمر بمكارم الأخلاق ومعالي الأمور وينهى عن سفاسفها، فيزيل عنهن كل خصلة دنيئة، ويطهركم حتى لا تقذفوا بشيء، وقيل: إنه يريد أن يذهب عنكم بألطافه كل فاحشة، واختلفوا في (الرِّجْسَ) قيل: هو الإثم الذي نهى الله عنه النساء، عن مقاتل، وقيل: الشرك، عن مجاهد، وقيل: عقوبة المعاصي؛ لأن الرجس العذاب (أَهْلَ الْبَيْتِ) يعني: أهل بيت النبي صلى الله عليه وآله وسلم منْ تضمنه بيته وهم أزواجه وبناته، وقيل: هو النبي وعلي وفاطمة والحسن والحسين، وقيل: كل من حرم عليه الصدقة من بني هاشم، وقيل: أزواج النبي صلى الله عليه وآله وسلم، والصحيح الجميع مراد خصوصا الأزواج، لأن ما قبل الكلام وما بعده في شأنهن.

ومتى قيل: أليس الله أراد إذهاب الرجس عن كل أحد، فلم خصهم بالذكر؟

قلنا: فيه وجوه:

أحدها: أنه كما يؤمنهم عن الفواحش يؤمنهم عن كثير من المباحات المنفرة صيانة للرسول.

وثانيها: أن في تطهيرهم منقبة للرسول فخصهم بالذكر.

وقيل: لأنه أمرهم به وأراد ذلك منهم وهو فعلوه دون غيرهم.

وقيل: لأن أهل البيت كلهم كذلك لم يوجد إلا أهل البيت الرسول.

ومتى قيل: إذا كانت الآية في الأزواج، فما تأويل ما روي أنه قال في أصحاب الكساء (هؤلاء أهل بيتي)؟

قلنا: الأخبار مختلفة فيه، فالرجوع إلى ظاهر القرآن أولى، على أنه لايمتنع أن يكون الجميع مراده.

ومتى قيل: إن بعض أزواجه حدثت منها المعاصي بعده؟

قلنا: إنه أراد التطهير لنفي التنفير، وذلك مختص بحال حياته.

ومتى قيل: نحن نرى في أهل من هو بيته مرتكب الكبائر؟

قلنا: قيل: أراد الخمسة: محمدا صلى الله عليه وآله وسلم وعليا وفاطمة، والحسن والحسين، وجميعهم معصومون، وقيل: أراد جميعهم لا يعدلون عن الحق، وإجماعهم حجة لا آحادهم.

(وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا) من أدناس الجاهلية، قيل: بالأمن، وقيل: باللطف..[329]

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ ۖ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾ مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ ۖ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴿٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴿٣٩﴾ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾﴾ الأحزاب: ٣٦ – ٤٠

<u>قال شيخنا الحاكم الجشمي</u>: (وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ) قيل: لزينب وأختها، وقيل: هو عام، وهو الصحيح؛ لأن المراعى عموم اللفظ لا خصوص السبب (إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا) قيل: أوجب وأمر، وقيل: حكم به (أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ) أي: يختاروا غير ذلك ما أمر إلى ما لم يأمر ،

[329] التهذي في التفسير ج8 ص 5734/5733/5732

واختلفوا، فقيل: إنها نزلت في زينب وأخت كانت لها أن تزوج ولم يكن لها ترك التزويج، لأن الله قضى ذلك، وقيل: إنه أبيح لها أن تتزوج بزيد وليس بإيجاب، والصحيح أنه أراد كل شيء أمر الله به أو حكم به، فليس لأحد مخالفته (وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا) أي: ذهب عن الرشد ذهابا بعيدا (وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ) قيل: هما نعمتان: أنعم الله عليه بالهداية، والنبي أنعم عليه بالعتق، يعني زيد بن حارثة، وقيل: هما نعمة واحدة الإسلام والعتق، فالعتق وقع من الرسول بأمر الله، والإسلام بأمر الله ودعوة الرسول (أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ) يعني: زينب، والكلام يقتضي مشاجرة جرت بينهما حتى وعظه الرسول وأمره بالإمساك، وقيل: هو إباحة وإرشاد وليس بإيجاب (وَاتَّقِ اللَّهَ) في مضارتها.

ومتى قيل: أليس كان يجب أن يفارقها؟ فكيف أمره بالإمساك؟

قلنا: معاذ الله أن يقول خلاف ما في قلبه، فإن ذلك لا يجوز عليه، وإنما قال ما أحب، وما كان في قلبه هو إمساكها بإحسان.

ومتى قيل: أليس كان يحبها ويريد التزويج بها، وأنه جاء إلى باب زيد فوقع بصره عليها فهويها، في حديث طويل ترويه الحشوية؟

قلنا: شيء في ذلك لا يجوز على رسول الله، والله تعالى يعصم رسوله من كل منفرة وكل كبيرة، وكيف يصح ما قالوا، وكانت زينب أيّما وزوّجها محمد بن زيد، وفيها نزلت: (مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ) ولم يرغب فيها، فكيف رغب بعد أن صارت ذات زوج؟ وكيف يجوز أن ينظر في دار إنسان وفي الشرع ذلك كبيرة؟ وليس ذلك إلا من دسيس الملاحدة.

(وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ) أي: يظهره (وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ) أي: تخافه، اختلفوا في المخاطب بهذه الآية فقيل: النبي صلى الله عليه وسلم، وقيل: زيد، فأما من قال القول الأول اختلفوا، فقيل: أخفى في نفسه إن طلقها زيد تزوج بها؛ لأنها ابنة عمته؛ فأحب ضمها إلى عنده بعد فراق زيد لئلا تصيبها ضيعة كما يفعل الرجل بأقاربه، عن أبي علي خشي إظهار ذلك خشية قالة الناس ، فقيل: إن تركت إظهاره خشية الناس فترك إظهاره خشية الله أولى؛ أنه فعل ذلك بأمر الله، وقيل: كان الله تعالى أخبره أن يزوجها منه، فلما أراد زيد طلاقها قال: (أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ)، وقد

أعلمتك أنها ستكون من أزواجك، عن علي بن الحسين، وزيد بن علي. وهذا التأويل مطابق للآية؛ لأنه عوتب على قوله { أَمْسِكْ } مع علمه أنها ستكون زوجة له خشية الناس. وقيل: كان زيد مولى وكانت شريفة، فزوجها منه رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم لم يعاشرها وتجنبها خشية عار وأراد أن يزيدها شرفا لأنه كان سبب التزويج فعزم أن يتزوجها إن فارقها، وقيل: كان العرب ينزول الأدعياء منزلة الأبناء في الأحكام فأراد أن يبطل ذلك، وهو يقول حكم الأدعياء كأي واحد، وكان يخفي في نفسه تزويجها لهذا الغرض كيلا يقول الناس: إنه تزوج بإمرأة ابنه وأنه يرغب في النساء، وليس ذلك بمنكر ولو كان منكرا لكان الله أحق أن يخشاه فيه، وكيف يخشاه فيه، وكيف يخشاه فيه وذلك من سنةالأنبياء، عن أبي مسلم، وقيل: تخفي في نفسك من محبتها، وتخشى لائمة اس، عن ابن عباس. يعني محبة تزويج إن فارقها زيد، وقيل: تخشى: تستحييهم، عن ابن عباس، والحسن.

ومتى قيل: إذا كان الله أخبره بأنه يزوج زينب منه فلماذا أخفى ذلك؟

قلنا: لأنه لو أظهر ذلك فكان زيد يطلقها لأجله لا لسوء عشرتها، وكان ذلك يورث وحشة بينهما، وقيل: قال له: أمسكها وفي قلبه أنها لو كانت عنده ما أمسكها، فكان الذي يخفيه هذا، وما تقدم أحسن، وعن عائشة: لو كتم النبي صلى الله عليه وآله شيئا مما أوحي إليه لكتم هذه الآية: (وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ).

فأما من قال: المخاطب بذلك زيد، فمعناه: إذ تقول يا محمد (أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ) ، (وَتُخْفِي) يا زيد (فِي نَفْسِكَ) من طلاقها (مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ) عليك؛ لأنك تطلقها، وتخشى الناس في ظهور طلاقها لمكانتها من النبي وأهل بيته، (وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ) فتمسكها بمعروف أو تسرحها بإحسان. (فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا) أي: أمضى حاجته من نكاحها فطلقها وانقضت عدتها، وليس في قلبه ميل إليها ولا وحشة ولا غيره، ومعنى القضاء: الفراغ من الشيء على التمام، وكانت زينب تقول للنبي صلى الله عليه وسلم: إني لأدل عليك بثلاث: ما من نسائك واحدة تقول: جدي وجدك تزوجتك واحد، وأنكحني الله في السماء، وكان السفير جبريل (زَوَّجْنَاكَهَا) أي: أذنا لك في تزويجها (لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ) إثم وضيق (فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ) الذين تبنوهم (إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا) بالنكاح وطلقوهن (وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا) قيل: في تزوج زينب من رسول الله كائنا لا محالة، وقيل: إذا

أراد شيئا فعله، والأمر والإرادة سواء في المعنى، عن أبي مسلم، وقيل: كان أمر الله واجبا فعله (مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ) أي: إثم وضيق (فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ) أي: أمره وأباح له من تزويج زينب وإن كانت إمرأة من تبناه؛ لأنه تعالى أبطل حكم الجاهلية في الأدعياء، وقيل: فرض وأوجب، فوجب على النبي التزويج بها لزوال الحكم الذي هو التبني (سُنَّةَ اللَّهِ) أي: طريقته وشريعته (فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ) أي: مضوا قبل، أراد سنته في الأنبياء أن كلفهم الإبلاغ والصبر على الشدائد، وتكفل بأمرهم بإزالة شغل قلوبهم، وبين لهم الحظر والإباحة، كذلك أمر النساء، وقيل: أراد سنة الله في المطلقات، وقيل: زوال الحرج عمن فعل فعلا بأمر الله، وأشارة إلى أن إستباحة ما أباح الله سنة الأنبياء، وقيل: سنة الأنبياء، وقيل: سنة الله في تحليل نكاح نساء الأدعياء، وقيل: النكاح من سنة الأنبياء، وقيل: كثرة الأزواج كما فعل داود وسليمان فلا عتب عليه، وقيل: سنته في التوسعة عليه كسننه في الأنبياء قبل، وقيل: كان لداود مائة امرأة، ولسليمان ثلاثمائة امراة وسبعمائة سرية (وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا) أي: أمر الله جاريا على وجه الحكمة والعدل والصواب.

ثم وصف الأنبياء فقال تعالى: (الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ) إلى أممهم (وَيَخْشَوْنَهُ) أي: يخافون عقابه في كتمان الشيء (وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ) لما قال (وَتَخْشَى النَّاسَ)؛ لأن صفة الأنبياء أن يخشوه ولا يخشوا أحدا. (وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا) أي: محاسبا، وهذا وعدا للمؤمنين ووعيد للكافرين.

ثم بيان أن زيد ليس بابن له، فقال سبحانه: (مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ) قيل: رجال ذلك الوقت، ولم يكن أحد من أبنائه رجلا، وقيل: أراد بـ (رِجَالِكُمْ) : زيدا، وهو أبو القاسم والطيب والطاهر وابراهيم، عن قتادة. وقال الحسن والحسين لم يكونا رجالا في ذلك الوقت الذي نفي فيه كونه أبا، وإلا فقد صح أنه كان يقول: " ابني هذا سيد" وكذلك يقول للحسين عليه السلام.

ثم بين أنه يلزم تعظيمه واتباعه لا للنسب لكن للنبوة، فقال سبحانه: (وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ) فلا نبي بعده (وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا) قيل: من مصالح الخلق، وقيل: بمن يصلح الرسالة.[330]

---

[330] التهذيب في التفسير 5742/5741/5740/5739/5738

قال قاضي القضاة: (وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشاهُ)

وهذه نزلت في قصة زينب بنت جحش وكانت بنت عمة رسول الله صلّى الله عليه وسلم وكان رسول الله صلّى الله عليه وسلم قد زوجها بزيد بن حارثة وكان مولى.

وكان قد زوّج أيضا ضباعة بنت الزبير بن عبد المطلب عمّ رسول الله صلّى الله عليه وسلم المقداد بن الأسود وكان من الموالي أراد رسول الله صلّى الله عليه وسلم بطلان مذاهب الجاهلية في الأكفاء، وكانت زينب هذه شرسة الأخلاق كثيرة النقار لزيد والخصومة له، وكان ذلك يشق على رسول الله صلّى الله عليه وسلم ويكره أذيّة زيد، وكان زيد لا يصبر ولا يطيق أخلاقها وكان رسول الله صلّى الله عليه وسلم كالمتندم على تزويجها به ويقول في نفسه: ليتني كنت تزوجتها فكنت أحق باحتمالها والصبر عليها من زيد وغيره لقربها مني/ وكان زيد إذا همّ بطلاقها نهاه رسول الله صلّى الله عليه وسلم عن ذلك وقال:

اصبر واحتمل وأمسك عليك زوجك، فلم يصبر زيد، فطلقها، فأحب رسول الله صلّى الله عليه وسلم أن يتزوجها فكره استحياء من زيد وغيره، فقال الله عز وجل له هذا القول في شيء ليس بمعصية، ثم أمره بالتزويج بها لما أراده ونواه من صلة رحمه، ولئلا يخرج المؤمنون في التزوج بأزواج أدعيائهم ومن يتبنّونه ولم يكن من أصلابهم، فقال عز وجل: (فَلَمَّا قَضى زَيْدٌ مِنْها وَطَراً زَوَّجْناكَها لِكَيْ لا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْواجِ أَدْعِيائِهِمْ إِذا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَراً وَكانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا)[331]

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤۡذَنَ لَكُمۡ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيۡرَ نَـٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَـٰكِنۡ إِذَا دُعِيتُمۡ فَٱدۡخُلُواْ فَإِذَا طَعِمۡتُمۡ فَٱنتَشِرُواْ وَلَا مُسۡتَـٔۡنِسِينَ لِحَدِيثٍۚ إِنَّ ذَٰلِكُمۡ كَانَ يُؤۡذِي ٱلنَّبِيَّ فَيَسۡتَحۡيِۦ مِنكُمۡۖ وَٱللَّهُ لَا يَسۡتَحۡيِۦ مِنَ ٱلۡحَقِّۚ وَإِذَا سَأَلۡتُمُوهُنَّ مَتَـٰعًا فَسۡـَٔلُوهُنَّ

[331] تثبيت دلائل النبوة ج2 ص 484/483

مِن وَرَآءِ حِجَابٖۚ ذَٰلِكُمۡ أَطۡهَرُ لِقُلُوبِكُمۡ وَقُلُوبِهِنَّۚ وَمَا كَانَ لَكُمۡ أَن تُؤۡذُواْ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓاْ أَزۡوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦٓ أَبَدًاۚ إِنَّ ذَٰلِكُمۡ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا ﴿٥٣﴾ الأحزاب: ٥٣

قال شيخنا الزمخشري: (أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ) في معنى الظرف تقديره وقت أن يؤذن لكم. و(غَيْرَ ناظِرِينَ) حال من (لا تَدْخُلُوا) وقع الاستثناء على الوقت والحال معا. كأنه قيل: لا تدخلوا بيوت النبي صلى الله عليه وسلم إلا وقت الإذن، ولا تدخلوها إلا غير ناظرين، وهؤلاء قوم كانوا يتحينون طعام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فيدخلون ويقعدون منتظرين لإدراكه. ومعناه:

لا تدخلوا يا هؤلاء المتحينون للطعام، إلا أن يؤذن لكم إلى طعام غير ناظرين إياه، وإلا فلو لم يكن لهؤلاء خصوصا، لما جاز لأحد أن يدخل بيوت النبي صلى الله عليه وسلم إلا أن يؤذن له إذنا خاصا، وهو الإذن إلى الطعام فحسب. وعن ابن أبي عبلة أنه قرأ: غير ناظرين، مجرورا صفة لطعام، وليس بالوجه، لأنه جرى على غير ما هو له، فمن حق ضمير ما هو له أن يبرز إلى اللفظ، فيقال: غير ناظرين إناه أنتم، كقولك: هند زيد ضاربته هي. وإنى الطعام: إدراكه.

يقال: أنى الطعام إنى، كقولك: قلاه قلى. ومنه قوله (بَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ) بالغ إناه. وقيل إِنَاهُ:

وقته، أى: غير ناظرين وقت الطعام وساعة أكله. وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أو لم على زينب بتمر وسويق وشاة، وأمر أنسا أن يدعو بالناس، فترادفوا أفواجا يأكل فوج فيخرج، ثم يدخل فوج إلى أن قال: يا رسول الله، دعوت حتى ما أجد أحدا أدعوه، فقال: ارفعوا طعامكم وتفرق الناس، وبقي ثلاثة نفر يتحدثون فأطالوا: فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم ليخرجوا، فانطلق إلى حجرة عائشة رضى الله عنها فقال: السلام عليكم أهل البيت فقالوا: عليك السلام يا رسول الله، كيف وجدت أهلك؟ وطاف بالحجرات فسلم عليهن ودعون له، ورجع فإذا الثلاثة جلوس يتحدثون، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم شديد الحياء، فتولى، فلما رأوه متوليا خرجوا، فرجع ونزلت: (وَلا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ) نهوا عن أن يطيلوا الجلوس يستأنس بعضهم ببعض لأجل حديث يحدثه به. أو عن أن يستأنسوا حديث أهل البيت. واستئناسه: تسمعه وتوجسه، وهو مجرور معطوف على ناظرين. وقيل: هو منصوب على: ولا تدخلوها مستأنسين. لا بد في قوله (فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ) من تقدير المضاف،

أي: من إخراجكم، بدليل قوله (وَاللَّهُ لا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ) يعنى أن إخراجكم حق ما ينبغي أن يستحيا منه. ولما كان الحياء مما يمنع الحيي من بعض الأفعال، قيل (لا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ) بمعنى لا يمتنع منه ولا يتركه ترك الحيي منكم، وهذا أدب أدّب الله به الثقلاء. وعن عائشة رضى الله عنها: حسبك في الثقلاء أنّ الله تعالى لم يحتملهم وقال: فإذا طعمتم فانتشروا . وقرئ: لا يستحى، بياء واحدة. الضمير في (سَأَلْتُمُوهُنَّ) لنساء النبي صلى الله عليه وسلم، ولم يذكرن لأنّ الحال ناطقة بذكرهن مَتاعاً حاجة (فَسْئَلُوهُنَّ) المتاع. قيل: إن عمر رضى الله عنه كان يحب ضرب الحجاب عليهن محبة شديدة، وكان يذكره كثيرا، ويود أن ينزل فيه، وكان يقول: لو أطاع فيكن ما رأتكن عين، وقال: يا رسول الله، يدخل عليك البر والفاجر، فلو أمرت أمهات المؤمنين بالحجاب، فنزلت. وروى أنه مر عليهن وهن مع النساء في المسجد فقال: لئن احتجبتن، فإن لكن على النساء فضلا، كما أن لزوجكن على الرجال الفضل، فقالت زينب رضى الله عنها: يا ابن الخطاب، إنك لتغار علينا والوحى ينزل في بيوتنا، فلم يلبثوا إلا يسيرا حتى نزلت. وقيل: إنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يطعم ومعه بعض أصحابه، فأصابت يد رجل منهم يد عائشة، فكره النبي صلى الله عليه وسلم ذلك، فنزلت آية الحجاب.

وذكر أنّ بعضهم قال: أننهى أن نكلم بنات عمنا إلا من وراء حجاب، لئن مات محمد لأتزوجن عائشة. فأعلم الله أن ذلك محرم (وَما كانَ لَكُمْ) وما صح لكم إيذاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا نكاح أزواجه من بعده. وسمى نكاحهن بعده عظيما عنده، وهو من أعلام تعظيم الله لرسوله وإيجاب حرمته حيا وميتا، وإعلامه بذلك مما طيب به نفسه وسر قلبه واستغزر شكره. فإن نحو هذا مما يحدث الرجل به نفسه ولا يخلى منه فكره. ومن الناس من تفرط غيرته على حرمته حتى يتمنى لها الموت لئلا تنكح من بعده. وعن بعض الفتيان أنه كانت له جارية لا يرى الدنيا بها شغفا واستهتارا، فنظر إليها ذات يوم فتنفس الصعداء وانتحب فعلا نحيبه مما ذهب به فكره هذا المذهب، فلم يزل به ذلك حتى قتلها، تصورا لما عسى يتفق من بقائها بعده وحصولها تحت يد غيره. وعن بعض الفقهاء أن الزوج الثاني في هدم الثلاث مما يجرى مجرى العقوبة، فصين رسول الله صلى الله عليه وسلم عما يلاحظ ذلك.[332]

[332] الكشاف ج3 ص 556/555/554

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ يُدۡنِينَ عَلَيۡهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّۚ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن يُعۡرَفۡنَ فَلَا يُؤۡذَيۡنَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ٥٩ ﴾ الأحزاب: ٥٩

قال الحاكم الجشمي: (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ) وكان لسول الله صلى الله عليه وسلم تسعة أزواج: عائشة، وحفصة، وأم سلمة، وزينب، وصفية، وميمونة، وأم حبيبة اسمها رملة، وسودة، وجويرية، مات عنهن، وكان له أربع بنات: فاطمة، وزينب ورقية وأم كلثوم،زَوَّجَ زينب من أبي العاص بن الربيع، ورقية وأم كلثوم من عثمان واحدة بعد أخرى، وزَوَّجَ فاطمة من علي، وكان خطبها جماعة فأبى، (وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ) أي: يقربن (عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ) أي: يستترن به، قيل: الجلباب: خمار المرأة، وهي المِقْنَعَةُ تغطي جيبها ورأسها، عن ابن عباس ومجاهد، وقيل: الجلباب الملحفة تدنيها على وجهها، عن الحسن، وقيل: هو الثياب: القميص والخمار وما تستر به المرأة، عن أبي مسلم، وأبي علي، وقيل: الجلباب ماتستر به المرأة من دون الخمار والثياب. فأمر الله تعالى نساء المؤمنين في البيوت بالحجاب وخارج البيوت بالجلباب ليتميزن عن غيرهن (ذَلِكَ أَدْنَى) أقرب (أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ) قيل: يعرفن بالحرية فلا يؤذين، بخلاف الإماء. وقيل: يعرفن بالستر والصلاح، عن أبي علي، وقيل: يعرفن بأنهن من المؤمنات دون النساء الكافرات والمنافقات، عن أبي مسلم، أن يعرفن فلا يؤذيهما فاسق أو منافق (وَكَانَ اللَّهُ) إخبار عن عادته في الرحمة والمغفرة (غَفُورًا) للعاصي (رَحِيمًا) لمن أطاعه.[333]

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ إِنَّا عَرَضۡنَا ٱلۡأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱلۡجِبَالِ فَأَبَيۡنَ أَن يَحۡمِلۡنَهَا وَأَشۡفَقۡنَ مِنۡهَا وَحَمَلَهَا ٱلۡإِنسَٰنُۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومٗا جَهُولٗا ٧٢ ﴾ الأحزاب: ٧٢

[333] التهذيب في التفسير ج8 ص 5766

قال شيخنا الحاكم الجشمي: (إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ) أي: العبادات والتكاليف لما فيها من أدائها من الثواب ومن تضييعها من العقاب (عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) أي: أهل السموات والأرض (وَالْجِبَالِ) كقوله: (وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ) أي أهل القرية، فأهل السماء: الملائكة والأرض والجبال: الملائكة والإنس والجن (فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا) أي: امتنعوا أن يخونوا فيها، والمراد: يحملن تضييع الأمانة (وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا) من ذلك (وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ) بالتضييع فتركها وخانها، عن أبي علي، قال الأزهري: يقال حمل الأمانة أي: خانها، وحَمْلُهَا: خيانتها، وكل من أثم في شيء فقد حمل الإثم فيه، وقيل: حملها أي: حمل المأثم فيها، كقوله: (وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ) أي: خطاياهم، وقيل معنى (عَرَضْنَا) قابلنا ووازنا، فإن عرض الشيء على الشيء ومعارضته سواء، والأمانة: جميع ما عهد الله إلى عباده من أمره ونهيه، وما بعث به الرسل وأنزل فيه الكتب وأخذ عليه الميثاق، فأخر أن هذه الأمانة مع جلالة مرتبتها وعظم شأنها إذا قيست بالسموات والأرض والجبال ووزنت بها وعرضت عليها كانت هذه الأمانة أثقل وأرجح، ومعى (فَأَبَيْنَ) ضعفن، يقال: أبى أن يحمل: أي ضعف على حمله (وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا) لأن الشفقة ضعف، ولذلك يعبر به عن الخوف، فهذه الأمانة التي من صفتها من أعظم من السموات والأرض تقلدها الإنسان ثم لم يحفظها؛ بل خان فيها لجهله بموقع الثواب والعقاب، ومن عادته الظلم على نفسه، عن أبي مسلم...[334]

قال الزمخشري: (إِنَّهُ كانَ ظَلُوماً جَهُولًا) حيث حمل الأمانة ثم لم يف بها، وضمنها ثم خاس بضمانه فيها، ونحو هذا من الكلام كثير في لسان العرب. وما جاء القرآن إلا على طرقهم وأساليبهم من ذلك قولهم: لو قيل للشحم: أين تذهب؟

لقال: أسوى العوج، وكم وكم لهم من أمثال على ألسنة البهائم والجمادات. وتصوّر مقاولة الشحم محال، ولكن الغرض أنّ السمن في الحيوان مما يحسن قبيحه، كما أن العجف مما يقبح حسنه، فصوّر أثر السمن فيه تصويرا هو أوقع في نفس السامع، وهي به آنس وله أقبل، وعلى حقيقته أوقف، وكذلك تصوير عظم الأمانة وصعوبة أمرها وثقل محملها والوفاء بها.[335]

---

[334] التهذيب في التفسير ج8 ص 5774

[335] الكشاف ج3 ص 565

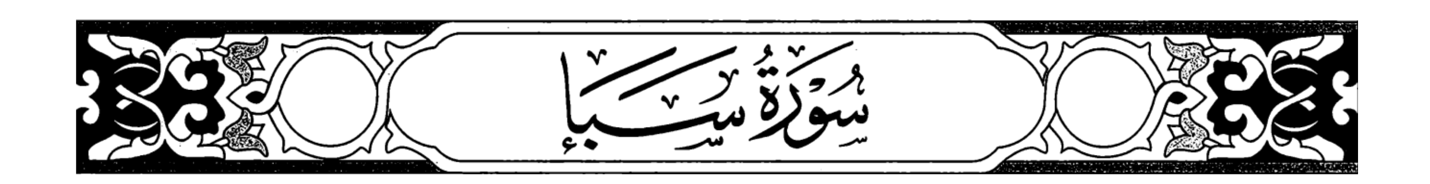
قال قاضي القضاة: وإنما يقتضى أنه عرض الأمانة على هذه الأمور ، والعرض ليس من التكليف بسبيل ، وفيه أن الإنسان حملها فلا ظاهر لذلك لأن الأمانة إذا أريد بها الأفعال المخصوصة ، فوصف الإنسان بأنه حاملها ، توسع ؛ لأن الحمل فى الحقيقة إنما يصح فى الأجسام وقوله : (إِنَّهُ كانَ ظَلُوماً جَهُولاً) ليس فى ظاهره لما ذا صار كذلك ، فتعلقهم بظاهره لا يصح.

ولم يبق إلا أن يقال : فما المراد إذا كان حمله على ظاهره لا يستقيم؟ وهذا تنازع فى التأويل وتسليم بأن الظاهر لا دلالة لهم فيه.

وقد قال أبو على ، رحمه‌الله ، إنه تعالى أراد به أنه عرض الأمانة على أهل السموات والأرض والجبال ، من الملائكة والجن والإنس ، وأنه ذكر الأمانة وأراد تضييع الأمانة!. وأن الملائكة لم تحمل ذلك وحملها الإنسان ؛ لأنه كان ظلوما جهولا ، وبين أن حمله على نفس السموات والأرض والجبال ، إذا لم يصح ، فيجب أن يكون المراد بها أهلها ، ويجب أن يكون المراد المكلفين دون غيرهم ؛ لأن ذلك لا يصح فيهم ، ويجب أن يراد به خفر الأمانة وتضييعها ؛ لأن نفسها قد حملته الملائكة وقامت بها.

وقال أبو مسلم ، رحمه‌الله : المراد بذلك أنا عرضنا الأمانة على هذه الأمور فى الحقيقة من حيث عارضناها بها فوجدناها تعجز عنها وتقصر ، وهو الذى أراده بقوله : (فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَها وَأَشْفَقْنَ مِنْها) وأن الإنسان مع ضعفه حملها ثم لم يقم بها ، وكأن المراد بذلك أن الذى لا تفى به الجبال والأرض والسموات على عظمها ، قد حملها الإنسان ، وتحمل التكفل بها ، والقيام بحقها ، فإذا عصى وخفر وضيّع ، فهو ظلوم جهول يلحقه العذاب العظيم.[336]

[336] متشابه القرآن ص 567



قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَجَعَلۡنَا بَيۡنَهُمۡ وَبَيۡنَ ٱلۡقُرَى ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَا قُرٗى ظَٰهِرَةٗ وَقَدَّرۡنَا فِيهَا ٱلسَّيۡرَۖ سِيرُواْ فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ١٨﴾ سبأ: ١٨

قال شيخنا الزمخشري: (الْقُرَى الَّتِي بارَكْنا فِيها) وهي قرى الشام (قُرىً ظاهِرَةً) متواصلة، يرى بعضها من بعض لتقاربها، فهي ظاهرة لأعين الناظرين. أو راكبة متن الطريق: ظاهرة للسابلة، لم تبعد عن مسالكهم حتى تخفى عليهم (وَقَدَّرْنا فِيهَا السَّيْرَ) قيل: كان الغادي منهم يقيل في قرية، والرائح يبيت في قرية إلى أن يبلغ الشام لا يخاف جوعا ولا عطشا ولا عدوا، ولا يحتاج إلى حمل زاد ولا ماء سِيرُوا فِيها وقلنا لهم: سيروا: ولا قول ثم، ولكنهم لما مكنوا من السير وسويت لهم أسبابه، كأنهم أمروا بذلك وأذن لهم فيه. فإن قلت: ما معنى قوله (لَيالِيَ وَأَيَّاماً)؟ قلت: معناه سيروا فيها، إن شئتم بالليل وإن شئتم بالنهار، فإن الأمن فيها لا يختلف باختلاف الأوقات. أو سيروا فيها آمنين لا تخافون، وإن تطاولت مدة سفركم فيها وامتدت أياما وليالي.[337]

قال قاضي القضاة: أما قوله تعالى : (وَجَعَلْنا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بارَكْنا فِيها قُرىً ظاهِرَةً وَقَدَّرْنا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا) فليس فيه أكثر من أنه قدر السير ، وذلك لا يدل على أنه من خلقه ؛ لأن « قدر) كما يراد به ذلك ، فقد يراد به البيان والتعريف والحكم بمقادير مخصوصة. وإنما أراد تعالى بذلك أنه غيّر مسالكهم عن الحالة التى كانت عليها فى الخصب والعمارة ، إلى خلافه ، وقدر فيها خلاف ما كان فى سيرهم.[338]

[337] الكشاف ج 3 ص 577
[338] متشابه القرآن ص 569



قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ ۚ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَمَكْرُ أُولَٰئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴿١٠﴾﴾ فاطر: ١٠

قال شيخنا الزمخشري: (إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ) والكلم الطيب: لا إله إلا الله. عن ابن عباس رضى الله عنهما: يعنى أنّ هذه الكلم لا تقبل. ولا تصعد إلى السماء فتكتب حيث تكتب الأعمال المقبولة، كما قال عز وجل (إِنَّ كِتابَ الْأَبْرارِ لَفِي عِلِّيِّينَ) إلا إذا اقترن بها العمل الصالح الذي يحققها ويصدقها فرفعها وأصعدها. وقيل: الرافع الكلم، والمرفوع العمل، لأنه لا يقبل عمل إلا من موحد. وقيل: الرافع هو الله تعالى، والمرفوع العمل. وقيل: الكلم الطيب: كل ذكر من تكبير وتسبيح وتهليل وقراءة قرآن ودعاء واستغفار وغير ذلك. وعن النبي صلى الله عليه وسلم: «هو قول الرجل سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر إذا قالها العبد عرج بها الملك إلى السماء فحيا بها وجه الرحمن فإذا لم يكن عمل صالح لم يقبل منه» وفي الحديث «لا يقبل الله قولا إلا بعمل، ولا يقبل قولا ولا عملا إلا بنية، ولا يقبل قولا وعملا ونية إلا بإصابة السنة» وعن ابن المقفع: قول بلا عمل كثريد بلا دسم، وسحاب بلا مطر، وقوس بلا وتر.

وقرئ: (إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ) على البناء للمفعول. (وإِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ) على تسمية الفاعل، من أصعد. والمصعد: هو الرجل أى يصعد إلى الله عز وجل الكلم الطيب، وإليه يصعد الكلام الطيب.

وقرئ: (وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ)، بنصب العمل والرافع الكلم أو الله عز وجل. فإن قلت: مكر: فعل غير متعدّ. لا يقال: مكر فلان عمله فبم نصب السَّيِّئاتِ؟

قلت: هذه صفة للمصدر، أو لما في حكمه، كقوله تعالى (وَلا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ) أصله والذين مكروا المكرات السيئات. أو أصناف المكر السيئات، وعنى بهن مكرات قريش حين اجتمعوا في

دار الندوة وتداوروا الرأى في إحدى ثلاث مكرات يمكرونها برسول الله صلى الله عليه وسلم: إما إثباته، أو قتله، أو إخراجه كما حكى الله سبحانه عنهم (وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ. وَمَكْرُ أُولئِكَ هُوَ يَبُورُ) يعنى: ومكر أولئك الذين مكروا تلك المكرات الثلاث هو خاصة يبور، أى: يكسد ويفسد، دون مكر الله بهم حين أخرجهم من مكة وقتلهم وأثبتهم في قليب بدر، فجمع عليهم مكراتهم جميعا وحقق فيهم قوله (وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْماكِرِينَ) وقوله. (وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ).[339]

قال شيخنا قاضي القضاة: لا تعلق للمشبهة به ، لأن المراد هو أنه يصعد إلى حيث يختص بالحكم فيه ولا حاكم فيه سواه ، وقد بينا لذلك أمثلة من قبل ، وبينا أن حمله على ظاهره يوجب أن الكلم فى الحقيقة يصعد ، وذلك لا يصح فيه ، وبينا أن صعود الكلم إليه إذا لم يحمل على ما ذكرناه لا يفيد ، وقد بينا أن ذلك يوجب أنه تعالى على العرش ، وفى السماء ، دون سائر الأماكن ، وقد ذكر تعالى فى الآيات خلافه.

وقوله : (وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ) يدل على أن المراد إثبات ذلك وتحصيله ، والورود به عرصة القيامة دون إثبات مكان لله ، تعالى عن ذلك![340]

قال شيخنا الحاكم الجشمي: (إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ) الصعود في الكلام مجاز وتوسع؛ لأنه عرض ولا يصح إضافة الفعل إليه، واختلفوا في معناه، قيل: يصعد محله والعمل مكتوب فيه، يحمله من يصعد وهما الملكان، وقيل: يصعد الملك والكلام محفوظ لهم، وقيل: الصعود عبارة عن القبول، والرفع عبارة عن تعظيم الله تعالى، عن أبي مسلم. واختلفو في الكلم الطيب، قيل: كل كلام طيب موقعه ويحسن، ويدخل فيه أدلة التوحيد، والعدل، والنبوات، والشرائع، وقراءة الكتب، والدعوات، وتلاوة القرآن، والتسبيحات، والدعاء إلى الله، والأمر بالمعروف وغير ذلك، وهو الأوجه، وقيل: هو قوله: لا إله إلا الله، وقيل: هو قوله: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر، روي مرفوعا، وهذا وإن كان مرادا فلا يمنع غيره من كونه مرادا.[341]

---

339 الكشاف ج3 ص 603/602

340 متشابه القرآن ص 572/571

341 التهذيب في التفسير ج8 ص 5833

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ * إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنۡ أَمۡسَكَهُمَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا ﴿٤١﴾ ﴾ فاطر: ٤١

قال شيخنا الزمخشري: (أَنْ تَزُولا) كراهة أن تزولا. أو يمنعهما من أن تزولا: لأن الإمساك منع (إِنَّهُ كانَ حَلِيماً غَفُوراً) غير معاجل بالعقوبة، حيث يمسكهما، وكانتا جديرتين بأن تهدّا هدّا، لعظم كلمة الشرك كما قال (تَكادُ السَّماواتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ). وقرئ: ولو زالتا، وإن أمسكهما: جواب القسم في (وَلَئِنْ زالَتا) سدّ مسدّ الجوابين، ومن الأولى مزيدة لتأكيد النفي، والثانية للابتداء. من بعده: من بعد إمساكه. وعن ابن عباس رضى الله عنه أنه قال لرجل مقبل من الشام: من لقيت به؟ قال: كعبا. قال: وما سمعته يقول؟ قال سمعته يقول: إنّ السماوات على منكب ملك. قال: كذب كعب. أما ترك يهوديته بعد ثم قرأ هذه الآية.[342]

قال قاضي القضاة: وقوله تعالى : (إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولا) يدل على نفى التشبيه ؛ لأنه لو كان جسما لما صح تسكينهما على الحد الذى قد علمناه ؛ لأن الجسم لا يجوز أن يسكّن الشيء المنفصل منه إلا ببعض جوارحه ، ولا يصح أن يسكنه على غير هذا الوجه ، فلولا أنه تعالى قادر لنفسه يخترع الأفعال اختراعا لما صح ذلك.[343]

[342] الكشاف ج3 ص 618/617
[343] متشابه القرآن ص 573



قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ ﴿٦﴾﴾ يس: ٦

قال شيخنا الزمخشري: (قَوْماً ما أُنْذِرَ آباؤُهُمْ) قوما غير منذر آباؤهم على الوصف ونحوه قوله تعالى (لِتُنْذِرَ قَوْماً ما أَتاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ)، (وَما أَرْسَلْنا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ). وقد فسر (ما أُنْذِرَ آباؤُهُمْ) على إثبات الإنذار.

ووجه ذلك أن تجعل ما مصدرية، لتنذر قوما إنذار آبائهم أو موصولة ومنصوبة على المفعول الثاني لتنذر قوما ما أنذره آباؤهم من العذاب، كقوله تعالى (إِنَّا أَنْذَرْناكُمْ عَذاباً قَرِيباً) فإن قلت: أى فرق بين تعلقي قوله (فَهُمْ غافِلُونَ) على التفسيرين؟ قلت: هو على الأوّل متعلق بالنفي، أى: لم ينذروا فهم غافلون، على أن عدم إنذارهم هو سبب غفلتهم، وعلى الثاني بقوله (إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ) لتنذر، كما تقول: أرسلتك إلى فلان لتنذره، فإنه غافل. أو فهو غافل. فإن قلت: كيف يكونون منذرين غير منذرين لمناقضة هذا ما في الآي الأخر؟ قلت: لا مناقضة: لأنّ الآي في نفى إنذارهم لا في نفى إنذار آبائهم، وآباؤهم القدماء من ولد إسماعيل وكانت النذارة فيهم فإن قلت: ففي أحد التفسيرين أنّ آباءهم لم ينذروا وهو الظاهر، فما تصنع به؟ قلت: أريد آباؤهم الأدنون دون الأباعد الْقَوْلُ قوله تعالى (لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ) يعنى تعلق بهم هذا القول وثبت عليهم ووجب، لأنهم ممن علم أنهم يموتون على الكفر.[344]

قال قاضي القضاة: أن الإنذار إذا كان من قبل الرسول فغير ممتنع أن ينذر قومه دون من تقدمهم، إن لم يكن إرسال الرسول إليهم مصلحة لهم، فاقتصر بهم على ما كلفوه من جهة العقل. وإنما لم ينذروا بالسمع للاستغناء عنه، فلأن الحجة قامت عليهم فى سائر ما كلفوه بالعقل دونه، فبين تعالى أن قبل بعثته الرسول، صلى الله عليه، كانت الحال حال فترة لم يبعث فيها الرسل، وإن كان التكليف قائما، فليس فى ظاهر الكلام ما يمنع مما ذكرناه!

[344] الكشاف ج4 ص 5/4

وبعد ، فإن المخالفين لا يقولون بجواز التكليف مع عدم الدلالة والحجج ، فلا بد من أن يتأولوا هذه الآيات على بعض الوجوه. وإنما يلزمهم جواز التكليف مع عدم الدلالة ، على قولهم بجوازه مع عدم القدرة ، ويبين أن الحاجة إلى القدرة آكد من الحاجة إلى الدلالة ، فإذا جاز التكليف معه فبأن يجوز مع عدم الدلالة أولى ، وإلا فالقوم لا يرتكبون ذلك على وجه![345]

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا خَلَقۡنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتۡ أَيۡدِينَآ أَنۡعَٰمٗا فَهُمۡ لَهَا مَٰلِكُونَ ٧١﴾ يس: ٧١

قال شيخنا الزمخشري: (مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينا) مما تولينا نحن إحداثه ولم يقدر على توليه غيرنا، وإنما قال ذلك لبائع الفطرة والحكمة فيها، التي لا يصح أن يقدر عليها إلا هو. وعمل الأيدى: استعارة من عمل من يعملون بالأيدى (فَهُمْ لَهَا مالِكُونَ) أى خلقناها لأجلهم فملكناها إياهم، فهم متصرفون فيها تصرف الملاك، مختصون بالانتفاع فيها لا يزاحمون. أو فهم لها ضابطون قاهرون، من قوله:

أصبحت لا أحمل السلاح ولا ... أملك رأس البعير إن نفرا

أى لا أضبطه، وهو من جملة النعم الظاهرة، وإلا فمن كان يقدر عليها لولا تذليله وتسخيره لها، كما قال القائل:

يصرفه الصّبى بكل وجه ... ويحبسه على الخسف الجرير

وتضربه الوليدة بالهراوى ... فلا غير لديه ولا نكير[346]

قال قاضي القضاة: وظاهر هذه الآية مما لا يقول به مسلم ؛ لأن من يجوّز الجوارح على الله تعالى لا يثبت له الأيدى ، فلا بد من حاجته إلى تأويل هذه الآية ، فيكون حاله كحالنا فى تركه الظاهر ، والعدول إلى التأويل.

---

[345] متشابه القرآن ص 574

[346] الكشاف ج4 ص 28/27

وقد ثبت أن ذكر الأيدى هو على طريق التأكيد ، وذكرنا لذلك أمثالا ، نحو قول القائل لغيره : ذلك بما جنته يداك ، وإن كانت الجناية بالقول والكلام ، فالمراد به ما جنيته. فكذلك المراد بهذه الآية : أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاما ؛ وذكر على جهة الامتنان ، وبين سائر وجوه منافعهم بالأنعام مما عدد من بعد ، إلى قوله : (أَفَلا يَشْكُرُونَ).[347]



قَالَ تَعَالَى: ﴿أَذَٰلِكَ خَيۡرٞ نُّزُلًا أَمۡ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ ۝٦٢ إِنَّا جَعَلۡنَٰهَا فِتۡنَةٗ لِّلظَّٰلِمِينَ ۝٦٣ إِنَّهَا شَجَرَةٞ تَخۡرُجُ فِيٓ أَصۡلِ ٱلۡجَحِيمِ ۝٦٤ طَلۡعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ۝٦٥﴾ الصافات: ٦٢ – ٦٥

قال شيخنا الحاكم الجشمي: (أَذَلِكَ خَيْرٌ نُزُلًا) يعني : هذا الذي ذكرناه من نعيم الجنة وقِراها وما أعد لأهلها خير (أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ) في النار، وقيل: سبب هذا المؤدي إليه خير ام سبب ذلك؛ لأن الزقوم لا خير فيه، وقيل: ذكره على وجه التأكيد لجلالة الثواب وشدة العقاب، والزقوم ثمرة شجرة منكرة الطعم، من قولهم: لما يختص به من المرارة والرائحة الكريهة، (إِنَّا جَعَلْنَاهَا) أي: تلك الشجرة (فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ) قيل: امتحانا وشدة تنزل بهم، قالوا: كيف تنبت الشجرة في النار؟* عن قتادة، وقيل: شدة عذاب لهم، عن أبي علي وأبي مسلم، والفتنة: العقاب.

ثم فسر الشجرة، فقال: (إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ) أي قعرها (طَلْعُهَا) أي: ثمرها (كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ) قال الحسن: أصلها في قعر الجحيم، وأغصانها في الدركات.

ومتى قيل: كيف شبه برؤوس الشياطين، ولم يُرَ ذلك؟

---

[347] متشابه القرآم ص 579

* وما أنكروا أن يجعل الله الشجرة من جنس لا تأكله النار! فهذا وبر السمندل وهو دويبة ببلاد الترك تتخذ منه مناديل، إذا اتسخت طرحت في النار فذهب الوسخ وبقي المنديل سالما لا تعمل فيه النار. وترى النعامة تبتلع الجمر وقطع الحديد الحمر كالجمر بإحماء النار فلا تضرها، ثم أقرب من ذلك أنه خلق في كل شجرة نارا فلا تحرقها، فما أنكروا أن يخلق «4» في النار شجرة لا تحرقها. [الكشاف ج2 ص 675]

قلنا: فيه أقوال:

أولها: أن قبح منظرها منظور في النفس، يقال في الشيء المستقبح غاية القبح: كأنه شيطان، وكأنه رأس شيطان، عن ابن عباس، ومحمد بن كعب القرظي. والعرب قد تشبه بما لم يُرَ إذ تصوروا ذلك المعنى في النفس، قال امرؤ القيس:

وَمَسنونَةٌ زُرقٌ كَأَنيابِ أَغوالِ	أَيَقتُلُني وَالمَشرَفِيُّ مُضاجِعي

فشبه النضال بأنياب الأغوال، ولم تُرَ.

وثانيها: قيل: إنه شبهه برأس حية تسمى شيطانا عند العرب، كريهة المنظر، قال الراجز:

كمِثْــلِ شَــيْطَانِ الحَمـاطِ أعْـرَفُ

أي: له عرف.

وثالثها: أنه شبه نبت يعرف برؤوس الشياطين، وقيل: هي شجرة قبيحة خشنة مرة منتنة تشبهها العرب برؤوس الشياطين، عن قطرب.

ورابعها: قيل: ذكّر الله تعالى بتشوه الشياطين في النار، حتى لو رآهم أحد لاستوحش منهم، فلذلك شبهها برؤوسهم، والأول أوجه وأحسن، وهو قول أبي مسلم وأبي علي.[348]

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿قَالَ أَتَعۡبُدُونَ مَا تَنۡحِتُونَ ۝٩٥ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ وَمَا تَعۡمَلُونَ ۝٩٦﴾ الصافات: ٩٥ – ٩٦

قال شيخنا الزمخشري: (وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَما تَعْمَلُونَ) يعنى خلقكم وخلق ما تعملونه من الأصنام، كقوله (بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ) أى فطر الأصنام. فإن قلت: كيف يكون الشيء الواحد مخلوقا لله معمولا لهم، حيث أوقع خلقه وعملهم عليها جميعا؟

[348] التهذيب في التفسير ج8 ص 5928

قلت: هذا كما يقال: عمل النجار الباب والكرسي، وعمل الصائغ السوار والخلخال، والمراد عمل أشكال هذه الأشياء وصورها دون جواهرها، والأصنام جواهر وأشكال، فخالق جواهرها الله، وعاملو أشكالها الذين يشكلونها بنحتهم وحذفهم بعض أجزائها، حتى يستوي التشكيل الذي يريدونه. فإن قلت: فما أنكرت أن تكون ما مصدرية لا موصولة، ويكون المعنى: والله خلقكم وعملكم، كما تقول المجبرة؟ قلت: أقرب ما يبطل به هذا السؤال بعد بطلانه بحجج العقل والكتاب: أن معنى الاية يأباه إباء جليا، وينبو عنه نبوّا ظاهرا، وذلك أن الله عز وجل قد احتج عليهم بأنّ العابد والمعبود جميعا خلق الله، فكيف يعبد المخلوق المخلوق، على أن العابد منهما هو الذي عمل صورة المعبود وشكله، ولولاه لما قدر أن يصوّر نفسه ويشكلها، ولو قلت: والله خلقكم وخلق عملكم، ولم يكن محتجا عليهم ولا كان لكلامك طباق. وشيء آخر: وهو أن قوله (ما تَعْمَلُونَ) ترجمة عن قوله (ما تَنْحِتُونَ) وما في (ما تَنْحِتُونَ) موصولة لا مقال فيها فلا يعدل بها عن أختها إلا متعسف متعصب لمذهبه، من غير نظر في علم البيان، ولا تبصر لنظم القرآن. فإن قلت: اجعلها موصولة حتى لا يلزمني ما ألزمت، وأريد: وما تعملونه من أعمالكم. قلت: بل الإلزامان في عنقك لا يفكهما إلا الإذعان للحق، وذلك أنك وإن جعلتها موصولة، فإنك في إرادتك بها العمل غير محتج على المشركين، كحالك وقد جعلتها مصدرية، وأيضا فإنك قاطع بذلك الصلة بين ما تعملون وما تنحتون، حيث تخالف بين المرادين بهما، فتريد بما تنحتون: الأعيان التي هي الأصنام، وبما تعملون: المعاني التي هي الأعمال، وفي ذلك فك النظم وتبتيره، كما إذا جعلتها مصدرية.[349]

قال قاضي القضاة: أن ظاهر قوله : (وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَما تَعْمَلُونَ) يقتضى أنه علة فى الأول ، وقد علمنا أن قوله : (قالَ أَتَعْبُدُونَ ما تَنْحِتُونَ) هو تبكيت لهم ، وليس باستفهام، ولا يجوز أن يبكتهم فى عبادة الأصنام ، ثم يقول على طريق التعليل : (وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَما تَعْمَلُونَ) إلا وللثانى تعلق بالأول وتأثير فيه ، وقد علمنا أنه لا يجوز أن يكون كذلك إلا والموصوف ثانيا ، هو الموصوف أولا حتى يصح كونه علة فيه وسببا يمنع من عبادتهم له. ولو لا ذلك لخرج القول الثانى من أن يتعلق بالقول الأول. فإذا صح ذلك وجب ضرورة حمل قوله (وَما تَعْمَلُونَ) على أن المراد به الصنم ، ليصح أن

349 الكشاف ج4 ص 52/51

يكون علة فى المنع من عبادته ، ومقتضيا التبكيت والتوبيخ ، ويكون كأنه قال : أتعبدون ما تنحتون من الأصنام المعمولة من الخشب والله خلقكم وخلق ذلك معكم ، فكيف يصح أن تنحتوه إلها يعبد ، مع حاجته فى خلقه إلى الله تعالى ، كما أنكم تحتاجون إليه ؛ ومع أنه لا يملك ضرا ولا نفعا ، وهو تعالى المالك لذلك لكم وله؟

ومتى حمل الكلام على خلاف ذلك أدى إلى كونه سخفا ، لأنه يصير كأنه قال : أتعبدون ما تنحتون ، والله خلقكم وخلق فى أيديكم الحركة! وقد علمنا أن ذلك لا يقع من كثير من السفهاء ، فضلا عن الحكيم!

وليس لأحد أن يقول : إن الذى ذكرتموه زوال عن الظاهر ، وقد بينتم فى جميع ما يتعلق به القوم أن تثبتوا أن الظاهر ليس معهم ، وذلك أن هذا الكلام إذا ورد مورد التعليل كان ظاهره ما قلناه ، ولو كان لو انفرد لكان ظاهره ما زعموه ، ولا يمتنع فى الكلام أن يتغير ظاهره بما يتصل به من مقدمة ومؤخرة ، وقد بينا أن ظاهر التعليل إذا ذكر عقب التبكيت ؛ يقتضى ما قلناه ، فلم يخرج إذا لهذا الوجه عما نظمناه فى جميع الآى ، على ما زعمه السائل.

يبين ما قلناه : أن قوله تعالى : (وَاللهُ خَلَقَكُمْ وَما تَعْمَلُونَ) لو انفرد لم يفد ، وإنما يفيد إذا علق بما تقدم ، وفائدته تقتضى ما ذكرناه.

وبعد ، فإن قوله : (وَما تَعْمَلُونَ) لا بد من أن يكون راجعا إلى ما تقدم رجوعه إليه ، فيقتضى تقدير محذوف ، ولا يخلو ذلك من وجهين : إما أن يريد : وما تعملون فيه النحت. أو يريد : وما تعملونه من النحت فيه ، لأنا إن حملنا الكلام على عمل لا تعلق له بالأصنام البتة ، اقتضى كون الكلام لغوا. وقد علمنا أنه متى حمل على الثانى خرج من باب التعليل وصار كأنه يتعلق بالأصنام ، لأن القوم لا يعبدون النحت الذى هو فعلهم فى المنحوت ، ولا استحقوا التبكيت واللائمة على شيء يتعلق به ، فيجب إذا أن يكون محمولا على الوجه الأول ، وهو ما يعملون النحت فيه ، وهذا يوجب أن المراد ما قلناه من أنه خلقهم وخلق ما عملوا فيه النحت من الأصنام. وهذا مما لا ينكر.

يبين ما قلناه أن الفصيح لو قال وقد عصى غيره فى أكل أو شرب أو لباس : كيف تعصينى وقد ربيتك وأعطيتك ما تأكل وما تشرب ، لوجب حمل الظاهر على المأكول والمشروب دون الأكل والشرب ،

اللذين هما من فعله. وكذلك ما ذكرناه ، لأن (ما تَعْمَلُونَ) بمنزلة قول القائل : (ما تأكلون) وإن كان أحدهما أخص من الآخر.

وهذا هو الواجب فى كل ما تعلق العمل به إذا كان العمل فى الأجسام المشار إليها ، لأن الإنسان إذا قال : الصانع يعمل الخلخال ، فالمراد به نفس الجسم ، والنجار يعمل الباب ، والحداد يعمل الفأس ، فعلى هذا الوجه قال تعالى : (يَعْمَلُونَ لَهُ ما يَشاءُ مِنْ مَحارِيبَ وَتَماثِيلَ) وأراد بكل هذا المعمول فيه دون العمل ، وقال تعالى : (تَلْقَفُ ما يَأْفِكُونَ) و (تَلْقَفْ ما صَنَعُوا) وأراد بذلك ما صنعوا فيه من الحبال أو غيرها ؛ لأنها التى يصح فيها التلقف والتناول ، دون حركاتهم.

فهذه طريقة فى التعارف أقوى مما ادعوه لو لم يكن الكلام جاريا مجرى التعليل أيضا.

على أن الكلام متى كان على ما حملوه تناقض فى المعنى ، وذلك أنه تعالى إذا أراد : والله خلقكم وخلق عملكم ، فقد وجب بذلك لا محالة أن يكون خالقا لنفس عبادتهم لأنها من جملة العمل ، ولأنه لا يصح التفرقة بين الأعمال فى أنه تعالى يخلقها عندهم ، فإذا صح ذلك وجب على هذا أن يكون تعالى كأنه قال : أتعبدون ما تنحتون والله خلقكم وخلق عبادتكم مع سائر أفعالكم؟ وهذا يوجب زوال التبكيت واللائمة ، من حيث قصد به التبكيت ، وهذا يتناقض ، على ما ذكرناه ، لأنه تعالى إن خلق عبادتهم فكيف يجوز أن يوبخهم عليها؟! وإن خلق فيها تحت الأصنام ، فكيف يجوز أن يوبخهم على ذلك؟ وكل كلام صدر من حكيم فحمله على ما يناقض فى الوجه المقصود إليه لا يصح ، والواجب حمله على ما يشاء ويصح ، وهو الذى قلناه.

وبعد ، فإنه تعالى حكى ذلك عن إبراهيم ، عليه‌السلام ، فى إنكاره عليهم عبادة الأصنام ، وقوله : (أَإِفْكاً آلِهَةً دُونَ اللهِ تُرِيدُونَ) إلى آخر الآية يدل على ما قلناه وذلك يوجب أنه أورد ذلك عليهم مورد الحجاج ، ليصرفهم به عماهم عليه من عبادة الصنم ، ولكى يعدلوا عن عبادة الصنم إلى عبادة الله تعالى. فلو حمل الكلام على ما قالوا لكان إبراهيم كأنه قال لهم : أتعبدون الأصنام ، والله خلقكم وخلق فعلكم؟ ولو أراد ذلك لكان فى نهاية الركاكة ، وكان لهم أن يقولوا : وما فى أنه خلقنا وخلق أعمالنا ما يوجب أن ننصرف عن عبادة الصنم ، فليس الصنم نحن ، ولا عملنا وإنما هو ثالث لهذين الأمرين

اللذين ذكرنا ، فكيف ننصرف عن عبادته من حيث ثبت فى غيره أن الله خلقه؟ فكانت الحجة لهم عليه ثابتة ، وكل قول يؤدى إلى لزوم حجة الكفار للأنبياء ، فهو فى نهاية الفساد.

فالصحيح إذن ما ذكرناه من أنه بين أنكم تعبدون ما الله خلقكم وخلقه ، فبأن تعبدوا الله الذى خلق الأمرين ، وهو مالك الضر والنفع ، أولى من أن تعبدوا الصنم الذى فى أصل وجوده يحتاج إلى الإله الذى أدعوكم إلى عبادته ، فضلا عن سائر صفاته. وقد علمناه أنه متى حملوه على هذا الوجه فحجته لهم لازمة ، فحمله عليه أولى. وعلى هذا الوجه سلك الحجاج الذى قبله حيث قال : (ما لَكُمْ لا تَنْطِقُونَ) وقال لهم : (أَلا تَأْكُلُونَ) ليتبين ذلك للسامع أن الأصنام إذا لم يصح منها النظر ولا الأكل ولا التصرف فهى مدبّرة ، فلا يصح أن تعبد وتترك عبادة الله تعالى المدبر للخلائق.

وبعد ، فإنه جل وعز حكى عن قوم إبراهيم ، عليه‌السلام ، أنهم كانوا عباد أصنام ، وأنه صلّى الله عليه ، كان يخاطبهم دائما فى ذلك ، ولم يحك عنهم الكلام فى خلق الأفعال ، وأنهم أضافوها إلى العبيد أو إلى القديم تعالى ، فكيف يصح ، ـ مع أن هذا هو المعلوم من حال قومه ، وصدر الآيات وعجزها ، بل جميعها ، هو فى هذا الباب ـ أن يذكر فى خلاله ما لا يتعلق به ولا يليق بما هو فيه؟ وكل ذلك يوجب بطلان ما حملوا الآية عليه.

وبعد ، فإن الأمر لو كان كما قالوا ، وصح كونه خالقا لتصرفهم [لما صح] ، أن يجعله عملا لهم ؛ لأن العمل إنما يكون عملا للعامل بأن يوجده ويحدثه ، ومتى وجب ذلك استحال أن يكون تعالى خالقا له ، لأن خلقه لا يفيد إلا إخراجه من العدم إلى الوجود ، فإذا حصل كذلك بمن عمله فما الفائدة فى كونه خلقا له تعالى؟ هذا يوجب أن يكونوا قد حملوا الكلام على وجه يتناقض!

وبعد ، فلو أراد تعالى بذلك أفعال العباد ، على ما زعموه ، لكان الظاهر لا يقتضي ما قالوه ، لأنا قد بينا أن ظاهر الخلق هو التقدير ، وأنه لا يمتنع من حيث اللغة أن يكون الخالق خالقا لما لم يفعله فى الحقيقة ، إذا دبره وقدره والفاعل غيره فكان يجب على هذا الوجه الذى ذكروه أن يقال إنه تعالى أراد : والله دبركم ودبر أعمالكم ، ولا يجب كون عملنا خلقا له تعالى.

وبعد ، فإن ظاهر الكلام يقتضى أن يكون المراد بقوله : (وَما تَعْمَلُونَ) أمرا مستأنفا ، لأن اللفظة تدل على الاستقبال وقد علمنا أن ما سيعملونه ، مما لم يوجد بعد ، محال أن يكون خلقا له تعالى ، لأن

ذلك هو صفة الموجود على بعض الوجوه. ومتى قالوا : إن المراد بذلك ليس هو الاستقبال ، بل المراد به عملهم الذى تقضى ، أو الكائن ، فقد زالوا عن الظاهر ونازعونا فى التأويل ويصير الكلام متناقضا ـ لأنه كأنه قال : والله خلقكم وخلق المعدوم الذى لم يوجد ـ ويوجب أن لا يكون فى القول فائدة ، وأن لا يتعلق ذلك بما وبخهم عليه ، وبكتهم به.

وبعد ، فإن كان الظاهر يوجب ما قالوه ، فيجب أن لا يكون عملهم باطلا ، ولا قبيحا ولا متفاوتا ، لقوله تعالى : (ما تَرى فِي خَلْقِ الرَّحْمنِ مِنْ تَفاوُتٍ) ولقوله تعالى : (الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ) وقد علمناه متفاوتا ، ويقبح ، ولا بد من كونه باطلا ، خصوصا عبادة الأصنام والأوثان ، فلم صاروا بأن يتعقلوا بظاهر هذه الآية بأولى من سائر الآيات فى المنع من التعلق بظاهرها ، وقد علمنا أن الحكيم إذا بين بعض الأمور وأوضحها ، فالواجب فى خطابه من بعد أن يترتب عليه ، ومتى رتب على ذلك لم يعد ذلك خروجا عن الظاهر ؛ لأنه يخاطب على معهود وعرف. فإذا كان تعالى قد بين من جهة العقل أن تصرف العبد الذى يستحق به الحمد ، والذم ، والثواب ، والعقاب ، ويقع بحسب دواعيه ومقاصده ، وبحسب اختياره وعلمه وآلاته ؛ لا بد من أن يكون واقعا من جهته ـ لأنه لو كان فعلا لغيره لم يجب كونه موقوفا على قدره وعلومه وآلاته ودواعيه ـ ثم بين من جهة السمع مثل ذلك ، ونبه على أنه لا يفعل إلا الحسن الذى لا تفاوت فيه ، والمتقن المحكم ، فالواجب فيما دبر من الآى إذا احتمل ما يوافق ، أن يكون حمله على ذلك كالظاهر المعهود المتقدم ، على بيناه.

وكل ذلك يبين أن تعلق القوم بمثل هذا يدل على ذهابهم عن طريق الأدلة ، عقلا وسمعا ، وقلة معرفتهم بوجوه الكلام ومخارجه وتعلق البعض بالبعض.[350]

---

[350] متشابه القرآن من صفحة 580 إلى 587

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًاۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾﴾ ص: ٢٧

قال شيخنا الزمخشري: (باطِلًا) خلقا باطلا، لا لغرض صحيح وحكمة بالغة. أو مبطلين عابثين، كقوله تعالى (وَما خَلَقْنَا السَّماواتِ وَالْأَرْضَ وَما بَيْنَهُما لاعِبِينَ) (ما خَلَقْناهُما إِلَّا بِالْحَقِّ) وتقديره: ذوى باطل.

أو عبثا، فوضع باطلا موضعه، كما وضعوا هنيئا موضع المدر، وهو صفة، أى ما خلقناهما وما بينهما للعبث واللعب، ولكن للحق المبين، وهو أن خلقناها نفوسا أودعناها العقل والتمييز، ومنحناها التمكين، وأزحنا عللها ثم عرضناها للمنافع العظيمة بالتكليف، وأعددنا لها عاقبة وجزاء على حسب أعمالهم. وذلِكَ إشارة إلى خلقها باطلا، والظن: بمعنى المظنون، أى: خلقها للعبث لا للحكمة هو مظنون الذين كفروا. فإن قلت: إذا كانوا مقرين بأن الله خالق السماوات والأرض وما بينهما بدليل قوله: (وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ) فبم جعلوا ظانين أنه خلقها للعبث لا للحكمة. قلت: لما كان إنكارهم للبعث والحساب والثواب والعقاب، مؤديا إلى أن خلقها عبث وباطل، جعلوا كأنهم يظنون ذلك ويقولونه، لأنّ الجزاء هو الذي سبقت إليه الحكمة في خلق العالم من رأسها، فمن جحده فقد جحد الحكمة من أصلها، ومن جحد الحكمة في خلق العالم فقد سفه الخالق، وظهر بذلك أنه لا يعرفه ولا يقدره حق قدره، فكان إقراره بكونه خالقا كلا إقرار.[351]

احتج الجبائي بهذه الآية على أنه تعالى لا يجوز أن يكون خالقا لأعمال العباد قال لأنها مشتملة على الكفر والفسق وكلها أباطيل. فلما بين تعالى أنه ما خلق السموات والأرض وما بينهما باطلا دل هذا على أنه تعالى لم يخلق أعمال العباد. ومثله قوله تعالى: (وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ) وعند المجبرة أنه خلق الكافر لأجل أن يكفر والكفر باطل، وقد خلق الباطل، ثم أكد تعالى

351 الكشاف ج4 ص 90/89

ذلك بأن قال: (ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا) أي كل من قال بهذا القول فهو كافر، فهذا تصريح بأن مذهب المجبرة عين الكفر.[352]

قال قاضي القضاة: (وَما خَلَقْنَا السَّماءَ وَالْأَرْضَ وَما بَيْنَهُما باطِلاً ذلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا) يدل على أنه منزه من فعل القبيح ، وأن من أضاف إليه ذلك ووصف ما خلقه بأنه باطل فهو كافر. وقد تقدم كيفية الاستدلال بذلك من قبل .[353]

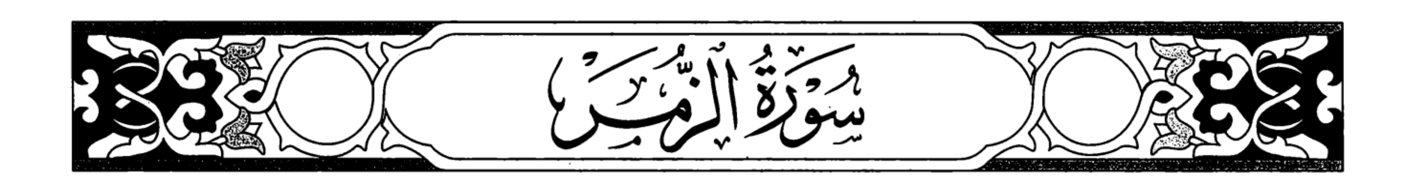
قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿أَمۡ نَجۡعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلۡمُفۡسِدِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ نَجۡعَلُ ٱلۡمُتَّقِينَ كَٱلۡفُجَّارِ ٢٨﴾ ص: ٢٨

قال الزمخشري: (أَمْ) منقطعة. ومعنى الاستفهام فيها الإنكار، والمراد: أنه لو بطل الجزاء كما يقول الكافرون لاستوت عند الله أحوال من أصلح وأفسد، وأتقى وفجر، ومن سوّى بينهم كان سفيها ولم يكن حكيما.[354]

قال قاضي القضاة: وقوله تعالى : (أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ) يدل على قولنا فى الوعيد ، وذلك أن على مذهب المرجئة لا يمتنع أن يتساوى حال الفاجر والمتقى إذا كانا مؤمنين ، بأن يحصل مع الفاجر من الأعمال ما يساوى عمل المتقى ويزيد عليه ، بل لا يمتنع على قولهم أن يكون أرفع حالا من المتقى ، وقد علمنا أنه تعالى إنما أراد أنه لا يجعلهما بمنزلة فيما يتعلق بالثواب والعقاب ، لأنه قد سوى بينهما فى أكثر أحكام الدنيا ونعيمها ، فإذا كان المراد ما قلناه وجب أن يدل على أن الفاجر يدخل النار ، وإلا أدى إلى أن يكون بمنزلة المتقى.[355]

---

[352] التفسير الكبير للرازي ج 6 ص 387
[353] متشابه القرآن ص 589
[354] الكشاف ج4 ص 90
[355] متشابه القرآن ص 590/589



قَالَ تَعَالَى: ﴿ * قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥٣ ﴾ الزمر: ٥٣

قال شيخنا الزمخشري: (أَسْرَفُوا عَلى أَنْفُسِهِمْ) جنوا عليها بالإسراف في المعاصي والغلوّ فيها لا تَقْنَطُوا قرئ بفتح النون وكسرها وضمها (إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً) يعنى بشرط التوبة، وقد تكرّر ذكر هذا الشرط في القرآن، فكان ذكره فيما ذكر فيه ذكرا له فيما لم يذكر فيه، لأنّ القرآن في حكم كلام واحد، ولا يجوز فيه التناقض. وفي قراءة ابن عباس وابن مسعود: يغفر الذنوب جميعا لمن يشاء، والمراد بمن يشاء: من تاب، لأنّ مشيئة الله تابعة لحكمته وعدله، لا لملكه وجبروته. وقيل في قراءة النبيّ صلى الله عليه وسلم وفاطمة رضى الله عنها: يغفر الذنوب جميعا ولا يبالى. ونظير نفى المبالاة نفى الخوف في قوله تعالى (وَلا يَخافُ عُقْباها) وقيل: قال أهل مكة: يزعم محمد أنّ من عبد الأوثان وقتل النفس التي حرّم الله لم يغفر له، فكيف ولم نهاجر وقد عبدنا الأوثان وقتلنا النفس التي حرّم الله فنزلت. وروى أنه أسلم عياش بن أبى ربيعة والوليد بن الوليد ونفر معهما، ثم فتنوا وعذبوا، فافتتنوا، فكنا نقول: لا يقبل الله لهم صرفا ولا عدلا أبدا، فنزلت. فكتب بها عمر رضى الله عنه إليهم، فأسلموا وهاجروا. وقيل نزلت في وحشى قاتل حمزة رضى الله عنه. وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم «ما أحب أنّ لي الدنيا وما فيها بهذه الآية» فقال رجل: يا رسول الله، ومن أشرك؟ فسكت ساعة ثم قال: «ألا ومن أشرك» ثلاث مرّات.[356]

قال قاضي القضاة: وقوله تعالى : (قُلْ يا عِبادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللّهِ إِنَّ اللّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ) لا يدل على ما يقوله المرجئة من أن الفاسق يغفر له إذا

[356] الكشاف ج4 ص 136

كان من أهل الصلاة ، وذلك لأن ظاهره بأن يتناول الكافر أولى ، لأنه أدخل فى كونه مسرفا على نفسه ، ولا يكاد يقال ذلك فى كل من عصى ، وإنما يقال فيمن بالغ فى المعصية وانتهى فيه إلى غاية عظيمة ، فإذا لم يوجب ذلك غفران الكفار فبأن لا يوجب غفران الفساق [أولى].

وبعد ، فإنه يوجب بظاهره أنه تعالى يغفر لهم لا محالة ، وليس ذلك بقول لمن يعرف من المرجئة ، ويوجب القول بأنه تعالى قد أغرى بالمعاصى من حيث علمنا أنه يغفرها لا محالة ، وهذا مما لا يجوز فى تكليف الحكيم.

وبعد ، فإن القنوط من رحمة الله هو أن يعتقد المسرف على نفسه أنه لا يغفر له البتة ، فأما إذا اعتقد أنه يغفر له بالتوبة ، فإنه لا يكون قانطا ، فيجب أن تكون المغفرة المذكورة على الوجه الذى يخرج المسرف على نفسه من أن يكون قانطا من رحمة الله ، ولا يوجب ذلك إلا جواز المغفرة على بعض الوجوه فقط فمن أين أنه تعالى يغفر على كل حال.

وبعد ، فإنه تعالى بين من بعد أنه يغفر مع التوبة والإنابة ، فقال : (وَأَنِيبُوا إِلى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذابُ) ولو أراد المغفرة على كل وجه لم يخوف من العذاب إذا هم لم ينيبوا ولم يسلموا ، بل كان يجب زوال العذاب عنهم للمغفرة المتقدم ذكرها ، أنابوا وأسلموا أم لم يفعلوا ذلك.

وبعد ، فإذا ثبت أن الكفار داخلون فى الآية صح أن المغفرة بشرط التوبة ، فكذلك المغفرة فى الفساق ، لأن الكلام على وجه واحد [و] لا يمكنهم التخلص من ذلك إلا مع القول بأنه تعالى إنما أراد الفساق فقط. وقد بينا أن وصفه لهم بأنهم أسرفوا على أنفسهم كالمانع من ذلك ، على أن فيما بعده ما يدل على أن الآية فى الكفار فقط ، وهو قوله تعالى : (بَلى قَدْ جاءَتْكَ آياتِي فَكَذَّبْتَ بِها وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنْتَ مِنَ الْكافِرِينَ) لأن هذا راجع إلى ما تقدم.[357]

[357] متشابه القرآن ص 596/595

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ۝٥٦﴾ الزمر: ٥٦

قال شيخنا الحاكم الجشمي: (يَا حَسْرَتَا عَلَى مَا فَرَّطْتُ) قصرت في طاعة الله (فِي جَنْبِ اللَّهِ) وقيل: في أمره، عن مجاهد والسدي.

وقيل: في طاعته، عن الحسن، وقيل: في حقه، عن سعيد بن جبير، وقيل: في الجانب الذي يؤدي إلى رضا الله وثوابه المجانب للسبل المضلة، عن أبي مسلم، والعرب تسمي الجانب جنَبًا، قال الشاعر:

النَّاسُ جَنْبٌ والأَمِيرُ جَنْبُ

أي: الناس في جانب والأمير في جانب، وقيل: (فِي جَنْبِ اللَّهِ) : في ذاته، يقال: كسبت هذا المال في جنب فلان، وقيل: يا شدة الندامة على ما فرطت في جنب أمر الله، كما يقال: هذا قليل في جنب ما كنت أرجو نيله (وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ) المستهزئين بالنبي والكتاب، عن قتادة والسدي، وقيل: من الساخرين لمن يدعوني إلى الإيمان، يعني: ما كنت إلا كذلك.[358]

قال قاضي القضاة: وقوله تعالى : (أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يا حَسْرَتى عَلى ما فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللهِ) لا يدل على أن الله جنبا على ما تقوله المشبهة وذلك أن هذه اللفظة إذا ذكرت مع الفعل الذى يفعل للغير أو لأجل الغير ، فالمراد به الذات ، وهو الذى يعقل من قول القائل : احتملت هذا فى جنب فلان ، وكسبت المال فى جنب فلان. فإنما أراد الله تعالى : على ما فرطت فى ذات الله. ومتى لم يحمل على هذا الوجه لم يفد البتة.

وتدل هذه الآية على اعترافهم بأنهم فرّطوا ، وذلك يوجب أنهم قصّروا فيما كلّفوا ، ولا يكونون كذلك إلا وكانوا متمكنين قادرين على الاستقامة ، فلما زاغوا عنها حصلوا مفرطين.[359]

---

[358] التهذيب في التفسير ج8 ص 6086/6085

[359] متشابه القرآن ص 597

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦ وَٱلۡأَرۡضُ جَمِيعٗا قَبۡضَتُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطۡوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ٦٧﴾ الزمر: ٦٧

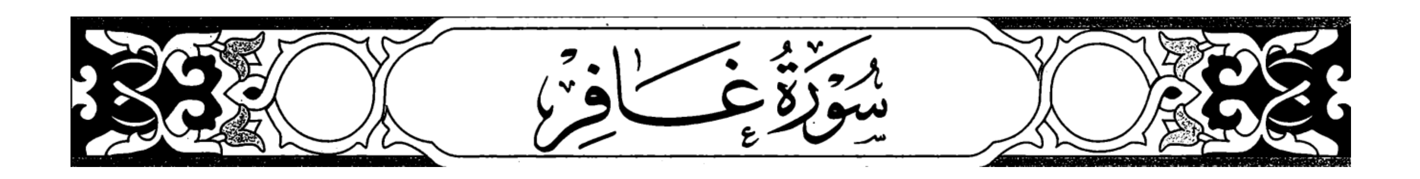
قال شيخنا الحاكم الجشمي: (وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ) أي: ما عظموه حق عظمته ولا عرفوه حق معرفته؛ إذ وصفوه بما لا يجوز عليه، وعبدوا معه غيره، قال الحسن: ما عظموه إذ هو المنعم، ثم هم عبدوا غيره، وقيل: ما وصفوه بما يستحق بالإلهية (وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ) يعني: الأرض في مقدوره، فيصرف كيف شاء، كالذي يقبض عليه القابض، وقيل: ملكه يوم القيامة بلا منازع، وهو اليوم ملكه، قال الأخفش: يقال: خرسان في قبض فلان، ليس أنها في كفه، وإنما أرادوا أنه بملكه، وهو متسلط عليه، وقيل: خص يوم القيامة؛ لأنه المالك خاصة، وفي الدنيا قد يملك غيره، وقد يحكم غيره (وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ) قيل: مجموعات له في ملكه، عن أبي مسلم، وقيل: مطويات يعني: مملكات، ومعنى (بِيَمِينِهِ) قيل: بقدرته، وقيل: بقسمه وقوته، حلف أنه يطويها ويفنيها، وقيل: هو ملكه كما يقال: ملك يمين (سُبْحَانَهُ) تنزيها له وبراءة عما وصفوه به من الشرك.[360]

قال قاضي القضاة: وقوله تعالى : (وَالسَّماواتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ) فلا يصح تعلق المشبهة أن لله تعالى يمينا. ولا بقوله : (وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ) أن له كفا ، وذلك لأن التعارف فى اللغة أن التمدح بما يجرى هذا المجرى إنما يريد به الملك والاقتدار ، ليصح فيه التمدح ، وذلك لأن المتعالم أن كون الشيء فى يد الإنسان لا يمنع كونه ملكا لغيره ، وأن لا يكون مقتدرا عليه ، وإنما كان متمدحا متى حمل على طريقة الملك ، ولذلك قالوا فى المملوك هذه اللفظة ، وأن فلانا يملك عبده ملك اليمين ، وإنما أرادوا بذلك المبالغة فى كونه مالكا ؛ لأن حظ اليمين فى هذا الوجه أقوى من حظ الشمال ؛ لأنها أشرف اليدين ، فلما قالوا فيما يملكه إن يده تحتوى عليه ، وقد صار فى يده ، لم يمتنع أن يحققوا ذلك بذكر اليمين. وقد بينا القول فى ذلك من قبل وشرحناه.

---

[360] التهذيب يفي التفسير ج8 ص 6094

وكذلك فإنما يراد بأن الشيء فى قبضة فلان ، أنه يصرّفه كيف أراد ، وأنه مستجيب له فيما شاء ، فلما كانت الأرض هذه حالها مع الله تعالى ، وكذلك السموات ، جاز أن يتمدح بأنها فى قبضته ، وأن السموات مطويات بيمينه.[361]



قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْۖ رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ ٧﴾ غافر: ٧

قال شيخنا الحاكم الجشمي: (الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ) يعني: الملائكة، قيل: هم صنفان: صنف هم حملة العرش، وصنف يطوفون به. وقيل: كثف الله أجسامهم حتى حملوا العرش، وقيل: أراد بحملة العرش الذين يعبدون الله حوله، كما يقال حملة القرآن لمن يعبد الله به، لا لأنه حمله على الحقيقة، والأول أوجه؛ لأنه الحقيقة، ويجوز أن يكونوا متعبدين بحمله والتسبيح، وقيل: حملة العرش أول من خلق الله من الملائكة، عن مقاتل، (يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ) قيل: ينزهونه عما لا يليق به ويحمدونه على ذلك، وقيل: يحمدونه على أفعاله التي كلها إنعام، ويسبحونه بإضافة النعم إليه. وقيل: ينزهونه عن صفات المخلوقين، ويحمدونه على أن أفعاله كلها حكمة، فالمعنى أنهم يوحدونه ويعدلونه (وَيُؤْمِنُونَ بِهِ) أي: يصدقون بصفاته (وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا) أي: يشفعون لهم بطلب المغفرة لهم من الله (رَبَّنَا) أي: ويقولون: ربنا (وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا) يعني: وسعت رحمتك وعلمك كل شيء، والمراد بالعلم: المعلوم، أي: لم يختص معلوما بل هو عالم بكل معلوم، ورحمته لم تختص حيّا، بل شملت أنواع الحيوانات، (فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا) أي: رجعوا إليك نادمين من كل ذنب

[361] متشابه القرآن ص 598

(وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ) أي: دينك، وقيل: طريق مرضاتك (وَقِهِمْ) أي: امنعهم واحفظهم من (عَذَابَ الْجَحِيمِ) أي: النار الشديد التوقد.[362]

احتج الكعبي بهذه الآية على أن تأثير الشفاعة في حصول زيادة الثواب للمؤمنين لا في إسقاط العقاب عن المذنبين، قال وذلك لأن الملائكة قالوا (فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ) قال وليس المراد فاغفر للذين تابوا من الكفر سواء كان مصرا على الفسق أو لم يكن كذلك، لأن من هذا حاله لا يوصف بكونه متبعا سبيل ربه ولا يطلق ذلك فيه، وأيضا إن الملائكة يقولون (وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ) وهذا لا يليق بالفاسقين، لأن خصومنا لا يقطعون على أن الله تعالى وعدهم الجنة وإنما يجوزون ذلك، فثبت أن شفاعة الملائكة لا يتناول إلا أهل الطاعة، فوجب أن تكون شفاعة الأنبياء كذلك.[363]

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ﴿١١﴾﴾ غافر: ١١

قال شيخنا الحاكم الجشمي: {قَالُوا} يعني: الكفار (رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ) قيل: الموتة الأولى حيث كان نطفًا فأحياهم في الدنيا، ثم أماتهم الموتة الثانية، ثم أحياهم للبعث، فهما حياتان وموتتان، ونظيره: (كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ) عن ابن عباس، وقتادة والضحاك، وأبي مسلم، وقيل: الإماتة الأولى في الدنيا بعد الحياة، والثانية في القبر قبل البعث، والحياة الأولى في القبر، والثانية في الحشر، عن السدي، وقيل: الحياة الأولى في الدنيا، والثانية في القبر، ولم يُرِدْ الحياة يوم القيامة، والموتة الأولى في الدنيا والثانية في القبر، عن أبي علي، (فَاعْتَرَفْنَا) أي: أقررنا (بِذُنُوبِنَا) من الكفر والمعاصي (فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ) وقيل: هل سبيل إلى الخروج لنصلح أعمالنا؟.[364]

---

362 التهذي في التفسير ج8 ص 6108

363 التفسير الكبير للرازي ج27 ص 489

364 التهذيب في التفسير ج8 ص 6112

قال شيخنا الزمخشري: وأراد بالإماتتين: خلقهم أمواتا أوّلا، وإماتتهم عند انقضاء آجالهم، وبالإحياءة الإحياءة الأولى وإحياءة البعث. وناهيك تفسيرا لذلك قوله تعالى (وَكُنْتُمْ أَمْواتاً فَأَحْياكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ) وكذا عن ابن عباس رضى الله عنهما. فإن قلت: كيف صح أن يسمى خلقهم أمواتا: إماتة؟ قلت: كما صح أن تقول: سبحان من صغر جسم البعوضة وكبر جسم الفيل! وقولك للحفار: ضيق فم الركية ووسع أسفلها، وليس ثم نقل من كبر إلى صغر ولا من صغر إلى كبر، ولا من ضيق إلى سعة، ولا من سعة إلى ضيق. وإنما أردت الإنشاء على تلك الصفات، والسبب في صحته أن الصغر والكبر جائزان معا على المصنوع الواحد، من غير ترجح لأحدهما، وكذلك الضيق والسعة. فإذا اختار الصانع أحد الجائزين وهو متمكن منهما على السواء فقد صرف المصنوع عن الجائز الآخر، فجعل صرفه عنه كنقله منه، ومن جعل الإماتتين التي بعد حياة حياة الدنيا والتي بعد حياة القبر لزمه إثبات ثلاث إحياآت، وهو خلاف ما في القرآن، إلا أن يتمحل فيجعل إحداها غير معتدّ بها. أو يزعم أن الله تعالى يحييهم في القبور، وتستمرّ بهم تلك الحياة فلا يموتون بعدها، ويعدّهم في المستثنين من الصعقة في قوله تعالى (إِلَّا مَنْ شاءَ اللَّهُ). فإن قلت: كيف تسبب هذا لقوله تعالى (فَاعْتَرَفْنا بِذُنُوبِنا)؟ قلت: قد أنكروا البعث فكفروا، وتبع ذلك من الذنوب ما لا يحصى، لأن من لم يخش العاقبة تخرق في المعاصي، فلما رأوا الإماتة والإحياء قد تكرّرا عليهم، علموا بأن الله قادر على الإعادة قدرته على الإنشاء، فاعترفوا بذنوبهم التي اقترفوها من إنكار البعث وما تبعه من معاصيهم..[365]

قَالَ تَعَالَى: ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلۡعَرۡشِ﴾ غافر: ١٥

قال شيخنا الحاكم الجشمي: (رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ) قيسل: طبقات الثواب للأنبياء والمؤمنين في الجنة، وقيل: رافع السموات وهو فوق كل شيء وليس فوقه شيء، وكل شيء مقدر، عن ابن عباس، وقيل: رافع لمن يشاء من عباده، فإن جعلت (رفيع) من صفات الله تعالى، فمعناه: رافع الدرجات (كقدير وقادر)،

---

365 الكشاف ج4 ص 154/153

وإن جعلته من صفات الثواب فهو تنبيه على عظم شأنه، فهو رفيع (ذُو الْعَرْشِ) أي: خالقه ومالكه، وقيل: العرش: الملك، أي: ذو الملك: عن أبي مسلم، وقيل: أراد السماء وبناءها.[366]

قال قاضي القضاة: وقوله تعالى : (رَفِيعُ الدَّرَجاتِ ذُو الْعَرْشِ) لا يدل على ما تقوله المشبهة من أنه فى مكان ، وذلك أن ظاهرها إنما يقتضى أنه رفيع الدرجات ، وليس فيه أنه عليها ، ودرجات الله عندنا رفيعة ؛ لأنها للمؤمن فى الجنة. ومتى قيل : دور زيد حسنة ، لم يوجب ذلك أن يكون فيها ، فكذلك القول فيما ذكرناه. وإضافة العرش إليه لا يقتضى أنه عليه ، كما أن إضافة البيت إليه بمثل هذه اللفظة لا يقتضى أنه فيه.

وهذه اللفظة قد تستعمل على وجوه ، فيقال : زيد ذو إحسان ، وذو أفضال ، وذو قدر ، وذو لحية حسنة، وذو جمال وأخلاق ، والمراد بها يختلف ، فلا يصح تعلقهم بظاهرها.[367]

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗاۚ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ ٤٦ ﴾ غافر: ٤٦

قال الزمخشري: (يُعْرَضُونَ عَلَيْها) وفي هذا الوجه تعظيم للنار وتهويل من عذابها، وعرضهم عليها: إحراقهم بها. يقال: عرض الإمام الأسارى على السيف إذا قتلهم به، وقرئ: النار، بالنصب، وهي تعضد الوجه الأخير. وتقديره: يدخلون النار يعرضون عليها. ويجوز أن ينتصب على الاختصاص (غُدُوًّا وَعَشِيًّا) في هذين الوقتين يعذبون بالنار، وفيما بين ذلك الله أعلم بحالهم، فإمّا أن يعذبوا بجنس آخر من العذاب، أو ينفس عنهم.

ويجوز أن يكون (غُدُوًّا وَعَشِيًّا): عبارة عن الدوام. هذا ما دامت الدنيا، فإذا قامت الساعة قيل لهم (أَدْخِلُوا يا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ) عذاب جهنم. وقرئ: أدخلوا آل فرعون، أى: يقال لخزنه جهنم: أدخلوهم. فإن قلت: قوله (وَحاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذابِ) معناه: أنه رجع عليهم ما هموا به من المكر

[366] التهذيب في التفسير ج8 ص 6113
[367] متشابه القرآن ص 599

بالمسلمين، كقول العرب: من حفر لأخيه جبا وقع فيه منكبا، فإذا فسر سوء العذاب بنار جهنم: لم يكن مكرهم راجعا عليهم، لأنهم لا يعذبون بجهنم. قلت: يجوز أن بهم الإنسان بأن يغرق قوما فيحرق بالنار، ويسمى ذلك حيقا لأنه همّ بسوء فأصابه ما يقع عليه اسم السوء. ولا يشترط في الحيق أن يكون الحائق ذلك السوء بعينه، ويجوز أن بهمّ فرعون- لما سمع إنذار المسلمين بالنار، وقول المؤمن (وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحابُ النَّارِ)- فيفعل نحو ما فعل نمروذ ويعذبهم بالنار، فحاق به مثل ما أضمره وهمّ بفعله. ويستدل بهذه الآية على إثبات عذاب القبر.[368]



قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ۖ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ ۗ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٤٤﴾﴾ فصلت: ٤٤

<u>قال الزمخشري</u>: كانوا لتعنتهم يقولون: هلا نزل القرآن بلغة العجم «فقيل: لو كان كما يقترحون لم يتركوا الاعتراض والتعنت وقالوا (لَوْلا فُصِّلَتْ آياتُهُ) أى بينت ولخصت بلسان نفقهه (ءَ أَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ) الهمزة همزة الإنكار، يعنى: لأنكروا وقالوا: أقرآن أعجمى ورسول عربى، أو مرسل إليه عربى، وقرئ: أعجمى، والأعجمى: الذي لا يفصح ولا يفهم كلامه من أى جنس كان، والعجمي: منسوب إلى أمّة العجم. وفي قراءة الحسن: أعجمى بغير همزة الاستفهام على الإخبار بأن القرآن أعجمى، والمرسل أو المرسل إليه عربي. والمعنى: أنّ آيات الله على أى طريقة جاءتهم وجدوا فيها متعنتا، لأنّ القوم غير طالبين للحق وإنما يتبعون أهواءهم. ويجوز في قراءة الحسن: هلا فصلت آياته تفصيلا، فجعل بعضها بيانا للعجم، وبعضها بيانا للعرب. فإن قلت: كيف يصح أن يراد بالعربي المرسل إليهم وهم أمّة العرب؟

---

[368] الكشاف ج4 ص 170

قلت: هو على ما يجب أن يقع في إنكار المنكر لو رأى كتابا أعجميا كتب إلى قوم من العرب يقول: كتاب أعجمى ومكتوب إليه عربى، وذلك لأن مبنى الإنكار على تنافر حالتي الكتاب والمكتوب إليه، لا على أن المكتوب إليه واحد أو جماعة، فوجب أن يجرّد لما سيق إليه من الغرض، ولا يوصل به ما يخل غرضا آخر. ألا تراك تقول- وقد رأيت لباسا طويلا على امرأة قصيرة: - اللباس طويل واللابس قصير. ولو قلت: واللابسة قصيرة، جئت بما هو لكنة وفضول قول، لأنّ الكلام لم يقع في ذكورة اللابس وأنوثته، إنما وقع في غرض وراءهما هُوَ أى القرآن (هُدىً وَشِفاءٌ) إرشاد إلى الحق وشفاء لِما فِي الصُّدُورِ من الظن والشك. فإن قلت: (وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ فِي آذانِهِمْ وَقْرٌ) منقطع عن ذكر القرآن، فما وجه اتصاله به؟ قلت: لا يخلو إما أن يكون (الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ) في موضع الجر معطوفا على قوله تعالى (لِلَّذِينَ آمَنُوا) على معنى قولك: هو للذين آمنوا هدى وشفاء، وهو للذين لا يؤمنون في آذانهم وقر، إلا أنّ فيه عطفا على عاملين وإن كان الأخفش يجيزه. وإمّا أن يكون مرفوعا على تقدير: والذين لا يؤمنون هو في آذانهم وقر على حذف المبتدإ. أو في آذانهم منه وقر. وقرئ: وهو عليهم عم. وعمى، كقوله تعالى (فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ.) (يُنادَوْنَ مِنْ مَكانٍ بَعِيدٍ) يعنى: أنهم لا يقبلونه ولا يرعونه أسماعهم، فمثلهم في ذلك مثل من يصيح به من مسافة شاطة لا يسمع من مثلها الصوت فلا يسمع النداء.[369]

قال قاضي القضاة: وقوله تعالى : (وَلَوْ جَعَلْناهُ قُرْآناً أَعْجَمِيًّا لَقالُوا لَوْ لا فُصِّلَتْ آياتُهُءَ أَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ) يدل على أنه أحدثه على وجه دون وجه كان يجوز أن يحدثه عليه ، وكان يقول عند ذلك الكفار : كيف يكون عربيا والكلام الذى جاء به عجمى؟[370]

---

369 الكشاف ج4 ص 203/202

370 متشابه القرآن ص 603



قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَلَٰكِن يُدۡخِلُ مَن يَشَآءُ فِي رَحۡمَتِهِۦۚ وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٍ ۝٨﴾ الشورى: ٨

قال شيخنا الزمخشري: (لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً واحِدَةً) أى مؤمنين كلهم على القسر والإكراه، كقوله تعالى (وَلَوْ شِئْنا لَآتَيْنا كُلَّ نَفْسٍ هُداها) وقوله تعالى (وَلَوْ شاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً) والدليل على أنّ المعنى هو الإلجاء إلى الإيمان: قوله (أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ) وقوله تعالى (أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ) بإدخال همزة الإنكار على المكره دون فعله. دليل على أنّ الله وحده هو القادر على هذا الإكراه دون غيره. والمعنى: ولو شاء ربك مشيئة قدرة لقسرهم جميعا على الإيمان ، ولكنه شاء مشيئة حكمة، فكلفهم وبنى أمرهم على ما يختارون، ليدخل المؤمنين في رحمته وهم المرادون بمن يشاء. ألا ترى إلى وضعهم في مقابلة الظالمين ويترك الظالمين بغير ولى ولا نصير في عذابه.[371]

قال الحاكم الجشمي: (وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً) قيل: لو شاء أن يحملهم على دين واحد – وهو الإسلام ؛ أن يلجئهم إليه – لفعل، وإنما لم يفعل ؛ لأنه يزيد التكليف، وإنما يثبت التكليف والثواب والعقاب مع الإختيار، ولو فعل ذلك لبطل الغرض، عن أبي علي.[372]

قال قاضي القضاة: قالوا : ثم ذكر فيها ما يدل على أنه لم يرد من جميعهم الإيمان ، فقال : (وَلَوْ شاءَ اللّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً واحِدَةً).

والجواب عن ذلك : أنه لا ظاهر للكلام فيما ادعوه ؛ لأنه تعالى لم يذكر الوجه الذى لم يجعلهم فيه أمة واحدة وجماعة ، فالمراد به محذوف ، لأنه يحتمل أن يجعلهم أمة فى خصال كثيرة ، من حيث صح أن يشتركوا فى أمور كثيرة.

371 الكشاف ج4 ص 211

372 التهذيب يفي التفسير ج9 ص 6221

والمراد بذلك : أنه لو شاء أن يلجئهم إلى الإيمان لجعلهم أمة واحدة فيه ، ولكنه أراد ذلك منهم على طريقة التكليف ، فمن آمن دخل فى الرحمة ، ومن ظلم لم يكن له ولى ولا نصير.[373]

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ الشورى: ١١

قال قاضي القضاة: يدل على نفى التشبيه ؛ لأن هذه الكاف إذا دخلت على هذا الوجه وكدت نفى التماثل. وهذا كقول القائل : ليس كمثل فلان أحد ، فليس لأحد أن يقول : كيف يدل على ما ذكرتم؟ ومتى حمل على حقيقته أوجب له إثبات المثل ، من حيث يفيد أنه لا مثل لمثله![374]

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ عَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾﴾ الشورى: ٥١

قال شيخنا الحاكم الجشمي: {وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ} فكلام الله تعالى لعباده على ثلاثة أوجه:

1- الوحي، وإن كان جميعا وحيا، وقيل: أراد بالوحي الإلهام، وقيل: هو إلقاء الخواطر وإقامة الأدلة، وشرع الإستدلال، كما فعل إبراهيم في قوله: {وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ}، عن أبي مسلم، وقيل: الإلهام من جنس الإعتقادات لا من جنس الكلام فيبعد أن يكون الإلهام وحيا، وقيل: الخاطر وما يراه في المنام، عن أبي علي.

2- من وراء حجاب قيل: يكلمه بكلام يسمعه ولا يرى المتكلم بمنزلة من يسمع وراء الحجاب؛ لأنه تعالى لا يجوز عليه الحجاب، ولا يكون كلامه ككلام من يرى ويدرك، عن أبي مسلم، وقيل: يحجب ذلك الكلام عن جميع خلقه، إلا ممن يريد أن يكلمه به نحو كلامه لموسى عليه السلام في المرة الأولى، بخلاف كلامه في المرة الثانية؛ لأنه سمع ذلك معه السبعون، عن أبي علي، وقيل: يحصل الكلام

[373] متشابه القرآن ص 604
[374] متابه القرآن ص 604

من وراء حجاب أي: مكانه الذي خلق فيه، فالحجاب راجع إلى مكان الكلام، ولا يقال إن المتكلم وراء الحجاب؛ لما بيّنا أن الحجاب لا يجوز عليه؛ لأنه من صفة الأجسام ، وما يسمعه الملك من هذا القبيل؛ لأنه يسمع الكلام من غير رؤية محله والمتكلم به، ويعلم أن كلامه بمعجزة، أو ما يجري مجرى المعجزة.

في الحجاب ثلاثة أوجه:

أ- حجاب عن إدراك الكلام إلا المُكَلَم به.

ب- حجاب لمحل الكلام.

ج- بمنزلة ما يسمع من وراء حجاب.

3- أو يرسل رسولا من الملائكة ، فيأتي به إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فيسمعه منه فيؤديه إلى الخلق.

(بِإِذْنِهِ) قيل: بعلمه، وقيل: بأمره، وهو الوجه، (مَا يَشَاءُ) يعني يوحي كما يشاء الله بحسب ما يعلم من مصالح الخلق (إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ) في فعل الأصلح[375]

قال قاضي القضاة: وأما تعلقهم بقوله : (وَما كانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللّهُ إِلاَّ وَحْياً أَوْ مِنْ وَراءِ حِجابٍ) فى أنه تعالى يجوز عليه الحجاب والستر ، ويجوز ارتفاعه [عنه] ، وأن ذلك يوجب كونه جسما فبعيد ، وذلك أن ظاهره إنما يقتضى أنه لا يكلم إلا من وراء حجاب ، وإلا بوحى وإرسال ، والحجاب يحتمل أن يكون داخلا على كلامه ، وعلى ذاته ، وعلى المتكلم ، فمن أين أن المراد ما ذكرناه؟

وقد يقول أحدنا للأعجمى وقد كلمه : إنى أكلمك من وراء حجاب! والحجاب يرجع إليه لا إلى المتكلم ، فإذا حصل الكلام عنه ولا يعرف المكلّم ، فكأنه يجوز أن يقول : أسمع الكلام من وراء حجاب.

والمراد بالآية : أنه يفعل الكلام فى جسم محتجب عن المتكلم غير معلوم له ، فمن حيث سمعه ولا يعرف الجهة يجوز أن يقال : هو مكلّم من وراء حجاب.

وعلى هذا الوجه كلم موسى ، عليهالسلام.[376]

[375] التهذيب في التفسير ج9 7283/7282

[376] متشابه القرآن ص 607/606

سُورَةُ الزُّخْرُفِ

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ۝٣٦﴾ الزخرف: ٣٦

قال شيخنا الحاكم الجشمي: (وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ) يعرض، عن قتادة، والسدي، وقيل: يَعْمَ، عن ابن زيد، وأبي علي، قال أبي علي: هذا تَوَسُّعٌ، شبههم بالعمى لما لم يبصروا الحق، وقيل: العشو السير في الظلمة، فلما كان الذاهب عن ذكر الله يتردد في الضلالة خرج الكلام في ذهابه على السائر في الظلمة عن ذكر الله تعالى، عن أبي مسلم، واختلفوا في الذِّكْرِ، قيل: الآيات والأدلة، وقيل: القرآن (نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ) قيل: من أعرض عن ذكر الله تعالى يخلي بينه وبين الشيطان، فيصير قرينه عوض ذكر الله، عن الحسن، وأبي مسلم. وإنما جاز التخلية لما علم أنه لا يفلح، وإن لم يكن الشيطان قرينا له، وقيل: يقرنه في الآخرة، ليذهب به إلى النار، عن قتادة، كما أن المؤمن يصير قرينه ملكا يذهب به إلى الجنة، وقيل: يقرنه في النار حتى يكون قرينه، عن أبي علي، وقيل: هو قرين له في الدنيا، يوسوس له، ويزين له سوء عمله، ويُقْرَنُ به في الآخرة، ويبعث بهما إلى النار، وقيل: أراد شياطين الإنس نحو علماء السوء، ورؤساء الضلالة يصدون عن سبيل الله، ويمتنعون عن إتباع الحق.[377]

قال قاضي القضاة: وفى هذه الآية : الظاهر أنه أراد به أنه يقيض له فى الآخرة شيطانا يقارنه فى النار ليعرف أنه من حيث اتبعه حل به ما حل من العقوبة ، فيكون أعظم لغمة وحسرته.[378]

---

377 التهذيب في التفسير ج9 ص 6306/6305

378 متشابه القرآن ص 609

قال شيخنا الحاكم الجشمي: (وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ) قيل: الضمير يعود إلى عيسى، يعني بنزوله تُعْلَمُ الساعة، عن ابن عباس، وقتادة، ومجاهد، والضحاك، وابن زيد، والسدي، وقيل: الضمير يعود إلى القرآن، أي: يُعْلِمُكُمْ بقيامها، ويخبركم عنها وعن أهوالها، عن الحسن، وقيل: القرآن دليل القيامة؛ لأنه آخر الكتب أُنْزِلَ على آخر الأنبياء، عن أبي مسلم، وقيل: إذا نزل المسيح رفع التكليف؛ لأنه لا يكون مرسلا إلى أهل ذلك الزمان، وقيل: إنه يقتل الدجال، ويقتل النصارى والخنزير، ويخرب البيع والكنائس (فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا) أي: لا تشكوا فيها (وَاتَّبِعُونِ) في عبادة الله وحده (هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ) طريق واضح قيم.

قال شيخنا أمين نايف ذياب: (وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ فَلا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَاتَّبِعُونِ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ)

لا بد من اعتماد ذكر الآيات من 57-66 من سورة الزخرف ؛ ليعرف القارئ معنى هذه الآية من سياقها في الآيات وهذه هي الآيات : (وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلاً إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ * وَقَالُوا أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلاً بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ * إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلاً لِبَنِي إِسْرائيلَ * وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ * وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ فَلا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَاتَّبِعُونِ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ * وَلا يَصُدَّنَّكُمُ الشَّيْطَانُ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ * وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ * إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ * فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ * هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ) .

من الضروري أنْ يعرف القارئ الكريم أنَّ هذه الآيات لا علاقة لها من قريب او من بعيد بنـزول عيسى بن مريم المزعوم ، لكنَّ المفسرين وهم كلهّم عاشوا في القرن الثالث الهجري وفيما بعد ـ وقد تأثروا بأحاديث نزول عيسى بن مريم ـ فقالوا بالنـزول ، ولكنْ عند العودة للتفسير في القرن الاول يجدْ القارئ ، أنَّ المفسرين فسروا الأمر بخروجه ـ أي وجوده الأول ، وليس نزوله ، فخروجه حقيقة ،

ونزوله احتمال ، ومثل هذا المعنى منقول عن ابن عباس ، والبعض قال : بأنَّ وجود عيسى آيةٌ للساعة، وبعضهم قال : إنَّ الهاء عائدة على القرآن ، وواحدة من القراءات غير المتواترة ، إنَّ عيسى ذكر للساعة.
والقول الحق في ذلك ، إنَّ الضمير من حيث التركيب يعود على عيسى ابن مريم ، فيكون عيسى بن مريم ـ أي وجود عيسى ابن مريم ـ في ميلاده ، وكلامه في المهد ، ونبوته ، ونجاته من الصلب ، هو ذاته عِلْمٌ للساعة أو عَلَمٌ لها ، وإعادة الضمير إلى محذوف (النـزول) أمر مخالف للوضع الصحيح في اللغة العربية ، فالضمير يعود إلى مذكور وهو ابن مريم المذكور في الآية 57 من الزخرف ، ثم انـهي القرآن الأمر بأن الساعة بغتة قال تعالى : (هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ) فالآية 61 هي في موضوع عيسى في ميلاده وكلامه في المهد ونبوته كهلا ، وليست في موضوع نزوله ، والآية 66تلغي أي فهم لها بإثبات النـزول .[379]



قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٧﴾﴾ الدخان: ٧

<u>قال الزمخشري</u>: (إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ) وما بعده تحقيق لربوبيته، وأنها لا تحق إلا لمن هذه أوصافه. وقرئ: رب السماوات ... ربكم ورب آبائكم، بالجر بدلا من ربك. فإن قلت: ما معنى الشرط الذي هو قوله (إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ)؟ قلت: كانوا يقرون بأن للسماوات والأرض ربا وخالقا، فقيل لهم: إنّ إرسال الرسل وإنزال الكتب رحمة من الرب، ثم قيل: إن هذا الرب هو السميع العليم الذي أنتم مقرون به ومعترفون بأنه رب السماوات والأرض وما بينهما إن كان إقراركم عن علم وإيقان، كما تقول: إنّ هذا إنعام زيد الذي تسامع الناس بكرمه واشتهر وإسخاؤه إن بلغك حديثه وحدثت بقصته.[380]

---

379 موسوعة جدل الأفكار / علامات الساعة ج1 – أمين نايف ذياب
380 الكشاف ج4 ص 272/271

قال أبو مسلم معناه إن كنتم تطلبون اليقين وتريدونه، فاعرفوا أن الأمر كما قلنا، كقولهم فلان منجد متهم أي يريد نجدا وتهامة.[381]



قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾﴾ الجاثية: ٢٣

قال شيخنا الزمخشري: أي: هو مطواع لهوى النفس يتبع ما تدعوه إليه، فكأنه يعبده كما يعبد الرجل إلهه.

وقرئ: آلهة هواه، لأنه كان يستحسن الحجر فيعبده، فإذا رأى ما هو أحسن رفضه إليه، فكأنه اتخذ هواه آلهة شتى: يعبد كل وقت واحدا منها وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلى عِلْمٍ وتركه عن الهداية «1» واللطف وخذله على علم، عالما بأنّ ذلك لا يجدى عليه، وأنه ممن لا لطف له.

أو مع علمه بوجوه الهداية وإحاطته بأنواع الألطاف المحصلة والمقرّبة «2» فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ إضلال اللَّهُ وقرئ: غشاوة، بالحركات الثلاث. وغشوة، بالكسر والفتح.

وقرئ: تتذكرون.[382]

قال قاضي القضاة: وقوله: (أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلهَهُ هَواهُ وَأَضَلَّهُ اللهُ عَلى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلى بَصَرِهِ غِشاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللهِ) فإنه لا يدل على ما يقوله القوم ، وذلك أنا قد بينا أن الختم هو السمة والعلامة ؛ فلا يمتنع أن يكون تعالى قد فعل ذلك بالكافر ، وقد بينا أن وجود الكافر صحيح السمع والبصر والقلب يمنع من أن يحمل الكلام إلا على طريقة التشبيه لحالهم ، من حيث أعرضوا عما كلفوا ورأوا وسمعوا ، وإنما شبهوا بمن ذلك حاله فى الحقيقة ، وبينا أن ذلك لو ثبت فى

381 التفسير الكبي للرازي ج 27 ص 655
382 الكشاف ج4 ص 291

الحقيقة لم يمنع من الإيمان ، لأن الأصم والأعمى لا يمتنع عليهما الإيمان ، ولا يستحيل فيهما التكليف.

وإنما أراد تعالى أن من اتخذ غيره معبودا واتبع الهوى فى ذلك ، وأضله وعاقبه على علم بأنه يستحقه ، وختم على سمعه وقلبه ؛ بأن بين وحكم. فمن الذى يهديه؟ منبها بذلك على أنه لا مخلص لمن هذا حاله من العذاب البتة.[383]



قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمِن قَبۡلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامٗا وَرَحۡمَةٗۚ وَهَٰذَا كِتَٰبٞ مُّصَدِّقٞ لِّسَانًا عَرَبِيّٗا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُحۡسِنِينَ ١٢﴾ الأحقاف: ١٢

قال شيخنا الحاكم الجشمي: {وَمِنْ قَبْلِهِ} أي: ومن قبل القرآن ونزوله (كِتَابُ مُوسَى) أنزله الله (إِمَامًا) يؤتم به في أمر الدين (وَرَحْمَةً) أي: نعمة على عباده؛ لأنه يؤديهم إلى نعيم الأبد إن آمنوا به (وَهَذَا) يعني القرآن (كِتَابٌ مُصَدِّقٌ) يصدق الآيات والكتب، وقيل: لأنه ورد موافقا لما فيه، وقيل: لأنه مخبر بأنها حق، وقيل: موافق لما فيه معنى وإن خالفه لفظا (لِسَانًا عَرَبِيًّا) أي: بلغة العرب (لِيُنْذِرَ) ليخوف (الَّذِينَ ظَلَمُوا) بالعذاب (وَبُشْرَى لِلْمُحْسِنِينَ).[384]

قال قاضي القضاة: يدل على حدث القرآن ؛ لأنه إذا كان بعد كتاب موسى ، متأخرا عنه ، فيجب أن يكون حادثا.

ومتى قال قائل : إن المراد بذلك أن من قبله إنزال كتاب موسى ، فقد زاد فى الظاهر ما ليس منه!

فإن قال : قد روى عن الرسول ، عليه‌السلام : (كان الله ولا شيء ، ثم خلق الذكر) وهو القرآن ، فكيف يجوز مع هذا أن يكون بعد كتاب موسى؟

[383] متشابه القرآن ص 612/611

[384] التهذيب في التفسير ج9 ص 6409

قيل له : لا يمتنع أن يكونا جميعا مرادين بالذكر فى الخبر ، وإن كان كتاب موسى خلق قبل القرآن ، لأن الخبر لا يدفع ذلك ، فليس فى القرآن ما يوجب أن كتاب موسى حدث فى أيام موسى ، فإذا صح ذلك لم يقع فيه تناف.

ولا يمنع من صحة ذلك ما ثبت من أنه تعالى فعل القرآن ، وأنزله دفعة واحدة إلى سماء الدنيا ، ثم كان ينزل على قدر الحاجة إليه ؛ لأن ذلك لا تمتنع صحته مع ما ذكرناه من تقدم خلق كتاب موسى له ، فجميع ذلك إذن متفق غير مختلف.[385]



قَالَ تَعَالَى: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ محمد: ٤

قال شيخنا الحكام الجشمي: (فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا) يعني من أهل الحرب المُصِرِّين على الحرب؛ لأن أهل الذمة لا يجوز قتالهم وقتلهم، وكذلك من جاء مسترشدا، أو تائبا، أو بأمان لا يجوز قتله، وقيل: إِذَا لَقِيتُمُ، أي: إذا حاربتم من اللقاء الذي هو الحرب (فَضَرْبَ الرِّقَابِ) أي: أقتلوهم، والرقاب الأعناق، وإنما عبر بذلك عن القتل؛ لأنه لا يبقى حيا بعد ضرب الرقبة، وقيل: أمر بقتلهم من غير أسر ولا فداء، فإذا (أَثْخَنْتُمُوهُمْ) أي: قهرتوهم وعزرتموهم، وقيل: أكثرتم الجراح والقتل، وقتلتم بعضهم وجرحتم البعض حتى ضعفوا (فَشُدُّوا الْوَثَاقَ) يعني شدوا وثاق الأسارى، فأمر بالقتل والأسر، لكيلا يقوى الكفر، وقيل: أراد كيلا يهربوا، وقيل: هذا في حرب واحد، ولم يرد جميع ذلك في شخص واحد، ولكن كما يقال: قتلناهم، وجرحناهم، وأسرناهم، وقيل: ليس هذا في حرب واحد، بل في حروب كثيرة، والقتل في حرب، والإثخان في حرب، والأسر في حرب، لتعظم الهيبة في قلوب الكفار.

---

[385] متشابه القرآن ص 614/613

ثم بين الحال بعد الأسر فقال : (فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً) أي: منًّا منكم عليهم بالإطلاق بعد الأسر من غير عوض، وإما فداء بعوض، بمال أو رجال، وقيل: المن بالإطلاق والإسلام؛ لأن أسير العرب إذا آمن يطلق، وأسير العجم إذا أسر يستعبد (حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا) أثقالها، وقيل: أراد تضع أهل الحرب سلاحها حتى تزول الحرب، وهم المحاربون. أوزارها: آثامها، بأن يتوبوا من كفرهم، ويؤمنوا بالله، أي: أثخنوا المشركين بالقتل والأسر ، حتى يظهر الحق والإسلام على الأديان كلها، وقيل: حتى تنقطع الحرب عند نزول عيسى ، فيسلم كل يهودي ونصراني، وصاحب ملة، وهي آخر أيام التكليف، عن مجاهد، وقيل: حتى يعبد الله ولا يشرك به شيئا، عن الحسن، وقيل: حتى لا يكون دين إلا الإسلام، عن مجاهد، وقيل: حتى يسلموا أو يسالموا، عن الكلبي، والأوزار المراد به مادام الحرب قائما، أو يكون في دار الحرب ، فأمر بالاحتياط والقتل والشد لنا من العدو.[386]

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً ۖ فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا ۚ فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ ﴿١٨﴾﴾ محمد: ١٨

قال شيخنا الزمخشري: (أَنْ تَأْتِيَهُمْ) بدل اشتمال من الساعة، نحو: أن تطؤهم من قوله رِجالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِساءٌ مُؤْمِناتٌ وقرئ: أن تأتهم، بالوقف على الساعة واستئناف الشرط، وهي في مصاحف أهل مكة كذلك: فإن قلت: فما جزاء الشرط؟ قلت: قوله فأنى لهم. ومعناه: إن تأتهم الساعة فكيف لهم ذكراهم، أى تذكرهم واتعاظهم إذا جاءتهم الساعة، يعنى لا تنفعهم الذكرى حينئذ، كقوله تعالى (يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرى). فإن قلت: بم يتصل قوله (فَقَدْ جاءَ أَشْراطُها) على القراءتين؟ قلت: بإتيان الساعة اتصال العلة بالمعلول، كقولك: إن أكرمنى زيد فأنا حقيق بالإكرام أكرمه. والأشراط: العلامات. قال أبو الأسود:

فإن كنت قد أزمعت بالصّرم بيننا ... فقد جعلت أشراط أوّله تبدو

وقيل: مبعث محمد خاتم الأنبياء صلى الله عليه وسلم وعليهم منها، وانشقاق القمر، والدخان.

---

[386] التهذيب في التفسير ج9 ص 6440/6439

وعن الكلبي: كثرة المال والتجارة، وشهادة الزور، وقطع الأرحام، وقلة الكرام، وكثرة اللثام.[387]

وعن أبي مسلم: المراد بالآية أنه لا مطمع لهم في الخلود، ولا بد من الموت والبعث، وأنه لا نبي بعده صلى الله عليه وآله وسلم ليؤمنوا به.[388]



قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوۡقَ أَيۡدِيهِمۡۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦۖ وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيۡهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤۡتِيهِ أَجۡرًا عَظِيمًا ﴿١٠﴾﴾ الفتح: ١٠

قال شيخنا الزمخشري: لما قال (إِنَّما يُبايِعُونَ اللَّهَ) أكده تأكيدا على طريق التخييل فقال (يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ) يريد أن يد رسول الله التي تعلو أيدى المبايعين: هي يد الله، والله تعالى منزه عن الجوارح وعن صفات الأجسام، وإنما المعنى: تقرير أن عقد الميثاق مع الرسول كعقده مع الله من غير تفاوت بينهما، كقوله تعالى (مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطاعَ اللَّهَ) والمراد: بيعة الرضوان (فَإِنَّما يَنْكُثُ عَلى نَفْسِهِ) فلا يعود ضرر نكثه إلا عليه. قال جابر بن عبد الله رضى الله عنه: بايعنا رسول الله تحت الشجرة على الموت، وعلى أن لا نفرّ، فما نكث أحد منا البيعة إلا جد بن قيس وكان منافقا، اختبأ تحت إبط بعيره ولم يسر مع القوم . وقرئ: إنما يبايعون لله، أى: لأجل الله ولوجهه، وقرئ: ينكث بضم الكاف وكسرها، وبما عاهد وعهد (فَسَيُؤْتِيهِ) بالنون والياء، يقال: وفيت بالعهد وأوفيت به، وهي لغة تهامة. ومنها قوله تعالى (أَوْفُوا بِالْعُقُودِ)، (وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ).[389]

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ يَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٤﴾﴾ الفتح: ١٤

---

387 الكشاف ج4 ص 323
388 التهذيب في التفسير ج9 ص 6454
389 الكشاف ج4 ص 335

قال الزمخشري: (وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ) يدبره تدبير قادر حكيم، فيغفر ويعذب بمشيئته ، ومشيئته تابعة لحكمته، وحكمته المغفرة للتائب وتعذيب المصر (وَكانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً) رحمته سابقة لغضبه، حيث يكفر السيئات باجتناب الكبائر، ويغفر الكبائر بالتوبة.[390]

قال شيخنا الحاكم الجشمي: (وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ) بشروط التوبة والإيمان (وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ) بترك الإيمان والطاعة والإصرار على الكبائر، وقيل: أراد بهذا بيان قدرته، أي: هو قادر أن يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء، ولكن لا يفعل إلا الحكمة، فيغفر للمؤمنين ويعذب الكافرين (وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا) فإن غفر بفضله ورحمته، وإن عاقب فبعدله، وقيل: يغفر الذنوب بالتوبة، ويدخلهم الجنة بالرحمة.[391]



قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ ٦ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمۡ رَسُولَ ٱللَّهِۚ لَوۡ يُطِيعُكُمۡ فِي كَثِيرٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ لَعَنِتُّمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ٧ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعۡمَةٗۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ٨ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱقۡتَتَلُواْ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَاۖ فَإِنۢ بَغَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا عَلَى ٱلۡأُخۡرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبۡغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمۡرِ ٱللَّهِۚ فَإِن فَآءَتۡ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَا بِٱلۡعَدۡلِ وَأَقۡسِطُوٓاْۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ ٩﴾ الحجرات: ٦ – ٩

390 الكشاف ج4 ص 337

391 التهذيب في التفسير ج9 ص 6490

قال شيخنا الحاكم الجشمي: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ) من ارتكب فسقا، وهو الكبيرة، لأن من لا يجانب الفسق لا يؤمن منه الكذب في أخباره (بِنَبَإٍ) أي: بخبر (فَتَبَيَّنُوا) بالتاء والنون، أي: تعرفوا حتى تعلموا حقيقته، وبالثاء: تأنَّوا فيه حتى تثبت عندكم حقيقته (أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ) أي: تصيبوهم بقتل أو قتال، وأنهم لا يعلمون حقيقة الأمر فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ) من ذلك (نَادِمِينَ) إذا علمتم ذلك (وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ) فاتقوا الله أن تقولوا باطلا، فإن الله يخبره أنبائكم، ويعرفه أحوالكم، فتفضحون عنده (لَوْ يُطِيعُكُمْ) أي: يتبع مرادكم (فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ) قيل: يقبل قول بعضكم، يقضي برأيكم (لَعَنِتُّمْ) أي: أثمتم، وقيل: أوقعتم في عنت، وهو الهلاك، وقيل: لحقكم الضر والشدة، يعني لو قبل الرسول مع عظيم محله قول بعضكم لهلكتم، فكيف تقبلون أنتم، ولكن الله يوفق نبيه للصواب، فلا يعمل إلا المصالح، عن الأصم (وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ) وأنتم تطيعون الله ورسوله، ويذهب عنكم العنث، وقيل: حبب بالأدلة على صحته واستقامته، وقيل: بألطافه، وقيل: ما وصفه من الثواب عليه، عن الحسن، ويحمل على أنه حَبَّبَ بالأمر به، والدلالة عليه، والألطاف الداعية إليه، وما وعد من الثواب على فعله، وقوله: (حَبَّبَ) أراد فعل ما عنده تحبون الإيمان من الأشياء التي ذكرناها (وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ) أي: فعل ما عنده تكرهون (الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ) قيل: بألطافه، وقيل: بما وصف من العقاب عليه، عن الحسن، وقيل: بجميع وجوه الصوارف (أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ) أي: من تمسك بهذه الطريقة كان على رشد وصواب، وإنما رتب ثلاثة رتب؛ لأن المعاصي على ثلاثة أضرب: كُفْرٌ وفِسْقٌ، وهو الكبائر، وعصيان، وهو الصغائر (فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً) يعني رشادهم بدعاء الرسول، وتمكين الله ولطفه وهدايته، وقيل: منة عليهم ونعمة، وقيل: التحبيب والتكريه فضلا من الله ونعمة (وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ) لا يفعل إلا الحكمة، عليم بالمصالح، وقيل: عليم بهم يجازي كل أحد بما يستحقه (وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا) ولاشبة أن إحداهما باغية والأخرى عادلة؛ لأنهما كانتا مؤمنتين قبل القتال، كما يقال: لو أن طائفة من المؤمنين ارتدوا فاقتلوهم (فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا) بتوسط ومصالحة (فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى) طلب ما ليس له، ظالما للفرقة الأخرى، وأبى الإجابة إلى حكم الله (فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ) أي: ترجع (إِلَى أَمْرِ اللَّهِ) بالتوبة والطاعة (فَإِنْ فَاءَتْ) رجعت (فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ) بالقسط حتى يكونوا سواء، لا يكون من أحدهم على الآخر جور وشطط

فيما يتعلق بالضمانات والأُرُوش؛ بل حال كل واحد كحال الآخر (وَأَقْسِطُوا) أعدلوا (إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ) العادلين.[392]

وقال شيخنا الحاكم: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ) الآية، فتدل على أن الفاسق لا يقب خبره ولا شهادته، واختلفوا في الفاسق من جهة التأويل، فالذي عليه الفقهاء أنه يقبل؛ لأن الخلاف وقع والصحابة متوافرون، وكان بعضهم لا يرد خبر بعض، وقال أبو علي وأبو هاشم: لا يقبل، قال: إذا كان الكذب في المعاملات وحقوق الناس يوجب رد قوله ، فالكذب على الله ورسوله، وعلى سادات الإسلام من المهاجرينوالأنصار أولى بالرد، قال القاضي: قولهما أقيس، وقول الفقهاء أقرب إلى الآثار.

قال أبو علي: تدل الآية على أن خبر الواحد لا يقبل لأنه قال: (أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ) و بخبر الواحد لا يحصل العلم، فلا نأمن الجهالة فاسقًا كان أو مستورًا.

قلنا: هذا ينتفض عليه بخبر الاثنين، واستدل جماعة بالآية على أن خبر الواحد يقبل؛ لأنه لو كان لا يقبل خبر العدل لم يكن لذكر الفاسق معنى.

وقيل: إنها لا تدل إلا على التثبت في خبر الفاسق، فأما غير ذلك فليس في الظاهر ما يدل على رد وقبول.

وتدل على تحريم التقليد؛ لأن فيه اعتقاد ما لا يؤمن كونه جهلا وفاسدًا.

واستدل بعضهم بالآية على أنه يجب التوقف في خبر الواحد إذا جوز كونه فاسقا، وإن كان ظاهره الستر، قال: لأن الوليد كان مستورا، لذلك استعمله رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولولا ذلك لما كان بعثه على الصدقات وما ولاه، وهذا لا يصح، لأن ظاهره كان الستر، ثم علم بخبر أنه فاسق.

وتدل على أن خبر الواحد لا يوجب العلم.

ويدل ظاهره على التوقف فيه، وتعليله على وجوب الرد.[393]

قال قاضي القضاة: وقوله تعالى : (وَلـٰكِنَّ اللهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيانَ) فانه يدل على أمور : منها : انقسام المعاصى إلى هذه الأقسام الثلاثة ، وأن كل قسم منها يتميز عن صاحبه ، فلا يكون داخلا فى جملته ، فقد تكون المعصية من باب الفسق

---

[392] التهذيب في التفسير ج9 ص 6529/6528

[393] التهذيب في التفسير ج9 ص 6530

خارجة من باب الكفر ، وقد تكون معصية صغيرة خارجة عن البابين جميعا. وهذا يبطل قول من يقول إنه ليس فى المعاصى صغائر ، وقول من لا يثبت الفاسق بالإطلاق إلا الكافر.

ومنها : أنه يدل أنه يحب من جميع المكلفين الإيمان ، ويكره منهم ضده من الوجوه الثلاثة ، لأنه لم يخص فى الخطاب مكلفا من مكلف ، ولا يجوز أن يكون محببا إليهم إلا ما يريده منهم ، ولا يجوز أن يكره إليهم إلا ما يكرهه ، والمحبة المذكورة لا يجوز أن تكون الشهوة ، لأن المؤمن لا يشتهى ما يفعله من الإيمان لكونه شاقا عليه ، وإنما يشتهى المرء ما يتلذذ به ويسر.

فاذا صح ذلك ، وجب أن يكون المراد به الإرادة ، وقد علمنا أن الإرادة تقع من المؤمن على طريق الاختيار لا على طريق الاضطرار. فالمراد إذن بالكلام أنه فعل ما عنده أحب المؤمن الإيمان ؛ من الأمر والوعيد والترغيب.

وأما قوله تعالى : (وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ) ، فمحمول على ظاهره ، لأن خبره عن الإيمان ووعده عليه الثواب ، يوصف فى الحقيقة بأنه يزين الإيمان. وفعل تعالى من النهى والوعيد والتخويف ما بعث به المكلف على كراهة الكفر والفسق ، ولذلك صح أن يضيفه إلى نفسه ، وإن لم يفعل نفس الكراهة فيه.

وقوله تعالى : (وَإِنْ طائِفَتانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُما فَإِنْ بَغَتْ إِحْداهُما عَلَى الْأُخْرى فَقاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلى أَمْرِ اللهِ) فانه لا يدل على أن الباغية منهما مؤمنة فى تلك الحال ؛ على ما تقوله المرجئة ، وذلك لأنه وصفها بالإيمان ولما وقع البغى والقتال ، وهذا كقولنا : إن المؤمن إذا ارتد وجب قتله ، ولا يوجب ذلك كونه مرتدا فى حال إيمانه!

والآية دالة على ما نقوله من أن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر يجب لأنه تعالى أوجب الإصلاح بينهما ، لأن حالهما لا يخلو من وجهين : إما أن يكونا مبطلين. أو أحدهما محق والآخر مبطل ، لأنه لا يصح كونهما محقين جميعا والحال هذه ، ولا بد من أن يكون القتال الواقع منهما قبيحا ، فأوجب الله ـ تعالى ـ الإصلاح بالقول وما يجرى مجراه ، ثم بين أن ذلك إذا لم يصادف القبول وبغت أحدهما ، وجب كفهما عن البغى بالمقاتلة. ونبه بهذين الطريقين اللذين أحدهما الإصلاح بالقول ، والآخر بالقتال ، على ما بينهما من الوسائط ، مما يقرب عنده كف الباغى عن البغى ، ولو كان الأمر على ما تقوله المجبرة لم يكن لذلك معنى ، لأنه تعالى إن خلق فيهم المقاتلة فالإصلاح لا يؤثر ، فان لم يخلق ذلك فكمثل ، وكذلك كل من ينهاه عن منكر ، فعلى قولهم لا فائدة فى النهى عنه ، لأن أمره فى المستقبل موقوف على خلقه ـ تعالى ـ فيه المنكر أو ضده ، فما الفائدة فى ذلك؟ وإنما يصح على مذهبنا

، لأنا نبعث بذلك المقدم على المنكر إلى الكف عن أمثاله فى المستقبل ، ونكون نحن عند ذلك أقرب إلى الامتناع من المنكر. فأما على مذهبهم لا فائدة فيه على وجه ، وكذلك الأمر بالمعروف.[394]



قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا۟ لَدَىَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ ۝٢٨ مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ۝٢٩﴾ ق: ٢٨ – ٢٩

<u>قال شيخنا الزمخشري</u>: قالَ (لا تَخْتَصِمُوا) استئناف مثل قوله (قالَ قَرِينُهُ) كأن قائلا قال: فماذا قال الله؟ فقيل: قال لا تختصموا. والمعنى: لا تختصموا في دار الجزاء وموقف الحساب، فلا فائدة في اختصامكم ولا طائل تحته، وقد أوعدتكم بعذابي على الطغيان في كتبي وعلى ألسنة رسلي، فما تركت لكم حجة علىّ، ثم قال: لا تطمعوا أن أبدل قولي ووعيدى فأعفيكم عما أوعدتكم به (وَما أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ) فأعذب من ليس بمستوجب للعذاب. والباء في (بِالْوَعِيدِ) مزيدة مثلها في (وَلا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ) أو معدية، على أن «قدّم» مطاوع بمعنى «تقدّم» ويجوز أن يقع الفعل على جملة قوله (ما يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَما أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ) ويكون (بِالْوَعِيدِ) حالا، أى: قدّمت إليكم هذا ملتبسا بالوعيد مقترنا به. أو قدّمته إليكم موعدا لكم به. فإن قلت: إنّ قوله (وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ) واقع موقع الحال من لا تَخْتَصِمُوا والتقديم بالوعيد في الدنيا والخصومة في الآخرة واجتماعها في زمان واحد واجب. قلت: معناه ولا تختصموا وقد صح عندكم أنى قدمت إليكم بالوعيد، وصحة ذلك عندهم في الاخرة. فإن قلت: كيف قال بِظَلَّامٍ على لفظ المبالغة؟

قلت: فيه وجهان، أحدهما: أن يكون من قولك: هو ظالم لعبده، وظلام لعبيده. والثاني: أن يراد لو عذبت من لا يستحق العذاب لكنت ظلاما مفرط الظلم، فنفى ذلك.[395]

[394] متشابه القرآن ص 624/623/622
[395] الكشاف ج4 ص 388/387

قال قاضي القضاة: يدل على أن الوعيد الوارد عن الله لا يتبدل ولا يتغير. وأنه لا يجوز أن يكون فيه إضمار وشرط. ولا أن يكون خارجا على وجه التعمية. ولا يجوز فيه الخلف ، لأن كل ذلك يقتضى التبديل ، وقد أبى الله تعالى ذلك فى وعيده.

وبين أنه وإن فعل ما توعّد به ، فليس بظلام للعبيد ، لأنه لم يفعل بهم إلا ما استحقوه من العقاب على ما كان منهم من المعاصى.

وتنزيهه تعالى أن يكون ظلاّما للعبيد يدل على أنه لم يفعل الظلم ولا القبيح ، على ما قدمنا ذكره فى نظائره.

وقوله تعالى : (لا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ) ، يدل على بطلان مذهب المجبرة ، لأنه بين [أنه] لا فائدة فيما يخاصمه قرينه فى الآخرة ، فلو كان الأمر على ما يقوله القوم ، لوجب أن يكون المؤكّد لعذرهم والمزيل للعقاب عنهم ، ما وجب كونهم خصما لله تعالى! بأن يقولوا إنما كفرنا لأنك خلقت ذلك فينا وأوجبته بالقدرة التى لا تخلو عند وجودها من الكفر ، وبالإرادة وبقدرة الإرادة ، فكيف يجوز أن تعذبنا وقد منعتنا ولم تسهل لنا السبيل إلى ما فرضته علينا ، بل منعتنا من فعله بوجوه من المنع ، فكيف المخلص لنا من الكفر ، وهل ما تفعله فينا من العقاب إلا بالكفر الذى فعلته ، فى أنه لا سبيل لنا إلى التخلص منه؟! فتكون هذه الخصومة مبينة لعذرهم ، ومزيلة للعقوبة ، إن كان القديم تعالى ممن يعمل بالحكمة والصواب. تعالى الله عما يقوله القوم علوا كبيرا.[396]

[396] متشابه القرآن ص 628/626



قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ ﴾ الذاريات: ٥٦

قال شيخنا الزمخشري: أي: وما خلقت الجن والإنس إلا لأجل العبادة، ولم أرد من جميعهم إلا إياها، فإن قلت: لو كان مريدا للعبادة منهم لكانوا كلهم عبادا؟ قلت: إنما أراد منهم أن يعبدوه مختارين للعبادة لا مضطرين إليها، لأنه خلقهم ممكنين، فاختار بعضهم ترك العبادة مع كونه مريدا لها، ولو أرادها على القسر والإلجاء لوجدت من جميعهم.[397]

قال قاضي القضاة: فبين فى الدلالة على أنه خلق جميعهم للعبادة ، وأنه أراد منهم ذلك إذا بلغهم حد التكليف ، فأما المجنون ومن لم يبلغ هذا الحد ، فلا يجوز دخوله فى الكلام ؛ لأنه يتضمن أنه أراد العبادة ممن تصح منه.

ولا يمكن حمله على أن المراد الانقياد بما يريده من الخضوع والخشوع ، على ما زعمه بعض من يقول فى المعارف إنها ضرورية ، وذلك أن ظاهر العبادة هو ما يختاره العبد من الفرائض التى يقوم بها ، ومن النوافل ، دون ما ذكروه ، وإن كنا نخالف القوم فيما قالوه ، ونقول فى المعارف : إنها اكتساب إذا كانت معارفا بالله تعالى ، وبالرسول ، صلى الله عليه ، وبالشرائع.

ولا يجوز أن تحمل الآية على أن المراد بها من العموم أنه يعبد ، لأن ذلك تخصيص من غيره دلالة ، فإن قال : يدل على ذلك قوله : (وَلَقَدْ ذَرَأْنا لِجَهَنَّمَ)، قيل له : لا بد فى هذه الآية من حذف مقدر ، فإما أن تقدر فيه : ولقد ذرأنا للكفر الذى يؤديهم إلى جهنم ، أو لكى يدخلوا جهنم ، لأنه لا يجوز أن يكون خلقهم تعالى لجهنم ، التى هى للأجسام المخصوصة ، فإذا وجب ذلك ، حصلت الآية داخلة فى المجاز ،

---

397 الكشاف ج4 ص 406

فوجب حملها على مطابقة ما قدمناه ، وذلك يقتضى أن يكون المراد باللام الداخلة فيها العاقبة ، على ما قدمناه من قبل.[398]



قَالَ تَعَالَى: ﴿وَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعۡيُنِنَاۖ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ۝٤٨﴾ الطور: ٤٨

قال الزمخشري: (لِحُكْمِ رَبِّكَ) بإمهالهم وما يلحقك فيه من المشقة والكلفة (فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنا) مثل، أى: بحيث نراك ونكلؤك. وجمع العين لأنّ الضمير بلفظ ضمير الجماعة. ألا ترى إلى قوله تعالى (وَلِتُصْنَعَ عَلى عَيْنِي). وقرئ: وبأعينا، بالإدغام (حِينَ تَقُومُ) من أى مكان قمت. وقيل: من منامك.[399]

قال قاضي القضاة: وقوله : (وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنا) لا يدل على ما تقوله المشبهة ؛ لأن ذلك يوجب أن يكون له أعينا ، وليس أوّل الجمع بذلك أولى من آخره! فيوجب ذلك إثبات عيون له لا آخر لها ، وأن لا يوقف على حد لا يصح إثبات أكبر منه ، وذلك يبطل قولهم ، لأن من يصرح بالجسم منهم ، وبإثبات الجوارح ، يثبته كمثل صورة آدم ، ولا يثبت له إلا عينين. فيجب أن يكون المراد بذلك : إثباته عالما بجميع ما يحصل من العباد. وهذا كما يقال : إن هذا الشيء وقع بمرأى منى ومسمع ؛ إذا كان عالما بتفصيله.[400]

---

398 متشابه القرآن ص 629

399 الكشاف ج4 ص 415

400 متشابه لاقرآن ص 631



قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ ۝٣ إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ ۝٤ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلۡقُوَىٰ ۝٥ ذُو مِرَّةٖ فَٱسۡتَوَىٰ ۝٦ وَهُوَ بِٱلۡأُفُقِ ٱلۡأَعۡلَىٰ ۝٧ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨ فَكَانَ قَابَ قَوۡسَيۡنِ أَوۡ أَدۡنَىٰ ۝٩ فَأَوۡحَىٰٓ إِلَىٰ عَبۡدِهِۦ مَآ أَوۡحَىٰ ۝١٠﴾ النجم: ٣ – ١٠

قال شيخنا الحاكم الجشمي: {وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى) أي: لا يتكلم عن جهة نفسه في أمور الشرع، يعني فيما أما وشرع (إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى) إليه (عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى) قيل: هو جبريل،وهو القوي في نفسه وخلقته، عن ابن عباس وقتادة والربيع، وقيل: هو الله تعالى، ومعنى (شَدِيدُ الْقُوَى) أي: القوي القادر، وقيل: ذو مضاء في أمره (ذُو مِرَّةٍ) قيل: هو جبريل ذو قوة، عن مجاهد، وسفيان، والربيع، وابن زيد، وقيل: ذو صحة وخلق حسن، عن ابن عباس وقتادة، قال الكلبي: ومن قوته أنه اقتلع قريات قوم لوط في الماء الأسود، ورفعها إلى السماء وقلبها، ومن شدته صيحته بثمود حتى هلكوا، ومن شدته نزوله من السماء إلى الأرض وصعوده في ساعة، وقيل: (ذُو مِرَّةٍ) أي: ذو مرور في الهواء ذاهبا وجائيا، نازلنا وصاعدا، عن أبي علي، وقيل: شديد القوى في أمر الله، ذو مرة في حدّه، عن أبي علي، وقيل: (ذُو مِرَّةٍ) أي: شديد حفظه لما يحمله الله من الوحي، وقيل: هو الله تعالى ذو مرة أي: ذو قوة، أي: ذو مضاء على ما قدمنا (فَاسْتَوَى.وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى) اختلفوا في قوله (اسْتَوَى) وهو على ثلاثة أقوال:

أولها: أنه كناية عن جبريل ومحمد صلى الله عليه وسلم، ثم اختلفوا، فقيل: استوى محمد وجبريل، فاستوى كناية عن جبريل ومحمد – صلى الله عليهما –، وقيل: استويا في القوة والصعود إلى السماء، وقيل: استويا في العلم بالوحي.

وثانيها: أنه استوة جبريل أي: ارتفع وعلا في السماء بعد أن عَلَّمَ محمدًا، عن سعيد بن مسيب، وقيل: (فَاسْتَوَى) أي: قام في صورته التي خلقه الله تعالى عليها، وهو بأفق السماء، وذلك أنه كان يأتي النبي صلى الله عليه وآله وسلم في صورة آدمي، فسأله أن يريه نفسه في صورته، فأراه مرتين، مرة في الأرض ومرة في السماء، وقيل: استوى اعتدل واقفا في الجو؛ لأن النازل في الجو يكون منحطا، فاستوى حتى رآه النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وقيل: استوى جبريل وهو بالأفق، عن الربيع، وقيل: اعتدل واقفا في الهواء بعد أن كان ينزل بسرعة ليراه النبي صلى الله عليه وآله وسلم، عن أبي علي.

وثالثها: أن (اسْتَوَى) كناية عن الله تعالى؛ اي: بنى الدنيا، ثم استوى بأمره إلى السماء، عن الحسن، والأول هو الوجه لاتصاله بـ (دَنَا فَتَدَلَّى)، وذلك لا ليق إلا بجبريل، ولأنه لا يجوز المكان على الله تعالى، وصرفه عن ظاهره مع إمكان حمله عليه لا يجوز.

(وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى) الناحية الأعلى، قيل: مطلع الشمس الذي يجيء منها النهار، عن قتادة، وقيل: هو السماء، عن أبي علي، وروي أنه صلى الله عليه وآله وسلم رأى جبريل مرتين: مرة في الأرض، ومرة في السماء، أما في الأرض ففي الأفق الأعلى؛ لأنه كان محوا فبدا، أتى جبريل في المشرق، وبالأفق إلى المغرب، فخر النبي صلى الله عليه وآله وسلم مغشيا عليه، فنزل جبريل في صورة آدمي، وضمه إلى نفسه، وجعل يمسح الغبار عن وجهه، وأما في السماء فعند سدرة المنتهى، ولم يره أحد من الأنبياء على تلك الصورة غير محمد صلى الله عليه وآله وسلم (ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى. فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى) قيل: دنى جبريل بعد استوائه بالأفق من الأرض فتدلى، قيل: إلى محمد بالوحي، وأهوى عليه، فكان بينهما (قَابَ قَوْسَيْنِ) أي: قدر قوسين، (أَوْ أَدْنَى) قيل: بل أدنى، عن ابن عباس، وعطاء، وجماعة، وقيل: قاب قوسين حيث الوتر عن القوس، عن مجاهد، وقيل: أراد تأكيد القرب عند الوحي، وقيل: قدر ذراعين، عن سعيد بن جبير، وعطاء وسفيان، وقيل: قدر الوتر من القوس مرتين، عن ابن مسعود (أَوْ أَدْنَى) قيل: بل أذنى، وقيل: وأذنى، وقيل: على شك المخاطب، أي: عندك قدر قوسين أو أدنى (فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ) قيل: أوحى الله إلى عبده، وقيل: أوحى جبريل إلى عبد الله ما أوحى إليه ربه عز وجل، عن الحسن والربيع، وابن زيد. (مَا أَوْحَى) قيل: أوحى إليه من كلامه، وأمره ونهيه، عن أبي علي، وقيل: أوحى إليه:

(أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى) [الضحى: 6] إلى قوله: (وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ) [الشرح:4]، عن سعيد بن جبير، وقيل: أوحة إليه أن الجنة محرمة على الأنبياء حتى تدخلها أنت، وعلى الأمم حتى تدخلها أمتك، وسئل ابو العباس بن عطاء عن هذه الآية؟ فال: ميف أصف لكم مقاما انقطع عنه جبريل وميكائيل وإسرافيل، وعن بعضهم: كان بينهما سِرُّ كسر المحبين، وأنشد:

بين المحبين سر ليس يفشيه　　　خط ولا قلم عنه فيحكيه

سر يمازجه أناس يقابلـــــه　　　نور تحير في بحر من التيه

والصحيح ما حكيناه، عن أبي علي.[401]

قَالَ تَعَالَى: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ۝١٠ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ۝١١ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ۝١٢ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۝١٣ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ۝١٤ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ۝١٥ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ۝١٦ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ۝١٧ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ۝١٨﴾ النجم: ١٠ – ١٨

قال شيخنا الحاكم الجشمي: (مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى) أي: ما كذب فؤاد محمد ما رأى بصره في ذلك الوقت، وتكذيب الفؤاد إيهامه أنه يرى شيئًا ولا يراه كالرائي السراب، وتقديره: ما كذب الفؤاد فيما رأى، واختلفوا في الذي رآه، قيل: جبريل على صورته التي خلقه الله تعالى عليها، عن ابن مسعود، وعائشة، وقتادة، وقيل: ما رأى من مقدور الله وملكوته، عن الحسن، وقيل: رأى ربه رواية عن ابن عباس، وهذا بمعنى عَلِمَهُ، زيادة عِلْم بما رأى من آيات محددة، فعند ذلك ازداد يقينًا، كقول إبراهيم: (لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي) وإن كان عَلِمَ ذلك.

وزعم جماعة من المشبهة، وممن تكلم في هذه الآية أن محمدًا – صلى الله عليه وسلم – رأى ربه ليلة المعراج، ورووا ذلك عن ابن عباس وأنس بن مالك والربيع، ورووا أخبارًا تتضمن تشبيهًا عظيمًا، ثم رووا على الضد من ذلك عن جماعة من الصحابة والتابعين، فرووا عن ابن عباس أيضًا ومحمد بن الحنفية عن أبيه علي بن أبي طالب، أنه رآه بقلبه ولم يره بعينه، ورووا عن محمد بن كعب أن النبي –

[401] التهذيب في التفسير ج9 ص 6636/6637/6638

صلى الله عليه وسلم - سئل هل رأيت ربك؟ فقال: "رأيته بقلبي، ولم أره بعيني"، ورووا عن أبي ذر وأبي سعيد الخدري أن النبي - صلى الله عليه وسلم - سئل عن قوله: (مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى) قال: "رأيت نورا" ومثله رووا عنمجاهد وعكرمة.

ورووا عن عبد الرزاق عن أبي عيينة، عن مجالد بن سعيد، عن عامر الشعبي، عن عبد الله بن الحارث، عن ابن عباس، أنه قال: إن محمدًا رأى ربه، قال الشعبي: فأخبرني مسروق، قال: سألت عائشة عن ذلك، فقالت: إنك لتقول قولاً، "إنه لَيَقِفُ شَعْرِي منه، قال مسروق: قلت: رويدًا يا أم المؤمِنِينَ، وقرأت عليها: (وَالنَّجْمِ) حتى انتهيت إلى قوله: (فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى) فقالت: رويدًا، أين يذهب بك؟ إنما رأى جبريل في صورته، مَنْ حدثك أن محمدًا رأى ربه فقد كذب، والله - تعالى - يقول: (لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ) وَمَنْ حدثك أن محمدًا يعلم الخمس من الغيب فقد كذب، والله تعالى يقول: (إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ) ومن حدثك أن محمدًا كتم شيئًا من الوحي فقد كذب، والله تعالى يقول: [(بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ)].

ولأنه قد ثبت بالدليل أنه تعالى ليس بمرئي؛ أي: في ذاته، وقد بين النبي - صلى الله عليه وسلم - لما سئل أرأيت ربك؟ فقال: "نُورٌ أَنَّى أراه"، فأشار إلى أن المرئي إما أن يكون جوهرًا أو لونًا، وقد بين الله - سبحانه - وتعالى بيانًا شافيًا، فقال: (لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى)، وقال: (وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى)، ولا يجوز عليه المكان.

(أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى) أتجادلونه، وتمرونه تجحدونه (وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى) أي: مرة أخرى، قيل: جبريل، عن ابن مسعود، وعائشة، ومجاهد، والربيع، قالوا: رآه في صورته التي خلقه الله تعالى عليها مرتين، مرة في الأفق الأعلى على ما تقدم، ومرة عند سدرة المنتهى، وقيل: رأى ربه بقلبه، عن ابن عباس، يعني لما رأى من ملكوته ثَمَّ، والأول أوجه، وعليه تحمل الآية، وتقديره: نزلة، أي: رآه نازلاً نزلة أخرى، وعن عائشة: قالت: أنا أول من سأل النبي - صلى الله عليه وسلم - عن هذه الآية فقال: "هو جبريل"، (عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى) قيل: شجرة النبق، وقيل: سدرة المنتهى؛ لأن رؤية الملائكة إليها تنتهي، في معنى قول كعب، وقيل: سدرة المنتهى في السماء السابعة، إليها ينتهى ما يعرج إلى السماء، وما يهبط من فوقها من أمر الله، عن ابن مسعود، والضحاك، وقيل: لأنه ينتهي إليها أرواح الشهداء،

وقيل: لأنه ينتهي إليها علم كل عالم، عن كعب، وقيل: ملائكة السماء تنتهي إليها صاعدًا، وحملة العرش نازلاً، فيجوز أن يكون متعبد الملائكة تحته، وقيل: ينتهي إليها كل من مات على سنته، وقيل: هو سدرة في أصل العرش على رؤوس حملة العرش، عن كعب، وروي مرفوعًا، وروي أنه في أصلها أنهار، وهي شجرة يسير الراكب في ظلها سبعين عامًا لا يقطعها، وقيل: هي طوبى، عن مقاتل، وقيل: أراد الشجرة التي بايع تحتها بيعة الرضوان، وعندها كان استحقاق الجنة، كقولهم: "الجنة تحت ظلال السيوف"، وقيل: هي عن يمين العرش، وهي منزل الشهداء، عن ابن عباس. (عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى) أي: جنة الخلد، وهي في السماء السابعة، والمأوى: المصير، أي: يصير إليه أهل الجنة، وقيل: هي الجنة التي كان آوى إليها آدم، وتصير إليها أرواح الشهداء والمؤمنين بعد وفاتهم، عن أبي علي. (إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى) قيل: غشيها فراش الذهب، عن ابن مسعود، ومجاهد، وإبراهيم، وعن ابن عباس بخلاف، وروي ذلك مرفوعًا، وقيل: غشيها النور والبهاء، حتى يروق الأبصار حسنها، عن الحسن، وقيل: النور والملائكة، عن الربيع، وقيل: الملائكة ينتهون إليها، الصاعدين إليها، والنازلين من عند العرش، عن أبي علي. وروى الربيع عن أبي هريرة قال: لما أسري بالنبي - صلى الله عليه وسلم - فانتهى إلى السدرة، فغشيها النور والملائكة، وروي عنه - صلى الله عليه وسلم -، قال: "رأيت على كل ورقة من ورقها ملكًا قائمًا يسبح الله"، وقيل. فغشيها رفرف من طير خضر، وقيل: من الطيور، عن السدي، وقيل: غشيها من أمر الله ما غشيها، فتحولت ياقوتًا وزمردًا حتى ما يستطيع أحد وصفها، وقيل: غشيها جبريل في خلقته العجيبة، فَسَدَّ الأفق، وفي قوله: (مَا يَغْشَى) تعظيم لما غشاه، كقوله: (فَغَشِيَهُم مِّنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ)، (مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى) أي: ما جاوز ما أمر به، ولا مال عما قصد له، يعني ما رأى إلا حقًّا وصوابًا ولم يخيل إليه، وقيل: ما مال يمينًا ولا شمالًا، [وَلَا تَجَاوَزَ الْحَدَّ الَّذِي رَأَى. وَقِيلَ: مَا جَاوَزَ مَا أُمِرَ بِهِ. وَقِيلَ: لَمْ يَمُدَّ بصره إلى غير ما رأى] (لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى) قيل: هي [السماوات والملائكة، وما في السماوات من] ملكوته، وقال ابن مسعود: رأى رفرفًا أخضر من رفارف الجنة قد سد الأفق، وقيل: هي سدرة المنتهى، عن

الضحاك، وقيل: رأى جبريل في صورته التي تكون في السماوات عن ابن زيد، ومقاتل، وأبي علي، وقيل: المعراج وما رأى تلك الليلة في مبتدئه وعَوْدِهِ.[402]

قال قاضي القضاة: وقوله تعالى : (وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرى عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهى) ربما استدل به بعض الجهال فى أنه تعالى يرى ، وأن رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، رآه مرة بعد مرة. وهذا باطل ، لأن المراد بذلك جبريل ، عليه‌السلام ، والكلام يدل عليه ، لأنه قال من قبل : (عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوى ، ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوى ، وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلى ثُمَّ دَنا فَتَدَلَّى) وهذا كله من صفات جبريل ، عليه‌السلام ، ثم قال بعد ذلك : (ما كَذَبَ الْفُؤادُ ما رَأى) فأثبته رائيا مرة ، ثم قال : (وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرى) فأثبته له رائيا مرة أخرى ، ورسول الله ، صلى الله عليه ، وإن رآه الكثير ، فلم يره على صورته التى هو عليها إلا هاتين المرتين ، ومتى قال القائل إن فى جميع ذلك المراد هو الله ، فقد علمنا أنه تعالى لا يوصف بالدنو والتدلّى ، ولا يحد بقاب قوسين أو أدنى ، لأن كل ذلك يستحيل فيه!

وبعد ، فلم صار بأن يحمله على أنه المراد بأولى مما ذكرناه ، وليس فى الكلام ما يوجب لما قاله مزية ، بل الذى قلناه أولى. لأن الذى يتحمل الوحى إليه ، صلى الله عليه ، هو جبريل ، وذكره قد تقدم ، فرجوع الكلام إليه أولى ، وإن كان لو تقدم ذكرهما ، لوجب ما قلناه ؛ لأن الوصف المذكور يليق بجبريل دونه تعالى ، ولأن العقل قد دل على استحالة الحركات عليه ، والمجيء والذهاب.[403]

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ ٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَۚ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلۡمَغۡفِرَةِۚ هُوَ أَعۡلَمُ بِكُمۡ إِذۡ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ وَإِذۡ أَنتُمۡ أَجِنَّةٞ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡۖ فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡۖ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ٣٢ ﴾

النجم: ٣٢

قال شيخنا الحاكم: (الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ) قد تقدم البيان للكبائر ما قيل فيه، والصحيح عندنا أن الكبير ما يزيد عقابه على ثواب فاعله، كالقتل والزنا، ونحو ذلك، وقيل: ما لا يكفره إلا التوبة.

402 التهذيب في التفسير ج 9 ص 6643/6643/6642

403 متشابه القرآن ص 632

والفواحش: كل قبيح فاحش، وهو أوجه، وقيل: هو الزنا (إِلَّا اللَّمَمَ") اختلفوا فيه، فالذي عليه مشايخنا أنه الصغائر من الذنوب، عمدًا أو سهوًا، ونظير هذه الآية قوله تعالى: (إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ) وهو قول أبي علي، وأبي مسلم، والقاضي.

فأما المفسرون، فمنهم من يجعل (إِلَّا اللَّمَمَ) من الكبائر، ويجعل الاستثناء حقيقة، ثم اختلفوا، فقيل: اللمم أن يأتي بفاحشة أو كبيرة ثم يتوب ولا يصر، عن أبي هريرة، ومجاهد، والحسن، وأبي صالح، وروي نحوه عن ابن عباس، وقيل: اللمم ما دون الشرك، عن عبد الله ابن عمرو بن العاص.

ومنهم من يجعل الاستثناء منقطعًا، ولا يجعل اللمم من الكبائر، ويقول: معناه لكن اللمم، ثم اختلفوا، فقيل: هو ما سلف في الجاهلية لا يؤاخذهم بها، وكان المشركون يقولون للمسلمين: إنهم كانوا معنا بالأمس، فأنزل الله تعالى هذه الآية، عن زيد بن ثابت، وزيد بن أسلم، وروي نحوه عن ابن عباس. وقيل: هو صغار الذنوب، كالنظرة والقبلة، مِنْ أَلَمَّ بالشيء: إذا لم يدخل فيه، عن ابن عباس، وابن مسعود، وأبي سعيد الخدري، وحذيفة، ومسروق، والشعبي. وقيل: ما هو بين الحدين، حد الدنيا وعذاب الآخرة، عن ابن الزبير، وعكرمة، وقتادة، والضحاك، ومقاتل، والكلبي، يعني ليس فيه حد، ولا يكثر فيه عذاب. وقيل: اللمم: عادة النفس حينًا بعد حين، عن عطاء بن أبي رباح. وقيل: هو ما هَمَّ على القلب، أي: خطر، عن سعيد بن المسيب، وهو حديث النفس من غير عزم؛ لأن العزم على الكبير كبير، وروي نحوه عن ابن الحنفية، وروي مرفوعًا: "إن للشيطان لمَّة، وأن للملَك لمَّة، فلمَّة الشيطان الوسوسة، ولمَّة الملك الإلهام". (نَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ) أي: كثير المغفرة لا يتعاظمه ذنب، فيغفر الصغير والكبير (وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ) وقيل: مغفرته أنه يمهل للتوبة ولا يعاجل بالعقوبة (هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ) وبأحوالكم، قيل: لضعفكم أسقط عنكم الصغائر، وفتح باب التوبة للكبائر، وقيل: هو أعلم بتفاصيل أموركم، وأعمالكم يجازيكم بها، وقيل: هو أعلم بأصحاب الصغائر، وأصحاب الكبائر، فيجازيهم بما يستحقونه (ذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الأَرْضِ) أي: خلق أباكم آدم من التراب (وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ) قيل: معناه: وإن كنتم أجنة في الأرحام، يعني مَنْ عَلِمَ تفاصيل أحوال الجنين، وكيفيته لا يخفى عليه شيء من أعمالكم، وقيل: إذا علم تفاصيل ما في الأرحام فيقدر على خلقه، فكذلك يقدر على إحياء الأموات وجمع أجزائها؛ لأنَّهُ عالم بتفاصيل ذلك (فَلاَ تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ)

قيل: لا تمدحوا، عن ابن عباس، وجماعة، وقيل: التزكية أن يعتقد أنه المحق، وغيره المبطل من غير علم بذلك حقيقة، وقيل: لا تزكوا أنفسكم بما ليس فيها، عن أبي علي، وهو أحسن ما قيل فيه، وقيل: هو تزكية النفس على جهة الاستطالة، فلا يجوز، فأما وصف النفس بما فيها على وجه التحدث بنعم الله، فيجوز عند أبي هاشم، (هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى) أي: هو أعلم بالحقائق، فالمتزكي من يزكيه هو، (مَنِ اتَّقَى) قيل: اتقى الشرك والكبائر، وقيل: عمل حسنته، وارعوى عن السيئة، عن علي - رضي الله عنه -، وقيل: أخلص العمل، عن الحسن.[404]

قال شيخنا قاضي القضاة: وقوله تعالى : (الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَواحِشَ إِلاَّ اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ واسِعُ الْمَغْفِرَةِ) فانه يدل على أن الإلمام بصغائر المعاصى يغفر باجتناب الكبائر ، ويجرى ذلك مجرى قوله تعالى : (إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبائِرَ ما تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئاتِكُمْ).[405]

قال شيخنا الزمخشري: (كَبائِرَ الْإِثْمِ) أى الكبائر من الإثم، لأن الإثم جنس يشتمل على كبائر وصغائر، والكبائر: الذنوب التي لا يسقط عقابها إلا بالتوبة. وقيل: التي يكبر عقابها بالإضافة إلى ثواب صاحبها (وَالْفَواحِشَ) ما فحش من الكبائر، كأنه قال: والفواحش منها خاصة: وقرئ: كبير الإثم، أى: النوع الكبير منه وقيل: هو الشرك بالله. واللمم: ما قل وصغر. ومنه: اللمم المس من الجنون، واللوثة منه.

وألم بالمكان إذا قل فيه لبثه. وألم بالطعام: قل منه أكله: ومنه: لقاء أخلّاء الصّفاء لمام والمراد الصغائر من الذنوب، ولا يخلو قوله تعالى (إِلَّا اللَّمَمَ) من أن يكون استثناء منقطعا أو صفة، كقوله تعالى (لَوْ كانَ فِيهِما آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ) كأنه قيل: كبائر الإثم غير اللمم، وآلهة غير الله: وعن أبى سعيد الخدري: اللمم هي النظرة، والغمزة، والقبلة: وعن السدّى: الخطرة من الذنب: وعن الكلبي: كل ذنب لم يذكر الله عليه حدّا ولا عذابا: وعن عطاء: عادة النفس الحين بعد الحين (إِنَّ رَبَّكَ واسِعُ الْمَغْفِرَةِ) حيث يكفر الصغائر باجتناب الكبائر، والكبائر بالتوبة (فَلا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ) فلا تنسبوها إلى زكاء العمل وزيادة الخير وعمل الطاعات: أو إلى الزكاء والطهارة من المعاصي، ولا تثنوا عليها واهضموها، فقد علم

[404] التهذيب يفي التفسير ج9 ص 6659/6658/6657
[405] متشابه القرآن ص 633

الله الزكي منكم والتقى أوّلا وآخرا قبل أن يخرجكم من صلب آدم، وقبل أن تخرجوا من بطون أمهاتكم. وقيل: كان ناس يعملون أعمالا حسنة ثم يقولون: صلاتنا وصيامنا وحجنا، فنزلت: وهذا إذا كان على سبيل الإعجاب أو الرياء: فأما من اعتقد أن ما عمله من العمل الصالح من الله وبتوفيقه وتأييده ولم يقصد به التمدح: لم يكن من المزكين أنفسهم، لأن المسرة بالطاعة طاعة، وذكرها شكر.[406]

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾﴾ النجم: ٤٣

قال شيخنا الحاكم الجشمي: (وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى) قيل: فعل سبب الضحك والبكاء، كما يقال: أضحكني فلان، وأبكاني فلان، عن عطاء، والأصم، وأبي علي، فأضحك بما أعطى من اللذات والمسرات، وأبكى بالمصائب والأحزان، وقيل: أضحك أهل الجنة في الجنة، وأبكى أهل النار في النار، عن مجاهد، وقيل: أضحك الأشجار بالأنوار، وأبكى السحاب بالأمطار، وقيل: أضحك المطيع بالرحمة، وأبكى العاصي بالسخطة، وقيل: أضحك المؤمن في الآخرة، وأبكاه في الدنيا، وقيل: هو هذا الضحك والبكاء، يعني أنه خلقهما، وهذا لا يصح؛ لأنه فعل العبد.[407]

قال قاضي القضاة: وأما تعلقهم فى المخلوق بقوله : (وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكى) فى أنه تعالى يخلق الضحك والبكاء ، وأن ذلك حكم سائر الأفعال ؛ فبعيد ، وذلك أن ظاهره إنما يقتضى أنه أضحك وأبكى ، ولم يذكر متى فعل ذلك وفيه ، وليس فيه الكلام ما يوجب ذلك العموم فيحمل عليه ، لأن هذا القول يصح إذا كان ما فعله من الضحك أقل ما يقع الاسم عليه ، فهو كقولنا : فلان ضرب ؛ فى أنه لا يقتضى العموم.

وبعد ، فلو ثبت أنه أضحك وأبكى ، لم يوجب ذلك فى أفعال العباد ما قالوه ، لأن البكاء الذى هو إرسال الدمعة ، من فعله تعالى ، والضحك الذى هو التفتح ، قد يجوز أن يكون من لعله ، ولا ينافى إضافة الأمرين إليه ، ما نقوله من أن العبد فاعل فى الحقيقة.

[406] الكشاف ج4 ص 426/425
[407] التهذيب في التفسير ج9 ص 6663/6662

وبعد ، فان ذلك يوجب أن يوصف تعالى من كل فعل فعله عندهم بمثل ذلك ، فيقال : إنه تعالى جهّل وفسّق وقتل ، إلى سائر الأسماء المشتقة ، ولا يرتكب القوم ذلك.

فالمراد بالآية : أنه تعالى فعل السبب الذى عنده وقع منهم ذلك ، وأراد بالضحك ما قالوه من السرور ، وبالبكاء خلافه.

وقد قيل : إن المراد بذلك العقاب والثواب.[408]



قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝١ ﴾ القمر: ١

قال شيخنا الحاكم الجشمي: (اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ) أي: قربت القيامة بخروج خاتم الأنبياء، وآخر الأمم، وهذا هو الأوجه، وعليه جماعة المفسرين. وقيل: اقتربت ساعتهم يوم بدر، فإنهم يهلكون بالسيف (وَانْشَقَّ الْقَمَرُ) قيل: انشق القمر بمكة فلقتين، فلقة فوق الجبل، والأخرى أسفل من الجبل، فقال - صلى الله عليه وسلم -: "اللَّهُمَّ فاشهد"، وقال أيضًا: "اشهدوا"، عن ابن مسعود، وروى انشقاق القمر ابن مسعود، وابن عمر، وأنس، وحذيفة، وابن عباس، وجبير بن مطعم، ومجاهد، وإبراهيم، وهو قول أبي علي وجماعة. وقيل: إنه ماض بمعنى المستقبل، أي: سينشق عند قرب الساعة، قالوا: ولو انشق لرآه كل أحد، ولاشتهر، عن الحسن، وعطاء، والأصم، وأبي القاسم، وهذا لا يصح؛ لأنه خلاف الظاهر، ولأنه اشتهرت الرواية فيه.

ومتى قيل: فهلا رآه أهل البلدان؟

قلنا: القمر قد ستره الغيم، وَرُئِي في موضع دون موضع، ولأنه كان بالليل وقت نوم وغفلة، فلم يشتهر، ولم يره كل أحد، ولأنه لم يلبث وقت الانشقاق؛ بل كانت ساعة؛ لذلك لم يشتهر، على أنه كان مشهورًا بينهم؛ لأنه - صلى الله عليه وسلم - كان يقرأ عليهم هذه السورة ولا ينكره منكر، ولا

---

[408] متشابه القرآن لقاضي القضاة ص 633

يكذبه أحد مع كثرة الأعداء وحرصهم على تكذيبه، وقيل: انشق القمر، أي اتضح الأمر، وهكذا عادة العرب، إذا وصفوا الأمر بالظهور، قالوا: هو كالشمس ولأنه قال: "وِإنْ يَرَوْا" ولم يقل: رأوا، عن أبي مسلم، وهذا لا يصح؛ لأن ما ذكره مجاز، فلا يعدل عن الحقيقة ولا مانع من حمله عليها.[409]

قال الزمخشري: انشقاق القمر من آيات رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعجزاته النيرة. عن أنس بن مالك رضى الله عنه أن الكفار سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم آية فانشق القمر مرتين.

وكذا عن ابن عباس وابن مسعود رضى الله عنهما، قال ابن عباس: انفلق فلقتين فلقة ذهبت وفلقة بقيت. وقال ابن مسعود: رأيت حراء بين فلقتى القمر . وعن بعض الناس: أن معناه ينشق يوم القيامة.[410]

قال ابراهيم النظّام: زعم ابن مسعود رضي الله عنه أنه رأى القمر انشق وهذا كذب ظاهر لأن الله تعالى ما شق القمر له وحده وإنما يشقه آية للعالمين فكيف لم يعرف ذلك غيره ولم يؤرخ الناس به ولم يذكره شاعر ولم يسلم عنده كافر ولم يحتج به مسلم على ملحد.[411] *

قال شيخنا قاضي القضاة: وهو ما كان بمكة من انشقاق القمر؛ فان رسول الله صلّى الله عليه وسلم مرّ بمكة في ليلة قمراء ومعه نفر من اصحابه، فاجتاز بنفر من المشركين، فقالوا له: يا محمد، إن كنت رسول الله كما تزعم فاسأل ربك ان يشقّ هذا القمر، فسأل الله ذلك فشقّه، فقال المشركون: ساحروا بصاحبكم من شئتم فقد سرى سحره من الارض الى السماء. فنزلت القصة في ذلك .

وهذا من الآيات العظام والبراهين الكرام على صدقه ونبوته صلّى الله عليه وسلم.

فإن قيل: ومن أين لكم ان القمر قد انشقّ له كما ادّعيتم؟ أتعلمون ذلك ضرورة ام بدلالة؟ أو ليس النظام قد شك في هذا وقال: لو كان قد انشقّ لعلم بذلك اهل الغرب والشرق لمشاهدتهم له؟ وهذا شيء سيكون عند قيام الساعة ومن أشراط/ القيامة، فبأي شيء تردّون قوله وتبيّنون غلطه إن كان

---

409 التهذيب في التفسير ج9 ص 6676/6675

410 الكشاف ج4 ص 431/430

411 المحصول للرازي ج4 ص 334

* والظاهر أنه نقل عن شيخنا النظّام بالمعنى وليس هذا كلامه حرفيا، فمن المستبعد أن يطعن في ابن مسعود رضي الله عنه ويتهمه بالكذب والله أعلم.

قد غلط؟ قيل له: ما نعلم ذلك ضرورة ولكن نعلمه بدلالة، فمن استدلّ عرف، ومن لم يستدلّ لم يعرف، ومن قصر عن الاستدلال والنظر غلط كما غلط ابراهيم النظّام.

فوجه الدلالة على ذلك ان رسول الله صلّى الله عليه وسلم قد احتج بذلك على المسلمين والمشركين وتلا هذا القول عليهم من سورة القمر: (اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ).

ولم يكن ليقدم ويحتج على العدو والوليّ بما لا حاجة فيه، ويشير الى أمر ظاهر يشار اليه ويشاهده الناس، فلو أراد ان يكذّب ويردّ قوله ما زاد على هذا؛ هذا لا يقع من عاقل ولا يختاره محصل كائنا من كان، فكيف يقع ممن يدّعي النبوة والصدق وهو أشد حرصا بالناس كلهم على تصديقه واتباعه؟ فلو أراد ان يكذبوه ويردوا قوله ما زاد على هذا، وهذا لا يذهب على متأمل.

فإن قيل: فما تنكرون على من قال انه صلى الله عليه وسلم، ما احتج بهذا على نبوته؟ قيل له: لا فرق بين من ادّعى ذلك او ادّعى في جميع ما أتى به من القرآن وغيره انه ما احتج بشيء من ذلك على صدقه ونبوته.

ومما يزيدك علما بذلك ويبين لك غلط النظّام وجهل كل من ذبّ عن ذلك قوله تبارك وتعالى: (اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ (1) وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ) فانظر كيف قال: اقتربت الساعة، وأخبر عن امر قد كان ومضى، ثم قال على نسق الكلام: (وَانْشَقَّ الْقَمَرُ)، فجاء بأمر قد كان وانقضى ومضى فنسق على الماضي بالماضي، ولو كان على ما ظنّ النظّام لقال: اقتربت الساعة وانشقاق القمر، او كان/ يقول وسينشق القمر، فلما لم يقل ذلك وقال: وَانْشَقَّ الْقَمَرُ ، علمت انه اخبر عن شيئين واقعين قد وقعا وكانا وحصلا.

ثم قال على نسق الكلام: (وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ)فأخبر انها آية مرئية وحجة ثابتة. ثم قال على نسق الكلام: (وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ (4) حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ (5)) ، وهذا لا يقال فيما لم يقع ولم يكن. فتأمل هذا التقريع والتعنيف لتعلم انه امر قد كان، ولا يسوغ ان يقال في امر لم يكن، ولم يقع هذا القول.

وأيضا فإن ما يقع في القيامة وعند قيام الساعة لا يكون حجة على المكلفين، ولا يعنّفون في ترك النظر والتأمل له، فإن التكليف حينئذ زائل مرتفع.

فأما قول النظّام: فلم لا يشاهد هذه الآية كل الناس، فليس هذا بلازم، لأن الناس لم يكونوا من هذا على ميعاد وإنما هو شيء حدث ليلا وما كان عندهم خبر بأنه سيحدث وسيكون في وقت كذا فينظرونه، واذا كان كذلك فقد بطل ما ظنه. يزيدك بيانا ان القمر قد ينكسف كله فلا يرى ذلك من الناس إلا الواحد بعد الواحد والنفر اليسير لنومهم» ، فكيف بانشقاق القمر الذي انشق ثم التأم من ساعته بعد ان رآه اولئك القوم الذين طلبوه..[412]

قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ۝٤٩﴾ القمر: ٤٩

قال شيخنا الحاكم الجشمي: (إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ) يعني كل شيء خلقناه على قدر معلوم، فخلق اللسان على مقدار يصلح للكلام، واليد على مقدار تصلح للبطش، والرجل للمشي، والعين للبصر، والأذن للسماع، والمعدة للطعام، ولو زاد أو نقص لما تم الغرض، فكذلك كل شيء قدره كما ينبغي له في معنى قول الحسن، وقيل: إنا خلقنا العقاب لأهل النار على مقدار الاستحقاق على ما تقتضيه الحكمة، لا يزيد ولا ينقص على المستحق، وكذلك كل شيء خلقه على مقدار ما يعرف من الصلاح فيه لم يخلق عبثًا ولا جزافًا، عن أبي علي، وقيل: هو كقوله: (قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا) أي: أجلاً لا يتقدم ولا يتأخر، عن الربيع، وقيل: جعلنا لكل شيء شكلاً يوافقه ويصلح له كالمرأة للرجل، والأتان للحمار، وثياب الرجال للرجال، وثياب النساء للنساء، عن ابن عباس، وقيل: خلق النار بمقدار الاستحقاق.

ومتى قيل: هلا حملتم ذلك على أفعال العباد، وأنه خلق فيهم الخير والشر والإيمان والكفر؟

قلنا: ليس في الظاهر ما يوجب حمل الآية عليه، ولأنه ثبت أن أفعالهم ليست بخلق الله تعالى، لأن فيه الكفر والظلم، وقتل الأنبياء، ولأنه تمدح بالآية، وليس في خلق الكفر والمعاصي تمدح، ولأنه تعالى احتج بالآية عليهم، ولو كان كما قالوا لكانت الآية حجة لهم عليه، ولأنه ذمهم ووبخهم، ولو كان خلقًا فيهم لما صح ذلك، ولأنه أمرهم بخلاف ذلك، وكيف يأمرهم بخلاف ما يخلق، ولأن في

[412] تثبيت دلائل النبوة ج1 ص 57/56/55

الآية: (وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ) وفيها: (وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌ) وعيدًا لهم، وفيها ذكر المتقين والوعد لهم، وكل ذلك يبطل قول الْمُجْبِرَةِ.[413]

قال شيخنا قاضي القضاة: فأما قوله تعالى : (إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ) فلا يدل على ما نقوله المجبرة ، من أنه تعالى يخلق أفعال العباد ، وذلك أن الآية واردة فى النار وعذابها ، فقال تعالى : (يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ) فبين ذلك أنه لا يعذب أحدا إلا بقدر استحقاقه.

ولو حمل على العموم ، لصلح أن يقال : إن كل شيء خلقه بقدر ؛ لأنه ممن لا يجوز عليه السهو والغفلة فى أفعاله تعالى ، كالواحد منا ، فلا يقع الشيء إلا مقدرا.[414]



قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ ۝٤﴾ الرحمن: ١ – ٤

قال شيخنا الحاكم الجشمي: [اللغة]

الرحمن: معدول عن الرحمة للمبالغة.

والبيان: إظهار المعنى بما يبين، وأصله من البين، وهو الدلالة عند شيخينا أبي علي وأبي هاشم، وعند شيخنا أبي عبد الله هو العِلْم الحادث.

(الرَّحْمَنُ) من أسماء الله تعالى، لا يسمى به غيره؛ لأن معناه: الذي وسعت رحمته كل شيء، فأما راحم ورحيم فيجوز في صفات العباد (عَلَّمَ الْقُرْآنَ) أي: من رحمته أن علمكم للقرآن، بأن أنزله على رسوله، فتأخذونه منه وتفهمونه (خَلَقَ الْإِنْسَانَ") قيل: الإنس كلهم، عن أبي علي، وقيل: الإنسان آدم، عن ابن عباس، وقتادة. (عَلَّمَهُ الْبَيَانَ) قيل: أراد اللغات، أي: علم اللغات، فكان يتكلم بسبعمائة ألف

---

[413] التهذيب في التفسير ج9 ص 6704/6703

[414] متشابه القرآن ص 635

لغة، أفضلها العربية، وقيل: (عَلَّمَهُ الْبَيَانَ) أي: بين له الحلال والحرام، والخير والشر؛ ليحتج به على عباده، عن قتادة، وقيل: علمه الكلام الذي بين به عما يريد، عن أبي العالية، وابن زيد، وأبي علي، وقيل: النطق والتمييز، عن الحسن، أي: جعله مميزًا مبينًا، كقوله: (فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مبِينٌ)، وقيل: ما يقول وما يقال له، عن محمد بن كعب، وقيل: علم كل قوم بلسانهم التي يتكلمون بها، عن السدي، وقيل: الكتابة والحفظ، عن ابن كيسان (خَلَقَ الإِنْسَانَ) يعني محمدًا (عَلَّمَهُ الْبَيَانَ) يعني ما كان وما يكون..[415]

قال قاضي القضاة: أما قوله تعالى : (الرَّحْمنُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ خَلَقَ الْإِنْسانَ عَلَّمَهُ الْبَيانَ) فإنه لا يدل على قولهم فى المخلوق ـ لأن الله أضاف إلى نفسه تعليم البيان والقرآن ـ لأن العلم بهذين ضرورى ، ولا يمكن إلا من قبله تعالى ، فأما العلم بالقرآن ، فهو الحفظ له على الوجه الذى يمكنه أن يؤديه ويتلوه. وأما العلم بالبيان ، فهو العلم بكلام العرب ، ومواضعتها ، ومواقع فائدته ، وذلك كله ضرورى يحصل بالعادة ، فلا يمتنع من إضافتها جميعا إلى الله تعالى على الحقيقة ، وذلك يدل على حدث القرآن ؛ لأن تعلمه إنما هو طريقة الحفظ لترتيبه ، وذلك يقتضى حدثه. ولا يجب من حيث فصل بين القرآن وبين الإنسان ، فوصفه بأنه علمه ، والإنسان بأنه خلقه ، أن يدل فى ذلك على أن القرآن ليس بمخلوق ، على ما زعمه بعض الجهال ، وذلك لأن كون الشيء موصوفا لا يمتنع من أن يختص بصفة أخرى. فما الذى يمنع من أن يكون تعالى خلق الأمرين ، وإن كان فى هذه الآية لم يذكر إلا خلق الإنسان؟!

وكان يجب على هذه الطريقة أن يكون البيان غير مخلوق أيضا ، لأنه تعالى فرق بينه وبين الإنسان. وكان يجب مثل ذلك فى سائر الأجسام ؛ من حيث خص تعالى الإنسان بالذكر. وهذا فى نهاية البعد.[416]

قَالَ تَعَـالَىٰ: ﴿وَيَبۡقَىٰ وَجۡهُ رَبِّكَ ذُو ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ ﴿٢٧﴾﴾ الرحمن: ٢٧

415 التهذيب في التفسير ج9 ص 6711/6710
416 متشابه القرآن ص 637

قال شيخنا الحاكم الجشمي: (وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ) قيل: يبقى ربك، فذكر الوجه تأكيدًا، كما يقال: وجه الرأي، وليس ثَمَّ جارحة، والمراد حقيقته وصوابه، وقيل: يبقى ما فعل لوجه الله، أي: لرضاه (ذُو الْجَلاَلِ وَالْإِكْرَامِ) قيل: ذي العظمة والإعظام، يعني أهل بأن يعظم ويبجل، وذلك بأن يوصف بما يليق به، ولعبد حق عبادته.[417]

قال شيخنا الزمخشري: (عَلَيْها على الأرض وَجْهُ رَبِّكَ) ذاته، والوجه يعبر به عن الجملة والذات، ومساكين مكة يقولون: أين وجه عربي كريم ينقذني من الهوان. و(ذُو الْجَلالِ وَالْإِكْرامِ) صفة الوجه. وقرأ عبد الله: ذى، على: صفة ربك. ومعناه: الذي يجله الموحدون عن التشبيه بخلقه وعن أفعالهم. أو الذي يقال له: ما أجلك وأكرمك. أو من عنده الجلال والإكرام للمخلصين من عباده، وهذه الصفة من عظيم صفات الله، ولقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ألظوا بياذا الجلال والإكرام» وعنه عليه الصلاة والسلام: أنه مر برجل وهو يصلي ويقول: يا ذا الجلال والإكرام، فقال: «قد استجيب لك». فإن قلت: ما النعمة في ذلك؟ قلت: أعظم النعمة وهو مجيء وقت الجزاء عقيب ذلك.[418]

قال قاضي القضاة: وأما قوله تعالى : (كُلُّ مَنْ عَلَيْها فانٍ وَيَبْقى وَجْهُ رَبِّكَ) فلا يدل على إثبات وجه له ، تعالى عن قولهم ، وذلك لأن الوجه قد يراد به ذات الشيء. وعلى هذا تقول العرب : هذا وجه الرأى ، ووجه الأمر ، ووجه الطريق. ومتى كان الكلام فيما لا بعض له ، فلا شك أن المراد به ذاته ، فيختلف موقع هذه اللفظة بحسب حال ما يستعمل فيه ، فإذا صح ذلك وجب أن يكون المراد بذلك : ويبقى ربك.[419]

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ كُلَّ يَوۡمٍ هُوَ فِي شَأۡنٖ ٢٩ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ٣٠ سَنَفۡرُغُ لَكُمۡ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ ٣١ ﴾ الرحمن: ٢٩ – ٣١

قال شيخنا الحاكم الجشمي: (يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) يعني تسأله الملائكة والجن والإنس وغيرهم حوائجهم منه لا غيره يأخذون منه (كُلَّ يَوْمٍ) كل وقت (هُوَ فِي شَأْنٍ) قيل: اليوم يومان،

---

417 التهذيب في التفسير ج9 ص 6718

418 الكشاف ج4 ص 447/446

419 متشابه القرآن ص 638/637

يوم هو الدنيا، ويوم هو الآخرة، وفي الدنيا يخلق وينشر، ويميت ويحيي، ويرزق الأحياء، ويأمر وينهى، ويغني ويفقر إلى غير ذلك من تدبير الله تعالى في خلقه، وفي الآخرة الثواب والأعواض، والتفضيل والعقاب، عن سفيان بن عيينة، وقيل: الشأن ما يفعله كل ساعة من موت وحياة، وصحة وسقم، وشباب وشيب، ونجاة وهلاك، وغنى وفقر، وعز وذل، وخصب وجدب، وسعة وقحط، وصيف وشتاء، وتغير أحوال في الدنيا، وعن النبي – صلى الله عليه وسلم – وقد سئل عن هذه الآية وما ذاك الشأن؟ فقال: "يغفر ذنبًا، ويفرج كربًا، ويرفع قومًا، ويضع آخرين"، وقيل: شأنه أن يجيب داعيًا، ويعطي سائلاً، ويفك عانيًا، ويشفي سقيمًا، ويغفر ذنبًا، ويفوت علي قوم، عن مجاهد، وعبيد بن عمير، وقيل: يخلق خلقًا، ويميت خلقًا، ويرزق خلقًا، عن الربيع بن أنس، وقيل: شأنه إيصال المنافع إليك، ودفع المضار عنك، عن أبي سليمان الداراني، فلا تغفل عن طاعته، ولا تغفل عن ترك معصيته (فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ). ثم ذكر الوعيد وأحوال القيامة بعد ذكر الفناء والإعادة، فقال سبحانه: (سَنَفْرُغُ لَكُمْ) قيل: هو تهديد كقول القائل: لأتفرغن لكم وما به شُغْلٌ، عن ابن عباس، والضحاك، وأبي علي، وقيل: سنقصدكم بعد الترك والإمهال، ونأخذ في أمركم، عن القتبي، والكسائي، وقيل: لما قال: (كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ) وانقضت شؤون الدنيا، بقيت شؤون الآخرة، فقال: (سَنَفْرُغُ لَكُمْ) أي: سنجزيكم ما وعدناكم، نوصل كُلًّا إلى ما وعدناه، فنتم ذلك، ويقع الفراغ، عن الحسن، ومقاتل، وابن زيد، وقيل: نتوفر على شأنكم حتى يتم كما نريد، عن ابن كيسان.[420]

قال شيخنا قاضي القضاة: وأما تعلق المشبهة بقوله تعالى : (كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ) وبقوله : (سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلانِ) فى أن الفراغ والشغل لا يجوز ان إلا على الأجسام ، وهى التى يجوز عليها الشأن ، إذا هى اشتغلت بالفعل ، فلو لا أنه تعالى جسم ، لما صح ذلك عليه ؛ فبعيد ، وذلك أن ظاهر الشأن لا يقتضى ما قالوه ، لأنه الأمر الذى يفعله القادر ويؤثره على غيره ، فلا يمتنع أن يوصف تعالى بذلك ، وإن كان ممن لا يشتغل بفعل عن فعل ـ فلذلك ذكر تعالى أنه لا يشغله شأن عن شأن ـ فيراد به هذا المعنى.

[420] التهذيب في التفسير ج9 ص 6719 و 6723

فأما الفراغ ، فإنه لا يجوز إلا على من يجوز عليه الشغل ، ومتى حمل الكلام على حقيقته ، لزمهم القول: بأنه تعالى يفعل الأفعال فى نفسه ، فيشتغل بها ، ويمنعه ذلك من غيره من الأفعال ، وذلك مما لا يرتكبه مسلم ؛ لأنهم يقولون بأنه يفعل فى غيره ، وأنه لا يشتغل بفعل عن فعل. فالمراد بالآية التهديد دون وصف نفسه بالفراغ ؛ لأن هذه اللفظة قد جرت العادة فيها بمثله ، لأن القائل منا قد يقول لغيره : سأفرغ لك ؛ إذا أراد أن يهدده ويبكته فى أمر يفعله. ولو لا أن المراد بذلك ، لوجب أن يكون تعالى فى حال هذا الخطاب كان مشغولا عن هذا الأمر ، الذى ذكر أنه يفرغ له ، وكان لا يمكنه أن يفعله فى الحال. وذلك مما لا يرتكبه أحد!![421]

فصل في تكراره (فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)

قال الشريف المرتضى: إن سأل سائل فقال: ما وجه التكرار أيضا فى سورة الرحمن لقوله تعالى: (فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ)* الجواب، يقال له: التكرار فى سورة الرحمن فإنما حسن للتقرير بالنّعم المختلفة المعدّدة، فكلما ذكر نعمة أنعم بها قرّر عليها (2)، ووبّخ على التكذيب بها؛ كما يقول الرجل لغيره: ألم أحسن إليك بأن خولتك الأموال! ألم أحسن إليك بأن خلّصتك من المكاره! ألم أحسن إليك بأن فعلت بك كذا وكذا! فيحسن منه التكرير (3) لاختلاف ما يقرره به، وهذا كثير فى كلام العرب وأشعارهم.[422]



قَالَ تَعَالَى: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ۝٥٨ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ۝٥٩﴾ الواقعة: ٥٨ – ٥٩

---

421 متشابه القرآن 638

* ذكر الشريف المرتضى وجه التكرار في سورة الكافرون والرحمن، تركت كلامه حول الكافرون اختصارا والمطلوب في هذا المقام هو ما نقلته.

422 أمالي المرتضى ج1 ص 121و123

قال شيخنا الحاكم الجشمي: (أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ) أي: تصبُّون في الأرحام من النطف، فيصير ولدًا (أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ) ولدًا (أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ) لذلك، فإذا لم تقدروا أنتم وأمثالكم على ذلك، فاعلموا أن لذلك خالقًا مخالفًا لكم وهو الله تعالى.[423]

قال الزمخشري: (ما تُمْنُونَ) ما تمنونه، أى: تقذفونه في الأرحام من النطف. وقرأ أبو السمال بفتح التاء، يقال: أمنى النطفة ومناها. قال الله تعالى (مِنْ نُطْفَةٍ إِذا تُمْنى). (تَخْلُقُونَهُ) تقدرونه وتصوّرونه..[424]

قال قاضي القضاة: أما قوله تعالى : (أَفَرَأَيْتُمْ ما تُمْنُونَ أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخالِقُونَ) فإنه لا يدل على أن فعل العبد الله خلقه ، وذلك أنه وصف العبد بأنه يمنى من حيث يحصل الإنزال ، واستقرار الماء فى الرحم عنه. ثم ذكر أنه تعالى يخلق ذلك ولدا مصوّرا. وهذا هو الذى يقتضيه ظاهره وبه نقول. وقد بينا من قبل ، أن إنزال الماء لا يمكن أن يقال : إنه من فعل العبد أيضا وإن كان قد يحصل له فيه فعل ، وشرحنا القول فيه، فتعلقهم بذلك لا يصح على وجه.[425]

قَالَ تَعَالَى: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾﴾ الواقعة: ٦٣ – ٦٤

قال شيخنا الحاكم الجشمي: (أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ) أي: تثيرون الأرض، وتلقون البذر (أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ) تنبتونه (أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ) المنبتون، فإذا عجزتم عن ذلك فاعلموا أنه تعالى ينبته، وأطلق اسم الزرع على الإنبات توسعًا، وقيل: تزرعونه تجعلونه زرعًا..[426]

قال شيخنا الزمخشري: (أَفَرَأَيْتُمْ ما تَحْرُثُونَ) من الطعام، أى: تبذرون حبه وتعملون في أرضه (أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ) تنبتونه وتردونه نباتا، يرف وينمى إلى أن يبلغ الغاية. وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا يقولن أحدكم: زرعت، وليقل: حرثت» قال أبو هريرة: أرأيتم إلى قوله: (أَفَرَأَيْتُمْ ...)الآية.[427]

---
[423] التهذيب يفي التفسير ج9 ص 6760
[424] الكشاف ج4 ص 465
[425] متشابه القرآن ص 640
[426] التهايب يفي التفسير ج9 ص 6761
[427] الكشاف ج4 ص 466/465

قال قاضي القضاة: وأما تعلقهم بقوله تعالى : (أَفَرَأَيْتُمْ ما تَحْرُثُونَ أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ) في أن طرح البذر والحرث ، كان يكون من خلقه تعالى وأن العبد ما فعله ، فبعيد ، وذلك لأن الزرع قد اختلف فيه ، فمنهم من قال : إنه اسم للنبات الظاهر ، وهذا هو من خلقه تعالى ، لأنه الذى ينبت الزروع وينميها ، ويجعلها بالصفة التى تحصل عليها. ومنهم من قال : إنه طرح البذر ، ولذلك يقول القائل : قد زرعنا الحنطة والشعير ، إذا بذره. وعلى هذا القول ؛ فى الكلام ما يدل على أن المراد به ما قلناه أولا ، لأنه قال : (أَفَرَأَيْتُمْ ما تَحْرُثُونَ) فأضاف الحرث إليهم ، ثم قال : (أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ) يعنى ما تقدم ذكره ، فيجب أن يكون المراد به : النبت والظهور ، على الوجه الذى قلناه.
ومن وجه آخر ، وهو أنه تعالى عدّد فى ذلك عظيم نعمه ، ولا يليق به طرح البذر ، فيجب أن يكون محمولا على ما ذكرناه ، مما يؤدى إلى منافع الخلق وقيام أبدانهم به.[428]

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ ٧٧ فِي كِتَٰبٖ مَّكۡنُونٖ ٧٨ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ ٧٩ تَنزِيلٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٨٠ ﴾ الواقعة: ٧٧ – ٨٠

قال شيخنا الحاكم الجشمي: (إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ) هذا جواب القسم، ومعناه: هذا الكتاب قرآن كريم، وقيل: بل هو بدل من قوله: (وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ) والقسم وقع به، والكريم في صفة القرآن معناه: عزيز من حقه أن يعظم، لعظم محله من الدين؛ لأنه كلام رب العزة، ولأنه محفوظ من التغيير والتبديل، ولأنه معجز، ولأنه يشتمل على الأحكام والمواعظ، وقيل: كريم على الملائكة والنبيين، وكل جليل خطير عزيز فهو كريم، وقيل: لأنه أكرم من كل كتاب (فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ) أي: محفوظ مصون، قيل: هو اللوح المحفوظ (لاَ يَمَسُّهُ) الهاء في (يمسه)فيها قولان:

أولهما: ترجع إلى الكتاب الذي في السماء، وهو اللوح المحفوظ، عن ابن عباس، والحسن، والأصم، وأبي علي.

وثانيهما: أنه كناية عن القرآن، عن عمر، وسعد، وسلمان، وقتادة.

---

428 متشابه القرآن ص 640

(إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ) قيل: لا يمسه إلا الملائكة المطهرون من الذنب، عن ابن عباس، والحسن، وسعيد بن جبير، وأنس، وجابر بن زيد، ومجاهد، وقيل: لا يمسه إلا الملائكة والأنبياء، عن أبي العالية، وهذا على أنه كتاب في السماء، فأما من قال: إنه القرآن قيل: لا يمسه ولا يقرؤه (إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ)، يعني من الجنابة، وقيل: لا يمسه عند الله (إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ)، فأما في الدنيا فيمسه المشرك، وقيل: (الْمُطَهَّرُونَ) من الشرك، عن ابن عباس، وقيل: الموحدون، فلا يُمَكَّنُ اليهود والنصارى منه، عن عكرمة، وقيل: لا يمسه بالعمل (إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ)، وهم المؤمنون، قيل: لا يعرف تفسيره ومعانيه إلا المؤمنون والراسخون في العلم، وقيل: سمي المصحف قرآنًا؛ لأن فيه القرآن، عن أبي علي، وقيل: لأن فيه أمارات حروفه، عن أبي هاشم. (تَنزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ) أي: منزل من جهته، فسمي المنزل تنزيلاً، كما يقال: هذا ضَرْبُ الأمير، أي: مضروبه.[429]

قال الزمخشري: (إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ) واعترض ب (لَوْ تَعْلَمُونَ) بين الموصوف وصفته.

وقيل: مواقع النجوم: أوقات وقوع نجوم القرآن، أى: أوقات نزولها كريم حسن مرضى في جنسه من الكتب. أو نفاع جم المنافع. أو كريم على الله (فِي كِتابٍ مَكْنُونٍ) مصون من غير المقربين من الملائكة، لا يطلع عليه من سواهم، وهم المطهرون من جميع الأدناس أدناس الذنوب وما سواها: إن جعلت الجملة صفه لكتاب مكنون وهو اللوح. وإن جعلتها صفة للقرآن، فالمعنى لا ينبغي أن يمسه إلا من هو على الطهارة من الناس، يعنى مس المكتوب منه. ومن الناس من حمله على القراءة أيضا، وعن ابن عمر أحب إلىّ أن لا يقرأ إلا وهو طاهر، وعن ابن عباس في رواية أنه كان يبيح القراءة للجنب، ونحوه قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه» أي لا ينبغي له أن يظلمه أو يسلمه.

وقرئ: المتطهرون، والمطهرون بالإدغام. والمطهرون، من اطهره بمعنى طهره. والمطهرون بمعنى: يطهرون أنفسهم أو غيرهم بالاستغفار لهم والوحى الذي ينزلونه (تَنْزِيلٌ) صفة رابعة للقرآن، اى: منزل من رب العالمين. أو وصف بالمصدر، لأنه نزل نجوما من بين سائر كتب الله تعالى، فكأنه في نفسه تنزيل،

---

[429] التهذيب يفي التفسير ج9 ص 6766/6765

ولذلك جرى مجرى بعض أسمائه، فقيل: جاء في التنزيل كذا، ونطق به التنزيل. أو هو تنزيل على حذف المبتدإ. وقرئ: تنزيلا، على: نزل تنزيلا..[430]

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾ الواقعة: ٨٥

قال شيخنا الحاكم الجشمي: (وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيهِ مِنْكُمْ) قيل: بالقدرة بالدفع عنه، وقيل: بالقدرة عن قبض روحه وإماتته، وقيل: أراد رسلنا أقرب إليه منكم (وَلَكِنْ لاَ تُبْصِرُونَ) ما به، أي: لا تعلمون.[431]

قال شيخنا الزمخشري: (وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيهِ مِنْكُمْ) يا أهل الميت بقدرتنا وعلمنا، أو بملائكة الموت. والمعنى: إنكم في جحودكم أفعال الله تعالى وآياته في كل شيء إن أنزل عليكم كتابا معجزا قلتم: سحر وافتراء. وإن أرسل إليكم رسولا قلم: ساحر كذاب، وإن رزقكم مطرا يحييكم به قلتم: صدق نوء كذا، على مذهب يؤدى إلى الإهمال والتعطيل فما لكم لا ترجعون الروح إلى البدن بعد بلوغه الحلقوم إن لم يكن ثم قابض وكنتم صادقين في تعطيلكم وكفركم بالمحي المميت المبدئ...[432]

قال شيخنا قاضي القضاة: وأما قوله تعالى : (وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ) فلا يدل على جواز القرب على الله ـ تعالى ـ لأن الكلام فيمن حضره الموت وعاينه ، وهو الذى أراده بقوله : (فَلَوْ لا إِذا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ وَأَنْتُمْ حِينَئِذٍ تَنْظُرُونَ) ثم قال : (وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلكِنْ لا تُبْصِرُونَ) وأراد بذلك حضور الملائكة على وجه يراهم المحتضر ، ولا يراهم القوم ، ولو كان القرب فى الحقيقة قد صح فيه ، لوجب كونه فى ذلك المكان ، ولا يمتنع أن يكون فى غيره من الأماكن كسائر الأجسام!
ومتى قالوا : إنه يقرب ولا يجب ذلك فيه ، فقد نفوا حقيقة القرب وزالوا عن الظاهر.[433]

---

430 الكشاف ج4 ص 469/468
431 التهذيب يفي التفسير ج9 ص 6767
432 الكشاف ج4 ص 470
433 متشابه القرآن ص 641

سُورَةُ الْحَدِيدِ

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّاهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۝٣﴾ الحديد: ٣

قال شيخنا الحاكم الجشمي: (هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ) قيل: الموجود أولاً قبل كل موجود، والآخر بعد فناء كل شيء، يعني أنه قديم باقٍ، وقيل: أراد أن الأشياء كلها به ومنه، وهو الخالق لجميعها، كما يقال: فلان أول هذا الأمر وآخره، (وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ) قيل: الظاهر بأدلته، الباطن عن إحساس خلقه، وقيل: الظاهر على كل شيء بالقدرة، كقوله: (فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ)، والباطن: العالم بكل شيء، عن ابن عباس، يقال: فلان من بطانته إذا كان من خواصه، يعلم باطن أموره، وقيل: العالم بما ظهر وبطن، وقيل: الأول بلا ابتداء والآخر بلا انتهاء، والظاهر والباطن بلا احتجاب، وقيل: الأول ببره إذ هداك، والآخر بجوده إذ قَبِلَ التوبة، والظاهر بإحسانه وتوفيقه، والباطن بستره: إذا عصيته، عن السدي، وقيل: الأول بالخلق، والآخر بالرزق، والظاهر بالإحياء، والباطن بالإماتة، عن ابن عمر، وسأل عمر كعبًا عن هذه الآية فقال: علمه بالأول كعلمه بالآخر، وعلمه بالظاهر كعلمه بالباطن، (وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) موجودًا كان أو معدومًا..[434]

قال شيخنا الزمخشري: (هُوَ الْأَوَّلُ) هو القديم الذي كان قبل كل شيء (وَالْآخِرُ) الذي يبقى بعد هلاك كل شيء (وَالظَّاهِرُ) بالأدلة الدالة عليه (وَالْبَاطِنُ) لكونه غير مدرك بالحواس. فإن قلت: فما معنى الواو؟ قلت الواو الأولى معناها الدلالة على أنه الجامع بين الصفتين الأولية والآخرية، والثالثة على أنه الجامع بين الظهور والخفاء. وأما الوسطى، فعلى أنه الجامع بين مجموع الصفتين الأوليين ومجموع الصفتين الأخريين، فهو المستمر الوجود في جميع الأوقات الماضية والآتية، وهو في جميعها ظاهر وباطن: جامع للظهور بالأدلة والخفاء، فلا يدرك بالحواس. وفي هذا حجة على من جوّز إدراكه

434 التهذيب في التفسير ج9 ص 6775

في الآخرة بالحاسة. وقيل: الظاهر العالي على كل شيء الغالب له، من ظهر عليه إذا علاه وغلبه. والباطن الذي بطن كل شيء، أى علم باطنه، وليس بذاك مع العدول عن الظاهر المفهوم.[435]

قال قاضي القضاة: وأما قوله تعالى : (هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ) فإنه من أقوى ما يدل على إبطال قول من يثبت لله تعالى علما وقدرة وسمعا وبصرا وصفات فى الأوّل ، لأنها لو كانت فى الأول ـ على ما يقولون ـ لم يكن هو الأول من حيث وجد معه غيره!

فإن قال : هذه الصفات ليست غيرا له ، وهى داخلة فى الاسم الذى يذكرونه ، فيصح من هذا الوجه أن يكون هو الأول ، فهذا باطل ، لأنا قد بينا فى غير موضع أن إطلاق لفظة الإله لا يدخل تحته إلا ذاته تعالى ، دون ما يدعونه من الصفات. وبينا أن الصفات يجب أن تكون غيرا له ، لأنها مخالفة له ، ويجوز عليها ما لا يجوز عليه ، ومميزة ببعض الأذكار منه تعالى إذا ذكرناه بأسمائه ، وذلك يحقق ما ذكرناه من الدلالة.

وقوله تعالى : (وَالْآخِرُ) يدل على أن سائر الموجودات فى بعض الأحوال تفنى ويبقى وحده موجودا ، على ما نقوله من أنه تعالى يفنى العالم.

وأما تعلق المشبهة بقوله : (وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ) فى أنه جسم ، وأنه يجوز عليه الاحتجاب والظهور فباطل، وذلك أنه لو كان بهذه الصفة لم يجب أن يوصف فى حالة واحدة بأنه ظاهر وباطن ، بل كان يجب أن تختلف أحواله فى ذلك ، فكان يجب أن يكون فى مكان مخصوص ، وأن يكون له حد محدود ، يصح أن يبطن ويظهر ، وكان يجب أن يكون هذا وصفه أبدا ، على ما ذكره ، وذلك يوجب إثبات الأجسام لم تزل.

فالمراد بذلك : أنه القاهر المستعلى ؛ لأن من هذا حاله يقال إنه ظاهر ، وإنه ظهر على الشيء. كما يقال : ظهر القوم على العدو ، وهم ظاهرون عليه. والمراد بوصفه بأنه باطن : أنه عالم بالسرائر ، وعلى هذا يقال: إن فلانا استبطن فلانا ، إذا خصه بأحواله.[436]

[435] الكشاف ج4 ص 472

[436] متشابه القرآن ص 643/642

سُورَةُ المُجَادَلَةِ

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ ۝١﴾ المجادلة: ١

قال شيخنا الحاكم الجشمي: (قَدْ) تأكيد للكلام (سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا) مجادلتها إياه: مراجعتها في أمر زوجها، عن أبي العالية. (وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ) أي: تظهر شكواها، وتبين حالها متضرعة إليه (وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا) أي: مراجعة كلامكما في أمرها (إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ) أي: يسمع المسموعات ويرى المرئيات، والسميع: من هو على حالة يسمع المسموعات إذا وجدت، والبصير: من هو على حالة يرى المرئي إذا وجد، ولهذا يقال: إنه سميع بصير لم يزل، وليس هذا حالة زائدة على كونه حيّا لاآفة به، فأما السامع والمبصر فحالتان متجددتان عند إدراك المدرك.[437]

قال شيخنا الزمخشري: (قَدْ سَمِعَ اللَّهُ) قالت عائشة رضى الله عنها: الحمد لله الذي وسع سمعه الأصوات: لقد كلمت المجادلة رسول الله صلى الله عليه وسلم في جانب البيت وأنا عنده لا أسمع، وقد سمع لها. وعن عمر أنه كان إذا دخلت عليه أكرمها وقال: قد سمع الله لها. وقرئ: تحاورك، أي: تراجعك الكلام. وتحاولك، أى: تسائلك، وهي خولة بنت ثعلبة امرأة أوس بن الصامت أخى عبادة: رآها وهي تصلى وكانت حسنة الجسم، فلما سلمت راودها فأبت، فغضب وكان به خفة ولمم، فظاهر منها، فأتت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت: إن أوسا تزوجني وأنا شابة مرغوب فىّ، فلما خلا سنى ونثرت بطني- أى: كثر ولدى- جعلني عليه كأمّه. وروى أنها قالت له: إنّ لي صبية صغارا، إن ضممتهم إليه ضاعوا، وإن ضممتهم إلىّ جاعوا. فقال: ما عندي في أمرك شيء. وروى أنه قال لها: حرمت عليه، فقالت: يا رسول الله، ما ذكر طلاقا وإنما هو أبو ولدى وأحب الناس إلىّ، فقال: حرمت عليه، فقالت: أشكو إلى الله فاقتي ووجدي، كلما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: حرمت عليه،

[437] التهذيب يفي التفسير ج9 ص 6811

هتفت وشكت إلى الله، فنزلت فِي زَوْجِها في شأنه ومعناه إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ يصح أن يسمع كل مسموع ويبصر كل مبصر. فإن قلت: ما معنى قَدْ في قوله قَدْ سَمِعَ؟ قلت: معناه التوقع، لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم والمجادلة كانا يتوقعان أن يسمع الله مجادلتها وشكواها وينزل في ذلك ما يفرّج عنها.[438]



قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ ١٠﴾ الحشر: ١٠

قال شيخنا الحاكم الجشمي: (وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ) قيل: من أسلم في أيام الرسول، وقيل: هم التابعون بإحسان إلى يوم القيامة، عن الحسن. وعليه تأوله عُمر لما وضع الخراج على السواد ولم يقسمها، وقال: إذا قسمت بينكم فماذا يكون لمن بعدكم؟ ثم وصفهم، فقال - سبحانه -: (يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا) قيل: غشًا للبعض، وقيل: خيانة، سألوا الله أن يزيل ذلك بلطفه، وقيل: بل هو استعاذة من الشيطان؛ لكي لا يوسوس، فيضعف قلوبهم على السلف، كما فعل بالخوارج والروافض، (رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ).[439]

قال شيخنا الزمخشري: (وَالَّذِينَ جاؤُ مِنْ بَعْدِهِمْ) عطف أيضا على المهاجرين: وهم الذين هاجروا من بعد. وقيل: التابعون بإحسان (غِلًّا) وقرئ: غمرا، وهما الحقد.[440]

قال قاضي القضاة: وقوله تعالى : (وَلا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا) لا يدل على أن فعل القلب من خلقه تعالى ، لأن الغل لا يمتنع عندنا أن يكون ما يحصل فى القلب من شدة الشهوة بالنعم ،

---
438 الكشاف ج4 ص 485/484
439 التهذيب يفي التفسير ج9 ص 6853
440 الكشاف ج4 ص 506

فيكون كالباعث له على الحسد والخديعة ، فسألوا زوال ذلك ، وقد بينا أن الدعاء بالفعل لا يدل على حال ذلك الفعل وكيفيته ، وعلى أن جنسه لا يقدر عليه إلا الله تعالى ، مشروحا فى غير موضع.[441]



قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ ۖ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤﴾ ﴾ المتحنة: ٤

قال شيخنا الحاكم الجشمي: (إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ) قيل: يعني الاستثناء (قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ) في كل أموره إلا في قوله لأبيه: (لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ)، فنهوا أن يقتدوا به في هذا خاصة، عن مجاهد، وقتادة، وابن زيد. وقيل: نهوا أن يستغفروا لآبائهم المشركين، وبيّن قصة إبراهيم، وقيل: كان آزر أبو إبراهيم ينافق إبراهيم وُيرِيه أنه مسلم، ويَعِدُهُ الجهر للإسلام، فيستغفر له، فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه، عن الحسن، وأبي علي. وقيل: قوله: (لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ) هو قوله: (إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ). يعني وعد إبراهيم أباه أن يستغفر له (وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ) أي: لا أقدر على دفع العذاب عنك إن عذبك (رَبَّنَا عَلَيكَ تَوَكَّلْنَا) في أمور ديننا ودنيانا، والتوكل تفويض الأمر إليه، والثقة بحسن تدبيره، والرضى بقضائه وأمره (وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا) أي: رجعنا إليك بالطاعة والعبادة، وقيل: تبنا من ذنوبنا (وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ) أي: إلى حكمك المرجع، وإلى الموضع الذي لا حاكم فيه سواك..[442]

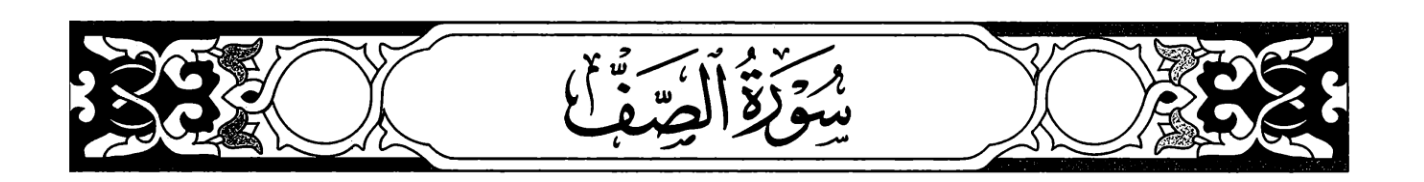
قال قاضي القضاة: أما تعلقهم بقوله تعالى : (إِلاَّ قَوْلَ إِبْراهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَما أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللهِ مِنْ شَيْءٍ) فى أنه يدل على أنه ـ تعالى ـ قد لا يجيب النبى إلى ما يدعو به ، وأنه يغفر للكفار،

441 متشابه القرآن ص 650

442 التهذيب في التفسير ج9 ص 6874

فبعيد ، وذلك أن ظاهر الآية ليس إلا أنه وعد أن يستغفر له ، ولا يوجب ذلك العلم بحال ما سأل عنه، وكيفيته ، على ما ذكرناه فى الدعاء ، فالتعلق بظاهره لا يصح. وقد قال : (وَما كانَ اسْتِغْفارُ إِبْراهِيمَ لِأَبِيهِ إِلاَّ عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَها إِيَّاهُ) فبين أنه وعده أنه يؤمن ، ويعدل عن عبادة الأصنام إلى عبادة الله تعالى ، فعند ذلك وعده إبراهيم بالاستغفار ، فلما ثبت على كفره تبرأ منه ، وترك الاستغفار له.

وبعد ، فإن غفران الكفار يحسن عندنا فى العقول ، فلو أريد به الظاهر ، لصح ، وإنما يمتنع عندنا سمعا.[443]



قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ۝٥﴾ الصف: ٥

قال شيخنا الحاكم الجشمي: (فَلَمَّا زَاغُوا) أي: مالوا عن الحق والاستقامة (أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ) قيل: جازاهم على زيغهم بالغرق والعذاب، فسمى عقوبة الزيغ زيغًا، وهذا هو الأوجه؛ لأنه حذرهم عن مثل الَّذِينَ نزل فيهم، وقيل: خلاهم وسوء اختيارهم، ومنعهم الألطاف التي بها يهدي قلوب المؤمنين كقوله: (وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) عن أبي مسلم. وقيل: أزاغ الله قلوبهم بالحكم بأنها زائغة، عن الحسن. وقيل: أزاغ قلوبهم عن ثواب الإيمان، عن أبي علي. وهذا يقرب من الأول، وقيل: قلوبهم قلوب الخوارج، عن أبي أمامة. ولا يحمل على أنه أزاغ قلوبهم عن الدين؛ لأنه تعالى لا يفعل ذلك، ولأنه فعل ذلك جزاء على زيغهم، ولأنه أمر بالإيمان فلا يمنع منه (وَاللَّهُ لاَ

443 متشابه القرآن ص 652

يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ) قيل: لا يهديهم إلى جنته ورحمته، عن أبي علي. وقيل: لا يحكم بهدايتهم، وقيل: يخليهم واختيارهم ولا يفعل بهم الألطاف، كما يفعل بالمؤمنين، عن أبي مسلم.[444]

قال قاضي القضاة: أما تعلقهم بقوله تعالى : (فَلَمَّا زاغُوا أَزاغَ اللهُ قُلُوبَهُمْ) في أنه تعالى يخلق الكفر وسائر المعاصى ، فبعيد. وذلك أنه تعالى وصفهم بالزيغ ، وأضاف ذلك إليهم فى الحقيقة ، وبين أن عند ذلك تزيغ قلوبهم ، فالمراد به أنه يعاقبهم على ذلك ، والكلام فيه كالكلام فى قوله : (ثُمَّ انْصَرَفُوا صَرَفَ اللهُ قُلُوبَهُمْ)، وقد بينا الكلام فى ذلك.[445]



قَالَ تَعَالَى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلۡبَيۡعَۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٩ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلۡأَرۡضِ وَٱبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ١٠ ﴾ الجمعة: ٩ – ١٠

قال شيخنا الحاكم الجشمي: (يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِي لِلصَّلاَةِ) قيل: هو أذان الجمعة للوقت، وقيل: بل هو أذان عند قعود الإمام على المنبر للخطبة، وروى الزهري عن السائب بن يزيد قال: كان لرسول الله – صلى الله عليه وسلم – مؤذنٌ واحد وهو بلال، فكان إذا جلس رسول الله على المنبر أذن على باب المسجد، فإذا نزل أقام الصلاة، ثم كان أبو بكر وعمر كذلك، فلما كان زمن عثمان وكثر الناس، وتباعدت المنازل أمر بالتأذين الأول، فلم ينكر عليه أحد. (مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ) أي: في يوم الجمعة، كقوله: (مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ) أي: في الْأَرْض، وقيل: أول جمعة أقيمت بالمدينة، جمعها أسعد

---

[444] النهذيب في التفسير ج9 ص 6897
[445] متشابه القرآن ص 653

بن زرارة، وأول جمعة جمعها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أنه قدم قباء يوم الإثنين لاثنتي عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول، فأقام بقباء الإثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس، وأسس مسجدهم، وخرج يوم الجمعة عامدًا للمدينة، فأدركته الصلاة في بني سالم بن عوف، فأقام الجمعة وخطب، فكان أول جمعة جمعها رسول اللَّه - صلى الله عليه وسلم -. (فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ) قيل: امضوا إليه مسرعين غير متثاقلين، عن قتادة، وابن زيد، والضحاك، وقرأ: (إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى)، وقيل: ما هو بالسعي على الأقدام، وقد نهوا أن يأتوا الصلاة إلا وعليهم السكينة والوقار، ولكن بالقلوب والنية والخشوع، عن الحسن، والأول الوجه، وعليه إجماع الفقهاء أن المراد به العمل، والمراد بالذكر قيل: الخطبة، وقيل: الصلاة، (وَذَرُوا الْبَيْعَ) أي: دعوا المبايعة، قال الحسن: كل بيع تفوت فيه الصلاة يوم الجمعة فإنه حرام لا يجوز، واختلفوا في تحريم البيع، قيل: عند الأذان. الثاني، وقيل: عند خروج الإمام، عن الزهري، وقيل: إذا زالت الشمس حرم البيع، عن السدي، والضحاك، وابن زيد. (ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ) يعني ما أمرتكم به من حضور الجمعة، واستماع الذكر، وأداء الفريضة خير من المبايعة (إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ) قيل: إن كنتم تعلمون مصالح أنفسكم ومنافعها ومضارها، وقيل: معناه: اعلموا ذلك، عن أبي علي. (فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ) أي: فرغوا من إتمام صلاة الجمعة (فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ) أي: تفرقوا للتصرف والتجارة، هو إباحة، وليس بِأَمْرٍ وإيجاب (وَابْتَغُوا) اطلبوا (مِنْ فَضْلِ اللَّهِ) من نعمه ورزقه، وعن أنس عن النبي - صلى الله عليه وسلم – في قوله: (فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ) الآية، قال: "ليس بطلب دنيا، ولكن عيادة مريض، وحضور جنازة، وزيارة أخ في الله"، وقيل: هو طلب العلم، عن الحسن، وسعيد بن جبير، ومكحول، وقيل: (فَانْتَشِرُوا) يعني يوم السبت، عن الصادق. (وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا) بالحمد على نعمه وإحسانه والتعظيم له (لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) تظفرون بما تطلبون من ثواب الجنة.[446]

[446] التهذيب في التفسير ج10 ص 6926/6925

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ جُنَّةٗ فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِنَّهُمۡ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٢ ﴾

المنافقون: ٢

قال شيخنا الحاكم الجشمي: (اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً) أي: جعلوا أيمانهم الكذب سترة يدفعون عن أنفسهم ما يخافون من القتل والأسر وسائر المكاره، وقيل: سترة يستترون بها لئلا يعرف حالهم، واليمين هي حلفهم أنهم منكم، عن الضحاك. (فَصدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ) قيل: أعرضوا بذلك عن دين الإسلام، وقيل: لما حلفوا وأظهروا الإيمان سكنوا إلى قولهم، فكانوا يوقعون الشُّبَهَ ليصرفوهم عن الإسلام. وقيل: خوفوا الناس وصدوهم عن الإيمان بمحمد، صلى الله عليه وسلم -، وقيل: صدوا الناس بأن دعوا إلى الكفر في الباطن، وهذا إنما يكون من خواصهم، يصدون العوام عن الدين كما تفعله المبتدعة (إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) أي ساءت أعمالهم في إبطان الكفر والحلف بالكذب..[447]

قال شيخنا الزمخشري: (اتَّخَذُوا أَيْمانَهُمْ جُنَّةً) يجوز أن يراد أنّ قولهم نشهد إنك لرسول الله يمين من أيمانهم الكاذبة، لأنّ الشهادة تجرى مجرى الحلف فيما يراد به من التوكيد، يقول الرجل: أشهد وأشهد بالله، وأعزم وأعزم بالله في موضع أقسم وأولى. وبه استشهد أبو حنيفة رحمه الله على أن «أشهد» يمين. ويجوز أن يكون وصفا للمنافقين في استجنانهم بالأيمان. وقرأ الحسن البصري: إيمانهم، أى: ما أظهروه من الإيمان بألسنتهم. ويعضده قوله تعالى (ذلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا. ساءَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ) من نفاقهم وصدهم الناس عن سبيل الله. وفي ساءَ معنى التعجب الذي هو تعظيم أمرهم عند السامعين ذلِكَ إشارة إلى قوله (ساءَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ) أى ذلك القول الشاهد عليهم بأنهم أسوأ الناس

[447] التهذيب في التفسير ج10 ص 6939

أعمالا بسبب (بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا) أو إلى ما وصف من حالهم في النفاق والكذب والاستجنان بالأيمان..[448]

<u>قال شيخنا قاضي القضاة</u>: أما قوله تعالى : (اتَّخَذُوا أَيْمانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ) فإنه يدل على أنه تعالى لا يخلق الصد عن السبيل ولا الذهاب عنه ، وإلا لم يكن لإضافته ذلك إلى المنافقين معنى ، ولا كان لإيمانهم تأثير فى ذلك ؛ لو كان تعالى هو الذى يخلق الكفر والذهاب عن الإيمان. وإنما يكون لذلك معنى من حيث كانوا يدعون إلى خلاف ما أظهروه من الإيمان ويحلفون عليه بأيمان فيستغوون به ، ويبعثون به على الكفر ، ولو كان العبد لا يختار فعله ، وإنما يخلق فيه لم يكن لكل ذلك تأثير.[449]



<u>قال أبو علي ، رحمه الله</u> : وصفه تعالى ذلك اليوم ، وهو يوم القيامة ، بأنه يوم التغابن، إنما يصح على قولنا فى العدل ، وذلك ينبئ أنهم صاروا مغبونين. وأن من فاز وظفر بالجنة ، فهو غابن لهم ، وذلك لا يصح إلا مع العلم بأنهم قصروا فيما قدروا عليه ، فلحقهم الغبن. ولو كانوا لم يقدروا فى دار الدنيا على ذلك لم يصح هذا القول.[450]

قَالَ تَعَالَى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمۡ فَمِنكُمۡ كَافِرٞ وَمِنكُم مُّؤۡمِنٞۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ ۝٢﴾ التغابن: ٢

<u>قال شيخنا الحاكم الجشمي</u>: (فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ) قيل: منكم من لم يقر بأنه خلقه كالدهرية، ومنهم من يقر بأنه خلقه كالموحدة، وهذا نحو قوله: (وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي) فالله تعالى خلقهم، ثم المشي منهم، كذلك هاهنا، الله تعالى خلقهم، ثم الإيمان والكفر منهم، وقيل: فمنكم كافر بِاللَّهِ، ومنكم مؤمن، وقيل: فمنكم كافر في السر، مؤمن في العلانية كالمنافقين،

---

448 الكشاف ج4 ص 539/538
449 متشابه القرآن ص 654
450 متشابه القرآن ص 656/655

ومنكم مؤمن في السر، كافر في العلانية كعمار وذويه، عن الضحاك. وقيل: فمنكم كافر بِاللَّهِ، مؤمن بالكواكب، ومنكم مؤمن بِاللَّهِ، كافر بالكواكب، يعني في الأنواء، عن عطاء بن أبي رباح. وقيل: فمنكم كافر يؤمن، ومنكم مؤمن يكفر، عن ابن عباس. وقيل: فمنكم كافر في الحال، مؤمن في العاقبة، ومنكم مؤمن في الحال، كافر في العاقبة، عن أبي سعيد الخدري، والمراد بالآية ظاهر، فلا يحتاج إلى هذه التأويلات، والمعنى: أن المكلفين على جنسين، كافر فيدخل فيه أنواع الكفر، ومنهم مؤمن، وهم نوع واحد، ولا يجوز حمله على أنه خلقهم مؤمنين وكافرين؛ لأن الكفر والإيمان فعل العبد، ليس بخلق الله تعالى؛ ولذلك يقع بحسب قصدهم وقدرتهم وعلمهم وآلتهم؛ ولذلك يصح الأمر والنهي، والثواب والعقاب، وبعثة الرسل، ولأنه يشتق منه الأسماء لهم دونه؛ لأن الحكيم لا يخلق سب نفسه، وقَتْلَ أنبيائه، ولأنه لو جاز أن يخلق الكفر وكل قبيح وضلال جاز أن يبعث رسولاً يدعو إلى الضلال، ويظهر المعجزة على يدي كذاب، ولجاز عليه الكذب، تعالى الله عن ذلك عُلُوًّا كبيرًا، وقد قال تعالى: (فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا) وقال - صلى الله عليه وسلم -: "كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه حتى يعرب لسانه عنه، فإما شاكرًا وإما كفورًا"، وعندهم الله يُهَوِّدُهُ ويُنَصِّرُهُ، وعن النبي - صلى الله عليه وسلم - يحكي عن ربه: "خلقت عبادي كلهم حنفاء"، ونحو ذلك من الآيات والآثار، ولأنه كان يقول كافرًا ومؤمنًا بالنصب، فلما كان بالرفع علمنا أن المراد ما ذكرنا (وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ) أي: عالم بأعمال الجميع فيجازيهم بذلك.[451]

قال قاضي القضاة: أما قوله تعالى : (هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ) فانه لا يدل على أنه خلق الكافر كافرا ، والمؤمن مؤمنا ؛ لأن ظاهره يقتضى أنه خلقهم ، وذلك يقتضى خلقه لأجسامهم ، ثم قسمهم قسمين على الوجه الذى ذكره ، وليس فيه أن ما صار به المؤمن مؤمنا ، والكافر كافرا من خلقه تعالى.

وقد قال أبو علي ، رحمه‌الله : لو كان كما قالوا ، لقال : فمنكم كافرا ومنكم مؤمنا ، بالنصب ، فلما ذكر ـ تعالى ـ بالرفع دل على أن الإيمان من فعلهم ، لا من خلق الله فيهم![452]

---

[451] التهذيب في التفسير ج10 ص 6952/6951

[452] متشابه القرآن ص 655

قال شيخنا الزمخشري: (هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ) يعني: فمنكم آت بالكفر وفاعل له ومنكم آت بالإيمان وفاعل له، كقوله تعالى (وَجَعَلْنا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتابَ، فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فاسِقُونَ) والدليل عليه قوله تعالى (وَاللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ) أي عالم بكفركم وإيمانكم اللذين هما من عملكم. والمعنى: هو الذي تفضل عليكم بأصل النعم الذي هو الخلق والإيجاد عن العدم، فكان يجب أن تنظروا النظر الصحيح، وتكونوا بأجمعكم عبادا شاكرين، فما فعلتم مع تمكنكم، بل تشعبتم شعبا، وتفرقتم أمما، فمنكم كافر ومنكم مؤمن، وقدم الكفر لأنه الأغلب عليهم والأكثر فيهم. وقيل: هو الذي خلقكم فمنكم كافر بالخلق وهم الدهرية، ومنكم مؤمن به.

فإن قلت: نعم، إن العباد هم الفاعلون للكفر، ولكن قد سبق في علم الحكيم أنه إذا خلقهم لم يفعلوا إلا الكفر ولم يختاروا غيره، فما دعاه إلى خلقهم مع علمه بما يكون منهم؟ وهل خلق القبيح وخلق فاعل القبيح إلا واحد؟ وهل مثله إلا مثل من وهب سيفا باترا لمن شهر بقطع السبيل وقتل النفس المحرّمة فقتل به مؤمنا؟ أما يطبق العقلاء على ذم الواهب وتعنيفه والدق في فروته كما يذمون القاتل؟ بل إنحاؤهم باللوائم على الواهب أشد؟ قلت: قد علمنا أنّ الله حكيم عالم بقبح القبيح عالم بغناه عنه، فقد علمنا أن أفعاله كلها حسنة، وخلق فاعل القبيح فعله، فوجب أن يكون حسنا، وأن يكون له وجه حسن، وخفاء وجه الحسن علينا لا يقدح في حسنه، كما لا يقدح في حسن أكثر مخلوقاته جهلنا بداعي الحكمة إلى خلقها بِالْحَقِّ بالغرض الصحيح والحكمة البالغة، وهو أن جعلها مقارّ المكلفين ليعملوا فيجازيهم.[453]

[453] الكشاف ج4 ص 546/545

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ يَهۡدِ قَلۡبَهُۥۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ١١﴾ التغابن: ١١

قال شيخنا الحاكم الجشمي: ثم بَيَّنَ تعالى أَنّ ما يصيب الإنسان من جهته تعالى يجب على العبد الرضا بقضائه، منبهًا أن الكفر والمعاصي ليس منه، فقال سبحانه وتعالى: (مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ) قيل: الآلام والأمراض، والقحط والجدب، والموت ونحوها مما هو من جهته تعالى (إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ) أي: بأمره، وهذا تَوَسُّعٌ والمراد أنه يفعله ويخلقه، وقيل: المراد جميع ما يناله من الضرر وإن كان ظلمًا قبيحًا، (إلا بإذن الله): إلا بعلمه، وقيل: بتخليته، عن أبي مسلم. فكأنه لما تقدم ذكر الكفر بين أنه يعلمه فيجازي بذلك من يؤمن بِاللَّهِ، وقيل: يصدق به ويرضى بقضائه (يَهْدِ قَلْبَهُ) ليعلم أن المصيبة بإذن الله، عن ابن عباس، وسئل علقمة عن ذلك فقال: هو الرجل تصيبه المصيبة، فيعلم أنها من عند الله تعالى ويرضى ويسلم. ولا شبهة أن الكفر لا يجب الرضا به، دل أنه ليس من قضائه. وقيل: من يؤمن بِاللَّهِ فيصبر عند نزول المصائب، ويرضى بقضائه يهد قلبه بلطفه حتى ينشرح، ويثبت على ما هو عليه، وقيل: يهد قلبه إلى نيل ثوابه، وقيل: يهد قلبه فيعرف معايب الدنيا، فلا يجزع عند البلاء، وقيل: هو الذي إذا أعطي شكر، وإذا ابتلي صبر، وإذا ظُلِمَ غَفَرَ، وإذا أصابته مصيبة استرجع، فيهدي قلبه عند النعمة للشكر، وعند البلاء للصبر والرضا، عن مجاهد. وقيل: من يؤمن بِاللَّهِ تعالى بفعل الفرائض يهد قلبه لفعل السُّنَّة (وَاللَّهُ بكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) فيجازي كل إنسان بعمله..[454]

قال شيخنا الزمخشري: (إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ) إلا بتقديره ومشيئته، كأنه أذن للمصيبة أن تصيبه (يَهْدِ قَلْبَهُ) يلطف به ويشرحه للازدياد من الطاعة والخير. وقيل: هو الاسترجاع عند المصيبة. وعن الضحاك: يهد قلبه حتى يعلم أنّ ما أصابه لم يكن ليخطئه. وما أخطأه لم يكن ليصيبه. وعن مجاهد: إن ابتلى صبر، وإن أعطى شكر، وإن ظلم غفر. وقرئ. يهد قلبه، على البناء للمفعول، والقلب: مرفوع أو منصوب. ووجه النصب: أن يكون مثل سفه نفسه، أي: يهد في قلبه. ويجوز أن يكون

[454] التهذيب في التفسير ج10 ص 6958/6959

المعنى: أنّ الكافر ضال عن قلبه بعيد منه، والمؤمن واجد له مهتد إليه، كقوله تعالى (لِمَنْ كانَ لَهُ قَلْبٌ)
وقرئ: نهد قلبه، بالنون. ويهد قلبه، بمعنى: يهتد. ويهدأ قلبه: يطمئن.
ويهد. ويهدا على التخفيف وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ يعلم ما يؤثر فيه اللطف من القلوب مما لا يؤثر فيه فيمنحه ويمنعه.[455]

قال شيخنا قاضي القضاة: وقوله تعالى : (ما أَصابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللهِ يَهْدِ قَلْبَهُ) فلا يدل على أن ما يؤدى إلى المضرة من تصرف العبد ، من فعله تعالى ، لأنه لو دل ظاهره على ذلك لدل على أنه بأمره تعالى ، ولا خلاف فى أنه تعالى لا يأمر بالقبيح. فالمراد بذلك ما ينزل به من الشدائد والمحن ، التى تكون من قبله تعالى ، وذلك لا يكون إلا بعلمه وإرادته.
وقوله : (وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللهِ يَهْدِ قَلْبَهُ) أراد به تعالى ما بيناه من زيادة الهدى والبصيرة ؛ لأنها تؤثر فى قلبه فتزيده سكونا ، وقد بينا القول فى ذلك.[456]



قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿لَا تَدۡرِي لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحۡدِثُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ أَمۡرٗا ۝١﴾ الطلاق: ١

قال شيخنا الحاكم الجشمي: (لاَ تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا) قيل: يبدو لزوجها فيراجعها في العدة الأولى والثانية، عن الضحاك، والسدي، وابن زيد. فالمضاف إلى الله إباحة المراجعة عند ندمه، وقيل: أن تحدث شدة شهوة إليها ورغبة فيها فتدعوه إلى المراجعة..[457]
قال قاضي القضاة: وأما تعلقهم بقوله : (لَعَلَّ اللهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذلِكَ أَمْراً) في أن الرجعة يجب أن تكون حادثا من فعله تعالى ، فغلط ، وذلك أنه تعالى لم يذكر ما ذلك الأمر الذى يحدثه ، فمن أين

---

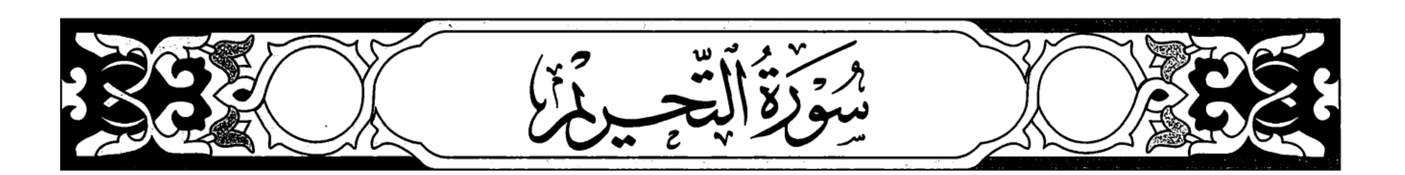
455 الكشاف ج4 ص 549
456 متشابه القرآن ص 656
457 التهذيب في التفسير ج10 ص 6969/6968

أن المراد به الرجعة دون أن يكون الشهوة والرغبة لمراجعتها ، وذلك من فعله ، والظاهر لا يليق إلا بهذا الوجه ، وذلك أنه تعالى منع المطلّق من أن يبتّ الطلاق ، لكى يتمكن من التلافى إذا وجد فى قلبه الشهوة والرغبة.[458]

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمۡرِهِۦۚ قَدۡ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيۡءٖ قَدۡرٗا ۝٣ ﴾ الطلاق: ٣

قال شيخنا الحاكم الجشمي: (قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا) أي: حدًا وأجلاً ينتهي إليه، وقيل: مقدرًا بحسب المصلحة في الإباحة والإيجاب، والترغيب والترهيب، كما بين في الطلاق والعدة وغيرها، وقيل: جعل لأعمال عباده تقديرًا فيما وعد وأوعد، فلا يجازى إلا على قدر ما استحق.[459]

قال شيخنا قاضي القضاة: وقوله : (قَدْ جَعَلَ اللهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْراً) غير دال على أن الأشياء حادثة من قبله تعالى ، وذلك أن جعله لها قدرا ، لا ينبئ عن أن ذاتها موجودة من جهته ؛ لأن المقدّر والمدبّر قد يريد فعل غيره ، وفعل نفسه ، ويقدرهما. فالتعلق بظاهره لا يصح.
ولا يمتنع من أنه تعالى قد قدر أفعال العباد ، وجعل لها مقادير بالحبر والكتابة.[460]



قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ ۝٦ ﴾ التحريم: ٦

قال شيخنا الحاكم الجشمي: (يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا) أي: احفظوا واحرسوا "أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا" أي: افعلوا ما أمر الله به، ومروا أهليكم بذلك، وانهوهم عن معصية الله بمنعهم بذلك من النار،

458 متشابه القرآن ص 657
459 التهذيب في التفسير ج10 ص 6970
460 متشابه القرآن ص 657

عن ابن عباس، ومجاهد، وقتادة. (وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ) قيل: حطبها، وقيل: توقد على الناس تعذيبًا وعلى الحجارة، ومنها الأصنام التي عبدوها يعذبون بها، عن أبي مسلم. (عَلَيهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ) أي: خزنتها، والموكلون بها ملائكة غلاظُ القلوب، لا يرحمون أحدًا من أهل النار (شِدَادٌ) أي: أقوياء، وهم الزبانية تسعة عشر، وأعوانهم (لاَ يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ) قيل: في الدنيا؛ لأن الآخرة ليست بدار تكليف، وقيل: بل في الدنيا والآخرة إذا أمرهم بأخذهم وتعذيبهم يأخذونهم، ولا يلتفتون إلى صراخهم، وقيل: يرفع الله الرحمة عن قلوبهم فلا يرحمون أهل النار، وقيل: عِلْمُهُمْ بما فعل العصاة يُذْهِبُ الرحمة عن قلوبهم، وقيل: جعل لذتهم في تعذيب أهل النار كما جعل لذة المؤمنين في نعيم الجنة، وقيل: يمنع النار أن تداخلهم، فلا يتألمون به، ويجوز أن يلتذوا بتلك النار.[461]

قال شيخنا الزمخشري: (قُوا أَنْفُسَكُمْ) بترك المعاصي وفعل الطاعات (وَأَهْلِيكُمْ) بأن تأخذوهم بما تأخذون به أنفسكم. وفي الحديث «رحم الله رجلا قال يا أهلاه صلاتكم صيامكم زكاتكم مسكينكم يتيمكم جيرانكم لعلّ الله يجمعهم معه في الجنة» وقيل: إنّ أشد الناس عذابا يوم القيامة من جهل أهله. وقرئ: وأهلوكم ، عطفا على واو قُوا وحسن العطف للفاصل. فإن قلت: أليس التقدير: قوا أنفسكم، وليق أهلوكم أنفسهم؟ قلت: لا، ولكن المعطوف مقارن في التقدير للواو، وأنفسكم واقع بعده، فكأنه قيل: قوا أنتم وأهلوكم أنفسكم لما جمعت مع المخاطب الغائب غلبته عليه، فجعلت ضميرهما معا على لفظ المخاطب (ناراً وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجارَةُ) نوعا من النار لا يتقد إلا بالناس والحجارة، كما يتقد غيرها من النيران بالحطب. وعن ابن عباس رضى الله عنهما: هي حجارة الكبريت، وهي أشدّ الأشياء حرا إذا أو قد عليها. وقرئ: وقودها بالضم، أى ذو وقودها (عَلَيْها) يلي أمرها وتعذيب أهلها (مَلائِكَةٌ) يعنى الزبانية التسعة عشر وأعوانهم (غِلاظٌ شِدادٌ) في أجرامهم غلظة وشدّة، أى: جفاء وقوّة. أو في أفعالهم جفاء وخشونة، لا تأخذهم رأفة في تنفيذ أوامر الله والغضب له والانتقام من أعدائه (ما أَمَرَهُمْ) في محل النصب على البدل، أى: لا يعصون ما أمر الله. أى: أمره، كقوله تعالى (أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي) أو لا يعصونه فيما أمرهم. فإن قلت: أليست الجملتان في معنى واحد؟ قلت: لا، فإنّ معنى الأولى أنهم يتقبلون أوامره ويلتزمونها ولا يأبونها ولا ينكرونها. ومعنى

---

[461] التهذيب في التفسير ج 10 ص 6994

الثانية: أنهم يؤدون ما يؤمرون به لا يتثاقلون عنه ولا يتوانون فيه. فإن قلت: قد خاطب الله المشركين المكذبين بالوحي بهذا بعينه في قوله تعالى (فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجارَةُ وقال أُعِدَّتْ لِلْكافِرِينَ) فجعلها معدّة للكافرين، فما معنى مخاطبته به المؤمنين؟ قلت: الفساق وإن كانت دركاتهم فوق دركات الكفار، فإنهم مساكنون الكفار في دار واحدة فقيل للذين آمنوا: قوا أنفسكم باجتناب الفسوق مساكنة الكفار الذين أعدت لهم هذه النار الموصوفة. ويجوز أن يأمرهم بالتوقي من الارتداد، والندم على الدخول في الإسلام، وأن يكون خطابا للذين آمنوا بألسنتهم وهم المنافقون، ويعضد ذلك قوله تعالى على أثره يا (أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ إِنَّما تُجْزَوْنَ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) أى: يقال لهم ذلك عند دخولهم النار لا تعتذروا، لأنه لا عذر لكم. أو لأنه لا ينفعكم الاعتذار.[462]

قال الرماني: لايجوز أن يعصي الملك في صغيرة ولا كبيرة لتمسكه بما يدعو اليه العقل دون الطبع. وكل من تمسك بما يدعو اليه العقل دون الطبع، فانه لا يقع منه قبيح.[463]

قال قاضي القضاة: قوله تعالى : (يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ ناراً) يدل على أن العبد قادر على فعله ، وأنه الذى يحدثه ، ليصح منه أن يتقى النار بما يختاره ، وأن يقى أهله ذلك بما يدعوهم إليه. وهذا لا يصح مع القول بأنه تعالى يخلق فيه الفعل على وجه لا يمكنه خلافه.[464]

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَعۡتَذِرُواْ ٱلۡيَوۡمَۖ إِنَّمَا تُجۡزَوۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٧ ﴾ التحريم: ٧

قال شيخنا الحاكم الجشمي: (يَاأَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ) لما عُذِّبُوا أخذوا في الاعتذار، ولم يلتفت إلى معاذيرهم، ويقال لهم: لا تعتذروا؟ فهذا جزاء فعلكم، وقيل: لا تتكلفوا العذر؛ فإنه لا ينفعكم، وليس لكم عذر صحيح، وإنما تعتذرون بأنا لا نعلم وَغرّنا الرؤساءُ، وكل ذلك ليس بعذر، وقيل: الغرض من العذر القبول، وهم لا يعتذرون على وجه يقبل؛ لأنهم يلجؤون إلى ذلك. ومن يقول

462 الكشاف ج4 ص 569/568
463 التبيان في تفسير القرآن للطوسي ج10 ص 48
464 متشابه القرآن ص 659

لهم هذا؟ قيل: المَلَائِكَة، وقيل: اللَّه تعالى يناديهم، وكان أشد الإياس والعذاب (إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) أي: هذا جزاء عملكم.[465]

<u>قال قاضي القضاة</u>: وقوله تعالى : (يا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ إِنَّما تُجْزَوْنَ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) فمن قوى ما يدل على أنه تعالى لا يخلق أفعال العباد ، لأنه لا يخلو قوله : (لا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ) من أن يريد به منعهم من الاعتذار ولهم عذر ، أو أن يريد بذلك أن لا عذر لهم ، وقد علمنا أنه لا يجوز أن يكون المراد الأول ، لأنه كان يجب أن يكون لهم عذر فى الحقيقة ، وقد منعهم من ذكره ، وهذا لا يجوز عند أحد ، خصوصا فى الآخرة.

وقوله تعالى : (إِنَّما تُجْزَوْنَ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) يدل على بطلان ذلك أيضا ، لأنه لو كان لهم عذر فى الحقيقة ، لكانوا قد جوزوا بما لم يفعلوا ، وعلى وجه يقبّح العذر الذى معهم ، فإذن صح بأنه لا بد من القول بأنه لا عذر لهم. ولو كان الأمر كما تقوله المجبرة ، لوجب أن يكون لهم عذر ، بل أعذار كثيرة ، كل واحد منها يقوم بنفسه فى ظهور عذرهم ، وفى سقوط العقاب عنهم. وذلك أن لهم أن يقولوا : إنما أتينا فى كفرنا من قبلك ، وفى أن لم نفعل الإيمان من جهتك ، لأنك سلبتنا القدرة عليه ، وأعطيتنا قدرة الكفر ، وجعلتها موجبة للكفر ، وخلقت مع ذلك الكفر فينا وإرادته فيما لم تزل ، فلم يمكن مفارقته ، وخلقت فينا قدرة الإرادة له ، ونفس الإرادة والاختيار. وكل واحد من ذلك لو حصل بانفراده فينا ، لامتنع الإيمان منا ، ووجب الكفر!! فكيف لا يكون ذلك عذرا لنا فى زوال العقاب عنا؟ ولئن جاز أن لا يعدّ ذلك عذرا ، فيجب أن يجوز معاقبة العاجز والزمن ، وأن لا يجعل ذلك عذرا فيهم. وفى هذا إخراج كل عذر من أن يكون عذرا!

فلما بين تعالى أن لا عذر للكافرين ، وكان قولهم يقتضى ما ذكره ، فيجب صحة ما نقوله ، ليسلم معه القول بأنهم من قبل أنفسهم أتوا ، لأنهم مكّنوا من الإيمان ، وأزيحت عللهم فيه ، فعدلوا عن فعله ، لغلبة الشهوة ، وإيثار الهوى ، وتركوا ما فيه فوزهم ونجاتهم ، فلم يكن لهم عند نزول العقاب بهم معذرة على وجه.[466]

---

[465] التهذيب في التفسير ج 10 ص 6994

[466] متشابه القرآن ص 660/659

سُورَةُ المُلْكِ

قَالَ تَعَالَى: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِي بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ قَدِيرٌ ① ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلٗاۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ②﴾ الملك: ١ – ٢

قال شيخنا الحاكم الجشمي: (تَبَارَكَ) قيل: تعالى وَجَلَ عما لا يجوز عليه في ذاته وأفعاله، عن أبي مسلم، وقيل: البقاء له لم يزل، ولا يزال، عن أبي علي، وقيل: ذكره بركة على عباده في دينهم ودنياهم (الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ) يعني الذي هو المالك، وله الملك يؤتيه من يشاء، ويتصرف كما يشاء، وذكر اليد تأكيدًا، قيل: لأن أكثر التصرفات والعطايا باليد (وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) قيل: هذا عام والمراد به الخصوص، يعني أنه قادر على ما يصح كونه مقدورًا له؛ لأن كثيرًا من الأشياء لا توصف بالقدرة عليه لذاته، وقيل: إنه عام في كل مقدور، أما المعدومات فيوجدها، والموجودات فيفنيها ويعيدها، ومقدور غيره يقدر عليه ويعجز عنه، وهو عام، وإن اختلفت المعاني، فأما (بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) فعام؛ لأنه لا شيء إلا ويجب أن يعلمه (الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ) قيل: خلق الموت في الحي فأماته، والحياة في الجماد فأحياه، وقيل: خلق الموت للتعبد بالصبر، وخلق الحياة للتعبد بالشكر، وقيل: خلق الأموات للاعتبار، والحياة للتزود، وقيل: خلق الموت في الدنيا فهو الخلقة، والحياة عند البعث للجزاء على الأعمال، وقيل: خلق الموت في الآباء ليبيدوا، والحياة في الأبناء ومن خلفهم (لِيَبْلُوَكُمْ) أي: يعاملكم معاملة المختبر، وإلا فهو عالم بأحوالهم، وقيل: ليختبر عباده ما بين الحياة إلى الموت بالشكر على النعم، والصبر على البلايا، والرضا بالقضاء، وفعل الطاعة، والامتناع عن المعصية (أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً) أي: من كان أحسن عملاً كان جزاؤه أحسن، وقيل: (لِيَبْلُوَكُمْ) أي: كلفكم ليظهر المعلوم، فيكون الجزاء على فعله لا على المعلوم منه، وقيل: أيكم أكثر ذكرًا للموت، وأشد استعدادًا له، وإنما قدم الموت؛ لأن الأشياء في الأصل كانت جمادا مواتًا، ثم خلق فيه الحياة، وقيل: لأنه أقرب إلى القهر، وقيل: المراد بالحياة البعث، فقدم الموت لأنه متقدم عليه، وسئل أبو قتادة رضي الله عنه عن قوله: (أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً)

قال: أتمكم عقلاً، وأشدكم لله خوفًا، وأحسنكم فيما أمر الله به ونهاه عنه نظرًا، وإن كان أقلكم تطوعًا، وعن الحسن: أيكم أزهد في الدنيا زهدًا وأترك لها تركًا (وَهُوَ الْعَزِيزُ) أي: القادر على كل شيء وعلى من عصاه، ومع ذلك غفور لمن وجع إليه فأطاعه.[467]

قال شيخنا الزمخشري: (تَبارَكَ) تعالى وتعاظم عن صفات المخلوقين (الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ) على كل موجود (وَهُوَ عَلى كُلِّ) ما لم يوجد مما يدخل تحت القدرة قَدِيرٌ وذكر اليد مجاز عن الإحاطة بالملك والاستيلاء عليه. والحياة: ما يصح بوجوده الإحساس. وقيل: ما يوجب كون الشيء حيا، وهو الذي يصح منه أن يعلم ويقدر. والموت عدم ذلك فيه، ومعنى خلق الموت والحياة: إيجاد ذلك المصحح وإعدامه. والمعنى: خلق موتكم وحياتكم أيها المكلفون (لِيَبْلُوَكُمْ) وسمى علم الواقع منهم باختيارهم «بلوى» وهي الخبرة استعارة من فعل المختبر. ونحوه قوله تعالى (وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجاهِدِينَ مِنْكُمْ). فإن قلت: من أين تعلق قوله (أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا) بفعل البلوى؟ قلت: من حيث أنه تضمن معنى العلم، فكأنه قيل: ليعلمكم أيكم أحسن عملا، وإذا قلت: علمته أزيد أحسن عملا أم هو؟ كانت هذه الجملة واقعة موقع الثاني من مفعوليه، كما تقول: علمته هو أحسن عملا. فإن قلت: أتسمى هذا تعليقا؟ قلت: لا، إنما التعليق أن توقع بعده ما يسدّ مسدّ المفعولين جميعا، كقولك: علمت أيهما عمرو، وعلمت أزيد منطلق. ألا ترى أنه لا فصل بعد سبق أحد المفعولين بين أن يقع ما بعده مصدرا بحرف الاستفهام وغير مصدر به، ولو كان تعليقا لا فترقت الحالتان كما افترقتا في قولك: علمت أزيد منطلق. وعلمت زيدا منطلقا. أَحْسَنُ عَمَلًا. قيل: أخلصه وأصوبه، لأنه إذا كان خالصا غير صواب لم يقبل، وكذلك إذا كان صوابا غير خالص، فالخالص: أن يكون لوجه الله تعالى، والصواب: أن يكون على السنة. وعن النبي صلى الله عليه وسلم أنه تلاها، فلما بلغ قوله (أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا) قال: «أيكم أحسن عقلا وأورع عن محارم الله وأسرع في طاعة الله» يعنى: أيكم أتم عقلا عن الله وفهما لأغراضه، والمراد: أنه أعطاكم الحياة التي تقدرون بها على العمل وتستمكنون منه، وسلط عليكم الموت الذي هو داعيكم إلى اختيار العمل الحسن على القبيح، لأن وراءه البعث والجزاء الذي لا بد منه. وقدم الموت على الحياة، لأنّ أقوى الناس داعيا إلى العمل من نصب موته بين

[467] التهذيب في التفسير ج10 ص 7003/7002

عينيه فقدم لأنه فيما يرجع إلى الغرض المسوق له الآية أهم (وَهُوَ الْعَزِيزُ) الغالب الذي لا يعجزه من أساء العمل الْغَفُورُ لمن تاب من أهل الإساءة.[468]

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ طِبَاقٗاۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلۡقِ ٱلرَّحۡمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٖۖ فَٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ هَلۡ تَرَىٰ مِن فُطُورٖ ٣﴾ الملك: ٣

قال شيخنا الحاكم الجشمي: (الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا) قيل: بعضها فوق بعض، وقيل: أراد المطابقة والمشابهة، أي: بعضها يشبه بعضًا في الإتقان والإحكام، والحسن والتزين (مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ) قيل: أراد جميع المخلوقات لا تفاوت فيها من طريق الحكمة، ولا تناقض، بل كلها في الحكمة سواء، وإن كانت متفاوتة في الصور والهيئات، وقيل: أراد خلق السماوات لا ترى فيها اعوجاجًا، بل هي مستقيمة مستوية مع عظمها (فَارْجِعِ الْبَصَرَ) أي: استقْصي في النظر مرة بعد مرة، تقديره: انظر ثم ارجِعِ النظر؛ أي: رد النظر وانظر (هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ) قيل: من وَهْيٍ، عن ابن عباس، وقيل: من خلل، عن قتادة، وقيل: من شقوق، عن سفيان، وقيل: اختلاف، عن الضحاك، وقيل: من صدوع، عن أبي عبيدة.[469]

قال شيخنا الزمخشري: (طِباقاً) مطابقة بعضها فوق بعض، من طابق النعل: إذا خصفها طبقا على طبق، وهذا وصف بالمصدر. أو على ذات طباق، أو على: طوبقت طباقا مِنْ تَفاوُتٍ وقرئ: من تفوت. ومعنى البناءين واحد، كقولهم: تظاهروا من نسائهم. وتظهروا. وتعاهدته وتعهدته، أى: من اختلاف واضطراب في الخلقة ولا تناقض، إنما هي مستوية مستقيمة. وحقيقة التفاوت: عدم التناسب، كأن بعض الشيء يفوت بعضا ولا يلائمه. ومنه قولهم: خلق متفاوت. وفي نقيضه: متناصف. فإن قلت: كيف موقع هذه الجملة مما قبلها؟ قلت: هي صفة مشايعة لقوله (طِباقاً) وأصلها: ما ترى فيهنّ من تفاوت، فوضع مكان الضمير قوله (خَلْقِ الرَّحْمنِ) تعظيما لخلقهنّ، وتنبيها على سبب سلامتهنّ من التفاوت: وهو أنه خلق الرحمن، وأنه بباهر قدرته هو الذي يخلق مثل ذلك الخلق المتناسب، والخطاب

---

[468] الكشاف ج4 ص 576/575/574

[469] التهذيب في التفسير ج10 ص 7003

في ما ترى للرسول أو لكل مخاطب. وقوله تعالى (فَارْجِعِ الْبَصَرَ) متعلق به على معنى التسبيب، أخبره بأنه لا تفاوت في خلقهنّ، ثم قال (فَارْجِعِ الْبَصَرَ) حتى يصح عندك ما أخبرت به بالمعاينة، ولا تبقى معك شبهة فيه (هَلْ تَرى مِنْ فُطُورٍ) من صدوع وشقوق: جمع فطر وهو الشق. يقال: فطره فانفطر. ومنه: فطر ناب البعير، كما يقال: شق وبزل. ومعناه: شق اللحم فطلع. وأمره بتكرير البصر فيهنّ متصفحا ومتتبعا يلتمس عيبا وخللا (يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ) أي إن رجعت البصر وكررت النظر لم يرجع إليك بصرك بما التمسته من رؤية الخلل وإدراك العيب، بل يرجع إليك بالخسوء والحسور، أى: بالبعد عن إصابة الملتمس. كأنه يطرد عن ذلك طردا بالصغار والقماءة. وبالإعياء والكلال لطول الإجالة والبرديد. فإن قلت: كيف ينقلب البصر خاسئا حسيرا برجعه كرّتين اثنتين؟ قلت: معنى التثنية التكرير بكثرة، كقولك: لبيك وسعديك، تريد إجابات كثيرة بعضها في أثر بعض، وقولهم في المثل: دهدرّين سعد القين من ذلك. أى: باطلا بعد باطل. فإن قلت: فما معنى ثم ارجع؟ قلت: أمره يرجع البصر، ثم أمره بأن لا يقتنع بالرجعة الأولى وبالنظرة الحمقاء، وأن يتوقف بعدها ويجم بصره، ثم يعاود ويعاود، إلى أن يحسر بصره من طول المعاودة، فإنه لا يعثر على شيء من فطور.[470]

<u>قال قاضي القضاة</u>: قوله : (ما تَرى فِي خَلْقِ الرَّحْمنِ مِنْ تَفاوُتٍ) يدل على نفي القبائح عن خلقه ؛ لأنه لو كان هو الخالق لها ، وفيها توحيد وتشبيه وتثليث ، لكان ذلك متفاوتا. وفيها عبادة الله وعبادة غيره، والحكمة والصواب ، والسفه والباطل. ولا تفاوت أعظم مما اختص به ذلك ، فيجب أن يدل على أنه ليس من خلقه تعالى على وجه.

وليس لأحد أن يقول : المراد بذلك أنه لا تفاوت فيما خلقه من السموات ، لأن حمله على ظاهره يمكن ويفيد. فلا يجب تعليقه بما تقدم. وإن كان لو حمل على ذلك لوجب ما قلناه أيضا ، لأن نفى التفاوت ، فى باب الحكمة والسفه ، عن شيء من أفعاله ، لا يصح إلا مع القول بأنه منزه عن القبائح.[471]

---

470 الكشتف ج4 ص577/576

471 متشابه القرآن ص 661

قال شيخنا الحاكم الجشمي: (أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ) قيل: (أَأَمِنْتُمْ) عذاب من في السماء، عن جماعة، ثم اختلفوا فقيل: كانت العرب تزعم أن الإله في السماء فقال: (أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ) على زعمكم، وقيل: (أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ) عذابه، عن أبي علي، وقيل: (أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ) سلطانه وتدبيره، فإن تدابيره تكون في السماء، ثم تنزل إلى الأرض، وقيل: (أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ) يعني: الملائكة الموكلين بعذاب العصاة، مع عظم حالهم عند نزولهم بالعذاب، وقيل: (في) بمعنى (على)، كما يقال: فلان على العراق أي: مالكها وواليها، كأنه قيل: أمنتم من على السماء، أي: ملكها وخلقها، وأنعم عليكم بذلك (أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ) الخسف: ابتلاع الأرض لهم حتى يغيبوا فيها بمعنى: (أَأَمِنْتُمْ) أن يغيبكم في الأرض إن عصيتموه (فَإِذَا هِيَ) أي الأرض (تَمُورُ) قيل: تتحرك بأهلها، عن الحسن، وقيل: تردد بهم وهم في قعرها، عن الضحاك، وقيل: تهوي بهم، عن ابن كيسان، وقيل: تجري إلى الموضع الذي حكم الله بالقرار فيه..[472]

قال شيخنا الزمخشري: (مَنْ فِي السَّمَاءِ) فيه وجهان: أحدهما من ملكوته في السماء، لأنها مسكن ملائكته وثم عرشه وكرسيه واللوح المحفوظ، ومنها تنزل قضاياه وكتبه وأوامره ونواهيه. والثاني: أنهم كانوا يعتقدون التشبيه، وأنه في السماء، وأنّ الرحمة والعذاب ينزلان منه، وكانوا يدعونه من جهتها، فقيل لهم على حسب اعتقادهم: أأمنتم من تزعمون أنه في السماء، وهو متعال عن المكان أن يعذبكم بخسف أو بحاصب، كما تقول لبعض المشبهة: أما تخاف من فوق العرش أن يعاقبك بما تفعل، إذا رأيته يركب بعض المعاصي..[473]

[472] التهذيب يفي التفسير ج 10 ص 7010
[473] الكشاف ج 4 ص 581/580

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَى ٱلطَّيۡرِ فَوۡقَهُمۡ صَٰٓفَّٰتٖ وَيَقۡبِضۡنَۚ مَا يُمۡسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحۡمَٰنُۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءِۭ بَصِيرٌ ١٩﴾ الملك: ١٩

قال شيخنا الحاكم الجشمي: (أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ) بأجنحتها وهي تطير (وَيَقْبِضْنَ) أجنحتها بعد انبساطها (مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ) أي: ما يحبسهن في الهواء في حالتي القبض والبسط إلا الرحمن سبحانه (إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ) أي: عالم، قال مجاهد وقتادة: الطير في الهواء تصف أجنحتها تارة، وتقبض تارة، وإنما دل بوقوف الطير في الهواء على هاتين الحالتين لوجوه: منها: أنه أعطى الطير جناحين. ومنها: أنه جعل ذلك على صفة إذا بسطها في الهواء تقف، ولا تقع مع ثقل الطير. ومنها: أنه إذا قبض جناحها وحركها لا تسقط. ومنها: أنه خلق الهواء وجعله على صفة يصح فيها الطيران، ومثل هذا يحتاج إلى شيئين: قادر على الأجسام والأعراض، وعالم بتفاصيل الأجزاء التي معها يصح الطيران؛ واعتمادات توجد في الهواء تمنع الطير من السقوط، وكل ذلك لا يصح إلا منه تعالى؛ لذلك قال: (إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ).[474]

قال شيخنا الزمخشري: (صافَّاتٍ) باسطات أجنحتهن في الجوّ عند طيرانها، لأنهن إذا بسطنها صففن قوادمها صفا (وَيَقْبِضْنَ) ويضممنها إذا ضربن بها جنوبهن. فإن قلت: لم قيل: ويقبضن، ولم يقل: وقابضات؟ قلت: لأن الأصل في الطيران هو صف الأجنحة، لأنّ الطيران في الهواء كالسباحة في الماء، والأصل في السباحة مدّ الأطراف وبسطها. وأما القبض فطارئ على البسط للاستظهار به على التحرك، فجيء بما هو طار غير أصل بلفظ الفعل، على معنى أنهن صافات، ويكون منهن القبض تارة كما يكون من السابح (ما يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمنُ) بقدرته وبما دبر لهن من القوادم والخوافي، وبنى الأجسام على شكل وخصائص قد تأتى منها الجري في الجو (إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ) يعلم كيف يخلق وكيف يدبر العجائب.[475]

(ما يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمنُ) بتوطئة الهواء لهن و لو لا ذلك لسقطن و في ذلك أعظم دلالة و أوضح برهان و حجة بأن من سخر الهواء هذا التسخير على كل شيء قدير و الصف وضع الأشياء المتوالية على

---

[474] التهذيب في التفسير ج 10 ص 7013

[475] الكشاف ج4 ص 581

خط مستقيم و القبض جمع الأشياء عن حال البسط و الإمساك اللزوم المانع من السقوط عن علي بن عيسى [الرماني].[476]



قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿أَفَنَجۡعَلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ كَٱلۡمُجۡرِمِينَ ٣٥ مَا لَكُمۡ كَيۡفَ تَحۡكُمُونَ ٣٦ أَمۡ لَكُمۡ كِتَٰبٞ فِيهِ تَدۡرُسُونَ ٣٧﴾

القلم: ٣٥ - ٣٧

قال شيخنا الحاكم الجشمي: (أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ) وهذا استفهام والمراد النفي؛ أي: لَا يستويان، ولا يسوَّى بينهم؛ لأنه ليس بفعل حكيم (مَا لَكُمْ كَيفَ تَحْكُمُونَ) يعني: ما أسوأ هذا الحكم؛ فكيف تحكمون به على اللّه أنه يفعله مع أنه حكيم لا يفعل القبيح؟! (أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ) أي: لكم كتاب تدرسون ذلك فيه، وقد قامت الحجة بذلك فتمسكتم به..[477]

قال شيخنا الزمخشري: كان صناديد قريش يرون وفور حظهم من الدنيا وقلة حظوظ المسلمين منها، فإذا سمعوا بحديث الآخرة وما وعد الله المسلمين قالوا: إن صح أنا نبعث كما يزعم محمد ومن معه لم تكن حالهم وحالنا إلا مثل ما هي في الدنيا، وإلا لم يزيدوا علينا ولم يفضلونا، وأقصى أمرهم أن يساوونا، فقيل: أنحيف في الحكم فنجعل المسلمين كالكافرين. ثم قيل لهم على طريقة الالتفات (ما لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ) هذا الحكم الأعوج؟ كأنّ أمر الجزاء مفوّض إليكم حتى تحكموا فيه بما شئتم (أَمْ لَكُمْ كِتابٌ من السماء تَدْرُسُونَ) في ذلك الكتاب أنّ ما تختارونه وتشتهونه لكم، كقوله تعالى (أَمْ لَكُمْ سُلْطانٌ مُبِينٌ فَأْتُوا بِكِتابِكُمْ) والأصل تدرسون أنّ لكم ما تخيرون، بفتح أنّ، لأنه

---

[476] تفسير مجمع البيان للطبرسي ج 10 ص 66

[477] التهذيب في التفسير ج 10 ص 7040

مدروس، فلما جاءت اللام كسرت. ويجوز أن تكون حكاية للمدروس، كما هو، كقوله (وَتَرَكْنا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ سَلامٌ عَلى نُوحٍ فِي الْعالَمِينَ).[478]

قال قاضي القضاة: يدل على ما نقوله فى الوعيد ؛ لأن الأمر لو كان كما تقوله المرجئة ، لكان لا يمتنع فى كثير من المجرمين أن يجعل حالهم فى إدخال الجنة ، كحال المسلمين ، وقد شرحنا ذلك من قبل.[479]

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿يَوۡمَ يُكۡشَفُ عَن سَاقٖ وَيُدۡعَوۡنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ ٤٢﴾ القلم: ٤٢

قال شيخنا الحاكم الجشمي: (يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ) أي: فليأتوا بشركائهم يوم القيامة، (يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ) معناه: عن شدة منْ الأمر الفظيع من هول ذلك اليوم، عن ابن عباس، والحسن، ومجاهد، وسعيد بن جبير، وقتادة، والضحاك، وقيل: هو عند الناس آخر أيام الدنيا، وأول يوم الآخرة لم يلق العبد يومًا أشد منه، عن أبي مسلم. (وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ) قيل: يوم حضور الملائكة وظهور أعلام الآخرة وقت النزع، فيدعون إلى الصلاة (فَلَا يَسْتَطِيعُونَ)، عن أبي مسلم، وقيل: هذا في الآخرة يؤمرون بالسجود تقريعًا فلا يمكنهم، وقيل: يحدث في أصلابهم صلابة تمنع من السجود.[480]

قال شيخنا الزمخشري: الكشف عن الساق والإبداء عن الخدام : مثل في شدة الأمر وصعوبة الخطب، وأصله في الروع والهزيمة وتشمير المخدرات عن سوقهنّ في الهرب، وإبداء خدامهن عند ذلك. قال حاتم:

أخو الحرب إن عضّت به الحرب عضّها　　وإن شمّرت عن ساقها الحرب شمّرا

وقال ابن الرقيات:

تذهل الشّيخ عن بنيه وتبدى　　عن خدام العقيلة العذراء

فمعنى (يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ ساقٍ) في معنى: يوم يشتدّ الأمر ويتفاقم، ولا كشف ثم ولا ساق، كما تقول للأقطع الشحيح: يده مغلولة، ولا يد ثم ولا غل، وإنما هو مثل في البخل.

---

478 الكشاف ج 4ص 592

479 متشابه القرآن ص 663

480 التهذيب في التفسير ج 10 ص 7041

وأما من شبه فلضيق عطنه وقلة نظره في علم البيان، والذي غرّه منه حديث ابن مسعود رضى الله عنه: «يكشف الرحمن عن ساقه، فأمّا المؤمنون فيخرّون سجدا ، وأما المنافقون فتكون ظهورهم طبقا طبقا كأنّ فيها سفافيد» ومعناه: يشتد أمر الرحمن ويتفاقم هوله، وهو الفزع الأكبر يوم القيامة، ثم كان من حق الساق أن تعرف على ما ذهب إليه المشبه، لأنها ساق مخصوصة معهودة عنده وهي ساق الرحمن. فإن قلت: فلم جاءت منكرة في التمثيل؟ قلت: للدلالة على أنه أمر مبهم في الشدة منكر خارج عن المألوف، كقوله (يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلى شَيْءٍ نُكُرٍ) كأنه قيل: يوم يقع أمر فظيع هائل، ويحكى هذا التشبيه عن مقاتل: وعن أبى عبيدة: خرج من خراسان رجلان، أحدهما: شبه حتى مثل، وهو مقاتل بن سليمان، والآخر نفى حتى عطل وهو جهم بن صفوان، ومن أحس بعظم مضارّ ففد هذا العلم علم مقدار عظم منافعه. وقرئ: يوم نكشف بالنون. وتكشف بالتاء على البناء للفاعل والمفعول جميعا، والفعل للساعة أو للحال، أى: يوم تشتدّ الحال أو الساعة، كما تقول: كشفت الحرب عن ساقها على المجاز. وقرئ: تكشف بالتاء المضمومة وكسر الشين، من أكشف: إذا دخل في الكشف. ومنه. أكشف الرجل فهو مكشف، إذا انقلبت شفته العليا. وناصب الظرف: فليأتوا. أو إضمار «اذكر» أو يوم يكشف عن ساق كان كيت وكيت، فحذف للتهويل البليغ، وإن ثم من الكوائن ما لا يوصف لعظمه. عن ابن مسعود رضى الله عنه: تعقم أصلابهم، أى ترد عظاما بلا مفاصل لا تنثني عند الرفع والخفض. وفي الحديث: وتبقى أصلابهم طبقا واحدا، أى. فقارة واحدة. فإن قلت: لم يدعون إلى السجود ولا تكليف؟ قلت: لا يدعون إليه تعبدا وتكليفا، ولكن توبيخا وتعنيفا على تركهم السجود في الدنيا، مع إعقام أصلابهم والحيلولة بينهم وبين الاستطاعة تحسيرا لهم وتنديما على ما فرّطوا فيه حين دعوا إلى السجود، وهم سالمون الأصلاب والمفاصل ممكنون مزاحو العلل فيما تعبدوا به.[481]

قال قاضي القضاة: وأما تعلق المشبهة بقوله : (يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ ساقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلا يَسْتَطِيعُونَ) فبعيد ، وذلك أنه ليس فى الظاهر إضافة الساق إلى من هو له ، لو كان المراد بالساق

---

[481] الكشاف ج 4 ص 595/594/593

الجارحة ، فمن أين أن المراد إثباته لله؟ تعالى عنه! وإنما أراد بذلك أن يبين شدة ذلك اليوم ، وعظيم ما ينزل فيه على أهل العقاب عند المحاسبة ، فقال تعالى هذا القول على طريق العرب فى هذا الباب.

وقوله : (وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلا يَسْتَطِيعُونَ) لا يجوز تعلق المجبرة به فى تكليف ما لا يستطاع ؛ لأن الغرض بذلك ليس هو التكليف ، لأن الآخرة لا يصح فيها ذلك. والمراد به : التبكيت على تقصيرهم فيما كلفوه من السجود ، وبيان أنهم لا يمكنهم تلافى ما فرطوا فيه من قبل.

وقوله : (وَقَدْ كانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سالِمُونَ) يدل على أنهم فى حال التكليف ، كانوا سالمين من الموانع ، ممّكنين منه ، فعدلوا عنه ، فلحقهم العذاب.[482]

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُواْ ٱلذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ ﴿٥١﴾﴾ القلم: ٥١

قال شيخنا الحاكم الجشمي: (وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ) أي: القرآن، قيل: معناه: ينظرون إليك عند تلاوة القرآن والدعاء إلى التوحيد نظر عداوة وبُغْضٍ وإنكار لما يسمعون، وتعجب منه، فيكادون يصرعونك بحدة نظرهم، ويزيلونك عن موضعك، تقول العرب: نظر إليه نظرًا شَزْرًا، ونظرًا منكرًا، قال الشاعر:

يَتَلاحَظُونَ إِذا الْتَقَوْا فِي مَحْفَلٍ   نَظَرًا يُزِيلُ مَوَاقِعَ الأَقْدَامِ

وقيل: يبعدونك بأبصارهم، يقال: رمي سهمهم فزلق: إذا بعد، عن ابن عباس، وقيل: يزهقونك، عن قتادة، وقيل: يصرعونك، عن الأصم، وقيل: يرمونك، عن عطية، وقيل: يزيلونك، عن المؤرج، وقيل: يصيبونك بأعينهم، عن السدي، وقيل: يقتلونك، عن الحسن، والكل يرجع إلى ما قدمناه من غير الإصابة بالعين، وذلك ليس بصحيح؛ لأن ذلك لا يثبت، ومن يدعيه يزعم أنه يكون فيما يستحسن.

فإن قالوا: كانوا يستحسنون القرآن؟

[482] متشابه القرآن ص 663

قلنا: كيف وهم يجحدونه، وينسبونه إلى السحر. (وَيَقُولُونَ إِنَّهُ) يعني محمدًا صلى الله عليه وسلم (لَمَجْنُونٌ)، ونسبهم إياه إلى الجنون مع علمهم بوفور عقله على أحد وجهين: إما تشبيهًا حيث وعدهم بالبعث مع بُعْدِهِ في أوهامهم، أو تلبيسًا على العوام ليصرفوهم عنه.[483]

<u>قال شيخنا الزمخشري</u>: إن مخففة من الثقيلة واللام علمها. وقرئ، ليزلقونك بضم الياء وفتحها. وزلقه وأزلقه بمعنى: ويقال: زلق الرأس وأزلقه: حلقه: وقرئ: ليزهقونك، من زهقت نفسه وأزهقها، يعنى: أنهم من شدّة تحديقهم ونظرهم إليك شزرا بعيون العداوة والبغضاء، يكادون يزلون قدمك أو يهلكونك، من قولهم: نظر إلىّ نظرا يكاد يصرعني، ويكاد يأكلنى، أى: لو أمكنه بنظره الصرع أو الأكل لفعله. قال:

يتقارضون إذا التقوا في موطن   نظرا يزلّ مواطئ الأقدام

وقيل: كانت العين في بنى أسد، فكان الرجل منهم يتجوع ثلاثة أيام فلا يمر به شيء، فيقول فيه: لم أر كاليوم مثله إلا عانه، فأريد بعض العيانين على أن يقول في رسول الله صلى الله عليه وسلم مثل ذلك، فقال: لم أر كاليوم رجلا فعصمه الله. وعن الحسن: دواء الإصابة بالعين أن تقرأ هذه الآية (لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ) أي القرآن لم يملكوا أنفسهم حسدا على ما أوتيت من النبوة (وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ) حيرة في أمره وتنفيرا عنه، وإلا فقد علموا أنه أعقلهم. والمعنى: أنهم جننوه لأجل القرآن (وَما هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وموعظة لِلْعالَمِينَ) فكيف يجنن من جاء بمثله.[484]

<u>قال الجبائي</u> منكرا لذلك: إن هذا ليس بصحيح، لان هذا من نظر العداوة وذلك عندهم من نظر المحبة على أن إصابة العين ليس بصحيح.

<u>وقال الرماني</u>: وهذا الذي ذكره ليس بصحيح، لانه لا يمتنع أن يكون الله تعالى أجرى العادة بصحة ذلك لضرب من المصلحة، فلا وجه للامتناع من ذلك، وعليه اجماع المفسرين، وهو المعروف بين العقلاء والمسلمين وغيرهم، فينبغي ان يكون مجوزا.[485]

---

[483] التهذيب في التفسير ج 10 ص 7048

[484] الكشاف ج 4 ص 597

[485] التبيان في تفسير القرآن للطوسي ج 10 ص 87



قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَٱلۡمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرۡجَآئِهَاۚ وَيَحۡمِلُ عَرۡشَ رَبِّكَ فَوۡقَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ ثَمَٰنِيَةٞ ١٧﴾ الحاقة: ١٧

قال شيخنا الحاكم الجشمي: (وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ) هو العرش المعروف (فَوْقَهُمْ) قيل: فوق الملائكة التي على أرجائها، وقيل: فوق أفل الجمع (يَوْمَئِذٍ) أي: يوم القيامة (ثَمَانِيَةٌ) قيل: ثمانية صفوف من الملائكة لا يعلم عددهم إلا اللَّه، عن ابن عباس، وقيل: ثمانية أملاك، عن ابن زيد، وعن النبي – صلى الله عليه وسلم –: "هم اليوم أربعة فإذا كان يوم القيامة أيدهم الله بأربعة أخرى فيكونون ثمانية" وقيل: ثمانية أجناس من الملائكة..[486]

قال شيخنا قاضي القضاة: أما تعلق المشبهة بقوله تعالى : (وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمانِيَةٌ) في أنه يدل على أن العرش مكان له ، من حيث الإضافة ، فبعيد ، وذلك لأن الإضافة على هذا الوجه تصح على وجوه مختلفة ، فلا يدل على ما قالوه ، ولو وجب بذلك أن يكون العرش مكانه ، لوجب ، متى وصفت الكعبة بأنها بيت الله أن تكون مسكنا له! وأن يكون فيها ، ويتعالى الله عن ذلك. وكان يجب على قولهم أن يكون عرشه محمولا ، ولا يكون كذلك إلا وهو محمول ؛ لأن الجسم إذا حمل فقد حمل ما عليه ، والله يتعالى عن ذلك![487]

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَوۡ تَقَوَّلَ عَلَيۡنَا بَعۡضَ ٱلۡأَقَاوِيلِ ٤٤ لَأَخَذۡنَا مِنۡهُ بِٱلۡيَمِينِ ٤٥﴾ الحاقة: ٤٤ – ٤٥

قال شيخنا الحاكم الجشمي: (وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ) أي: تَخَرَّصَ علينا، وتخلق كذبًا، قيل: ادعى الوحي فيما لم يوح إليه، عن أبي علي، وقيل: بزيادة أو نقصان، أو تغيير لو فعل ذلك

---

486 التهذيب في التفسير ج 10 ص 7059
487 متشابه القرآن ص 664

(لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ) أي: لو فعل ذلك لانتقم الله منه، فنفى ذلك عنه، وبَيَّنَ عصمته، قيل: لأخذنا منه يده اليمنى على جهة الإذلال، كما يقول السلطان: يا غلام، خذ بيده، إهانة له، عن ابن جرير، وقيل: باليمين بالقوة؛ أي: انتقمنا منه بقدرة عليه، عن ابن عباس، وقيل: لقطعنا يده اليمنى، عن الحسن، وأبي مسلم، وقيل: الباء زائدة؛ أي: لأخذنا منه اليمين، والمعنى ما قاله الحسن، وقيل: (مِنْ) زائدة، والمعنى: لأخذناه وعاقبناه بالحق..[488]

قال شيخنا الزمخشري: التقوّل: افتعال القول، كأن فيه تكلفا من المفتعل. وسمى الأقوال المتقولة «أقاويل» تصغيرا بها وتحقيرا، كقولك: الأعاجيب والأضاحيك، كأنها جمع أفعولة من القول. والمعنى: ولو ادعى علينا شيئا لم نقله لقتلناه صبرا، كما يفعل الملوك بمن يتكذب عليهم معاجلة بالسخط والانتقام، فصوّر قتل الصبر بصورته ليكون أهول: وهو أن يؤخذ بيده وتضرب رقبته. وخص اليمين عن اليسار لأن القتال إذا أراد أن يوقع الضرب في قفاه أخذ بيساره، وإذا أراد أن يوقعه في جيده وأن يكفحه بالسيف، وهو أشد على المصبور لنظره إلى السيف أخذ بيمينه. ومعنى (لَأَخَذْنا مِنْهُ بِالْيَمِينِ) لأخذنا بيمينه، كما أن قوله (لَقَطَعْنا مِنْهُ الْوَتِينَ) لقطعنا وتينه، وهذا بين. والوتين: نياط القلب وهو حبل الوريد: إذا قطع مات صاحبه. وقرئ: ولو تقول على البناء للمفعول. قيل حاجِزِينَ في وصف أحد، لأنه في معنى الجماعة، وهو اسم يقع في النفي العام مستويا فيه الواحد والجمع والمذكر والمؤنث. ومنه قوله تعالى (لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ)، (لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّساءِ) والضمير في عنه للقتل، أى: لا يقدر أحد منكم أن يحجزه عن ذلك ويدفعه عنه. أو لرسول الله، أى: لا تقدرون أن تحجزوا عنه القاتل وتحولوا بينه وبينه، والخطاب للناس..[489]

قال قاضي القضاة: وتعلقهم بقولهم : (وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنا بَعْضَ الْأَقاوِيلِ لَأَخَذْنا مِنْهُ بِالْيَمِينِ) في إثبات اليد لله تعالى ، فبعيد ، وذلك أن المراد به القدرة ، على ما بيناه من قبل. وقد بينا أن حمله فى الحقيقة على ظاهره يوجب إثبات يمين ويسار على الصفة المخصوصة التى عقلناها ، وذلك لا يصح عند مسلم.[490]

---

488 التهذيب في التفسير ج 10 ص 7068

489 الكشاف ج 4ص 607

490 متشابه القرآن ص 664

سُورَةُ المَعَارِج

قَالَ تَعَالَى: ﴿مِّنَ ٱللَّهِ ذِى ٱلْمَعَارِجِ ۝٣ تَعْرُجُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ۝٤﴾ المعارج: ٣ - ٤

قال شيخنا الزمخشري: (مِنَ اللَّهِ) أي: أنه أحل بهم، فالعذاب من خلقه ومن جهته (ذِي الْمَعَارِجِ) صفة اللَّه، أي: رب المعارج ومالكها وخالقها، كقولهم: فلان ذو مال، واختلفوا في المعارج، قيل: السماوات، عن ابن عباس؛ لأنها موضع عروج الملائكة، وقيل: المعارج: الفتق التي بين كل سماءين وأرضين، عن ابن كيسان، وعلى هذا (تَعْرُجُ) يتصل بالمعارج، وقيل: ذي الفواضل والنعم؛ عن قتادة، لأنها على مراتب، وقيل: معالي الدرجات التي يعطيها الله أولياءه في الجنة؛ لأنه يعطيهم منازل شريفة ودرجات عظيمة، عن أبي علي، فعلى هذا (تَعْرُجُ) يكون ابتداء كلام، وقيل: معارج الملائكة، عن مجاهد، وقيل: ذي الدرجات، عن سعيد بن جبير. (تَعْرُجُ) أي: تصعد (الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ) جبريل، خصه بالذكر من بين الملائكة تعظيمًا له، قيل: هم الحفظة يعرجون بعد قضائهم للأمور التي أمروا بها، وقيل: تعرج بالأعمال وتنزل بالتدابير، وقيل: المراد جميع الملائكة، وقيل: تعرج الملائكة في الغمام لقوله: (وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنْزِيلًا) يعني يوم القيامة (إِلَيهِ) قيل: إلى الموضع الذي يعطيهم الله فيه الثواب في الآخرة كقوله: (إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ) إلى الموضع الذي أمرني ووعدني (فِي يَوْمٍ) قيل: في وقت، وقيل: سماه يومًا؛ لأن الملائكة تعرج إليه في مقدار يوم، عن الزجاج. (كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ) اختلفوا في هذه المدة، قيل: هو يوم القيامة، وقيل: بمدة الدنيا، وقيل: لعروج الملائكة، وقيل: للاستطالة، وقيل: للفعال، عن أبي علي، ثم اختلفوا في معنى الكلام، وما ضرب له المدة، فقيل: يوم القيامة تفعل فيه من الأمور، ويقضى من الأحكام بين العباد، وإنزال كل مرتق في الموضع المستحق لو فعل في الدنيا كان مقداره خمسين ألف سنة، عن أبي علي، وقيل: تعرج

الملائكة والروح إليه في يوم كان مقداره من عروج غيرهم خمسين ألف سنة، وذلك من أسفل الأرضين السبع إلى فوق السماوات السبع، عن مجاهد. فأما قوله: (يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ)، فهذا ما بين السماء والأرض الصعود والنزول ألف سنة، خمسمائة للصعود وخمسمائة للنزول، عن مجاهد، وقيل: هو يوم القيامة، عن الحسن، وقتادة، والضحاك، فقدر موقفهم للحساب حتى يفصل بين الناس خمسون ألف سنة من سنين الدنيا، وعروج الملائكة في بعضه، وقيل: لو ولي المحاسبة غيره تعالى في ذلك اليوم لم يفرغ إلا بعد خمسين ألف سنة، وهو يفرغ منه في ساعة، عن الكلبي، وقيل: فيه تقديم وتأخير تقديره: ليس له دافع من الله في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة تعرج الملائكة والروح إليه، وقيل: هو يوم القيامة جعل على الكافرين مقدار خمسين ألف سنة، يعني أن أهل الموقف يستطيلون ذلك اليوم لشدته، عن ابن عباس، وأبي مسلم. وروي عن النبي - صلى الله عليه وسلم - قيل له: ما أطول ذلك اليوم؟ فقال: "والذي نفسي بيده إنه ليخفف علي المؤمن حتى يكون أخف عليه من صلاة مكتوبة يصليها في الدنيا"، وعن إبراهيم: ما قدر ذلك اليوم على المؤمنين إلا كما بين الظهر والعصر، وقيل: هو مدة عمر الدنيا من أولها إلى آخرها خمسون ألف سنة، لا يدري أحدكم كم مضى؟ وكم بقي؛ وإنما يعلمها الله تعالى، عن الحكم، وعكرمة، فحمل بعضهم المدة على التحقيق إما للدنيا أو للقيامة، وبعضهم على التشبيه على ما بينا.[491]

قال شيخنا الزمخشري: (تَعْرُجُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ) إلى عرشه وحيث تهبط منه أوامره فِي (يَوْمٍ كانَ مِقْدارُهُ) كمقدار مدة (خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ) مما يعد الناس. والروح. جبريل عليه السلام، أفرده لتميزه بفضله. وقيل: الروح خلق هم حفظة على الملائكة، كما أنّ الملائكة حفظة على الناس.[492]

قال قاضي القضاة: أما تعلق المشبهة بقوله : (مِنَ اللهِ ذِي الْمَعارِجِ تَعْرُجُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ) فبعيد ، وذلك أن المعارج هى الدرجات الرفيعة ، والله تعالى مالك لذلك وخالق له ، فصح أن يضيفهما إلى نفسه.

---

[491] التهذيب في التفسير ج 10 ص 7076/7075/7074

[492] الكشاف ج4 ص 609

وقوله تعالى : (تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ) ـ وهو يعنى جبريل ـ إليه المراد به : إلى موضع هذه الدرجات. وقد بينا فى مواضع أن ذلك لا يجب حمله على ظاهره.[493]



قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾ ﴾ نوح: ٢٧

قال شيخنا الحاكم الجشمي: (إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ) يعني يتواصون بمخالفة نوح وتكذيبه (وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا) أي: لا يلد إلا من يكفر عند بلوغه حد التكليف كافرًا؛ لأن الطفل لا يكون كافرًا، وقيل: إنما قال نوح هذا حين أخرج الله كل مؤمن من أصلاب رجالهم وأرحام نسائهم، وأعقم أرحام نسائهم، وأيبس أصلاب رجالهم، أربعين سنة قبل العذاب، وقيل: سبعين سنة، وأخبر الله نوحًا أنهم لا يؤمنون، ولا يلدون مؤمنًا، فحينئذ دعا عليهم، عن محمد بن كعب، ومقاتل، والربيع، وعطاء، وابن زيد، فأجاب الله دعاءه، وأهلكهم بالطوفان، ولم يكن فيهم صبي وقت العذاب، وقال الحسن وأبو العالية: أهلك الأولاد الأطفال بغير عذاب، ثم أهلكهم بالعذاب، وقيل: عم بالدعاء جميع الكفار، فَعَمَّ بالغرق، وقيل: يجوز أن يكون فيهم أطفال، فيكون ذلك لهم محنة يجب عليها العوض كالأمراض والأوجاع التي تصيب الأطفال، وقيل: يدل على أنه لم يكن فيهم صبي قوله تعالى: (وَقَوْمَ نُوحٍ لَمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ) والأطفال لم يكذبوا.

قلنا: العذاب لم يقع إلا على المكذبين.[494]

قال شيخنا الزمخشري: فإن قلت: بم علم أن أولادهم يكفرون، وكيف وصفهم بالكفر عند الولادة؟ قلت: لبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما، فذاقهم وأكلهم وعرف طباعهم وأحوالهم، وكان الرجل منهم ينطلق بابنه إليه، ويقول: احذر هذا، فإنه كذاب، وإن أبى حذرنيه فيموت الكبير وينشأ

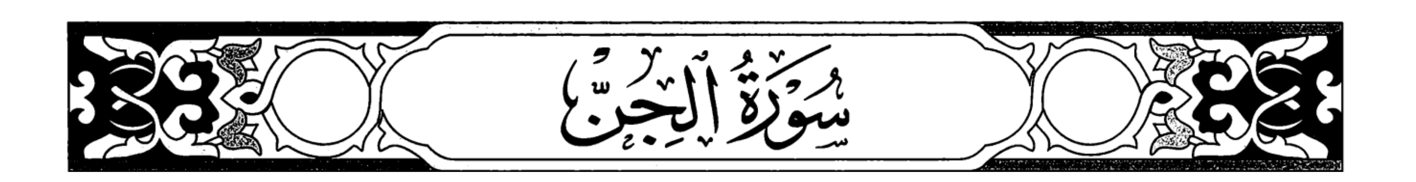
---

[493] متشابه القرآن ص 665

[494] التهذيب في التفسير ج 10 ص 7104/7103

الصغير على ذلك، وقد أخبره الله عزّ وجل أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن، ومعنى (لا يَلِدُوا إِلَّا فاجِراً كَفَّاراً) لا يلدوا إلا من سيفجر ويكفر. فوصفهم بما يصيرون إليه، كقوله عليه السلام «من قتل قتيلا فله سلبه»[495]

قال قاضي القضاة: وقوله تعالى : (إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبادَكَ وَلا يَلِدُوا إِلاَّ فاجِراً كَفَّاراً) لا يصح أن يتعلق به من يرى جواز تعذيب الأطفال ؛ لأنه يجب على هذا الظاهر أن يكون المولود منهم فى حال سقوطه فاجرا كافرا ، وهذا مما لا يبلغه أحد ، فالمراد إذن به : ولا يلدوا إلا من سيفجر ويكفر عند البلوغ ، لأنه تعالى كان قد أعلمه أن ذلك يكون حال ذريتهم ، وندبه إلى هذا الدعاء ، لما فيه من المصلحة.[496]



قَالَ تَعَالَى: ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا ٢٦ إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٖ فَإِنَّهُۥ يَسۡلُكُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ رَصَدٗا ٢٧﴾ الجن: ٢٦ – ٢٧

قال شيخنا الحاكم الجشمي: (عَالِمُ الْغَيبِ) أي: هو عالم الغيب، فيعلم متى يكون يوم القيامة (فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا) أي: لا يُطْلِعُ على غيبه أحدًا (إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ) أي: من يصطفيه ويختاره ويرتضيه من رسول، ويعلم أنه يصلح للرسالة، فيطلعه على ما يشاء من الغيب على ما يرى به من المصلحة، عن قتادة. (فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا) أي: حافظًا، قيل: أراد علم ما مضى من أخبار الأمم وأنبيائهم، وما جرى عليهم من أذى قومهم، وما أعد لهم من الثواب، وفيه تقوية لقلبه، وقيل: معناه: تعريف ما كان وما يكون، فيكون العلم بذلك كالرصد له، والرصد:

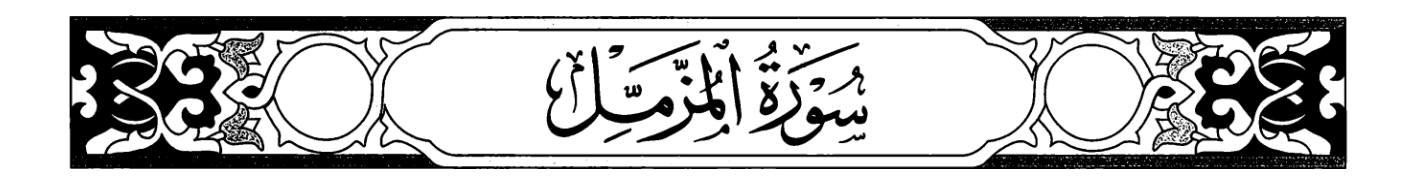
---

495 الكشاف ج 4 ص 621

496 متشابة القرآن ص 667

الطريق، ويقال: سلكه وأسلكه؛ أي: سلك به طريقًا يهون معه القيام بأمر النبوة، وقيل: كان إذا نزل الوحي بعث الله جبريل ومعه ملائكة يحرسون الوحي حتى لا يسترقه، فيحرسون النبي - صلى الله عليه وسلم - من كفار الإنس والجن إلى أن يؤديَ، ويبلغَ إلى الخلق مصالحهم، وقيل: رصدًا من الملائكة حفظة، عن إبراهيم، وقتادة، وروي أن سورة (الأنعام) نزلت ومعها سبعون ألف ملك، لهم زجل بالتسبيح، يحرسون رسالة الله من أن يطلع عليها أحد حتى يبلغوها، وقيل: أربعة من الملائكة يحفظونه، عن سعيد بن المسيب.[497]

<u>قال شيخنا الزمخشري</u>: (عالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ) فلا يطلع. و(مِنْ رَسُولٍ) تبيين لمن ارتضى، يعنى: أنه لا يطلع على الغيب إلا المرتضى الذي هو مصطفى للنبوة خاصة، لا كل مرتضى. وفي هذا إبطال للكرامات ، لأنّ الذين تضاف إليهم وإن كانوا أولياء مرتضين، فليسوا برسل. وقد خصّ الله الرسل من بين المرتضين بالاطلاع على الغيب وإبطال الكهانة والتنجيم، لأنّ أصحابهما أبعد شيء من الارتضاء وأدخله في السخط (فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ) يدي من ارتضى للرسالة (وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَداً) حفظة من الملائكة يحفظونه من الشياطين يطردونهم عنه ويعصمونه من وساوسهم وتخاليطهم، حتى يبلغ ما أوحى به إليه. وعن الضحاك: ما بعث نبيّ إلا ومعه ملائكة يحرسونه من الشياطين أن يتشبهوا بصورة الملك.[498]



قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا ۝١٧﴾ المزمل: ١٧

<u>قال شيخنا الحاكم الجشمي</u>: (يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ) أي: الصبيان (شِيبًا) لشدته، وقيل: إنما هو طريق المَثَلِ، تقول العرب: حدث أمر تشيب فيه النواصي، ويشيبا فيه الصغير، وهو الوجه.[499]

[497] التهذيب في التفسير ج 10 ص 7128/7127
[498] الكشاف ج 4 ص 633/632
[499] التهذيب في التفسير ج 10 ص 7143

قال شيخنا الزمخشري: (يَوْماً) مفعول به، أي: فكيف تقون أنفسكم يوم القيامة وهو له، إن بقيتم على الكفر.

ولم تؤمنوا وتعملوا صالحا. ويجوز أن يكون ظرفا، أى: فكيف لكم بالتقوى في يوم القيامة إن كفرتم في الدنيا. ويجوز أن ينتصب بكفرتم على تأويل جحدتم، أى فكيف تتقون الله وتخشونه إن جحدتم يوم القيامة والجزاء: لأن تقوى الله خوف عقابه (يَجْعَلُ الْوِلْدانَ شِيباً) مثل في الشدة يقال في اليوم الشديد: يوم يشيب نواصي الأطفال. والأصل فيه: أنّ الهموم والأحزان إذا تفاقمت على الإنسان. أسرع فيه الشيب. قال أبو الطيب:

والهمّ يخترم الجسيم نحافة ويشيب ناصية الصّبيّ ويهرم

وقد مرّ بى في بعض الكتب أن رجلا أمسى فاحم الشعر كحنك الغراب، وأصبح وهو أبيض الرأس واللحية كالثغامة، فقال: أريت القيامة والجنة والنار في المنام، ورأيت الناس يقادون في السلاسل إلى النار، فمن هول ذلك أصبحت كما ترون. ويجوز أن يوصف اليوم بالطول. وأنّ الأطفال يبلغون فيه أوان الشيخوخة والشيب..[500]

قال شيخنا القاضي عبد الجبار: تعالى : (فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْماً يَجْعَلُ الْوِلْدانَ شِيباً) لا يدل على أن فى ذلك اليوم يخاف الولدان ويعذّبون. وذلك أن هذه الطريقة تذكر لعظم حال يوم القيامة، وعلى هذا الوجه يقال فى الأمر الهائل العظيم : تشيب منه النواصى ، وتشيب الولدان. وهذا كقوله : (يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ ساقٍ)، وكقوله : (وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ) في أن المقصد بجميعه الإنباء عن عظيم ما يرد ذلك اليوم على أهل المعاصى ، دون تحقيق ذلك على جهة الخبر ؛ يبين ذلك أنه تعالى جعل هذا الذكر باعثا للعباد على ترك الكفر ، والتقوى. ولو كان ذلك اليوم بهذه الصفة ، لكان بأن يزهد فى الإيمان والتقوى أقرب ، لأن المكلف إذا تصور أن ذلك اليوم يعذب من لا ذنب له ، زهد فى طاعته ، ويجوز أن تكون من أسباب هلاكه ، يبين ذلك أنه تعالى أضاف ذلك إلى اليوم ، وقد علمنا أن اليوم لا يجعل ولا يفعل ، وأن الفاعل سواه. وكل ذلك يبين أن الظاهر يقتضى ما قلناه.[501]

---

[500] الكشاف ج 4 ص 642/641

[501] متشابه القرأن ص 669



قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡ رَهِينَةٌ ۝٣٨﴾ المدثر: ٣٨

قال شيخنا الحاكم الجشمي: (كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ) أي: المرهون بعمله: المؤاخذ به، المجازى عليه؛ لأنه يكون محبوسًا بعمله كالرهن يكون محبوسًا بدينه؛ يعني أن كل أحد مأخوذ بذنبه فيجازى على عمله.[502]

قال شيخنا الزمخشري: (رَهِينَةٌ) ليست بتأنيث رهين في قوله كُلُّ امْرِئٍ بِما كَسَبَ رَهِينٌ لتأنيث النفس، لأنه لو قصدت الصفة لقيل: رهين، لأنّ فعيلا بمعنى مفعول يستوي فيه المذكر والمؤنث، وإنما هي اسم بمعنى الرهن، كالشتيمة بمعنى الشتم، كأنه قيل: كل نفس بما كسبت رهن، ومنه بيت الحماسة:

أبعد الّذى بالنّعف نعف كويكب رهينة رمس ذى تراب وجندل

كأنه قال: رهن رمس. والمعنى: كل نفس رهن بكسبها عند الله غير مفكوك..[503]

قال الرماني: في ذلك دلالة على القائلين باستحقاق الذم، لانه عم الارتهان بالكسب في هذا الموضع، وهم يزعمون انه يرتهن بأن لم يفعل ما وجب عليه من غير كسب شئ منه، فكانت الاية حجة على فساد مذهبهم.[504]

قال قاضي القضاة: وقوله تعالى : (كُلُّ نَفْسٍ بِما كَسَبَتْ رَهِينَةٌ) يدل على أنه لا يؤاخذ الإنسان إلا بذنبه ، وأن أطفال المشركين لا يجوز أن يعذبوا بذنوب آبائهم. « ويدل ذلك أيضا على أن أفعال العباد لا

[502] التهذيب في التفسير ج 10 ص 7168
[503] الكشاف ج 4 ص 655/654
[504] التبيان في تفسير القرآن ج 10 ص 177

يجوز أن تكون خلقا لله تعالى وإلا كان مأخوذا بخلق غيره على وجه لا يمكنه التخلص منه ، ولئن جاز ذلك ، ليجوزن أن يؤخذ بكسب غيره ، وإن كان لا بقدر) على تركه.[505]



قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ﴿٢٤﴾ تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴿٢٥﴾﴾ القيامة: ٢٢ - ٢٥

قال شيخنا الحاكم الجشمي: (وُجُوهٌ) قيل: معناه ذات وجوه، وقيل: أراد به الأنفس، وقيل: أراد وجوه أرباب الطاعات (يَوْمَئِذٍ) أي: يوم القيامة (نَاضِرَةٌ) قيل: بهجة حسنة، عن ابن عباس، والحسن، وقيل: مسرورة، عن مجاهد، وقيل: ناعمة، عن ابن زيد، وقيل: مضيئة، عن السدي، وقيل: بيض يعلوها النور، عن مقاتل، وقيل: مشرقة، عن الفراء. (إِلَىٰ رَبِّهَا) قيل: معناه: نِعَم ربِّها، وقيل: (إلى رَبّها نَاظِرَةٌ) قيل فيه وجهان:

أحدهما: أن المراد نظر العين.

والثاني: أن المراد الانتظار.

فأما من حمله على الانتظار، اختلفوا، قيل: تنتظر الثواب من ربها، عن مجاهد، والحسن، وسعيد بن جبير، وأبي صالح، والضحاك، وروي ذلك عن أمير المؤمنين، وقيل: مؤملة لتجديد الكرامة، كما يقال: عيني ممدودة إلى الله، وإلى فلان بمعنى التأميل، وأنا شاخصة الطرف إلى فلان، ولما كانت العيون بعض أعضاء الوجوه أضيف الفعل الذي يقع بالعين إليها، عن أبي مسلم، وقيل: (إلى) بمعنى النعمة، أي:

[505] متشابه القرآن ص 670

نعم ربها منتظرة، وقيل: معناه: أنهم قطعوا أطماعهم عن كل شيء سوى الله تعالى؛ لأن نظر الإنسان يختلف، فناظر إلى سلطان، وناظر إلى قريب، وناظر إلى محادثه وناظر إلى زراعة بمعنى يؤمل ذلك، وناظر إلى الله بمعنى يؤمله.

ومتى قيل: النظر إذا عدي ب (إلى) لا يكون بمعنى الانتظار، لا يقال: انتظرت إليه، وإنما يقال: انتظرته.

قلنا: هذا باطل من وجوه:

منها: أن (إلى) إذا حمل على النعم يسقط السؤال.

ومنها: أنه قد جاء في الشعر وغيره معدى بـ (إلى)، ومعناه الانتظار، قال جميل بن معمر:

وَإِذَا نَظَرْتُ إِلَيْك مِنْ مَلِكٍ وَالْبَحْرُ دُونَك جُدْتنِي نِعَمَا

وقال آخر:

وُجُوه يَوْمَ بَدْرٍ نَاظِرَاتٌ إِلَى الرَّحْمَنِ يَأْتِي بِالْخَلَاصِ

وقال آخر:

إِنِّي إِلَيْكَ لِمَا وَعَدْتُ لَنَاظِرُ البيت وقد مر ونظائره تكثر.

ومنها: أنه أراد أن لفظة الانتظار لا تعدى ب (إلى) فهو كذلك، وإن أراد أن النظر إذا كان بمعنى الانتظار لا يتعدى فليس كذلك، هذا كما كان الرؤية لا تعدى ب (إلى)، ثم النظر بمعنى الرؤية عندهم تعدى ب (إلى)، وقال بعضهم: إنه أراد التقابل بين صفة أهل الجنة، وصفة أهل النار، فهَؤُلَاءِ لا يؤملون تجديد الكرامة، وأولئك يظنون الفاقرة، وكله راجع إلى فعل القلب. ومتى يكون ذلك؟ اختلفوا: قيل: قبل الاستقرار في الجنة والنار، وكل فريق ينتظر ما هو له أهل، وقيل: هو بعد الاستقرار في الدارين، قال القاضي: والأول أولى.

فأما الثاني: أن يحمل على نظر العين، واختلفوا: قيل: إلى ثواب ربها ناظرة، أي: تنظر إلى ما أعطاه الله في الجنة من النعيم حالاً بعد حال، فيزداد سرورهم، روي هذا عن جماعة من المفسرين من علماء التابعين وغيرهم، فعلى هذا قد ذكر نفسه وأراد الثواب تعظيمًا، كقوله: (وَجَاءَ رَبُّكَ) أي: أمره، وكقوله: (وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ) أي: إلى طاعته وتوحيده، (وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي)

أي: إلى حيث أمرني ربي، وقال: (إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ) أي: أولياءه.

وذكر مشايخنا أن النظر يحتمل المعنيين: النظر والانتظار، ولا مانع من حمل الآية عليهما، فكأنه أراد أنه ينظر إلى ثواب معدٍّ له في الحال من أنواع النعم، وينتظر أمثالها حالاً بعد حال ليتم السرور؛ لأنه مع فقد أحدهما لا يتكامل.

ومتى قيل: الانتظار يوجب الغم والحسرة؟ وكذلك قيل: الانتظار موت أحمر؟

قلنا: إنما يكون كذلك إذا احتاج إليه في الحال ولا يصل إليه، فأما إذا حصل له في الحال جميع ما يحتاج إليه وينتظر مثلها حالاً بعد حال أبدًا، فلا يكون في غم وحسرة؛ بل به يتكامل السرور، وهذا كما نقول في الموائد المعدة للأكل يكون عليها ما يحتاج، وينتظر أمثالها. وقيل: إن الثواب لا يتجدد، ولكن يكون على نسق واحد؛ لأنه المستحق، فأما المزيد من فضله فيختلف فهم في فضل منه، ويتوقعون أمثاله من فضله حالاً بعد حال.

ومتى قيل: إذا كان النظر بالعين حقيقة وفي الانتظار مجازًا، كيف يحمل عليهما؟

قلنا: عند أبي علي والقاضي يجوز أن يرادا بعبارة واحدة؛ إذ لا تنافي بينهما، ولا بين إرادتهما، وعند أبي هاشم تكلم به مرتين، مرة أراد النظر، ومرة أراد الانتظار.

(وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ) كالحة، عن مجاهد، وقتادة، وقيل: مسودة (تَظُنُّ) قيل: تعلم؛ لأنهم لا يشكون في حصول العذاب بل يعلمونه ضرورة، وقيل: يظنون حصولها جملة، ولا يعلمون تفاصيله، فالظن يتعلق بتفاصيله (أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ) قيل: داهية، عن مجاهد، وأبي عبيدة، وقيل: قاصمة الظهر، عن سعيد بن المسيب. وقيل: آبدة بدخول النار، عن ابن زيد. في قيل: منكرة من العذاب، عن الكلبي.[506]

قال الزمخشري: الوجه: عبارة عن الجملة. والناضرة: من نضرة النعيم إلى (رَبِّها ناظِرَةٌ) تنظر إلى ربها خاصة لا تنظر إلى غيره، وهذا معنى تقديم المفعول. ألا ترى إلى قوله إلى (رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ)، إلى (رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَساقُ)، (إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ)، (وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ)، (وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ)، (عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ) كيف دلّ فيها التقديم على معنى الاختصاص، ومعلوم أنهم ينظرون إلى أشياء لا يحيط بها الحصر ولا تدخل تحت العدد في محشر يجتمع فيه الخلائق كلهم، فإنّ المؤمنين نظارة ذلك اليوم لأنهم

---

506 التهذيب في التفسير ج 10 ص 7188 / 7189/7190

الآمنون الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، فاختصاصه بنظرهم إليه لو كان منظورا إليه: محال، فوجب حمله على معنى يصح معه الاختصاص، والذي يصح معه أن يكون من قول الناس: أنا إلى فلان ناظر ما يصنع بى، تريد معنى التوقع والرجاء. ومنه قول القائل:

وإذا نظرت إليك من ملك والبحر دونك زدتني نعما

وسمعت سروية مستجدية بمكة وقت الظهر حين يغلق الناس أبوابهم، ويأوون إلى مقائلهم. تقول: عيينتى نويظرة إلى الله وإليكم، والمعنى: أنهم لا يتوقعون النعمة والكرامة إلا من ربهم، كما كانوا في الدنيا لا يخشون ولا يرجون إلا إياه، والباسر: الشديد العبوس، والباسل: أشد منه، ولكنه غلب في الشجاع إذا اشتد كلوحه (تَظُنُّ) تتوقع أن يفعل بها فعل هو في شدّته وفظاعته (فاقِرَةٌ) داهية تقصم فقار الظهر، كما توقعت الوجوه الناضرة أن يفعل بها كل خير.[507]

قال شيخنا قاضي القضاة: وقوله تعالى : (وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ ناضِرَةٌ إِلى رَبِّها ناظِرَةٌ) لا يدل ظاهره على أنه تعالى يرى : من وجوه :

أحدها : أنه تعالى ذكر أنها ناظرة إلى ربها ، والنظر غير الرؤية « لأنه إذا علق بالعين ، فالمراد طلب الرؤية ، كما إذا علق بالقلب ، فالمراد طلب المعرفة ، ولذلك يقول القائل : نظرت إلى الشيء فلم أره ، ونظرت إليه حتى رأيته ، فلذلك نعلم باضطرار أن الناظر ناظر ولا نعلمه رائيا إلا بخبره. ولذلك أضافت العرب النظر إضافات ، فجعلت منه نظر الراضى والغضبان .. إلى غير ذلك ، ولم تضف الرؤية على هذا الحد. وإذا كان النظر غير الرؤية ـ لما ذكرناه ـ فكيف يدل الظاهر على أنهم يرون الله؟

ومتى قالوا : إذا ثبت بالظاهر أنه ينظر إليه ، وجب أن يكون مما يصح رؤيته ، قلنا هذا يؤدى إلى أن يكون جسما فى جهة مخصوصة ؛ لأن النظر هو تقليب الحدقة نحو الشيء التماسا لرؤيته ، وهذا لا يصح إلا والمطلوب رؤيته فى جهة مخصوصة ، وذلك يوجب أنه جسم ، تعالى الله عن ذلك! ولهذا قلنا إنه تعالى لما خلق النظر بنفسه ، وعلمنا أن ذلك لا يصح فيه ؛ وجب أن يكون المراد به الثواب ؛ لأن الحكم الذى يقتضيه الاسم إذا لم يصح فيما علق به ، وجب أن يكون المراد غيره ، كقوله تعالى : (وَسْئَلِ الْقَرْيَةَ) ، إلى غير ذلك من وجوه المجاز.

---

[507] الكشاف ج 4 ص 663/662

والثانى : أنه تعالى وصف الوجوه بأنها ناظرة ، وقد علمنا أن هذه اللفظة تفيد الجملة ؛ لأن الناظر هو الإنسان دون بعضه ، كما أنه العالم والقادر والفاعل ، فإذا صح وكان الإنسان يوصف بأنه ناظر على وجه فيراد به الانتظار ، وقد يراد به تقليب الحدقة طلبا للرؤية ، وقد يراد به التفكر بالقلب طلبا للمعرفة ، فليس فى الظاهر ـ إذن ـ دلالة على ما قاله القوم ، وهو محتمل له ولغيره.

والثالث : أنه تعالى أراد بذكر الوجوه جملة الإنسان ، لا البعض المخصوص ولذلك وصف الوجوه بأنها ناظرة ، وذلك يليق بها دون الأبعاض ، ولذلك قال من بعد : (وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ باسِرَةٌ تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِها) فوصفها بالظن الذى لا يليق بالوجه. فإذا صح ذلك وجب كون الكلام مجملا ، لأن الجملة إذا وصفت بأنها ناظرة ، لم يفهم أن المراد بها الرؤية. وما يذكرون من قولهم : إن النظر إذا علق بالوجه فالمراد به الرؤية ، لا يصح ، لأن تعليق النظر بالوجه غير معروف فى اللغة. والذى يعرف تعليقه بالعين هو الرؤية ، فأما تعليقه بالوجه ، فهو كتعليقه بالرأس ، فى أنه غير معروف أصلا! لأن هذا القول إنما كان يتم لو كان المراد بالوجه العضو المخصوص ، وقد بينا أن الأمر بخلافه ، ففارق ذلك ما استدللنا به من قوله تعالى : (لا تُدْرِكُهُ الْأَبْصارُ) في نفي الرؤية ، لأن الإدراك المطلق متى قرن بالبصر ، لا يعرف فى اللغة أن يراد به إلا الرؤية بالبصر. وهذا بين.[508]



قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾﴾ الإنسان: ٣

قال شيخنا الحاكم الجشمي: (إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ) قيل: بَيَّنَّا له الطريق بنصب الأدلة، وأزحنا له العلة حتى يتمكن من معرفة الحق والباطل، وصلح الابتلاء، وقيل: طريق الخير والشر، عن قتادة.

ومتى قيل: ما هذه الهداية؟

[508] متشابه القرآن ص 674/673

قلنا: أدلة العقل والشرع عم بها جميع المكلفين، والسبيل: هو طريق معرفة الدين الذي يتوصل به إلى ثواب الأبد، ويلزم كل مكلف سلوكه. (إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا) لمّا بَيّنَ أنه كلفهم بَيَّنَ حالهم بعد التكليف، وأشار إلى أن العبد مخير فإما مؤمن يشكر الله على نعمه، وإما كافِر يجحد نعمه. وقيل: بينا له الطريق إن شكر أو كفر، عن الفراء. ولا يجوز حمله على أنه خلقهم مؤمنًا وكافرًا؛ لأن الظاهر لا يقتضي ذلك؛ ولأنا بَيَّنَّا أن الإيمان والكفر فعل العبد.[509]

قال شيخنا الزمخشري: شاكرا وكفورا: حالان من الهاء في هديناه ، أي: مكناه وأقدرناه في حالتيه جميعا. أو دعوناه إلى الإسلام بأدلة العقل والسمع: كان معلوما منه أنه يؤمن أو يكفر، لإلزام الحجة. ويجوز أن يكونا حالين من السبيل، أي: عرفناه السبيل إما سبيلا شاكرا وإما سبيلا كفورا كقوله (وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ) ووصف السبيل بالشكر والكفر مجاز. وقرأ أبو السمال بفتح الهمزة في إِمَّا وهي قراءة حسنة. والمعنى: أما شاكرا فبتوفيقنا، وأما كفورا فبسوء اختياره.[510]

قال قاضي القضاة: أما قوله تعالى : (إِنَّا هَدَيْناهُ السَّبِيلَ إِمَّا شاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً) فدليل واضح على أنه تعالى هدى جميع المكلفين ، لأنه ذكر الإنسان من قبل ، ثم قال : (إِنَّا هَدَيْناهُ السَّبِيلَ إِمَّا شاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً) وأجرى الخطاب على لفظ الواحد والمراد به سائر المكلفين ، ثم ذكر أنه هداه طريق الحق ، ثم بين أنه وإن هداه ، قد يكون شاكرا ، وقد يكون كفورا.

فأما تعلق الخوارج بهذه الآية فى أن المكلف لا يخلو من أن يكون مؤمنا أو كافرا ؛ لأنه تعالى بيّن فى الإنسان أنه إذا لم يكن شكورا ، فهو كفور ، وإذا لم يكن كفورا ، فهو شاكر. فبعيد ، وذلك أن الشاكر قد يصح كونه شاكرا وإن كان فاسقا ، فقد دخل تحت الشاكر المؤمن والفاسق ، لأن المقدم على بعض الكبائر خوفا ووجلا مع العزم على التوبة والتلافى متى قام بما يلزمه من الشكر واعترف بنعمه ، وعظّمه حق تعظيمه ، فهو شاكر فاسق ، وإن كنا لا نصفه بأنه شاكر على طريق المدح ، وإنما نجريه عليه على جهة الاستحقاق ؛ فلا يدل إذن على ما ذكروه.[511]

---

509 التهذيب في التفسير ج 10 ص 7203

510 الكشاف ج 4 ص 667/666

511 متشابه القرآن ص 675

قَالَ تَعَالَى: ﴿هَٰذَا يَوۡمُ لَا يَنطِقُونَ ٣٥ وَلَا يُؤۡذَنُ لَهُمۡ فَيَعۡتَذِرُونَ ٣٦﴾ المرسلات: ٣٥ - ٣٦

قال شيخنا الحاكم الجشمي: (هَذَا يَوْمُ لاَ يَنطِقُونَ) قيل: يبلغون من شدة العذاب مبلغًا لا ينطقون من عظمها، وعلمهم أنه لا يسمع منهم، وقيل: لا ينطقون بحجة وشيء ينفعهم، وقيل: في القيامة مقامات: ففي مقام يتكلمون، فإذا فصل للقضاء لا يتكلمون بعد ذلك، واختلفوا، قيل: تمنعهم الهيبة عن النطق، وقيل: لا ينطقون يأسًا من الرحمة، وقيل: خزنة النار يمنعونهم، وقيل: يختم على أفواههم، وأراد باليوم الوقت، وقيل: بعض اليوم، يقال: أتيتك الجمعة أي: فيها. (وَلاَ يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ) قيل: لا يسمع لهم عذر حتى يعتذروا؛ إذ ليس لهم عذر صحيح، ولو كان عذرًا صحيحًا، وقيل: لا يؤذن لهم في الاعتذار لما علم من حالهم أنه لا عذر لهم، ولو أتوا بعذر صحيح لقبل منهم، وقيل: معناه ليس لهم عذر، عن أبي مسلم، قال الشاعر:

فَلَوْ أَنَّ قَوْمِي أَنْطَقَتْنِي رِمَاحُهُمْ   نَطَقْتُ وَلَكِنَّ الرِّمَاحَ أَجَرَّتِ

وقيل: أيُّ عذر لمن أعرض عن خالقه وكفر أيادي منعمه؟![512]

قال قاضي القضاة: وقوله تعالى : (هذا يَوْمُ لا يَنْطِقُونَ وَلا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ) يدل على ما نقوله فى العدل ، لأنه تعالى بيّن أنه لا سبيل لهم فى ذلك اليوم إلى حجة وعذر يظهرونهما ليزيلوا بهما عن أنفسهم ما نزل بهم وسينزل. ولو كان الأمر على ما يقوله القوم ، لوجب أن يكون لهم العذر العظيم ، والحجة الوكيدة. وقد بينا القول فى كيفية عذرهم وحجتهم ، وبينا أنه لا يمكن أن يقال : لا يؤذن لهم فيعتذرون ، وإن كان لهم عذر فى الحقيقة ، وأنه تعالى أراد بذلك نفى العذر أصلا. وذلك يبين ما قلناه.[513]

---

[512] التهذيب في التفسير ج 10 ص 7239/7238

[513] متشابه القرآن ص 676



قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَكُلَّ شَيۡءٍ أَحۡصَيۡنَٰهُ كِتَٰبٗا ٢٩﴾ النبأ: ٢٩

قال شيخنا الحاكم الجشمي: (وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا) يعني: لم يعاقبهم حتى أحصى عليهم جميع أفعالهم القليل والكثير، وقيل: الكتاب: الحِفْظُ، أي: كل شيء أحصيناه حفظًا وكتبناه كتابًا..[514]

قال الزمخشري: وقرأ أبو السمال: وكل شيء أحصيناه، بالرفع على الابتداء كِتاباً مصدر في موضع إحصاء وأحصينا في معنى كتبنا، لالتقاء الإحصاء، والكتبة في معنى الضبط والتحصيل. أو يكون حالا في معنى: مكتوبا في اللوح وفي صحف الحفظة. والمعنى: إحصاء معاصيهم، كقوله: (أَحْصاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ) وهو اعتراض.[515]

قال قاضي القضاة: قد علمنا أنه تعالى لم يرد به أنه يعلم ما يأتيه العبد بالكتابة ، لأنه عالم لذاته ، لا تخفى عليه خافية ، وإنما أمر بالكتاب ، وإثبات عمل العبد فيه ، لكى يعلمه المكلف فى دار الدنيا ، ويوقن أنه لا يقدم على سيئة إلا وتثبت فى الصحيفة. وتنشر فى الموقف وقد جمع الخلائق فيه ، فيدعوه ذلك إلى الكف عن المعاصى. فلو كانت مخلوقة فيه ، على ما يقوله القوم ، لم يصح فى ذلك وأمثاله أن يكون لطفا وداعيا إلى الطاعة وزاجرا عن المعصية![516]

[514] التهذيب في التفسير ج 10 ص 7252
[515] الكشاف ج 10 ص 690
[516] متشابه القرآن ص 678

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ۝٣٧ وَءَاثَرَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا ۝٣٨ فَإِنَّ ٱلۡجَحِيمَ هِيَ ٱلۡمَأۡوَىٰ ۝٣٩ وَأَمَّا مَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفۡسَ عَنِ ٱلۡهَوَىٰ ۝٤٠ فَإِنَّ ٱلۡجَنَّةَ هِيَ ٱلۡمَأۡوَىٰ ۝٤١﴾ النازعات: ٣٧ - ٤١

قال شيخنا الحاكم الجشمي: (فَأَمَّا مَنْ طَغَى) أي: جاوز الحد في العصيان (وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا) أي: اختارها فعمل لها، وتمتع بملاذها، ولم يعمل للآخرة (فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى) أي: المرجع لأولئك (وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ) قيل: مقامه للعرض والحساب، وأضاف إلى الرب؛ لأنه الآمر به، والحكم إليه، والمقام: هو مقام العرض للجزاء والانتصاف من الظالم للمظلوم، وقيل: مقامه في كونه عالما بكل معلوم (وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى) أي: امتنع عن ارتكاب المعاصي مع أن نفسه تدعوه إليها وهواه، فكأنه بالامتناع نهى عن ذلك، فذكر النهي توسعا (فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى) أي: مصيره..[517]

قال قاضي القضاة: قوله تعالى : (فَأَمَّا مَنْ طَغى وَآثَرَ الْحَياةَ الدُّنْيا فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوى وَأَمَّا مَنْ خافَ مَقامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوى فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوى) يدل على قولنا فى العدل من وجوه : منها : وصفه تعالى للعبد بأنه طغى ، وذلك لا يصح إلا مع كونه متمكنا من أن لا يبلغ الحد الذى بلغه فى الكفر والتمرد.

ومنها : أنه وصفه بأنه آثر ، لأن من لا يقدر إلا على طريقة واحدة ، لا يقال فيه إنه آثره على سواه.

ومنها : وصفه العبد بأنه نهى النفس عن الهوى ، فالمراد بذلك أن يمتنع من المعصية التى يقتضيها الهوى ، ويقدر ذلك فى نفسه ، ويوطنها عليه ويجهدها فى خلافها. وكل ذلك لا يصح إلا مع التمكن من الطاعة ، لأنه لو كان لا يقدر إلا على ما تقتضيه الشهوة ؛ ويوجبه الهوى ، لم يصح هذا القول فيه.[518]

---

[517] التهذيب في التفسير ج 10 ص 7277/7276

[518] متشابه القرآن ص 679

قال الزمخشري: (فَأَمَّا) جواب فَإِذا أى: فإذا جاءت الطامّة فإنّ الأمر كذلك. والمعنى: فإنّ الجحيم مأواه، كما تقول للرجل: غض الطرف، تريد: طرفك، وليس الألف واللام بدلا من الإضافة، ولكن لما علم أنّ الطاغي هو صاحب المأوى، وأنه لا يغض الرجل طرف غيره: تركت الإضافة، ودخول حرف التعريف في المأوى والطرف للتعريف، لأنهما معروفان، و(هِيَ) فصل أو مبتدأ.

(وَنَهَى النَّفْسَ) الأمارة بالسوء (عَنِ الْهَوى) المردي وهو اتباع الشهوات وزجرها عنه وضبطها بالصبر والتوطين على إيثار الخير. وقيل: الآيتان نزلتا في أبى عزير بن عمير ومصعب بن عمير، وقد قتل مصعب أخاه أبا عزير يوم أحد، ووقى رسول الله صلى الله عليه وسلم بنفسه حتى نفذت المشاقص في جوفه.[519]



الكلام حول نزول أول الآيات، وهل صح الخبر الذي يقول أنها نزلت في النبي

قال شيخنا الحاكم الجشمي: قيل: نزلت الآيات في عبد الله بن أم مكتوم أتى رسول الله – صلى الله عليه وسلم –، وهو يناجي عتبة بن ربيعة وأبا جهل بن هشام والعباس بن عبد المطلب وأُبّي بن خلف وأمية بن خلف، يدعوهم إلى الله، ويرجو إسلامهم، فقال: يا نبي الله، عَلِّمْني مما علمك الله، وجعل يناديه، ويكرر النداء، ولا يعلم ما هو منشغل به حتى ظهرت الكراهة في وجه رسول الله – صلى الله عليه وسلم – لقطعه كلامه، وقال في نفسه: "يقول هَؤُلَاءِ الصناديد إنما أتباعه العميان والسفلة والعبيد"، فأعرض عنه، وأقبل على القوم يدعوهم، فأنزل الله تعالى هذه الآيات، فكان رسول الله – صلى الله عليه وسلم – بعد ذلك يكرمه، وإذا رآه قال: "مرحبًا بمن عاتبني ربي فيه"، ويقول: "هل لك من حاجة"، واستخلفه على المدينة مرتين في غزوتين، عن الحسن، وجماعة، وكان مؤذنه وخليفته على الصلاة، قال أنس: رأيته يوم القادسية، عليه درع، ومعه راية سوداء.

---
[519] الكشاف ج 4 ص 698

قال ابن زيد: كان يقال: لو كتم رسول اللَّه - صلى الله عليه وسلم - شيئًا من الوحي لكتم هذا.

وقيل: الأعمى ابن أم مكتوم، عن ابن عباس، والحسن، ومجاهد، وقتادة، والضحاك، وابن زيد.

وقيل: (أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى) نزلت في عتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، عن مجاهد. وقيل: نزلت في العباس، عن سفيان.

وليس في ظاهر الآية ما يدل على أنه نزل في رسول اللَّه - صلى الله عليه وسلم -، ولا تواترت به الأخبار، وإنما روي في الآحاد.

وقوله: (عَبَسَ) يجوز أن يكون غيره، وهو الظاهر، حيث لم يخاطبه به.

قال المرتضى: ومن نظر في أخلاق رسول الله - صلى الله عليه وسلم - مع المسلمين ومعاشرته لهم تبين أن الآية نزلت في غيره.

ومتى قيل: هل كان التعبيس ذنبًا إن صح الخبر؟

قلنا: التعبيس والانبساط مع الأعمى سواء، ولا يشق عليه، فلم يكن ذلك ذنبًا، وإنما ذكر اللَّه تعالى تأديبًا له - صلى الله عليه وسلم -؛ ليأخذ نفسه بأوفر محاسن الأخلاق.

ومتى قيل: إن لم يكن ذنبًا فلماذا عاتبه؟

قلنا: لما بَيّنَّا؛ ليأخذ بمكارم الأخلاق ومعالي الأمور، ونبه بذلك على عظم حالةالمؤمن المسترشد، ولئلا يؤدي إلى التنفير؛ لأنه كما يجب تأليف المشرك ليسلم يجب تأليف المؤمن ليقيم على إيمانه، ولئلا يعود إلى مثله، فيصير عادة له.

ومتى قيل: هل كان سوء أدب من السائل؟

قلنا: لا؛ لأنه لم يعلم الحال، ولو علم لما ألح.

ومتى قيل: فلماذا قال بلفظ الماضي؟

قلنا: صان نبيه أن يقول: عَبَسْتَ وَتَوَلَّيْتَ؛ لأنه بالتوبيخ أشبه، وهذا بالتأديب والعتاب أشبه.[520]

---

[520] التهذيب في التفسير ج 10 ص 7282/7281

قَالَ تَعَالَى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ ﴿٤٢﴾﴾ عبس: ٣٨ – ٤٢

قال شيخنا الحاكم الجشمي: (وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ) مشرقة مضيئة (ضَاحِكَةٌ) كناية عن السرور، وقيل: أراد بالوجوه أصحاب الوجوه (مُسْتَبْشِرَةٌ) فرحة بما تبشر به من النعم (وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ) قيل: دخان تسود به وجوههم. وقيل: غبار أسود يضر وجوههم، ويسودها. وقيل: يجوز أن يجعلوا التراب على رؤوسهم كالمستغيث. وقيل: يصير إليها ثَمَّ تراب، ويصير ذلك في وجوههم. وقيل: هو كناية عن فرط الغم والحزن. وقيل: يغشاها كسوفٌ. وقيل: هي بقية تراب قبورهم. (تَرْهَقُهَا) أي: تلحقها، وتغشاها (قَتَرَةٌ) قيل: ظلمة وسواد. وقيل: هي الدخان. وقيل: الغبار الكثير. وقيل: الرياح تضرب وجوههم بالتراب من وجه والدخان من وجه آخر يصيبهم (أُولَئِكَ) من تقدم ذكرهم (هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ) الخارجون عن أمر الله.[521]

قال الزمخشري: (مُسْفِرَةٌ) مضيئة متهللة، من أسفر الصبح: إذا أضاء. وعن ابن عباس رضى الله عنهما: من قيام الليل، لما روى في الحديث «من كثرت صلاته بالليل حسن وجهه بالنهار، وعن الضحاك: من آثار الوضوء. وقيل: من طول ما اغبرت في سبيل الله (غَبَرَةٌ) غبار يعلوها (قَتَرَةٌ) سواد كالدخان، ولا ترى أوحش من اجتماع الغبرة والسواد في الوجه، كما ترى من وجوه الزنوج إذا اغبرت، وكأن الله عز وجل يجمع إلى سواد وجوههم الغبرة، كما جمعوا الفجور إلى الكفر.[522]

قال قاضي القضاة: وأما قوله تعالى : (وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ ضاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْها غَبَرَةٌ تَرْهَقُها قَتَرَةٌ) فإنه لا يدل على أنه ليس فى المكلفين إلا مثاب مؤمن ، ومعاقب كافر ؛ كما تقوله الخوارج. وذلك أنه تعالى وصف هذين الفريقين ، وبين أن أحدهما مؤمن ، والآخر كافر ، ولم ينف فريقا ثالثا ، وليس فى إثبات هذين دلالة على نفى غيرهما ، فلا يمتنع أن يكون الفساق بخلاف هاتين الصفتين ، فتكون وجوههم عليها غبرة ، لا ترهقها فترة. وقد علمنا أن فى الكفار من لا يطلق عليه

521 التهذيب في التفسير ج 10 ص 7293
522 الكشاف ج4 ص 705/704

أنه فاجر إذا كان كفره باعتقاد ، فإذا قيل للخوارج : فهذا الفرق كيف حاله؟ لم يكن لهم ملجأ إلا الرجوع إلى مثل ما قلناه.[523]



قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ ۝٢٣ وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ ۝٢٤﴾ التكوير: ٢٣ – ٢٤

قال شيخنا الحاكم الجشمي: (وَلَقَدْ رَآهُ) يعني: أن محمدا رأى جبريل على صورته التي خلقه الله عليها (بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ) وهو الأفق الأعلى من ناحية المشرق الذي يجيء منه النهار، عن الحسن، وقتادة، ومجاهد، وعن ابن عباس أن النبي – صلى الله عليه وسلم – قال لجبريل: "إني أحب أن أراك في صورتك التي تكون في السماء"، فواعده عرفات، فخرج النبي، صلى الله عليه وسلم –، فإذا هو بجبريل أقبل من جبال عرفات ملأ ما بين المشرق والمغرب ورأسه في السماء ورجلاه في الأرض، فخر مغشيًّا عليه، فتحول جبريل إلى صورته، وضمه إلى صدره، والمبين الواضح، كأنه رآه عيانًا نهارا (وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ) أي: على الوحي (بِظَنِينٍ) بالظاء أي: ليس بمتهم فيما يقول، عن ابن عباس، وسعيد بن جبير، وإبراهيم، والضحاك. وبالضاد قيل: ليس ببخيل فيما يؤدي، وقيل: ليس بضعيف، وقيل: كان يقال له قبل الوحي: محمد الأمين.[524]

قال شيخنا الزمخشري: (وَلَقَدْ رَآهُ) ولقد رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم جبريل (بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ) بمطلع الشمس الأعلى (وَما هُوَ) وما محمد على ما يخبر به من الغيب من رؤية جبريل والوحى إليه وغير ذلك (بِضَنِينٍ) بمتهم من الظنة وهي التهمة. وقرئ: بضنين، من الضنّ وهو البخل أى: لا يبخل بالوحي فيزوى بعضه غير مبلغه، أو يسأل تعليمه فلا يعلمه، وهو في مصحف عبد الله بالظاء، وفي مصحف أبيّ بالضاد. وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ بهما.[525]

---

523 متشابه القرآن ص 680

524 التهذيب في التفسير ج 10 ص 7305

525 الكشاف ج 4 ص 713

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ۝٢٧ لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ۝٢٨ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ۝٢٩ ﴾ التكوير: ٢٧ – ٢٩

قال شيخنا الرماني: الذكر إدراك النفس الذي يضاد للمعنى بما يضاد السهو.[526]

قال شيخنا الحاكم: (إِنْ هُوَ) يعني القرآن (إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ) أي: يذكر الخلق ما يحتاجون من أمر دينهم (لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ) قيل: أن يستقيم على أمر الله، عن الحسن. (وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ) فيه أقوال: قيل: خطاب للكفار؛ أي: لا تشاؤون إلا أن يشاء الله أن يجبركم عليه، ويلجئكم إليه، وإنما لم يفعل لأنه أراد منهم أن يختاروا الإيمان ليستحقوا الثواب، ولم يرد حملهم على الإيمان، عن أبي مسلم. وقيل: ما تشاؤون الاستقامة إلا أن يشاء الله ذلك من قبل، حيث خلقكم لها، ومكنكم فيها، وكلفكم بها، وأزاح علتكم فيها، ومن ثَمَّ يشاء منه الإيمان والاستقامة، لا يجوز أن يكلف به، ولا يمكِّن منه، عن أبي علي.

وقيل: ما تشاؤون إلا أن يشاء الله أن يلطف لكم في الاستقامة لما في الكلام من معنى النعم. وقيل: لا تشاؤون الاستقامة إلا أن يشاء الله؛ إذ لو لم يشأ مع التمكين لأباح الكفر. قال الحسن: والله ما شاءت العرب الإسلام حتى شاءه الله لهم، فلهذا لم يشأ أحد خيرًا إلا والله قد شاءه وأمره بالطاعة، ونهاه عن خلافه، ووعده ووعيده وزجره من أدل الدليل أنه شاء الاستقامة. (والعالمين): جماعة الناس.[527]

قال شيخنا الزمخشري: (لِمَنْ شاءَ مِنْكُمْ) بدل من العالمين وإنما أبدلوا منهم لأنّ الذين شاءوا الاستقامة بالدخول في الإسلام هم المنتفعون بالذكر، فكأنه لم يوعظ به غيرهم وإن كانوا موعظين جميعا (وَما تَشاؤُنَ) الاستقامة يا من شاؤها إلا بتوفيق الله ولطفه. أو: وما تشاؤنها أنتم يا من لا يشاؤها إلا بقسر الله وإلجائه.[528]

---

[526] التبيان في تفسير القرآن ج 10 ص 279

[527] التهذيب في التفسير ج 10 ص 7306

[528] الكشاف ج 4 ص 714/713

سُورَةُ الانفِطَار

قَالَ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ لَفِي نَعِيمٖ ١٣ وَإِنَّ ٱلۡفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٖ ١٤ يَصۡلَوۡنَهَا يَوۡمَ ٱلدِّينِ ١٥ وَمَا هُمۡ عَنۡهَا بِغَآئِبِينَ ١٦ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ١٧ ثُمَّ مَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ١٨ يَوۡمَ لَا تَمۡلِكُ نَفۡسٞ لِّنَفۡسٖ شَيۡـٔٗاۖ وَٱلۡأَمۡرُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ ١٩ ﴾ الانفطار: ١٣ - ١٩

قال شيخنا الحاكم الجشمي: (إِنَّ الْأَبْرَارَ) أي: المؤمنين، العاملين البر (لَفِي نَعِيمٍ) في الجنة، وقيل: في الدنيا والآخرة، أما في الدنيا في رضا الله، والقناعة بما آتاه، وأما في الآخرة في الجنة، ونظير ذلك: (فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)، (وَإِنَّ الْفُجَّارَ) العصاة، المرتكبين الكبائر (لَفِي جَحِيمٍ) في النار، والفجور: اسم للعصيان، يقال للزاني: فاجر (يَصْلَوْنَهَا) أي: يلازمونها للتعذيب، وقيل: يصيرون صلاها، أي: حطبها، عن أبي مسلم. (يَوْمَ الدِّينِ) أي: يوم الجزاء، وهو يوم القيامة (وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ) بموت ولا خروج. ثم عَظَّم أمر القيامة، فقال سبحانه: (وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ. ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ) قيل: كرر تأكيدًا وتفخيمًا لشأنها، كما يقال: إياك إياك، وقيل: أراد ما أدراك ما في يوم الدين من النعيم لأهل الجنة، وما أدراك ما في يوم الدين من العذاب لأهل النار، وليس فيه تكرار، عن أبي علي. (يَوْمَ لاَ تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيئًا) أي: لا يملك أحد لغيره نفعًا ولا ضرًّا؛ لأن الأمور كلها إليه تعالى (وَالأمرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ) أي: لا ينفذ لأحد أمر غيره.

ومتى قيل: فشفاعة النبي - صلى الله عليه وسلم - يجب ألا تصح؟

قلنا: ذلك يكون بأمره تعالى، ومن تدابيره.

ومتى قيل: الأمر كله له في الدارين، فما معنى التخصيص؟

قلنا: في الدنيا قد [مَلَّكَ غَيْرَهُ] أشياء من الأمر والملك، تنزع جميعها يوم القيامة، وقيل: لأن الجزاء لا يقدر عليه أحد سواه.[529]

وقال أيضا: يدل قوله تعالى: (وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ) الآية، على قولنا في الوعيد من جهات:

أحدها: أنه فصل بين البرّ والفاجر، فدل أن الفجار ليسوا من الأبرار، خلاف قول المرجئة.

ومنها: أنه عم جميع الفجار ولم يخص، ولا فاجر إلا ويدخل تحت الآية، خلاف قولهم.

ومنها: قوله: (لَفِي جَحِيمٍ) فلم يثبت لهم مكانًا غيره.

ومنها: قوله: (وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ) فدل على الدوام.

ويدل قوله: (لَا تَمْلِكُ) أن أحدًا لا يملك دفع العذاب من المستحق.

ومتى قيل: أراد بالفجار الكفار؟

فلنا عنه أجوبة:

أحدها: أنه لو صح ما قال لدخل بعض الفجار الجنة، ولكانوا من الأبرار، وهذا خلاف الآية.

وثانيها: أن الآية عامة.

وثالثها: أنها في أهل القبلة بالاتفاق، ولو تناول الكفار لما كانوا؛ لأن الفجور اسم لجميع المعاصي.

وذكر أبو مسلم أن من يدعي التخصيص في مثل هذا لا يبعد قوله؛ لأن ما تقدم كلام في المكذبين، وإن كان الأصل هو العموم.

وجوابنا أن المعتبر عموم اللفظ، لا ما تقدم.

واختلفوا، هل يجوز تخصيص هذا الخبر؟

قيل: لا؛ لأنه خبر، فتخصيصه يؤدي إلى الكذب.

وقيل: بل يصح؛ لأن ما يصح أن يستثنى بدليل متصل جاز بدليل منفصل، وهو الصحيح.

وذكر أبو علي أنه لا يصح فيه التخصيص، كما لا يصح في قوله: (إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ).[530]

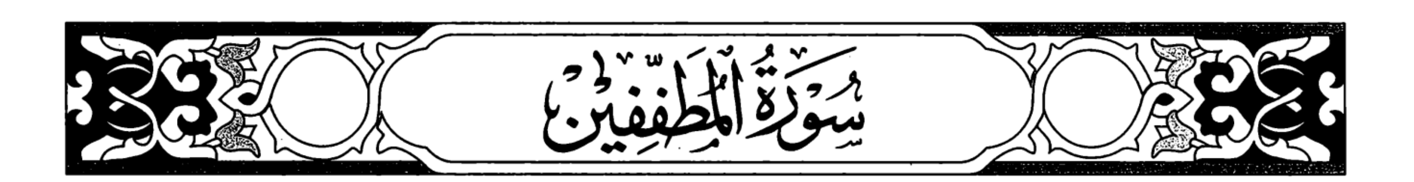
---

[529] التهذيب في التفسير ج 10 ص 7315

[530] التهذيب في التفسير ج 10 ص 7315 /7316

قال شيخنا الزمخشري: (يَوْمَ لا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئاً) أى لا تستطيع دفعا عنها ولانفعالها بوجه ولا أمر إلا للّه وحده. من رفع فعلى البدل من يوم الدين، أو على: هو يوم لا تملك. ومن نصب فبإضمار يدانون، لأنّ الدين يدل عليه. أو بإضمار اذكر. ويجوز أن يفتح لإضافته إلى غير متمكن وهو في محل الرفع.[531]

قال قاضي القضاة: وقوله : (وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ يَصْلَوْنَها يَوْمَ الدِّينِ وَما هُمْ عَنْها بِغائِبِينَ) يدل على أن الفاجر وإن كان من أهل الصلاة ، فهو من أهل الوعيد ومن أهل النار ، وأنه إذا لم يتب ومات على ذلك ؛ فهو فى الجحيم لا يغيب عنها ، وذلك يدل على الخلود ؛ لأنهم إذا لم يغيبوا عنها ولا لحقهم موت وقتا ، فليس إلا العذاب الدائم ، نعوذ بالله من ذلك.[532]



قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ كَلَّاۖ بَلْۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ۝١٤ كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٖ لَّمَحْجُوبُونَ ۝١٥ ﴾

المطففين: ١٤ – ١٥

قال شيخنا الحاكم الجشمي: (كَلَّا) ردع وزجر، أي: ليس كما كتبوا، وقيل: حَقًّا، قسم منه بأن الذنوب أحاطت بقلبه (بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ) أي: غطى ذنوبهم على قلوبهم، وقيل: الرين الذنب على الذنب حتى يموت القلب، عن الحسن، وقتادة، وقيل: غلبت الذنوب على القلوب فلا تخلص إليها العلوم، عن ابن زيد، وروى أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم : "إذا أذنب العبد كانت نكتة سوداء في قلبه، فإن تاب صقل قلبه، وإن عاد زادت حتى يسود قلبه فذلك قوله: (كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ)"، وأكثر المفسرين قالوا: الذنب على الذنب حتى يسود القلب، وقيل: اعتيادهم للكفر وإلْفهم له، وغفلتهم صار غطاء على قلوبهم، عن أبي مسلم؛ لأن ترك النظر في العواقب، وكثرة

---

531 الكشاف ج 4 ص 717

532 متشابه القرآن ص 682

المعاصي، والانهماك في الفسق يقوي الإعراض عن التوبة، والإقلاع عن الذنوب، فصار كالغالب على القلوب، والرين عليها (كَلَّا) ردع وزجر، وقيل: حقًا (إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ) قيل: محجوبون عن رحمته وإحسانه وكرامته، عن الحسن، وقتادة، وقيل: ممنوعون عن رحمته مدفوعون عن ثوابه، غير مقبولين ولا مرضيين، عن أبي مسلم، ولا يقال: الحجاب بينهم وبين الله تعالى؛ لأنه تعالى ليس بجسم، ولا معنى يحل الجسم حتى يصح فيه الحجاب[533]..

قال شيخنا الزمخشري: (كَلَّا) ردع للمعتدى الأثيم عن قوله (رانَ عَلى قُلُوبِهِمْ) ركبها كما يركب الصدأ وغلب عليها: وهو أن يصر على الكبائر ويسوّف التوبة حتى يطبع على قلبه، فلا يقبل الخير ولا يميل إليه. وعن الحسن: الذنب بعد الذنب حتى يسودّ القلب. يقال: ران عليه الذنب وغان عليه، رينا وغينا، والغين: الغيم، ويقال: ران فيه النوم رسخ فيه، ورانت به الخمر: ذهبت به. وقرئ بإدغام اللام في الراء وبالإظهار، والإدغام أجود، وأميلت الألف وفخمت (كَلَّا) ردع عن الكسب الرائن على قلوبهم. وكونهم محجوبين عنه: تمثيل للاستخفاف بهم وإهانتهم، لأنه لا يؤذن على الملوك إلا للوجهاء المكرمين لديهم، ولا يحجب عنهم إلا الأدنياء المهانون عندهم. قال:

إذا اعتروا باب ذى عبية رجبوا والنّاس من بين مرجوب ومحجوب

عن ابن عباس وقتادة وابن أبي مليكة: محجوبين عن رحمته. وعن ابن كيسان: عن كرامته.[534]

قال شيخنا قاضي القضاة: قوله تعالى : (كَلاَّ بَلْ رانَ عَلى قُلُوبِهِمْ ما كانُوا يَكْسِبُونَ) لا يدل على أنه تعالى منعهم بذلك عن الإيمان ، وإنما يقتضى ظاهره أن ما يكسبون من المعاصى لزم قلوبهم وتقرّر فيها ؛ من حيث اشتد تمسكهم به وعزمهم على الثبات عليه ، وترك الإقلاع عنه ، يبين ذلك أنه تعالى بين أن نفس ما كسبوه ران على قلوبهم ، وقد علمنا أن ذلك لا يكون منعا ، فالمراد إذن ما ذكرناه. وقوله تعالى : (كَلاَّ إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ) لا يدل على ما تقوله الحشوية فى أنه تعالى يرى يوم القيامة بأن يرفع عنه الحجب للمؤمنين فيروه ، ويحتجب عن غيرهم فيمنعون من رؤيته ، لأن

---

[533] التهذيب في التفسير ج 10 ص 7325/7324
[534] الكشاف ج 4 ص 722/721

هذا القول يوجب أن يكون تعالى جسما محدودا فى مكان مخصوص ، ويجوز عليه الستر والحجاب ، ويراه قوم دون قوم ، من حيث يظهر فى جهة دون جهة.

والمراد بالآية : أنهم ممنوعون من رحمة الله ، لأن الحجب هو المنع ، ولذلك يقال فيمن يمنع الوصول إلى الأمير : إنه حاجب له ، وإن كان الممنوع مشاهدا له. وقال أهل الفرائض فى الإخوة : إنهم يحجبون الأم عن الثلث ؛ إذا منعوها وإن لم يكن هناك ستر فى الحقيقة. فبين بذلك أنه تعالى يمنعهم بذلك من رحمته وسعة فضله ، ليبعث السامع بذلك على التمسك بطاعة الله ، فيكون يوم القيامة من أهل الرحمة ، لا من المحجوبين عنها..[535]



قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَمَا لَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ۝٢٠ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقُرۡءَانُ لَا يَسۡجُدُونَ۩ ۝٢١﴾

الانشقاق: ٢٠ – ٢١

<u>قال شيخنا الحاكم الجشمي</u>: (فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ) استفهام، والمراد الإنكار؛ أي: ما الذي يمنعهم من الإيمان بِاللَّهِ ورسوله وبالبعث مع ظهور الحجة. وقيل: ما وجه الارتياب الذي يصرفهم عن الإيمان، وهو تعجيب منهم في تركهم الإيمان. (وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ) قيل: لا يخضعون. وقيل: ما لهم لا يصلون، عن الكلبي، ومقاتل. أي: ما الذي يمنعهم من الصلاة، والخضوع عند القرآن.[536]

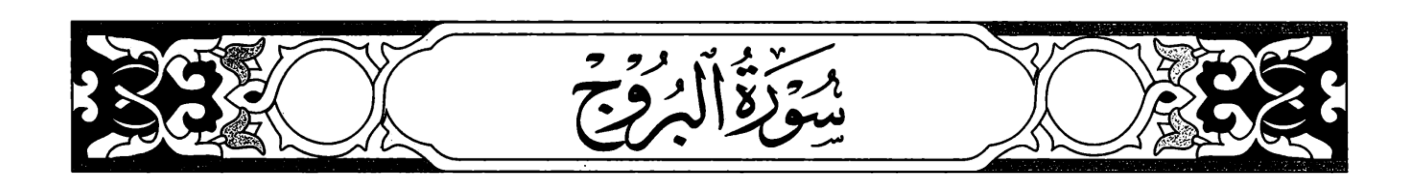
<u>قال شيخنا الزمخشري</u>: (لا يَسْجُدُونَ) لا يستكينون ولا يخضعون. وقيل. قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم (وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ) فسجد هو ومن معه من المؤمنين وقريش تصفق فوق رؤسهم وتصفر ، فنزلت. وبه احتج ابو حنيفة رضى الله عنه على وجوب السجدة. وعن ابن عباس ليس في

535 متشابه القرآن ص 683

536 التهذيب في التفسير ج 10 ص 7346

المفصل سجدة. وعن أبى هريرة رضى الله عنه: أنه سجد فيها وقال: والله ما سجدت فيها إلا بعد أن رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يسجد فيها. وعن أنس: صليت خلف أبى بكر وعمر وعثمان فسجدوا. وعن الحسن: هي غير واجبة..[537]

قال قاضي القضاة: قوله تعالى : (فَما لَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ وَإِذا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لا يَسْجُدُونَ) يدل على أن العبد يتمكن من الإيمان وإن كان كافرا. و لو لا ذلك لم يكن يوبّخ ويلام ، ويقال له هذا القول. وقد علمنا أن السفيه الذى يعرف بعض المعرفة لا يجوز أن يشد عبده ويقيده ويغلق الباب دونه ، ويقول مع ذلك : مالك لا تتصرف فى الأسواق ، ولا تخرج إلى البلاد! ثم لا يقتصر على ذلك حتى يضربه على ذلك! فضلا عن أن يفعله الحكيم. فإذا كان تعالى أحكم الحاكمين ، لم يجز أن يمنع الكافر من قدرة الإيمان ، ولا يجعل له إليها سبيلا ، ثم يقول له على طريق التوبيخ : مالك لا تؤمن ، ولا تصلى ولا تسجد؟[538]



قَالَ تَعَالَى: ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ۝٢١ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ۝٢٢﴾ البروج: ٢١ – ٢٢

قال شيخنا الحاكم الجشمي: (بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ) أي: كذبوا بالقرآن مع عظم محله تنبيهًا على عظيم كفرهم. وقيل: (بل) بمعنى: ليس كما يقولون من التكذيب، بل هو قرآن، عن أبي مسلم. هو قرآن (مجيدٌ) كريم شريف كثير الخير والحكمة (فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ) قيل: من التغيير والتبديل والزيادة والنقصان. وقيل: اللوح المحفوظ أم الكتاب، عن مجاهد. وقيل: هو ما ضمن الله حفظه، كأنه في لوح محفوظ. وقيل: هو في لوح في السماء، مكتوب فيه القرآن وسائر ما يكون إلى يوم القيامة، وفي أوله: لا

537 الكشاف ج 4 ص 728
538 متشابه القرآن ص 684

إله إلا الله وحده، ودينه الإسلام، ومحمد عبده ورسوله، فمن آمن به أدخله الجنة. واللوح من درة بيضاء، عن ابن عباس. وقيل: هو عن يمين العرش، عن مقاتل. وقيل: منه نسخ القرآن، وأنزل إلى السماء الدنيا، ثم أنزل على النبي – صلى الله عليه وسلم –. وقيل: محفوظ أن يطلع عليه غير الملائكة.[539]

قال شيخنا الزمخشري: (بَلْ هُوَ) أي بل هذا الذي كذبوا به (قُرْآنٌ مَجِيدٌ) شريف عالى الطبقة في الكتب وفي نظمه وإعجازه. وقرئ: قرآن مجيد، بالاضافة، أى: قرآن رب مجيد. وقرأ يحي بن يعمر: في لوح. واللوح: الهواء ، يعنى: اللوح فوق السماء السابعة الذي فيه اللوح (مَحْفُوظٍ) من وصول الشياطين إليه. وقرئ: محفوظ، بالرفع صفة القرآن.[540]

قال قاضي القضاة: وقوله تعالى : (بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ) يدل على حدثه ، لأنه تعالى وصفه بأنه عزيز كريم ، ولا يصح ذلك فيه على هذا الوجه إلا والآفات تصح عليه ، فإذا رفع عنه تعالى استحق هذه الصفة. ولا يجوز أيضا أن يكون فى اللوح وليس بجسم إلا حالا ، وذلك يقتضى حدثه.[541]



قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ۝١٥ وَأَكِيدُ كَيْدًا ۝١٦ ﴾ الطارق: ١٥ – ١٦

قال شيخنا الحاكم الجشمي: (إِنَّهُمْ) يعني الكفار (يَكِيدُونَ كَيْدًا) أي: يحتالون في الإيقاع بك وبمن معك، ويريدون إطفاء نورك (وَأَكِيدُ كَيْدًا) أي: أريد أمرًا آخَرَ على ضد ما يريدون، وأُدَبِّرُ ما ينغص تدابيرهم، وهو الدفع عنك، وإتمام أمرك وإظهار دينك. وقيل: الكيد: الإرادة، ومنه: (كَذَلِكَ

[539] التهذيب في التفسير ج 10 ص 7361
[540] الكشاف ج 4 ص 733
[541] متشابه القرآن ص 685

كِدْنَا لِيُوسُفَ) والمعنى: يريدون أمرًا آخر، **عن أبي مسلم**. والله أعلم بالصلاح، فربما تتعجل النصرة، وربما تتأخر.[542]

قال شيخنا الزمخشري: (إِنَّهُمْ) يعنى أهل مكة يعملون المكايد في إبطال أمر الله وإطفاء نور الحق، وأنا أقابلهم بكيدى: من استدراجى لهم وانتظاري بهم الميقات الذي وقته للانتصار منهم..[543]



قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى ١﴾ الأعلى: ١

قال شيخنا الحاكم الجشمي: (سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ) قيل: سبحان ربي الأعلى، عن ابن عباس، وقتادة. وقيل: نَزِّهْ اسم ربك أن تسمِّيَ به سواه، وقيل: نزه ربك عما يصفه به المشركون، وقيل: صَلِّ باسم ربك، عن ابن عباس، وقيل: الاسم الصفة أي: نَزِّهْ صفاته عما لا يليق به، **عن أبي مسلم**. وقيل: سبح الله بذكر اسمه الأعلى، والأعلى من صفة الاسم، وقيل: من صفة الله، وقيل: ذكر الاسم وأراد به المسمى، أي: نَزِّهْهُ، كقوله:

ثم اسْمُ السَّـــــلاَمِ عَلَيْكُما

عن أبي علي. وقيل: حسن التسمية؛ لأن حُسن الاسم يدل على حُسن الصفات وحسن الأفعال. (الْأَعلَى) قيل: القادر الذي لا قادر أقدر منه، القاهر لكل أحد، وقيل: (الأعلى) من نعت الاسم الذي أسماؤه كلها أعلى، وقيل: للأعلى، وأن يستحق صفاته غيره، فيجل عن صفات المحدثين من أن يشبهه أحد.[544]

---

542 التهذيب في التفسير ج 10 ص 7369
543 الكشاف ج 4 ص 737
544 التهذيب في التفسير ج 10 ص 7374 / 7375

قال شيخنا الزمخشري: تسبيح اسمه عز وعلا: تنزيهه عما لا يصح فيه من المعاني التي هي إلحاد في أسمائه، كالجبر والتشبيه ونحو ذلك، مثل أن يفسر الأعلى بمعنى العلو الذي هو القهر والاقتدار، لا بمعنى العلوّ في المكان والاستواء على العرش حقيقة، وأن يصان عن الابتذال والذكر، لا على وجه الخشوع والتعظيم. ويجوز أن يكون (الْأَعْلَى) صفة للرب، والاسم، وقرأ علي رضى الله عنه: سبحان ربى الأعلى. وفي الحديث لما نزلت: فسبح باسم ربك العظيم، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «اجعلوها في ركوعكم» فلما نزل سبح اسم ربك الأعلى قال: «اجعلوها في سجودكم» وكانوا يقولون في الركوع: اللّٰهُمَّ لك ركعت، وفي السجود: اللّٰهُمَّ لك سجدت..[545]

قال أبو مسلم: المراد من الاسم هاهنا الصفة، وكذا في/قوله تعالى: (وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا)[546]

قال قاضي القضاة: قوله تعالى : (سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى) لا يدل على أن المنزّه عما لا يجوز عليه هو اسمه دونه ، ولا على أن الاسم هو المسمّى ، وذلك أن الاسم المعقول هو المسموع المؤلف من حروف ، وتنزيهه عما ينزه تعالى عنه لا يجوز ولا يصح ، فالمراد بذلك لا يخرج عن أمرين : إما أن يكون تعالى أدّب بذلك عباده ، ليبلغوا فى تعظيمه النهاية ، بأن يقرنوا التعظيم باسمه ، وهذا كما نقول ؛ وقد ذكرنا الرسول : عليه‌السلام ، فيكون ذلك أبلغ فى تعظيمه ، فى أن يكون ـ صلوات الله عليه ـ لو أراد بذلك المسمى ، لأن فى التعارف الظاهر أنه يذكر الاسم ويراد به المسمى ، دل على ذلك تعالى بأن ذكر الصفات التى تليق به لا باسمه ، وهو قوله : (الْأَعْلَى الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى) فدل بذلك على ما قلناه.[547]

---

545 الكشاف ج 4 ص 738/737

546 التفسير الكبير للرازي ج 31 ص 125

547 متشابه القرآن ص 687



قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ۝١٧﴾ الغاشية: ١٧

قال شيخنا الحاكم الجشمي: (أَفَلَا يَنْظُرُونَ) يتفكرون (إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ) وكيف قدرها الله، وما فيها من المنافع، وقيل: الإبل: السحاب، وليس له أصل في اللغة، فلا يجوز حمل الكلام عليه.[548]

قال الزمخشري: (أَفَلا يَنْظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ) نظر اعتبار (كَيْفَ خُلِقَتْ) خلقا عجيبا، دالا على تقدير مقدر، شاهدا بتدبير مدبر، حيث خلقها للنهوض بالأثقال وجرها إلى البلاد الشاحطة فجعلها تبرك حتى تحمل عن قرب ويسر، ثم تنهض بما حملت، وسخرها منقادة لكل من اقتادها بأزمّتها: لا تعاز ضعيفا ولا تمانع صغيرا، وبرأها طوال الأعناق لتنوء بالأوقار. وعن بعض الحكماء. أنه حدث عن البعير وبديع خلقه، وقد نشأ في بلاد لا إبل بها، ففكر ثم قال: يوشك أن تكون طوال الأعناق، وحين أراد بها أن تكون سفائن البر صبرها على احتمال العطش، حتى إن أظماءها لترتفع إلى العشر فصاعدا، وجعلها ترعى كل شيء نابت في البراري والمفاوز مما لا يرعاه سائر البهائم. وعن سعيد بن جبير قال: لقيت شريحا القاضي فقلت: أين تريد؟ قال: أريد الكناسة: قلت: وما تصنع بها؟ قال: أنظر إلى الإبل كيف خلقت. فإن قلت: كيف حسن ذكر الإبل مع السماء والجبال والأرض ولا مناسبة؟ قلت: قد انتظم هذه الأشياء نظر العرب في أوديتهم وبواديهم، فانتظمها الذكر على حسب ما انتظمها نظرهم، ولم يدع من زعم أن الإبل السحاب إلى قوله، إلا طلب المناسبة، ولعله لم يرد أن الإبل من أسماء السحاب، كالغمام والمزن والرباب والغيم والغين، وغير ذلك، وإنما رأى السحاب مشبها بالإبل كثيرا في أشعارهم، فجوز أن يراد بها السحاب على طريق التشبيه والمجاز..[549]

---

548 التهذيب في التفسير ج 10 ص 7392

549 الكشاف ج 4 ص 745/744

قال شيخنا أبو إسحاق إبراهيم بن سيّار النظّام: ليس الفيل بأعجب من البعير. واجعله يعجّب من البعير. وهو إنما خاطب العرب، وهم الحجة على جميع أهل اللغات، ثم تصير تلك المخاطبة لجميع الأمم بعد الترجمة على ألسنة هؤلاء العرب، الذين بهم بدأت المخاطبة لجميع الأمم. وكيف يجوز أن يعجّب جماعة الأمم من شيء لم يروه قطّ، ولا كان على ظهرها يوم نزلت هذه السورة رجل واحد كان قد شهد الفيل والحبشة. وعلى أنّ الفيل وافى مكّة وما بها أحد إلّا عبد المطلب في نفير من بقيّة النّاس، ولا كانوا حيث يتأمّلون الفيل.[550]

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ۝٢١ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ۝٢٢﴾ الغاشية: ٢١ - ٢٢

قال شيخنا الحاكم الجشمي: (فَذَكِّرْ) قيل: ذكرهم هذه الأدلة، ومُرْهُمْ بالاستدلال بها، ونَبِّهْهُمْ عليها، عن أبي علي، وأبي مسلم. وقيل: ذكرهم الوعيد لمن تولى وأعرض، والوعد لمن استدل بها وقَبِلَ (إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ) قيل: مذكر نعمي عندهم وما توجبه عليهم، وتذكرهم الدلائل والوعد والوعيد (لَسْتَ عَلَيهِمْ بِمُسَيطِرٍ) قيل: بجبار، عن ابن عباس، ومجاهد. وقيل: لست عليهم بجبار بالإكراه على الإيمان، عن ابن زيد. وقيل: لست عليهم بمسلط تكرههم على الإيمان وتمنعهم عن المعاصي قهرًا؛ إنما إليك الدعوة فقط، عن أبي علي. واختلفوا، فقال بعضهم: كان هذا قبل نزول آية الجهاد، ثم نسخ بآية القتال، وقيل: لا نسخ فيه؛ لأن الجهاد ليس بإكراه، ولمكان الاستثناء، وقيل: إنما بعثت للتذكير، ليس القبول عليك؛ إنما هو عليهم، فليس عليك من ذلك شيء، وقيل: ليس عليك حسابهم حتى تحفظها عليهم، عن أبي مسلم.

قال شيخنا الزمخشري: (إِنَّما أَنْتَ مُذَكِّرٌ) كقوله (إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلاغُ). (لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ) بمتسلط، كقوله (وَما أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ) وقيل: هو في لغة تميم مفتوح الطاء، على أن «سيطر» متعد عندهم..[551]

550 الحيوان 7 ص 127
551 الكشاف ج 4 ص 745

قال قاضي القضاة: قوله : (فَذَكِّرْ إِنَّما أَنْتَ مُذَكِّرٌ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ) يدل على أنهم ممكنون مما أمروا به ، لأمر نبيه صلّى اللّه عليه بأن يذكر ويدعو إلى سبيله بالموعظة ، وبين أنه ليس بمسيطر عليهم ، ليحملهم على ما يدعوهم إليه ، أو يمنعهم من خلافه ، وأن الغرض فى دعائه أن يؤثروا الإيمان على ما هم عليه. وكل ذلك لا يصح لو كان تعالى قد منعهم من الإيمان ، ولم يعطهم القدرة عليه ، على ما يقوله القوم.[552]



قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلۡمَلَكُ صَفّٗا صَفّٗا ٢٢﴾ الفجر: ٢٢

قال شيخنا الحاكم الجشمي: (وَجَاءَ رَبُّكَ) قيل: أمره وقضاؤه ومحاسبته، عن الحسن، وأبي علي. وقيل: جلائل آياته فجعل مجيئها مجيئه تفخيمًا لها، ولا يجوز حمله على مجيء ذاته؛ لأنه ليس بجسم، فلا يجوز عليه المجيء والذهاب، وقيل: جاء عذابه وثوابه، وقيل: جاء أمره الذي لا أمر لغيره معه وذلك يكون يوم القيامة، خلاف حال الدنيا، عن أبي مسلم. (وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا) أي: مصطفون في القيامة للحساب، وذلك يزيد في سرور المؤمنين، وغم العصاة، إذا ظهر أمرهم على رؤوس الأشهاد، وقيل: الملائكة تقف صفوفًا خلف الناس..[553]

قال شيخنا الزمخشري: فإن قلت: ما معنى إسناد المجيء إلى الله، والحركة والانتقال إنما يجوزان على من كان في جهة قلت: هو تمثيل لظهور آيات اقتداره وتبين آثار قهره وسلطانه: مثلت حاله في ذلك بحال الملك إذا حضر بنفسه ظهر بحضوره من آثار الهيبة والسياسة ما لا يظهر بحضور عساكره كلها

---

552 متشابه القرآ، ص 688

553 التهذيب في التفسير ج 10 ص 7411

ووزرائه وخواصه عن بكرة أبيهم صَفًّا صَفًّا ينزل ملائكة كل سماء فيصطفون صفا بعد صف محدقين بالجن والإنس.[554]

قال قاضي القضاة: قوله تعالى : (وَجاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا) لا يدل على صحة ما يتعلق المشبهة به، فى أنه تعالى كالواحد منا ، فى أنه يجيء ويذهب! ولو كان كذلك لكان محدثا مدبرا مصورا!

والمراد بذلك : وجاء أمر ربك ، أو متحملو أمر ربك للمحاسبة والفصل ، على ما يقال فى اللغة عند التنازع فى الأمر الذى يرجع فيه إلى بعض الكتب : إذا جاء الشافعى فقد كفانا ، ويراد بذلك كتابه ، وإذا جاء الخليل في العروض انقطع الكلام ، والمراد به كلامه فى ذلك.[555]



قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ۝٨ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ۝٩ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ۝١٠﴾ البلد: ٨ – ١٠

قال شيخنا الحاكم الجشمي: (أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَينَينِ) يعني ألم نبصره أمره بأن جعلنا له عينين يبصر بهما، وهذا استفهام، والمراد التقرير، أي: جعلنا له عينين، فيهما دلائل صنعه، وآثار حكمته ونعمته، وقال قتادة: إنما يقرر كي تشكر (وَلِسَانًا وَشَفَتَينِ) بهما يتكلم (وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ) الطريقين، قيل: طريق الخير والشر، عن ابن مسعود، وابن عباس، والحسن، ومجاهد، وقتادة، ونظيره: (هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ) وقيل: أرشدناه للتدبير، عن ابن عباس، وسعيد بن المسيب، والضحاك. والمعنى أنه أكمل عقله ونصب الأدلة ونبهه عليها حتى تمكن من العمل بالخير والشر، وإنما ذكر النجد؛ لأنه بالعقل يطلع على هذه الأحوال كمن صعد مكانًا مرتفعًا يطلع على الأماكن القريبة والبعيدة.[556]

---

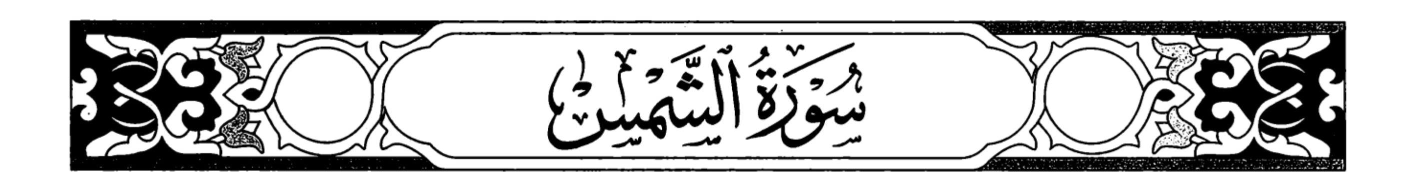
554 الكشاف ج 4 ص 751

555 متشابه القرآن ص 689

556 التهذيب في التفسير ج 10 ص 7421

قال شيخنا الزمخشري: (أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ) يبصر بهما المرئيات (وَلِساناً) يترجم به عن ضمائره (وَشَفَتَيْنِ) يطبقهما على فيه ويستعين بهما على النطق والأكل والشرب والنفخ وغير ذلك (وَهَدَيْناهُ النَّجْدَيْنِ) أى طريقى الخير والشر. وقيل: الثديين..[557]

قال قاضي القضاة: قوله تعالى فى صفة الإنسان : (أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ وَلِساناً وَشَفَتَيْنِ وَهَدَيْناهُ النَّجْدَيْنِ) يدل على أنه قد هدى المكلف ، وبين له طريق الحق والباطل ، والخير والشر. وذلك يوجب أن الهدى هو الدلالة والبيان لا خلق الإيمان فيهم. وما ذكره تعالى من النعم يدل على أنه متمكن ؛ لأنه بعثه به على طاعته والتمسك بالقيام بشكره.



قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ۝١٠﴾

الشمس: ٨ – ١٠

قال شيخنا الحاكم الجشمي: (وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا) أي: تسويتها بأن عدل خلقها وأعضاءها وحواسها ومجاريها، عن قتادة، وأبي علي. وقيل: ونفس وما سواها الله، والسماء وما بناها الله، عن الحسن. وقيل: أقسم بالسماء ومَن بناها، والأرض ومَن دحاها، والنفس ومَن سواها (فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا) أي: بين لها الخير والشر، وعرفها الفجور والتقوى، عن ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، وسفيان، والضحاك. والفاء في قوله: (فَأَلْهَمَهَا) عطف على قوله: (وَنَفسٍ وَمَا سَوَّاهَا) يعني: سواها وألهمها، عن أبي مسلم. وقيل: معناه أن النفس التي سواها هي النفس التي ألهمها، عن أبي علي. (قَدْ أَفْلَحَ) هذا موضع القسم، وتقديره: لقد أفلح، فحذف اللام لدلالة الكلام عليه، ومعنى أفلح: فاز وظفر بالبغية (مَنْ زَكَّاهَا) قيل: طهرها بأعمال الطاعة، وتجنب المعاصي، عن أبي علي. قال أبو مسلم: لأن التزكية التطهر

[557] الكشاف ج 4 ص 755

من الذنوب، وقيل: من زكى نفسه بعمل صالح، عن ابن عباس، ومجاهد، وقتادة. وقيل: قد أفلح من زكى اللهُ نفسَه، عن جماعة، ثم اختلفوا، فقيل: بأن حكم بطهارتها، وقيل: طهرها بالتوفيق والألطاف والتأييد التي عندها اختار الطاعة (وَقَدْ خَابَ) خسر وانقطع أمله (مَنْ دَسَّاهَا) قيل: الضمير يعود على النفس، أي: دسَّى نفسه بالمعاصي بأن حمله عليها، عن الحسن. وقيل: دساه الله، ثم اختلفوا، فقيل: حَكَمَ عليه بذلك، وقيل: وَصْفٌ له بالخذلان لما علم أنه لا لطف له، واختلفوا في معنى (دَسَّاهَا) قيل: دسس نفسه منهمكًا في معاصي الله مُصِرًّا على الذنوب أي: أدخلها، يعني: صار مدسوسًا فيه؛ أي: داخلًا، والياء بدل من. السين، فقد ذكر دَسَّى، والمعنى: دسس، والعرب تبادل هذه الحروف، عن أبي علي. وقيل: أوردها المعاصي وانغمس واندس فيها، عن أبي مسلم. وقيل: دَسَّسَها، يعني: أخملها وأخفى محلها ووضع منها بمعصية كما يقال: تَظَنَّيْتُ وتَظَنَّنْتُ، وقال الشاعر:

تَقَضِّيَ الْبَازِي إِذَا الْبَازِي كَسَرْ

أي: تقضض، وقيل: أفلح من زكاها برفع الغمة، وخاب من دساها بوضع الغمة، روي ذلك عن زيد بن علي (عليه السلام)، وقيل: دساها أبطلها، وأهلكها، عن ابن عباس.

فأما ما روي عن سعيد بن جبير ومجاهد: زكاها: أصلحها وطهَّرها، ودساها: أضلها وأغواها، إن كان الكناية عن النفس، أو عن الله تعالى فهو على ما قدمنا، وعن النبي – صلى الله عليه وسلم – كان إذا قرأ هذه الآية قال: "اللّٰهُمَّ آت نفسي تقواها، أنت وليها ومولاها، وزكها أنت خير من زكاها".[558]

قال شيخنا الزمخشري: (فَأَلْهَمَها) وما يؤدى إليه من فساد النظم. والوجه أن تكون موصولة، وإنما أوثرت على من لإرادة معنى الوصفية، كأنه قيل: والسماء، والقادر العظيم الذي بناها، ونفس، والحكيم الباهر الحكمة الذي سواها، وفي كلامهم: سبحان ما سخركن لنا.

فإن قلت: لم نكرت النفس؟

قلت: فيه وجهان،

أحدهما:أن يريد نفسا خاصة من بين النفوس وهي نفس آدم، كأنه قال: وواحدة من النفوس.

[558] التهذيب في التفسير ج 10 ص 7424/7423

والثاني: أن يريد كل نفس وينكر للتكثير على الطريقة المذكورة في قوله (عَلِمَتْ نَفْسٌ). ومعنى إلهام الفجور والتقوى: إفهامهما وإعقالهما، وأنّ أحدهما حسن والآخر قبيح، وتمكينه من اختيار ما شاء منهما بدليل قوله (قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاها وَقَدْ خابَ مَنْ دَسَّاها) فجعله فاعل التزكية والتدسية ومتوليهما والتزكية: الإنماء والإعلاء بالتقوى. والتدسية: النقص والإخفاء بالفجور. وأصل دسى: دسس، كما قيل في تقضض: تقضى. وسئل ابن عباس عنه فقال: أتقرأ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى، وَقَدْ خابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْماً. وأما قول من زعم أنّ الضمير في زكى ودسى لله تعالى، وأنّ تأنيث الراجع إلى من، لأنه في معنى النفس: فمن تعكيس القدرية الذين يورّكون على الله قدرا هو بريء منه ومتعال عنه، ويحيون لياليهم في تمحل فاحشة ينسبونها إليه. فإن قلت: فأين جواب القسم؟ قلت: هو محذوف تقديره: ليدمدمنّ الله عليهم، أى: على أهل مكة لتكذيبهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، كما دمدم على ثمود لأنهم كذبوا صالحا. وأما (قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاها) فكلام تابع لقوله (فَأَلْهَمَها فُجُورَها وَتَقْواها) على سبيل الاستطراد، وليس من جواب القسم في شيء.[559]

<u>قال قاضي القضاة</u>: قوله تعالى : (فَأَلْهَمَها فُجُورَها وَتَقْواها) لا يصح أن يتعلق به ، فى أنه تعالى خلق فيها الفجور والتقوى ، لأن ظاهره يقتضى أنه أعلمها ، أو دلها على الفصل بين التقوى والفجور ، والطاعة والمعصية ؛ لكى يجتنب المعاصى ويقدم على الطاعة. وهو الذى نقوله ، ولا يصح إلا على قولنا : إن الإلهام والدلالة إنما يفيدان إذا كان العبد يختار ما يقتضيانه. فأما إذا كان تعالى يخلق فيه التقوى أو الفجور على وجه لا يصح منه خلافه. فكيف يفيد الإلهام والدلالة؟!

وقوله : (قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاها) لا يصح أن يتعلق به فى أنه تعالى فعل بها ما صارت به زكية ؛ لأن المراد بذلك : قد أفلح من زكّى نفسه ، وقد ذكر النفس من قبل.

والمراد بذلك لا يخرج من وجهين : أحدهما : أنه أفلح من أقدم على الأمور التى صار بها طاهرا زكيا ، وهذا صحيح لا شبهة فيه. أو يراد بذلك : قد أفلح من مدح نفسه وذكر محاسنها! وهذا مما يقال فيه : كيف يصح هذا وقد نهى الإنسان عن مدح نفسه وتزكيتها؟ والجواب عنه : أن المنهى عنه من ذلك هو إيراد المدح على جهة التفاخر والتطاول على الناس ، وإظهار التكبر ، والتشبث بذلك إلى ما لا يحل

[559] الكشاف ج 4 ص 760/759

ولا يجوز. فإذا مدح نفسه ليحكى عن براءة ساحته فى المعاصى ويظهر ما يزيل عنه التهمة فى الإخلال بمعاصى الله ، أو ليعرف حقه ، ويؤدى ما يلزم من تعظيمه ، أو يعتمد عليه فى الأمور التى يستحقها وتليق به ، فذلك حسن فى الحكمة. وعلى هذا الوجه يحمل مدح الأنبياء والصالحين لأنفسهم فى المواقف التى أقدموا على ذلك فيها.[560]



قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ عَلَيۡنَا لَلۡهُدَىٰ ١٢﴾ الليل: ١٢

قال شيخنا الحاكم الجشمي: (إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى) بيان الطاعة من المعصية، عن قتادة. وقيل: علينا أن نهدي العباد إلى ما كلفناهم، عن أبي علي. وقيل: علينا الطريق فلا يفوتنا أحد، عن أبي مسلم. وقيل: علينا البيان، فأما الاهتداء أو فعل الهدى فإليكم.[561]

قال الزمخشري: (إِنَّ عَلَيْنا لَلْهُدى) إن الإرشاد إلى الحق واجب علينا بنصب الدلائل وبيان الشرائع.[562]

560 متشابه القرآ، ص 691
561 التهذيب في التفسير ج 10 ص 7443
562 الكشاف ج4 ص 763



قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلّٗا فَهَدَىٰ ۝٧﴾ الضحى: ٧

قال الحاكم الجشمي: (وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى) فيه قولان:

أولهما: أنه أراد الضلال والهداية في الدين.

والثاني: أنه أراد في الدنيا وأسبابها.

فأما من قال بالأول اختلفوا: فقيل: وجدك ضالًّا عما أنت عليه من الوحي والنبوة ومعالم الشريعة والأحكام لم تكن تعرفه؛ بل كنت غافلًا عنه، فهداك الله إلى ذلك، عن الحسن، والضحاك، وشهر بن حوشب، وابن كيسان، وأبي علي. وقال أبو علي: وضلاله عن ذلك لم يكن معصية؛ لأن الله تعالى لم يكن آتاه ذلك، ونظيره: (مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ)، وقوله: (وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ)، والضلال على هذا: الذهاب عن العلم، قال الله تعالى: (أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى)، وقال تعالى: (فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ) أي: لم أعلم. وقيل: وجدك من قوم ضلال، وكنت واحدًا منهم، فهداك للتوحيد والنبوة، عن الكلبي. وقيل: فهداهم بك. وقيل: وجدك لا تعرف الحق، فهداك إليه بإتمام العقل، ونصب الأدلة، والألطاف، والخواطر، حتى عرفت الله بصفاته بين قوم كلهم ضُلَّالٌ مشركين، فلولا أن الله تعالى فعل بك وإلا ما كنت كذلك. وقيل: وجدك ضالًّا لقبلتك فهداك إليها.

فأما من قال بالثاني فاختلفوا: فقيل: الضال الذي لا يهتدي إلى أمور الدنيا ومصالحها كقوله تعالى: (تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ) أي: أنك لم تعرف مصالح الدنيا فهداك إليها حتى فتح لك الفتوح، وذلت لك العرب، عن أبي مسلم، قال: والعرب تقول إذا التبس عليه معيشته: ما أدري أين أذهب، وما أدري إيش أصنع، ونحوه. وقيل: ضالًّا في شعاب مكة، فهداك إلى جدك عبد المطلب، وقال ابن عباس: ضل رسول الله – صلى الله عليه وسلم –، وهو صغير في شعاب مكة، فرآه أبو جهل ورده إلى

جَدِّة، فمنَّ الله عليه حتى رده على جده على يديْ عدوه. وقيل: بعث به جده عبد المطلب في طلب إبل، فاحتبس عنه، وهو صبي، فدعا الله وطاف بالبيت، فجاء مع الإبل، فقال: (يا بني حزنت عليك حزنًا، لا تفارقني أبدًا). وقيل: لما أرضعته حليمة بنت أبي ذؤيب، وأرادت رده على جده جاءت به حتى قرب من مكة فضَلَّ في الطريق، فطلبته وجزعت، وقالت: إن لم أره لأرمينَّ نفسي من شاهق، وجعلت تصيح وامحمداه، وضج الناس لصيحتها، قالت: فدخلت مكة على تلك الحال، قالت: ورأيت شيخًا فانيًا متوكِّئًا على عصى، فسألني عن حالي، فأخبرته، فقال: لا تبكي، أدلك على من يرده عليك، هبل الصنم الأعظم، ودخل البيت، وطاف بهبل، وقَبَّلَ رأسه وقال: يا سيداه لم تزل منتك جسيمة، رد محمدًا على هذه السعدية، قالت: فتساقطت الأصنام لما تفوه باسم محمد، وسمع صوتًا يقول: إنما هلاكنا على يديْ محمد، فخرج وأسنانه تصطك، وخرجت إلى عبد المطلب وأخبرته، فطاف بالبيت فدعا، فنودي بمكانه، فذهب عبد المطلب، وجاء به في حديث طويل، عن كعب. وقيل: خرج رسول الله - صلى الله عليه وسلم - مع أبي طالب إلى الشام في قافلة "مَيْسَرَةَ" غلام خديجة، فبينا هو راكب ذات ليلة ناقةً إذ جاء إبليس فأخذ بزمام الناقة، فعدل به عن الطريق، فجاء جبريل، فنفخ إبليس نفخة وقع منها إلى الحبشة، ورده إلى القافلة، فمنَّ الله عليه بذلك، وهذا يحمل على أن بعض الكفار عدل به إن صح الخبر، وبعض المؤمنين رده. وقيل: (وَجَدَكَ ضَالًّا) ليلة المعراج لا تعرف الطريق حين انصرف جبريل، فهداك إلى ساق العرش. وقيل: إن العرب تسمي الشجرة الفريدة في فلاة ضالة، فيهتدون بها إلى الطريق، فقال سبحانه: (وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى) وحيدًا ليس معك نبي غيرك، فهديت بك الخلق إلى الحق. وقيل: وجدك خاملاً لا تُذكَر ولا تُعْرَف، فعرَّفك إلى الناس، وهداهم بك حتى عرفوك، وعظموك، وأحسن ما قيل فيه ما قال أبو علي، وبدأنا به وما تعداه إما تعسف، وإما تخصيص بغير دليل.

ومتى قيل: كيف قال: (وجدك) وإنما يستعمل فيمن يغيب عنه شيء؟

قلنا: معناه: الرؤية أو العلم؛ أي: رآك كذلك أو عَلِمك كذلك، وقيل: معناه: كنت على هذه الصفة وإن لم يكن ثَمَّ وجدان، كمن يقول: وجدتك عالمًا أي: أنت عالم.

ومتى قيل: أليس قد قال بعضهم: إنه كان على دين قومه فهداه إلى الحق، حتى روي عن السدي أنه قال: كان على أمر قومه أربعين عامًا؟

قلنا: هذا من الخطأ العظيم؛ لأن الكفر لا يجوز على الأنبياء قبل البعثة وبعدها، ولأنه يؤدي إلى التنفير، ولا بد في النبي أن يكون معصومًا قبل البعثة وبعدها من كل كبيرة.[563]

قال شيخنا الزمخشري: (ضَالًّا) معناه الضلال عن علم الشرائع وما طريقه السمع، كقوله ما (كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتابُ). وقيل: ضل في صباه في بعض شعاب مكة، فردّه أبو جهل إلى عبد المطلب. وقيل: أضلته حليمة عند باب مكة حين فطمته وجاءت به لتردّه على عبد المطلب. وقيل: ضل في طريق الشام حين خرج به أبو طالب، فهداك: فعرفك القرآن والشرائع. أو فأزال ضلالك عن جدك وعمك. ومن قال: كان على أمر قومه أربعين سنة، فإن أراد أنه كان على خلوهم عن العلوم السعية، لنعم، وإن أراد أنه كان على دينهم وكفرهم، فمعاذ الله، والأنبياء يجب أن يكونوا معصومين قبل النبوّة وبعدها من الكبائر والصغائر الشائنة، فما بال الكفر والجهل بالصانع (ما كانَ لَنا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ) وكفى بالنبي نقيصة عند الكفار أن يسبق له كفر..[564]

قال شيخنا ابن أبي الحديد: (وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى) ليس معناه انه كان كافرا بل معناه لو لا اصطفاء الله تعالى لك لكنت كواحد من قومك ومعنى (وَوَجَدَكَ ضَالًّا) أي ووجدك بعرضة للضلال فكأنه ضال بالقوة لا بالفعل..[565]

قال قاضي القضاة: قوله تعالى : (وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدى) لا يجوز أن يتعلق به فى أنه عليهالسلام يجوز عليه الضلال قبل النبوة ، وذلك أن المراد بالضلال ينقسم إلى وجوه قد بيناها، ومن جملتها : الذهاب عن الطريق الذى فيه النفع. وهذا هو المراد بهذه الآية ؛ لأنه عليهالسلام كان ذاهبا عن طريق النبوة فهداه الله تعالى إليه.[566]

---

563 التهذيب في التفسير ج 10 ص 7458/7457/7456

564 الكشاف ج4 ص 768

565 شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ج 11 ص 108

566 متشابه القرآن ص 693

سُورَةُ الشَّرح

قَالَ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝٢﴾ الشرح: ١ – ٢

قال شيخنا الحاكم الجشمي: (أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ) قيل: ألم نفتح ونوسع قلبك بالنبوة والعلم؟! يعني فعلنا في قلبك السعة وطيب النفس بما عرفك من أمر دينه، ووفقك لطاعته، حتى قمت بأداء الرسالة، وأطعت الله، واستحققت الثواب، وقيل: ألم نشرح عنك الهموم حتى تثبت في ذلك، عن أبي مسلم. وهذا استفهام والمراد التقرير، أي: شرحنا، وقيل: هو الألطاف التي ترد عليه من الله من تقوية قلبه ونصرته ووعده حتى لم يشق عليه أداء الرسالة، واحتمال الأذى في ذلك؛ لأن ذلك من أعظم ما يحتاج فيه إلى ما يزيل عنه ضيق الصدر والتبرم بها؛ لما يناله من أذى المخالفين مع كثرتهم، وقيل: كان النبي – صلى الله عليه وسلم – يضيق صدره بما يرى من كفرهم وتكذيبهم وأذاهم، فشرح الله صدره حتى كان لا يضجر، ولا يضيق صدره، وذلك من أعظم النعم، وعن النبي صلى الله عليه وسلم أنه سئل عن شرح الصدر وعلامته، فقال: "التجافي عن دار الغرور، والإنابة إلى دار الخلود، والاستعداد للموت قبل نزول الموت " (وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ. الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ) قيل: ذنبك، عن مجاهد، والضحاك، وابن زيد، وأبي علي. وقيل: الوزر الذي كان عليه في الجاهلية قبل النبوة، عن الحسن. وقيل: أزلنا عنك همومك التي ثقلت عليك من أذى الكفار بأن نصرناك عليهم، فشبه الهموم بالحمل، والعرب تجعل الهم ثقلاً، عن أبي مسلم. وهذا أحسن ما قيل فيه.[567]

قال شيخنا الزمخشري: استفهم عن انتفاء الشرح على وجه الإنكار، فأفاد إثبات الشرح وإيجابه، فكأنه قيل: شرحنا لك صدرك، ولذلك عطف عليه: وضعنا: اعتبارا للمعنى. ومعنى: شرحنا صدرك:

[567] التهذيب في التفسير ج 10 ص 7464 / 7465

فسحناه حتى وسع عموم النبوّة ودعوة الثقلين جميعا. أو حتى احتمل المكاره التي يتعرض لك بها كفار قومك وغيرهم: أو فسحناه بما أودعناه من العلوم والحكم، وأزلنا عنه الضيق والحرج الذي يكون مع العمى والجهل. وعن الحسن: ملىء حكمة وعلما. وعن أبى جعفر المنصور أنه قرأ: ألم نشرح لك، بفتح الحاء. وقالوا: لعله بين الحاء وأشبعها في مخرجها، فظنّ السامع أنه فتحها، والوزر الذي أنقض ظهره- أى حمله على النقيض وهو صوت الانتقاض والانفكاك لثقله- مثل لما كان يثقل على رسول الله صلى الله عليه وسلم ويغمه من فرطاته قبل النبوّة. أو من جهله بالأحكام والشرائع. أو من تهالكه على إسلام أولى العناد من قومه وتلهفه. ووضعه عنه: أن غفر له، أو علم الشرائع، أو مهد عذره بعد ما بلغ وبلغ. وقرأ أنس: وحللنا، وحططنا. وقرأ ابن مسعود: وحللنا عنك وقرك.[568]

قال قاضي القضاة: قوله تعالى : (أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ) لا يدل على أنه تعالى خلق فيه الإيمان ؛ لأنا قد بينا أن شرح الصدر لا يفيد ظاهره ذلك ، وأن هذه صفة لا تحصل للصدر بالإيمان ، وإنما يقال على جهة المجاز بأن صدره انشرح بالشيء ، إذا تبينه وظهر له صحته ، وزال عنه فيه الريب والشك.

والمراد بذلك : أنه تعالى بما خصه به من الإعلام وفعله من الأدلة شرح صدره بما حمله من الرسالة.

وقوله : (وَوَضَعْنا عَنْكَ وِزْرَكَ الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ) مما تعلقوا به فى أنه يجوز أن يرتكب الكبائر ؛ لأن الصغائر لا تصح ، لأن الأنبياء عليهمالسلام قد تعبدوا بتحمل المشقة الشديدة فى الندم والتوبة ، إذا واقعوا معصية وإن كانت صغيرة ؛ فتصير لما تقتضيه من المشقة بالصفة التى ذكرها تعالى. وقد علمنا أن حمل الكلام على ظاهره لا يصح ، لأن أى معصية أقدم عليها معلوم من حالها أنها لا تنقض ظهره ، فلا بد من أن يكون المراد به : التنبيه بذلك على ما فيه من المشقة.[569]

---

568 الكشاف ج 4 ص 770

569 متشابه القرآن ص 694



قَالَ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ﴿٥﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٦﴾﴾ التين: ٤ – ٦

قال شيخنا الحاكم الجشمي: (لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ) هذا موضع القسم، أقسم أنه خلق الإنسان في أحسن تقويم، قيل: في أحسن صورة، عن إبراهيم، وقتادة، ومجاهد. وقيل: منتصب القامة وسائر الحيوان منكب إلا الإنسان، عن ابن عباس. وقيل: خلقهم على كمال في أنفسهم، مزينًا بالعقل، مصورًا بأحسن صورة، مميزا بالنطق، مؤدبًا بالأمر والنهي إلى غير ذلك، وذلك مما يختص به الإنسان، وقيل: قوّم أعضاءه وجوارحه، وأحكمه وحسنه، عن أبي مسلم. وقيل: فيه إشارة إلى حال الشباب (ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ) قيل: أرذل العمر، عن ابن عباس، وإبْرَاهِيم، وقتادة، وأبي مسلم. وعلى هذا الاستثناء منقطع، فهو بعد النضارة والقوة، والحسن إلى الضعف والنقص، وقيل: ثم رددناه إلى النار في أقبح صورة، عن الحسن، ومجاهد، وابن زيد، وأبي علي؛ لأنه لم يشكره على نعمه عليه، وعلى هذا الاستثناء صحيح، فالمراد بالمتقدم المكلفون، والمستثنى المؤمنون، وقيل: هم قوم ردوا إلى أرذل العمر على عهد رسول الله صلى الله عليه، فأنزل الله ذلك، فأخبر أن لهم أجرهم على الذي عملوا قبل أن تذهب عقولهم، وقيل: المراد به الكفار، أي: خلقناهم في أحسن خلقة أحرارًا عقلاء مكلفين فكفروا فرددناهم أسفل سافلين بالرق والعبودية، ثم استثنى فقال: (إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ).

ومتى قيل: كيف يصح هذا الاستثناء عما تقدم؟

قلنا: أما على القول الأول: ثم يردون إلى أرذل العمر فزالت عقولهم وانقطعت أعمالهم فلا تكتب لهم حسنة، ولا عليهم سيئة، إلا الَّذِينَ آمنوا وعملوا الصالحات فتكتب لهم في حال هرمهم مثل ما كانوا يعملون في حال شبابهم وصحتهم، وقيل: (إلا) بمعنى (لكن)، وهو

الوجه، وقيل: إلا الَّذِينَ آمنوا فإنهم يبقون شبابًا أقوياء في الجنة، والباقون يبقون في حال السفال والضعف في النار. فأما على المعنى الثاني: فالاستثناء صحيح بمعنى إلا الَّذِينَ آمنوا وعملوا الصالحات فشكروا المنعم، وراعوا حق مولاهم، وعبدوه. (فَلَهُمْ أَجْرٌ) جزاء وهو الثواب (غَيْرُ مَمْنُونٍ) أي: غير مقطوع، عن أبي مسلم. وقيل: غير منقوص، وقيل: غير محسوب، عن مجاهد -. وقيل: غير مكدر مما يؤذي ويغم، وهو ما يمنُّ عليه فيه فينغصه بامتنانه، عن أبي علي.[570]

قال الزمخشري: (فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ) في أحسن تعديل لشكله وصورته وتسوية لأعضائه. ثم كان عاقبة أمره حين لم يشكر نعمة تلك الخلقة الحسنة القويمة السوية: أن رددناه أسفل من سفل خلقا وتركيبا، يعنى: أقبح من قبح صورة وأشوهه خلقة، وهم أصحاب النار أو أسفل من سفل من أهل الدركات. أو ثم رددناه بعد ذلك التقويم والتحسين أسفل من سفل في حسن الصورة والشكل: حيث نكسناه في خلقه، فقوّس ظهره بعد اعتداله، وابيض شعره بعد سواده، وتشنن جلده وكان بضا، وكلّ سمعه وبصره وكانا حديدين، وتغير كل شيء منه: فمشيه دليف، وصوته خفات، وقوته ضعف، وشهامته خرف وقرأ عبد الله:أسفل السافلين. فإن قلت: فكيف الاستثناء على المذهبين؟ قلت: هو على الأول متصل ظاهر الاتصال، وعلى الثاني منقطع. يعنى: ولكن الذين كانوا صالحين من الهرمى فلهم ثواب دائم غير منقطع على طاعتهم وصبرهم على ابتلاء الله بالشيخوخة والهرم، وعلى مقاساة المشاق والقيام بالعبادة على تخاذل نهوضهم.[571]

قال قاضي القضاة: قوله تعالى : (لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ثُمَّ رَدَدْناهُ أَسْفَلَ سافِلِينَ) يصح أن يتعلق به فى أنه جعله كافرا. لأن الظاهر لا يقتضيه.

والمراد عندنا : أنه بمعصيته وإيثاره الكفر جعله فى أسفل السافلين ، بأن عاقبه وجعل النار مأواه ، ولذلك قال تعالى على جهة الاستثناء : (إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ) وهذه الآية تدل على أن هذا الأجر لا يستحقه إلا من آمن وعمل صالحا. وذلك يبطل قول من يقول : إن الإيمان يكفى فى استحقاقه ، من المرجئة.[572]

---

570 التهذيب في التفسير ج 10 ص 7472/7471
571 الكشاف ج 4 ص 774
572 متشابه القرآن ص 695



سورة العلق

قَالَ تَعَالَى: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ٥﴾ العلق: ١ – ٥

قال شيخنا الحاكم الجشمي: (اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ) قيل: استفتح باسم الله قراءة القرآن، فأمره بالابتداء بذكره، ثم بالقراءة، عن أبي مسلم. وقيل: اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ المنزل عليك، عن أبي علي. وقيل: اقرأ على اسم الله.

ومتى قيل: لِمَ وجب، أن في تعظيم الاسم تعظيم المسمى؟

قلنا: قيل: لأن الاسم ذكر الشيء بما يخصه فلا سبيل إلى تعظيمه إلا بمعناه، ولأن اسم الله تعالى يفيد مدح وتعظيم وتمجيد إجراء الألقاب عليه.

(الَّذِي خَلَقَ) الأشياء مقدرًا تحت حكمته، وعلى ما أراد (خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ) وهو الدم الجامد الذي تستحيل النطفة إليه في الرحم، وإنما ذكر العلقة وإن كان له أحوال أخر؛ لأنه أدخل في الاستخفاف كأنه قيل: أصله بهذا الحد من المهانة، ثم بلغ منه مبلغ الكمال منبهًا على قدرته ونعمته وحثًّا على شكره وعبادته (اقْرَأْ).

ومتى قيل: لم كرر (اقرأ) وبأي شيء أمر أن يقرأ؟

قلنا: أما الأول: فقيل: أمر في الأولى بالقراءة لنفسه، وفي الثانية بالقراءة للتبليغ، فليس بتكرار، عن أبي علي. وقيل: كرر للتأكيد، عن أبي مسلم. وأما الثاني: فالمقروء هو القرآن، وقيل: في الأول اسمه، وفي الثاني القرآن.

(وَرَبُّكَ) أي: خالقك وسيدك (الْأَكْرَمُ) أي: لا أحد أكرم منه؛ لأن كل فعله إكرام وإحسان ونفع للغير، بخلاف غيره، فينبغي أن تعبده؛ لأنه بهذه الصفة، وقيل: بَلِّغْ قومك وأمتك بأنه أكرم من أن يكلفك ما لا يجازيك عليه وما لا قبل لك به، عن أبي علي. وقيل: اقرأ فإنه لكرمه يقويك ولعينك ويظهرك ويثبتك، عن القاضي. وقيل: الْأَكْرَمُ: الحليم عن العباد فلا يعجل عليهم بالعقوبة (الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ) قيل: علم الخط والكتابة الذي فيها النفع العظيم فيما يتعلق بالدين والدنيا، وتقييد ما يخاف فيه النسيان وتخليده الدهر الطويل والأداء عن صاحبها حاجاته، عن أبي مسلم. قال قتادة: القلم نعمة من الله تعالى عظيمة، لولاه لم يقم دين، ولم يصلح عيش، وقيل: القلم أحد اللسانين، وقيل: أراد علم كلامه بأن كتب لهم في اللوح المحفوظ حتى قرأه الملائكة وبلغوه الناس، عن أبي علي. وقيل: أراد نفس القلم الذي يتوصل به إلى الكتابة (عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ) من أمور دينه وشرائعه وأحكامه، وقيل: جميع ما يعلم الإنسان من جهته إما بأن يضطر إليه أو نصب الدليل عليه في عقله، أو بَيَّنَ على ألسنة ملائكته ورسله، وكل ذلك مضاف إليه؛ لأنه من جهته، وقيل: المراد به ما خلق فيهم من العلوم الضرورية التي بها يكمل العقل، وبها يتم الاستدلال، والأول الوجه، وقيل: عَلَّمَ بالقلم من أمور دينه ودنياه ما لم يعلمه قبل ذلك حتى كتبه وحفظه وعلمه، ولولا تعليمه لما كان شيء من ذلك، وقيل: علم آدم الأسماء، ثم صار ذلك في أولاده، والإنسان آدم، وقيل: الإنسان محمد كقوله: (وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ). وقيل: هو عام.[573]

قال شيخنا الزمخشري: (بِاسْمِ رَبِّكَ) النصب على الحال، أي: اقرأ مفتتحا باسم ربك قل بسم الله، ثم اقرأ. فإن قلت: كيف قال خَلَقَ فلم يذكر له مفعولا، ثم قال خَلَقَ الْإِنْسانَ؟

قلت: هو على وجهين: إما أن لا يقدر له مفعول وأن يراد أنه الذي حصل منه الخلق واستأثر به لا خالق سواه. وإما أن يقدر ويراد خلق كل شيء، فيتناول كل مخلوق، لأنه مطلق، فليس بعض المخلوقات أولى بتقديره من بعض. وقوله: خَلَقَ الْإِنْسانَ تخصيص للإنسان بالذكر من بين ما يتناوله الخلق، لأن التنزيل إليه وهو أشرف ما على الأرض. ويجوز أن يراد: الذي خلق الإنسان، كما قال (الرَّحْمنُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ خَلَقَ الْإِنْسانَ) فقيل: الَّذِي خَلَقَ مبهما، ثم فسره بقوله خَلَقَ الْإِنْسانَ تفخيما

[573] التهذيب في التفسير ج 10 ص 7477/ 7478

لخلق الإنسان. ودلالة على عجيب فطرته. فإن قلت: لم قال مِنْ عَلَقٍ على الجمع، وإنما خلق من علقة، كقوله (مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ)؟ قلت: لأن الإنسان في معنى الجمع، كقوله (إِنَّ الْإِنْسانَ لَفِي خُسْرٍ). (الْأَكْرَمُ) الذي له الكمال في زيادة كرمه على كل كرم، ينعم على عباده النعم التي لا تحصى، ويحلم عنهم فلا يعاجلهم بالعقوبة مع كفرهم وجحودهم لنعمه وركوبهم المناهي وإطراحهم الأوامر، ويقبل توبتهم ويتجاوز عنهم بعد اقتراف العظائم، فما لكرمه غاية ولا أمد، وكأنه ليس وراء التكرم بإفادة الفوائد العلمية تكرم، حيث قال: الأكرم (الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنْسانَ ما لَمْ يَعْلَمْ) فدلّ على كمال كرمه بأنه علم عباده ما لم يعلموا، ونقلهم من ظلمة الجهل إلى نور العلم، ونبه على فضل علم الكتابة لما فيه من المنافع العظيمة التي لا يحيط بها إلا هو، وما دونت العلوم ولا قيدت الحكم ولا ضبطت أخبار الأولين ومقالاتهم، ولا كتب الله المنزلة إلا بالكتابة، ولولا هي لما استقامت أمور الدين والدنيا، ولو لم يكن على دقيق حكمة الله ولطيف تدبيره ودليل إلا أمر القلم والخط، لكفى به. ولبعضهم في صفة القلم:

ورواقم رقش كمثل أراقم قطف الخطا نيّالة أقصى المدى

سود القوائم ما يجدّ مسيرها إلّا إذا لعبت بها بيض المدى

وقرأ ابن الزبير: علم الخط بالقلم.[574]

قال قاضي القضاة: قوله تعالى : (اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ) استدل به العلماء فى أن القرآن مخلوق، لأن الذى خلق يجب أن يكون راجعا إلى ما تقدم ذكره وهو الاسم المقروء![575]



[574] الكشاف ج4 ص 777/776/775

[575] متشابه القرآن ص 696

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ ۝١ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ ۝٢ لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ خَيۡرٞ مِّنۡ أَلۡفِ شَهۡرٖ ۝٣ تَنَزَّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذۡنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمۡرٖ ۝٤ سَلَٰمٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطۡلَعِ ٱلۡفَجۡرِ ۝٥﴾
القدر: ١ – ٥

قال شيخنا الحاكم الجشمي: (إِنَّا أَنزَلْنَاهُ) يعني القرآن (فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ) فيه ثلاثة أقوال:

أولها: أنزلنا القرآن جملة واحدة إلى سماء الدنيا في ليلة القدر، ثم أنزل على رسول الله – صلى الله عليه وسلم – نجومًا، عن ابن عباس. وقيل: كان يُنْزِلُ في كل سنة في ليلة القدر إلى سماء الدنيا ما يريد إنزاله في تلك السنة على نبيه متفرقًا، ثم كذلك في سنة سنة، عن أبي علي. وقيل: إنا أنزلنا ما يدين عليه العباد في ليلة القدر بمعنى بَيَّنَّا وآتينا، حكاه القاضي.

وثانيها: ابتدأنا إنزاله في ليلة القدر، عن الشعبي. وكان المبعث في رمضان.

وثالثها: أنزلنا القرآن في فضل ليلة القدر، والأول أولى؛ لأن أكثر المفسرين عليه، وتواتر النقل بأنه عز وجل أنزل القرآن ليلة القدر إلى سماء الدنيا.

(وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيلَةُ الْقَدْرِ) تفخيمًا لشأنها، وتعظيمًا لفضلها، والكلام فيه يقع من وجوه:

أولها: لم سميت ليلة القدر؟ وقيل: هي ليلة الحكم، وتقدير الأشياء في تلك السنة من كل أمر، عن الحسن، ومجاهد. من قولهم: قَدَرَ الله الشيء قدرًا، وَقَدَّرَهُ تقديرًا بمعنى: قالوا: وهي الليلة المباركة فيها يفرق كل أمر حكيم، وسميت مباركة لأنه تعالى يُنزل فيها الخير والبركة والسعادة، وروي عن ابن عباس أنه تعالى يقضي القضايا في ليلة النصف من شعبان، ثم يسلمها إلى أربابها في ليلة القدر، فعلى هذا عنده ليلة القدر غير ليلة براءة. وقيل: ليلة القدر ليلة الشرف والخطر وعظم الشأن من قولهم: رجل له قدر عند الناس، أي: منزلة وشرف، ومنه: (وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ) أي: ما عظموه حق عظمته عن الزهري. وقيل: لأن من لم يكن ذا قدر، إذا أحياها صار ذا قدر، عن أبي بكر الوراق.

وقيل: لأن عمل المؤمنين فيها يكون ذا قدر، ككونه مقبولاً مضاعفًا في الأجر. وقيل: لأنه أنزل فيها كتاب ذو قدر، إلى رسول ذي قدر، لأجل أمة ذات قدر، عَلَى يَدَيْ مَلَكٍ ذي قدر. وقيل: لأن الأرض تضيق فيها بالملائكة عند نزولهم من السماء من قوله: (وَمَنْ قُدِرَ عَليهِ رِزْقُهُ) عن الخليل.

وثانيها: أي وقت هي؟

فقيل: كانت على عهد رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، ثم رفعت، ولأن الفضل كان لنزول القرآن فيها وقد انقطع. وقيل: بل هو ثابت بعده وهو قول جمهور العلماء، ثم اختلفوا على قولين، وروي عن أبي ذر قال: قلت: يا رسول اللَّه، ليلة القدر تكون على عهد الأنبياء؟ قال: "لا، بل هي إلى يوم القيامة". وقال بعضهم: هي في السنة كلها، عن ابن مسعود، وروي نحوه عن أبي حنيفة. وقيل: بل هي في شهر رمضان، وعليه الأكثر، والمروي عن النبي - صلى الله عليه وسلم -، وهو قول ابن عمر، والحسن، وجماعة العلماء. ثم اختلف هَؤُلَاءِ في أي ليلة هي على ثلاثة أقوال: فقيل: أول ليلة، عن أبي رزين. وقيل: ليلة سبعة عشر، وهي التي صبيحتها كانت وقعت بدر، عن الحسن. وقيل: بل هي في عشر الأواخر من شهر رمضان، وعليه الأكثر، والمروي عن النبي - صلى الله عليه وسلم -: "التمسوها في العشر الأواخر". ثم اختلف هَؤُلَاءِ أي ليلة منها؟ قيل: ليلة الحادي والعشرين، عن أبي سعيد الخدري. وقيل: ليلة الثالث والعشرين، عن عمر، وابن عباس. وقيل: ليلة أربع وعشرين، عن زيد بن ثابت، ورواه بلال عن النبي - صلى الله عليه وسلم -. وقيل: ليلة الخامس والعشرين، وروى أنس عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه قال: "التمسوها في التاسعة والسابعة والخامسة"، وقيل: هي ليلة السابع والعشرين، عن أبي علي، وأبي بن كعب، وابن عباس، وعائشة. وعن ابن عمر عن النبي - صلى الله عليه وسلم -: "من كان متحريًا فليتحرها في ليلة سبع وعشرين" يعني ليلة القدر، وروى أبي عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه قال: "ليلة القدر ليلة سبع وعشرين". وقيل: هي ليلة التاسع والعشرين، وقيل: أخفى ذلك في العشر الأواخر ولم يطلع عليها أحد بعينها ليتعبد الناس في جميعها ليستدركوا فضلها. وقيل: يجوز أن تكون في كل سنة في ليلة أخرى، فتكون في سنة ليلة ثلاث وعشرين، وفي سنة ليلة أربع وعشرين، وفي سنة ليلة خمس وعشرين، وفي سنة ليلة سبع وعشرين، فأخفى عنهم لأنه ليس في كل سنة ليلة بعينها، ذكر الوجهين أبو علي رحمه اللَّه. وقيل: أخفاها لنوع من

المصلحة، كما أخفى الصلاة الوسطى بين الصلوات، واسمهِ الأعظم في الأسماء، وساعة الإجابة في ساعة الجمعة، وقيام الساعة مِنَّةً ورحمة. وقيل: ليالي الشهر كلها ليلة القدر؛ لأن الشهر كله ذو قدر وشرف. (لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ) قيل: هي خير من ألف شهر ليس فيها ليلة القدر، عني العبادة فيها خير من العبادة في غيرها، وقيل: في هذه الليلة يستحق على عبادة ربه من الثواب كما يستحق في عبادة ألف شهر، قيل: لأن الله تعالى يقدر لعباده من الخير والرزق فيها ما لا يقدره في ألف شهر، فكانت هي للعبادة خيرا من ألف شهر؛ لما فيها من الخير الجزيل، والنفع الكبير، عن أبي علي.

واختلفوا في التقدير بهذا التقدير، فقيل: إن النبي - صلى الله عليه وسلم - رأى أعمار الأمم طويلة وأعمار أمته قصيرة، وأعمالهم لا تبلغ أعمال أولئك، فأعطاه الله ليلة القدر، العمل فيها خير من العمل في ألف شهر، عن مالك. وقيل: ذكر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يومًا أربعة من بني إسرائيل عبدوا الله ثمانين سنة، لم يعص واحد منهم طرفة عين: أيوب، وحِزْقِيلَ، وزكريا، ويوشع، فتعجبوا من ذلك، فنزل جبريل، فقال: "أتعجبون من ذلك، ما. أنزل الله عليك أعجب، ثم قرأ: (إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ) فسُرُّوا بذلك. وقيل: ذكر النبي - صلى الله عليه وسلم - رجلاً من بني إسرائيل لبس السلاح في سبيل الله ألف شهر، فتعجبوا منه، فأنزل الله: (لَيْلَةُ الْقَدْرِ) يعني من يعبد من أمتك في هذه الليلة، فهو خير من فعل ذلك الرجل، عن ابن أبي نجيح. وقيل: ذلك الرجل "شمشون". وقيل: كان لا يقال فيما مضى للرجل عابد حتى يعبد الله ألف شهر، فجعل لهذه الأمة ليلة يتعبد فيها خيرًا منها. وقيل: كان ملك سليمان خمسمائة شهر، وملك ذي القرنين خمسمائة شهر، فمن أحيا ليلة القدر فهو خير له من ملك سليمان وذي القرنين، عن أبي بكر الوراق. وقيل: ليلة القدر خير من ألف شهر ملك بني أمية، وكان ملكهم ألف شهر، عن الحسن بن علي عليهما السلام. وقيل: ليلة القدر خير من عمر ألف شهر، عن أبي العالية. وقيل: سلام الملائكة والروح عليك تلك الليلة خير من سلام الخلق عليك ألف شهر، عن مجاهد. وقيل: ليلة القدر لهذه الأمة خير من ألف شهر للأمم الماضية. (تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ) قيل: تنزل الملائكة بإذن الله إلى الأرض في تلك الليلة لفضلها، وقيل: ليسمعوا الثناء على الله وقراءة القرآن وغيرها من الأذكار، وقيل: ينزلون ليسلموا على المسلمين بأمر الله، وقيل: تنزل

الملائكة إلى سماء الدنيا بما قدر الله لأهل الأرض لتقف عليه ملائكة السماء الدنيا، عن أبي علي. (وَالرُّوحُ) قيل: جبريل، وعليه أكثر المفسرين، وذكر مرفوعا، وهو قول أبي علي. وقيل: الروح القرآن، عن أبي مسلم. وقيل: الروح طائفة من الملائكة لا تراهم الملائكة إلا تلك الليلة، عن كعب، ومقاتل. وقيل: هو ملك عظيم، عن الواقدي. (فِيهَا) أي: في ليلة القدر (بِإِذْنِ رَبِّهِمْ) أي: بأمره ينزلون من السماء (مِنْ كُلِّ أَمْرٍ) قيل: ذلك أمر قدَّرَه الله وَقَضَاه في تلك السنة إلى قابل، كقوله: (يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ)، وقيل: ينزلون بالأمور التي قدرها الله تعالى، وقيل: هو ما يتعلق بالدين إما القرآن وإما غيره "سَلَامٌ" قيل: أراد السلامة، أي: قدر لهم السلامة، والمنافع الحسنة، والصلاح والخير، يعني: تنزل الملائكة بكل أمر قدره الله تعالى من السلامة والخير، عن أبي علي. وقيل: جرت العادة بإنزال الملائكة لإهلاك القرى، فقال تعالى: ينزلون بكل أمر سلام؛ أي: بسلامة الناس فيها وأمنهم من العذاب، عن أبي مسلم. فوصف الليلة بالسلامة، وأراد سلامة أهلها، وقيل: (سَلَامٌ) أي: ساكنة سهلة لا رياح فيها، ولا أذى، عن أبي مسلم. وقيل: من كل أفعال الله سلام وأمن؛ لأنه يفعل المصالح دون القبائح.

ومتى قيل: فلم خص هذه الليلة؟

قلنا: لإنزال الملائكة فيها، وتقدير الآجال والأرزاق وغيرها فيها.

وقيل: لا يقضى في هذه الليلة إلا كل خير وبركة وسلامة، عن الضحاك. وفي غيرها يقضي بالسلامة وبالمضار أيضًا. وقيل: تم الكلام عند قوله: (مِنْ كُلِّ أَمْرٍ) ثم ابتدأ فقال: (سَلَامٌ) أي: ليلة القدر سلامة وخير كلها. وقيل: هي سالمة، لا يستطيع الشيطان أن يعمل فيها سوءًا، عن مجاهد. وقيل: هي تسليم الملائكة على أهل المساجد في هذه الليلة، من حين تغيب الشمس إلى أن يطلع الفجر، عن الشعبي، ومنصور بن زاذان. (هِيَ) يعني هذا التقدير والخير والنعمة، ينزلها طول هذه الليلة (حَتَّى) حرف غاية يعني إلى (مَطْلَعِ الْفَجْرِ) إلى وقت طلوع الفجر، وقيل: هي إشارة إلى الرحمة والسلامة، وأنها تبقى إلى طلوع الفجر، وقيل: هي إشارة إلى السلامة أي: من أولها إلى آخرها سليمة، لا تختلف أحوالها،

عن أبي مسلم. وسألت عائشة رسول الله – صلى الله عليه وسلم –: ما أسأل ربي ليلة القدر؟ فقال: "قولي: إنك عفو تحب العفو فاعف عني".[576]

قال شيخنا الزمخشري: عظم القرآن من ثلاثة أوجه:

أحدها: أن أسند إنزاله إليه وجعله مختصا به دون غيره:

والثاني. أنه جاء بضميره دون اسمه الظاهر شهادة له بالنباهة والاستغناء عن التنبيه عليه.

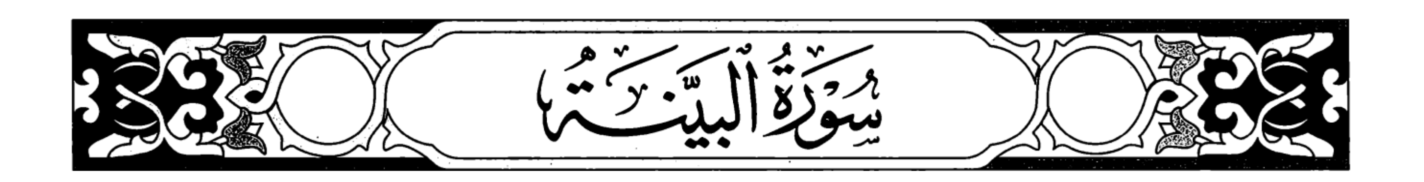
والثالث: الرفع من مقدار الوقت الذي أنزل فيه. روى أنه أنزل جملة واحدة في ليلة القدر من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا. وأملاه جبريل على السفرة، ثم كان ينزله على رسول الله صلى الله عليه وسلم نجوما في ثلاث وعشرين سنة.

وعن الشعبي: المعنى إنا ابتدأنا إنزاله في ليلة القدر واختلفوا في وقتها فأكثرهم على أنها في شهر رمضان في العشر الأواخر في أوتارها، وأكثر القول أنها السابعة منها، ولعل الداعي إلى إخفائها أن يحي من يريدها الليالي الكثيرة: طلبا لموافقتها، فتكثر عبادته ويتضاعف ثوابه، وأن لا يتكل الناس عند إظهارها على إصابة الفضل فيها فيفرطوا في غيرها. ومعنى ليلة القدر: ليلة تقدير الأمور وقضائها، من قوله تعالى (فِيها يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ) وقيل سميت بذلك لخطرها وشرفها على سائر الليالي (وَما أَدْراكَ ما لَيْلَةُ الْقَدْرِ) يعنى: ولم تبلغ درايتك غاية فضلها ومنتهى علو قدرها، ثم بين ذلك بأنها خير من ألف شهر، وسبب ارتقاء فضلها إلى هذه الغاية ما يوجد فيها من المصالح الدينية التي ذكرها: من تنزل الملائكة والروح، وفصل كل أمر حكيم، وذكر في تخصيص هذه المدّة أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكر رجلا من بنى إسرائيل لبس السلاح في سبيل الله ألف شهر، فعجب المؤمنون من ذلك، وتقاصرت إليهم أعمالهم، فأعطوا ليلة هي خير من مدّة ذلك الغازي. وقيل: إنّ الرجل فيما مضى ما كان يقال له عابد حتى يعبد الله ألف شهر، فأعطوا ليلة إن أحيوها كانوا أحق بأن يسموا عابدين من أولئك العباد (تَنَزَّلُ) إلى السماء الدنيا، وقيل: إلى الأرض (وَالرُّوحُ) جبريل. وقيل: خلق من الملائكة لا تراهم الملائكة إلا تلك الليلة (مِنْ كُلِّ أَمْرٍ) أى تتنزل من أجل كل أمر قضاه الله لتلك السنة إلى قابل. وقرئ: من كل امرئ، أى: من أجل كل إنسان. قيل: لا يلقون مؤمنا ولا مؤمنة إلا سلموا عليه

---

[576] التهذيب في التفسير ج 10 من الصفحة 7487 إلى الصفحة 7492

في تلك الليلة (سَلامٌ هِيَ) ما هي إلا سلامة، أي: لا يقدر الله فيها إلا السلامة والخير، ويقضى في غيرها بلاء وسلامة. أو: ما هي إلا سلام لكثرة ما يسلمون على المؤمنين. وقرئ: مطلع، بفتح اللام وكسرها.[577]



قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ ٥﴾ البينة: ٥

قال شيخنا الحاكم الجشمي: (وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ) قيل: ما أُمِرَ جميع الأمم إلا لعبادته على وجه الإخلاص، عن الحسن. وقيل: ما أمر هَؤُلَاءِ من جهة محمد من على لسانه إلا بالتوحيد وإخلاص العبادة، وقيل: (أُمُروا) يعني: أهل الكتاب والمشركين (حُنَفَاءَ) مائلين عن جميع الأديان إلى دين الإسلام، وقيل: مستقيمين في الإسلام، عن أبي علي. واختلفوا في الحنيفية، قيل: جميع دين الإسلام كما قال النبي - صلى الله عليه وسلم -: "بعثت بالحنيفية السمحة"، وقيل: هو الختان وتحريم الأمهات والبنات والعمات والخالات والأخوال وإقامة المناسك، عن قتادة. (وَيُقِيمُوا الصَّلاَةَ) يديمونها بأركانها (وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ) المفروضة (وَذَلِكَ) يعني ما ذكرت (دِينُ الْقَيِّمَةِ) المستقيم، والمراد ذلك الدين المستقيم، وأضاف الدين إلى القيمة لاختلاف اللفظين، وقيل: القيّمة: الكتب التي جرى ذكرها، والدين مضاف إليها، يعني الدين الذي تنطويه الكتب القيمة، ونظيره قوله تعالى: (وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ

[577] الكشاف ج 4 ص 781/780

بِالْحَقِّ)، وقيل: القيمة جمع "قَيِّم وقيم وقائم" واحد، والمعنى: ذلك دين القائمين لله بالتوحيد والدعاء إليه، والعبادة له، وهم الأنبياء والمؤمنون..[578]

قال شيخنا قاضي القضاة: قوله تعالى : (وَما أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللهَ مُخْلِصِينَ) يدل على أنه تعالى أراد بأمر جميعهم وبتكليفهم أن يعبدوه ، وقد دخل فى ذلك الكافر والمؤمن. وهذا فى باب الدلالة على ما قلناه أقرب من قوله : (وَما خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ) لأن هناك ذكر الخلق دون الأمر والتكليف ، وقد يخلق تعالى لا للعبادة ، ولا يأمر ويكلف إلا للعبادة.[579]



قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ شَرّٗا يَرَهُۥ ۝٨﴾ الزلزلة: ٧ – ٨

قال شيخنا الحاكم الجشمي: (فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَال ذَرَّةٍ) قيل: النملة الصغيرة، عن ابن عباس. قال ثعلب: مائةُ نملةٍ زِنَةُ حَبَّةٍ، وقيل: زنة ذرة، عن أبي عبيدة، قال يزيد بن هارون: يزعموا أنه ليس للذرة وزن. (خَيرًا يَرَهُ) أي: يجد جزاء ما عمل من الخير، وإن قَلَّ. (وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَال ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ) اختلفوا في معنى هذه الآية، فأما شيخنا أبو علي رحمه الله فيحمله على الرؤية، لا على الجزاء؛ لأن المحبط والمكفر لا يجازى عليه، فيقول: يرى جميع أفعاله خيره وشره فيقف عليها ويعلمها، فأما المؤمن والتائب فيرى السيئات مكفَّرة، ويثاب على الحسنات من غير بخس، وأما الكافر فيرى حسناته محبطة، وذنوبه يعاقب عليهما أجمع، بناء على مذهبه في الإحباط والتكفير. فأما عند مشايخنا: يجازى على جميع أفعاله لا يضيع شيء، فإن كان مُؤْمِنًا يجازى على حسناته، وما كان من سيئاته فيحبط بقدره من ثوابه، وإن كان كافرًا يعاقب على ذنوبه، وما كان حسنة حط عنه من عقابه بقدره، فقد وجد جزاء جميع أعماله، وهذه هي الموازنة التي ذهب إليها شيخنا أبو هاشم وأصحابه، وعليه يدل الظاهر.

578 التهذيب في التفسير ج 10 ص 7501/7500
579 متشابه القرآن ص 698

وقيل: يجازى على قليله وكثيره، عن أبي مسلم. وهذا على التفصيل الذي ذكرنا. وقيل: من يعمل مثقال ذرة من خير، وهو كافر أتاه الله ثوابه في الدنيا في نفسه وأهله وماله وولده حتى يخرج من الدنيا، وليس له عند الله خير، ومن يعمل مثقال ذرة من شر، وهو مؤمن يرى عقوبته في الدنيا في نفسه وأهله وماله وولده حتى يخرج من الدنيا، وليس له عند الله شيء، وعن بعضهم أنه سمع هذه السورة فقال: حسبي، قد انتهت الموعظة.

ومتى قيل: كيف يصح مع كرمه أن يحاسب على الذرة؟

قلنا: هذا هو العدل والكرم، وإنما جاز ذلك؛ لأن في المعصية استخفافًا، والكريم لا يحتمله، والطاعة وإن قَلَّتْ فلا تضيع عنده.[580]

قال شيخنا الزمخشري: فإن قلت حسنات الكافر محبطة بالكفر، وسيئات المؤمن معفوّة باجتناب الكبائر، فما معنى الجزاء بمثاقيل الذرّ من الخير والشر ؟ قلت: المعنى فمن يعمل مثقال ذرّة خيرا: من فريق السعداء. ومن يعمل مثقال ذرّة شرا: من فريق الأشقياء، لأنه جاء بعد قوله يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتاتاً.[581]

قال قاضي القضاة: قوله : (فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ) لا يصح أن يتعلق به المرجئة ، فى أن الفاسق يرى ثواب إيمانه ، لأنا قد بينا أنه لا بد فيما تعلق الوعد به من خير وطاعة ، وتعلق الوعيد به من شر ومعصية ، من شرط الاستحقاق ، وبينا أن استحقاق الثواب والعقاب معا يستحيل ، فيجب ألا يستحق إلا أحدهما. وذلك يوجب أن لا يرى العبد إلا الثواب أو العقاب ، فكأنه تعالى قال : فمن يعمل مثقال ذرة خير يره ، وسلم له بأن لا يكون معه ما يحبط ثوابه ؛ لأنه لا يجوز أن يكون الذى يراه هو الخير الذى فعله ، فالثواب محذوف ذكره. وكذلك القول فى العقاب. ولو لا أن الأمر كذلك لما صح قوله تعالى : (إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبائِرَ ما تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئاتِكُمْ) لأنه كان يجب أن يجد جزاء تلك السيئات ، فلا تكون مكفّرة ، وهذا بين البطلان.[582]

580 التهذيب في التفسير ج 10 ص 7509/7508
581 الكشاف ج 4 ص 785
582 متشابه القرآن ص 699



قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ * أَفَلَا يَعۡلَمُ إِذَا بُعۡثِرَ مَا فِي ٱلۡقُبُورِ ۝٩ وَحُصِّلَ مَا فِي ٱلصُّدُورِ ۝١٠ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمۡ يَوۡمَئِذٖ لَّخَبِيرُۢ ۝١١ ﴾ العاديات: ٩ – ١١

قال شيخنا الحاكم الجشمي: (أَفَلَا يَعْلَمُ) يعني الإنسان (إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ) أي: أخرج ما فيها من الأموات (وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ) أي: جمع وأبرز ما فيها من خير أو شر، وقيل: أظهر ما فيها حتى صار ظاهرًا، وإن كان مُخْفِيهِ، وإنما ظهر بأن جازاه الله عليها، وأفعال القلوب وإن كانت مستورة فبالجزاء عليها تظهر (إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَخَبِيرٌ) العالم بهم يجازيهم بأكمالهم، قيل: (إِنَّ رَبَّهُمْ) جواب: (أَفَلَا يَعْلَمُ)، ولو لم يدخل اللام في الجواب لكان (إن) مفتوحة، وقيل: يجوز أن يكون جواب (أفلا) محذوفًا، و (إِنَّ رَبَّهُمْ) ابتداء كلام، عن أبي مسلم.[583]

قال شيخنا قاضي القضاة: قوله تعالى : (أَفَلا يَعْلَمُ إِذا بُعْثِرَ ما فِي الْقُبُورِ وَحُصِّلَ ما فِي الصُّدُورِ إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَخَبِيرٌ) قد علمنا أنه بعث للعبد على الحذر والتوقى ، وذلك لا يصح إلا بأن يكون ممكنا من الطاعة ، فيأمن بتمسكه بها من بعثرة القبور ، وظهوره فيها على سبيل الخوف ، ومن المناقشة فى الحساب الذى حصل له فى كتابه.[584]



583 التهذيب في التفسير ج 10 ص 7516
584 متشابهالقرآن ص 699

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٦ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝٧ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٨ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ۝٩ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ۝١٠ نَارٌ حَامِيَةٌۢ ۝١١﴾ القارعة: ٦ - ١١

قال شيخنا الحاكم الجشمي: (فأمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ) في الميزان قولان: قيل: هو على جهة المثل، أي: قبلت حسناته، وكثرت، عن مجاهد. وقيل: هو العدل، عن أبي مسلم. وقيل: ميزان له كفتان كموازين الدنيا، عن الحسن وأكثر أهل العلم. واختلف هَؤُلَاءِ ما الذي يوزن؟ قيل: الصحف، وقيل: يظهر نور وظلمة علامة للخير والشر، وقيل: يوزن الأشخاص، فأما وزن الأعمال فمحال؛ لأنها انقضت، ولأنها أعراض. (فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ) أي: مرضية في الجنة، (وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ) بالخيرات (فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ) قيل: أمه جهنم؛ لأَنَّهُ يأوي إليها، كما يأوي الولد إلى أمه؛ لأن العرب إذا نذرت بشدة ذكرت الأم من حيث لا أحد أشفق عليها منها، وقيل: يهوي على أم رأسه في النار، عن أبي صالح، وقتادة. وقيل: هي كلمة تقولها العرب عند شدة المصيبة، فيقال: وَيْلَ أمِّهِ، وهوت أُمُّهُ، معناه: سقطت، عن أبي مسلم. وقيل: النار أولى به من أمه، وقيل: الأُمُّ: القصد، أَمَّ يؤمُّ أمًّا، معناه: قَصَد هاوية؛ لأنه لا طريق له إلا النار، وقيل: مُسْتَقَرُّهُ هاويةٌ، عن الأخفش. "وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ" يعني ما الهاوية؟ تعظيمًا لها وما فيها من العذاب، وقيل: الضمير يعود إلى القارعة، أي: أي شيء فيها، ثم فسَّر، فقال: (نَارٌ حَامِيَةٌ)، عن أبي مسلم. (نَارٌ حَامِيَةٌ) شديدة الحر.[585]

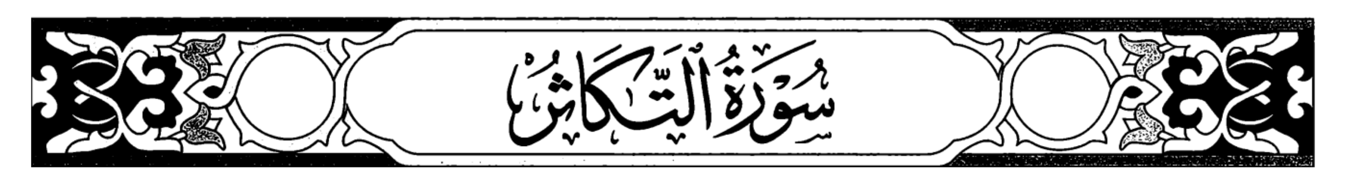
قال شيخنا الزمخشري: الموازين: جمع موزون وهو العمل الذي له وزن وخطر عند الله. أو جمع ميزان. وثقلها: رجحانها. ومنه حديث أبي بكر لعمر رضى الله عنهما في وصيته له: «وإنما ثقلت موازين من ثقلت موازينهم يوم القيامة باتباعهم الحق وثقلها في الدنيا، وحق لميزان لا توضع فيه إلا الحسنات أن يثقل، وإنما خفت موازين من خفت موازينه لاتباعهم الباطل وخفتها في الدنيا، وحق لميزان لا توضع فيه إلا السيئات أن يخف » (فَأُمُّهُ هاوِيَةٌ) من قولهم إذا دعوا على الرجل بالهلكة: هوت أمّه، لأنه إذا هوى أى سقط وهلك، فقد هوت أمّه ثكلا وحزنا قال:

[585] التهذيب في التفسير ج 10 ص 7522/7521

هوت أمّه ما يبعث الصّبح غاديا   وماذا يردّ اللّيل حين يئوب

فكأنه قيل. وأما من خفت موازينه فقد هلك. وقيل هاوِيَةٌ من أسماء النار، وكأنها النار العميقة لهوى أهل النار فيها مهوى بعيدا، كما روى «يهوى فيها سبعين خريفا » أى فمأواه النار. وقيل للمأوى: أمّ، على التشبيه، لأنّ الأمّ مأوى الولد ومفزعه. وعن قتادة: فأمّه هاوية، أى فأمّ رأسه هاوية في قعر جهنم، لأنه يطرح فيها منكوسا هِيَهْ ضمير الداهية التي دلّ عليها قوله (فَأُمُّهُ هاوِيَةٌ) في التفسير الأوّل. أو ضمير هاوية والهاء للسكت، وإذا وصل القارئ حذفها. وقيل: حقه أن لا يدرج لئلا يسقطها الإدراج، لأنها ثابتة في المصحف. وقد أجيز إثباتها مع الوصل.[586]

<u>قال قاضي القضاة</u>: قوله تعالى : (فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوازِينُهُ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ راضِيَةٍ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوازِينُهُ فَأُمُّهُ هاوِيَةٌ) لا بد من أن يكون الغرض به بعث المكلف على الطاعة حذرا مما يلحقه من الفضيحة ذلك اليوم ، لما يظهر فى موازينه من الثقل والخفة ، وذلك لا يكون إلا وهو متمكن من أن يتخلص مما يقتضى خفة موازينه ، ومن العقاب ، ويتمسك بما يستحق به الثواب. ولو لا ما ذكرناه لم يكن للموازين معنى فى القيامة ، كما كان يجب أن لا يكون للمحاسبة والمساءلة ، ونشر الصحف ، وإنطاق الجوارح ، معنى ؛ لأنه تعالى عالم بما كان من العبد ، فلا يجوز أن يفعل ذلك لكى يعلم ، تعالى الله عن ذلك! وإنما فعله تعالى لكى يعلم المكلف أن فى ذلك اليوم يجتمع فيه الأشهاد ، فتظهر مخازيه بلسانه ، وتنطق به جوارحه ، ويظهر للخلائق ما يبدو في الموازين من الثقل والخفة ، لكى يجتنب المعصية ويتمسك بالطاعة. وإن كان تعالى ، على ما زعموا ، يخلق فيهم ما يختارون ، ولا يقدرهم على خلافه. فما الفائدة فى جميع ذلك ، ومعلوم من حالهم أنه إن خلق فيهم الكفر فلا بد من كونهم كافرين ، كانت هذه الأمور أو لم تكن؟ وكذلك إن خلق الإيمان فيهم! وهذا ظاهر.[587]



[586] الكشاف ج 4 ص 791/790

[587] متشابه القرآن ص 700

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ كَلَّا لَوۡ تَعۡلَمُونَ عِلۡمَ ٱلۡيَقِينِ ۝٥ لَتَرَوُنَّ ٱلۡجَحِيمَ ۝٦ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيۡنَ ٱلۡيَقِينِ ۝٧ ثُمَّ لَتُسۡـَٔلُنَّ يَوۡمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ۝٨ ﴾ التكاثر: ٥ – ٨

قال شيخنا الحاكم الجشمي: (كَلَّا) قيل: ردع وزجر، وقيل: تأكيد في الوعيد، والعرب تؤكد ب (كَلَّا) و (حَقًّا)، وقيل: هو قسم (لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ) أي: علمًا يقينًا، واليقين والعلم واحد، فأضاف أحدهما إلى الآخر لاختلاف اللفظين، وقيل: معناه العلم اليقين، كقوله: (حَقُّ الْيَقِينِ)، وقيل: العلم يكون بمسانيد، وضرورة، ويكون باكتساب، وإذا انضاف الضروري إلى المكتسب صار يقينًا، وإنما نعلم أحوال القيامة باكتساب، ثم نعلمه مشاهدة وضرورة (لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ) يعني: في القيامة (ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ) بالمشاهدة إذا دخلوها وعذبوا بها، وقيل: ذكر (كَلَّا) ثلاث مرات أي: ستعلمون عند اليأس، وفي القبر، وفي الحشر، وذكر في الثالث علم اليقين؛ لأنه صار عيانًا ومشاهدة (ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ) يعني: يوم القيامة (عَنِ النَّعِيمِ) يعني: عن النِّعم التي كنتم فيها في الدنيا، قيل: عن جميع أجناس النعم دينا ودنيا كيف صنعتم فيها، وهل شكرتم أم لا، وكل ذلك سؤال توبيخ، وقيل: الحواس السليمة، والأذواق الطيبة، والنفس الصحيحة، والماء البارد، وكل ذلك يدخل فيما ذكرنا أولاً، وقيل: عن كل لذة من لذات الدنيا، عن مجاهد. وقيل: القرآن وشرائع الإسلام كيف عملتم بها، وروي أن النبي صلى الله عليه وسلم سئل عن ذلك، فقال: "بيت يؤويك، وخرقة تواري عورتك، وكسرة تشد بها صلبك" وما سوى ذلك من النعيم، وروي أن النبي صلى الله عليه وسلم قرأ: (أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ) فقال: "تكاثر الأموال جمعها من غير حقها، ومنعها عن حقها، وشدها في الأوعية"، (حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ) حتى دخلتم قبوركم (كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ) إذا خرجتم من قبوركم إلى محشركم (كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ) عند تطاير الصحف، وشقي وسعيد (لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ (6) ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ)، وذلك حين يُنْصَبُ الصراط بين جسري جهنم (ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ) عن خمس: شبع البطون، وبارد الشراب، ولذة النوم، وظلال المساكن، واعتدال الخلْقِ، وقيل: الصحة والفراغ والمال، عن عكرمة. وقيل: الأمن والصحة، عن ابن مسعود، ومجاهد. وقيل: المأكل والمشرب وسائر الملاذ، عن سعيد بن جبير، وقيل: العافية، عن علي. وقيل: عما أنعم عليكم بمحمد صلى الله عليه وسلم ، عن محمد بن

كعب. نظيره: (يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا)، وقيل: عن الإسلام والسنن، عن أبي العالية. وليس هذا بخلاف، وإنما ذكر النعيم، كلّا واحدأ نعيما ظاهرًا، وجميع ذلك داخل فيما ذكرنا أنه يسأل عن نعم الدين والدنيا.

واختلفوا أي سؤال هو؟

فقيل: سوال توبيخ وتقريع.

وقيل: يسأل ليظهر أعمالهم للخلق.

وقيل: يقال لهم عند نزول العذاب بهم: أين ذهب ما تفاخرتم به، وما تكاثرتم وعن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قرأ (أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ) ثم قال: "يقول ابن آدم مالي مالي، وهل لك من مالك إلا ما أكلت فأفنيت، أو لبست فأبليت، أو تصدقت فأمضيت".[588]

قال الزمخشري: لو تعلمون ما بين أيديكم علم الأمر اليقين، أى: كعلمكم ما تستيقنونه من الأمور التي وكلتم بعلمها هممكم: لفعلتم ما لا يوصف ولا يكتنه، ولكنكم ضلال جهلة، ثم قال (لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ) فبين لهم ما أنذرهم منه وأوعدهم به، وقد مرّ ما في إيضاح الشيء بعد إبهامه من تفخيمه وتعظيمه، وهو جواب قسم محذوف، والقسم لتوكيد الوعيد، وأن ما أوعدوا به مالا مدخل فيه للريب، وكرره معطوفا بثم تغليظا في التهديد وزيادة في التهويل. وقرئ: لترؤن بالهمز، وهي مستكرهة. فإن قلت: لم استكرهت والواو المضمومة قبلها همزة قياس مطرد؟ قلت: ذاك في الواو التي ضمتها لازمة، وهذه عارضة لالتقاء الساكنين. وقرئ: لترون، ولترونها: على البناء للمفعول (عَيْنَ الْيَقِينِ) أى الرؤية التي هي نفس اليقين وخالصته. ويجوز أن يراد بالرؤية: العلم والإبصار عَنِ النَّعِيمِ عن اللهو والتنعم الذي شغلكم الالتذاذ به عن الدين وتكاليفه.

فإن قلت: ما النعيم الذي يسئل عنه الإنسان ويعاتب عليه؟ فما من أحد إلا وله نعيم؟ قلت: هو نعيم من عكف همته على استيفاء اللذات، ولم يعش إلا ليأكل الطيب ويلبس اللين، ويقطع أوقاته باللهو والطرب، لا يعبأ بالعلم والعمل، ولا يحمل نفسه مشاقهما، فأما من تمتع بنعمة الله وأرزاقه التي لم يخلقها إلا لعباده، وتقوّى بها على دراسة العلم والقيام بالعمل، وكان ناهضا بالشكر:

---

[588] التهذيب في التفسير ج 10 ص 7528/7527/7526

فهو من ذاك بمعزل، وإليه أشار رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما يروى: أنه أكل هو وأصحابه تمرا وشربوا عليه ماء فقال: «الحمد لله الذي أطعمنا وسقانا وجعلنا مسلمين».[589]

قال قاضي القضاة: قوله تعالى : (ثُمَّ لَتَرَوُنَّها عَيْنَ الْيَقِينِ ثُمَّ لَتُسْئَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ) وما تقدمه ، يدل على أن العبد ممكن من فعل الطاعة والمعصية ؛ لأنه تعالى حذره بذلك وخوفه من الإقدام على المعاصى ، وبعثه على التمسك بالطاعات ، وبين أن إنعامه وإحسانه إليه يقتضى أن يلزم طريقة الطاعة لكى لا يسأل عنه ، فيوبّخ ويلام لأجله ، لأن العاصى تعظم معصيته وما يستحقه من التوبيخ لعظمة نعمة المعصى عليه.[590]



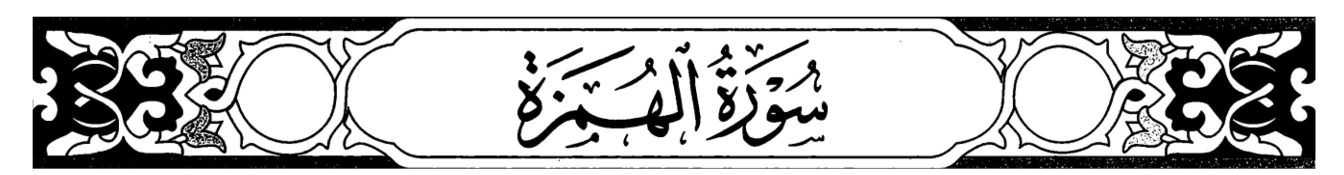
قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَٱلۡعَصۡرِ ① إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ② إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ ③﴾ العصر: ١ – ٣

قال شيخنا الحاكم الجشمي: (وَالْعَصْرِ) قيل: أقسم بالعصر، وقيل: القسم برب العصر، والعصر: الدهر، عن ابن عباسٍ، والكلبي، وأبي علي. وفيه عبرة لما فيه من مرور الليل والنهار، واختلاف أحوالهما، وقيل: هو العشي، عن الحسن، وقتادة. وفيه أيضًا عبرة لما فيه من إقبال الليل وإدبار النهار، وقيل: الليل والنهار، عن ابن كيسان. وقيل: صلاة العصر، وهي الوسطى، عن مقاتل. وقيل: العصر أحد طرفي النهار، عن أبي مسلم. وقيل: العصر نوائب الدهر، عن علي. والأول الوجه. (إِنَّ الإِنْسَان لَفِي خُسْرٍ) أي: في هلاك؛ لأنه لا خسران أعظم من استحقاق العذاب الدائم، وقيل: إنما قال (لَفِي خُسْرٍ)، وإن لم يكن في الحال فيه؛ لأن عاقبته الخسر، وهو واقع لا محالة، كقوله: (إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا) وقيل: بل هو في خسر من إحباط أعماله، واستحقاقه النار، عن الحسن. وقيل: في خسر

[589] الكشاف ج 4 ص 793/792
[590] متشابه القرآن ص 701

أي: في خسران، وقيل: في هلاك، عن الأخفش. (إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا) بِاللَّهِ ورسوله (وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ) فإنهم ليسوا في خسر (وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ) يعني أمروا غيرهم بالطاعة والحق، وهو جميع ما أمر الله تعالى به، وقيل: الحق القرآن، عن الحسن وقتادة. وقيل: الإيمان والتوحيد، عن مقاتل. وقيل: كل عمل صالح (وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ) وصَّى بعضهم بعضًا بالصبر على طاعة الله، عن الحسن، وقتادة.[591]

قال شيخنا الزمخشري: أقسم بصلاة العصر لفضلها، بدليل قوله تعالى: وَالصَّلاةِ الْوُسْطى صلاة العصر، في مصحف حفصة. وقوله عليه الصلاة والسلام «من فاتته صلاة العصر فكأنما وتر أهله وماله» ولأنّ التكليف في أدائها أشق لتهافت الناس في تجاراتهم ومكاسبهم آخر النهار، واشتغالهم بمعايشهم. أو أقسم بالعشي كما أقسم بالضحى لما فيهما جميعا من دلائل القدرة. أو أقسم بالزمان لما في مروره من أصناف العجائب. والإنسان: للجنس. والخسر: الخسران، كما قيل: الكفر في الكفران. والمعنى: أن الناس في خسران من تجارتهم إلا الصالحين وحدهم، لأنهم اشتروا الآخرة بالدنيا، فربحوا وسعدوا، ومن عداهم تجروا خلاف تجارتهم، فوقعوا في الخسارة والشقاوة (وَتَواصَوْا بِالْحَقِّ) بالأمر الثابت الذي لا يسوغ إنكاره، وهو الخير كله: من توحيد الله وطاعته، واتباع كتبه ورسله، والزهد في الدنيا، والرغبة في الآخرة (وَتَواصَوْا بِالصَّبْرِ) عن المعاصي وعلى الطاعات، وعلى ما يبلو الله به عباده.[592]



قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ۝١ ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ ۝٢ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ ۝٣ كَلَّا ۖ لَيُنۢبَذَنَّ فِى ٱلْحُطَمَةِ ۝٤ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ ۝٥ نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ۝٦ ٱلَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ ۝٧ إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ۝٨ فِى عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍۭ ۝٩﴾ الهمزة: ١ – ٩

[591] التهذيب في التفسير ج 10 ص 7531/7530
[592] الكشاف ج 4 ص 794/793

قال شيخنا الحاكم الجشمي: (وَيْلٌ) كلمة وعيد، وقيل: واد في جهنم (لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ) قد أكثروا في ذلك، فقيل: هما واحد ومعناهما: الغَيَّابُ الطَّعَّان، عن جماعة منهم: مقاتل، وأبو علي، وأبو مسلم، قال أبو علي: وهو الطعن بالعيب من غير إيضاح، وقيل: هما واحد، ومعناهما: المَشَّاءُ بالنميمة، المفرِّق بين الأحبة، الباغي للبريء المكاره، عن ابن عباس. وقيل: بينهما فرق، ثم اختلفوا، فقيل: الهُمَزَةُ: الطعان، واللمزة: المغتاب، عن ابن عباس. وقيل: الهُمَزَةُ: المغتاب، واللمزة: الطعان، عن سعيد بن جبير، وقتادة. وقيل: الهمزة الذي يطعن في الوجه بالعيب، واللمزة الذي يغتاب عند الغيبة، عن الحسن، وأبي العالية، وعطاء بن أبي رباح. وقيل: الهمزة: الذي يهمز الناس بيده ويضربهم، واللمزة: الَّذِين يلمزهم بلسانه وبعينه، عن ابن زيد. وقيل: الهمز باللسان، واللمز بالعين، عن سفيان، وابن كيسان. أي: يومئ بعينه ويشير برأسه استخفافًا به، وعيبًا له (الَّذِي جَمَعَ مَالًا) قيل: جمعه من غير حله، ومنعه من حقه (وَعَدَّدَهُ) قيل: أعدَّه ذخرًا لنوائب دهره، ولكثرته استخف بالمسلمين، عن أبي علي. وقيل: عدَّدَه: كَثَّرَهُ، وقيل: أعده حالاً بعد حال، ذكر الوجهين أبو مسلم. وقيل: أعده: جعله عتادًا له، عن مقاتل. وقيل: أحصاه؛ أي: ما زال يعد شيئًا ويضعه حتى كثر من العدد (يَحْسَبُ) يظن (أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ) قيل: يبقيه، فلا يموت، ولا يفنى، وقيل: يحسب أن ماله أخلده حتى يغنيه، عن الحسن. وقيل: يعمل عمل من يحسب أن ماله أخلده، عن أبي علي. وقيل: يحسب أن لا بعث، وأنه مخلد في الدنيا، فهو توسع في أن لا بعث "كَلَّا" أي: ليس الأمر كما ظن، فلا تحسبوا ذلك، فإنه يموت، ويفنى ماله، عن أبي علي. وقيل: ليس كذلك؛ بل كذبوا في ذلك، وقيل: لا تغتابوا، ولا تعيبوا، وقيل: معناه حقًّا.

ومتى قيل: لِمَ قال: (أَخْلَدَهُ) بلفظ الماضي؟

قلنا: أراد به المستقبل، وعبر بالماضي، ومثله جائز.

(لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ) أي: ليُطْرَحَنَّ في جهنم بعد الموت، وإنما ترميهم الملائكة خزنةُ جهنم (وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ) يعني لا يمكنك معرفة عظمها لشدتها، وسميت جهنم حطمة؛ لأنها تحطم كل شيء أي: تكسره (نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ) أي: المؤججة، وقيل: هي نار توقد منذ خلق الله السماوات والأرض، فإن

صح ذلك على بعده فهي لطف للملائكة، والخبر عنه لطف لنا (الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ) قيل: يبلغ ألمها القلوب، والاطلاع والبلوغ بمعنى، وقيل: تحرق أبدانهم حتى تصل إلى أجوافهم، وتطلع على أفئدتهم، عن أبي علي. وقيل: تحرق الأبدان والعظام والقلوب، عن أبي مسلم. وقيل: لشدتها تَنْفُذُ في كل شيء حتى تصل إلى القلب، وقيل: تخرج من الباطن إلى الظاهر بخلاف نيران الدنيا، وإنما خص القلب بالذكر؛ لأن أشد الآلام ما يخلص إلى القلب، وإذا خلص الألم إلى القلب يموت صاحبه، والمصائب والغموم تصله، ولا شيء يحس بالألم كالقلب (إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُؤْصَدَةٌ) أي: مطبقة مغلقة، وقيل: تطبق، وتغلق أبوابها ليبقوا فيها آيسين من الخروج، عن أبي علي. (فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ) قيل: هي العمود الطويل، وقيل: عمد من نار، وقيل: عمد تطرح على الأبواب إذا أغلقت، وتمد عليهم؛ ليتأكد إياسهم من الخروج، وقيل: العمد السرادق والأخبية، يعني أن النار محيطة بهم، كقوله: (أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا) عن أبي مسلم. وقيل: عمد يعذبون بها، عن قتادة. و (مُمَدَّدَةٍ) أي: ممدودة، وهي من نعت العمد، وقيل: يكونون فيها موثقين مشدودين في القيود والسلاسل والعمد، عن ابن عباس.[593]

قال قاضي القضاة: قوله تعالى : (وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ الَّذِي جَمَعَ مالاً وَعَدَّدَهُ) وعيد لم يخص بعض من يختص بذلك دون بعض. فيجب دخول الكل فيه. وقد علمنا أن من أهل الصلاة من يهمز ويلمز لغيره ، ويتكلم فيه ويعرض ، فيجب دخوله تحت الوعيد.[594]



قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ۝١ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ ۝٢ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝٣ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ۝٤ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍۭ ۝٥﴾

الفيل: ١ – ٥

593 التهذيب في التفسير ج 10 ص 7536/ 7537/ 7538

594 متشابه القرآن ص 701

قال شيخنا الحاكم الجشمي: (أَلَمْ تَرَ) قيل: ألم تعلم يا محمد؛ لأنه صلى الله عليه وسلم لم ير ذلك، والرؤية تستعمل بمعنى العلم، وبمعنى الإدراك بالبصر (كَيفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ) من الهلاك، قيل: كان معهم فيل واحد، اسمه محمود، عن مقاتل. وقيل: كانت ثلاثين فيلاً، عن الضحاك. وقيل: اثنا عشر فيلاً، وإنما وحد لرؤوس الآي، وأراد الجنس (أَلَمْ يَجْعَلْ كَيدَهُمْ) قيل: احتيالهم، وقيل: تدابيرهم في المساء (فِي تَضْلِيلٍ) في هلاك، وقيل: في أباطيل، وقيل: في خسار، عن مقاتل. (وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ) قيل: يتبع بعضها بعضًا، عن ابن عباس. وقيل: كثيرة متتابعة، عن قتادة. وقيل: كان لها خراطيم كخراطيم الطير، وأكف كأكف الكلاب، عن ابن عباس. وقيل: لها رؤوس كرؤوس السباع لم ير قبل ذلك، ولا بعده، عن عكرمة. وقيل: فيها أنياب السباع، عن الربيع. قالت عائشة: أشبه شيء بالخطاطيف، قيل: طير خضر، لها مناقير صفر، عن سعيد بن جبير. وقيل: كانت سودًا، عن عبيد بن عمير. فيحمل أن بعضها كان خضرًا، وبعضها سودًا، وقيل: خلقها الله في ذلك الوقت في الهواء، وقيل: جاؤوا من البحر (تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ) أي: الطير ترمي تلك الجنود، قيل: مع كل طير ثلاثة أحجار، واحد في منقاره، واثنان في يديه، وقيل: في أجنحتها ومناقيرها، وقيل: كان الحجر يقع على رأس الرجل، فيخرج من دبره، وقيل: كان يصيب المغفر، فيجاوز حتى يصير إلى الأرض، وقيل: كان على كل حجر اسم صاحبه (مِنْ سِجِّيلٍ) قيل: من طين مطبوخ بالآجُرِّ، وقيل: مختلط بالطين، وقيل: هو مُعَرَّبٌ، عن أبي مسلم. وقيل: حجارة تذوب كالْجَمَدِ، وقيل: حجارة صلبة شديدة ليست من جنس الحجارة التي تذوب كالبرد، سماها سجيلاً لصلابتها، عن أبي علي. وقيل: معنى السجيل: أنه سجل عليهم لعذابهم، وقيل: سجيل اسم من أسماء السماء الدنيا، أي: جاءتهم من جهة السماء، وقيل: حجارة من الجحيم وهو سجين، فأبدلت النون لامًا (فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ) قيل: كورق الزرع أكل بعضه وكسر بعضه، وقيل: وقع فيه الأكل، عن الزجاج. وقيل: مأكول الثمرة، كقولهم: فلان حسن، أي: حسن الوجه، فأجرى مأكول على العصف من أجل أكل ثمرته؛ لأن المعنى معلوم، وقيل: العصف ورق الحنطة، عن مجاهد. وقيل: هو أطراف الزرع قبل أن يسبل ويدرك، عن الفراء. وقيل: كالحب المأكول، عن عكرمة. وقيل: كطعام، عن الضحاك. وقيل: كالزرع النابت الذي أكل ورقه، عن الحسن، وسعيد بن جبير، وقتادة. وقيل: كزرع أكل حبه وتبنه، وقيل: كتبن مأكول، قد بطل،

عن أبي مسلم.[595]

وقال الحاكم أيضا: السورة تتضمن معجزة ونعمة وقدرة وعبرة:

أمَّا المعجزة: فلأن ما ظهر من الطير ورميها بالأحجار، وإهلاك تلك العدد الكبير نقض للعادة، فلا بد من كونها معجزة لنبي، ثم اختلفوا، فقيل: كان إرهاصًا لنبينا صلى الله عليه وسلم وكذلك حديث الغمامة، وهو قول مشايخنا البغداديين والجاحظ وغيرهم، وقيل: كانت معجزة لبعض الأنبياء في ذلك الزمان خالد بن سنان أو غيره، وهو قول شيوخنا.

ومتى قيل: لو كان ثَمَّ نبيٌّ لظهر أمره، وتواتر خبره؟

قلنا: يجوز أن يكون مبعوثًا إلى طائفة، ولم يكن ثَمَّ متعبدون بشرعه، فجائز أن يخفى عنا خبره، نحو كثير من الأنبياء.

فأما النعمة: فكما سلم البيت، وهو قبلة له ولأمته، ومطاف وإحياء سنة إبراهيم وإسماعيل.

وأما القدرة: فلما خلق الطير، وألهم رمي الحجر، وأرسل معهم الأحجار، وفي كل حجر من الاعتمادات ما يزيد على الحديد حتى يتجاوز الأجساد.

وأما العبرة: فما فعل بهم من الانتقام، وأن كل من قصد دين الله فالله ينتقم منه، وتدل على فضل الكعبة.

ومتى قيل: أليس الملحدة ينكرون ذلك؟

قلنا: قد تواتر الخبر بذلك، وذكروا ذلك في أشعارهم، ولأنه ثبت أن القرآن حجة، وقد نطق به، ولأن النبي – صلى الله عليه وسلم – قرأ عليهم السورة، فصدقوه، ولم يكذبوه مع حرصهم على تكذيبه، وقد أكثر الشعراء ذكر ذلك، فمنها قول ابن الرقيات من قصيدة أولها:

أَرّقَتني بِالزابِيَينِ هُمُومُ

وفيها:

كَادَهُ الْأَشْرَمُ الَّذِي جَاءَ بِالْفِيـ ـلِ فَوَلَّى وَجَيْشُهُ مَهْزُومُ
وَاسْتَهَلَّتْ عَلَيْهِمُ الطَّيْرُ بِالْجَنْـ ـدَلِ حَتَّى كَأَنَّهُ مَرْجُومُ

[595] التهذيب في التفسير ج 10 ص 7545/7544

وقال أمية بن أبي الصلت:

إِنَّ آيَاتِ رَبِّنَا بيناتٌ   مَا يُجَارِي فِيهِنَّ إِلَّا الْكَفُورُ

حَبَسَ الْفِيلَ بِالمُعرَّسِ حَتَّى   ظَلَّ يَحبُو كَأَنَّهُ مَعقورُ

ولعكرمة بن عامر:

اللهُ رَبِّي وَوَلِيُّ الْأَنْفُس   حَبَسَ الْفِيلَ بِأَعْلَى الْمُعَرَّسِ

وقال نفيل – وكان خرج ليحارب أبرهة فأسره واستبقاه ليدله على الطريق، وهو الذي قال في أذن الفيل لما رأى ما نزل بهم –:

أَيْنَ الْمَفَرُّ وَالْإِلَهُ الطَّالِبُ   وَالْأَشْرَمُ الْمَغْلُوبُ غَيْرُ الْغَالِبِ

وله:

حَمِدْتُ اللهَ إِذْ عَايَنْتُ طَيْرًا   وَخِفْتُ حِجَارَةً تُلْقَى عَلَيْنَا

وَكُلُّ الْقَوْمِ يَسْأَلُ عَنْ نُفَيْلٍ   كَأَنَّ عَلَيَّ لِلْحُبْشَانِ دَيْنَا

وذلك أنه خرج من بينهم هاربًا، فلما أصابهم ذلك طلبوه ليدلهم على الطريق، فما وجدوه، ولعبد الله بن عمر بن مخزوم من قصيدة:

أَنْتَ الْجَلِيلُ رَبُّنَا لَمْ تَدْنَس   أَنْتَ حَبَسْتَ الْفِيلَ بالمَغْمَسِ

مِنْ بَعْدَ مَا هَمَّ بَشّر مَأْنْسِ   حَبَسْتَهُ فِي هَيْئَةِ الْمُكُرْكِسِ

أي: المنكس.[596]

<u>قال قاضي القضاة</u>: قوله تعالى : (أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحابِ الْفِيلِ) وقد علمنا أنه أراد بذلك: ألم تعلم ؛ لأنه عليه‌السلام لم يشاهد ذلك ، فالغرض به أن يدله تعالى على قدرته ، وأن يظهر له نعمه بما فعله بأصحاب الفيل ، ليكون أقرب إلى التمسك بما يستحقه من التعظيم والشكر ، وذلك لا يصح إلا مع التمكن منه ومن خلافه.

فأما قوله تعالى : (تَرْمِيهِمْ بِحِجارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ) فإنه عندنا لا بد من أن يكون ذلك معجزا لبعض الأنبياء فى ذلك الوقت ، لأن فيه نقض عادة ، وذلك لا يجوز إلا فى أزمان الأنبياء.[597]

---

[596] التهذيب في التفسير ج 10 ص 7545 /7546/7547/7548

[597] متشابه القرآن ص 702

سُورَةُ قُرَيْشٍ

قَالَ تَعَالَى: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيۡشٍ ١ إِۦلَٰفِهِمۡ رِحۡلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيۡفِ ٢ فَلۡيَعۡبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلۡبَيۡتِ ٣ ٱلَّذِيٓ أَطۡعَمَهُم مِّن جُوعٖ وَءَامَنَهُم مِّنۡ خَوۡفِۭ ٤﴾ قريش: ١ - ٤

قال شيخنا الحاكم الجشمي: (لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ) أي: لتأتلف مكة وقريش ولد النضر بن كنانة، وقيل: من لم يلده النضر فليس بقريش، واختلفوا لم سموا قريشًا، فقيل: القريش الجمع، يقال: تقرشوا؛ أي: تجمعوا، فلجمعهم سُمُّوا بذلك، وقيل: لتكسبهم الأموال وجمعها، وتجاراتهم سموا بذلك، وقيل: بل قريش دابة في البحر، تغلب سائر ما في البحر من الدواب، قال الشاعر:

وَقُرَيْشٌ هِيَ الَّتِي تَسْكُنُ الْبَحْرَ ... بِهَا سُمِّيتْ قُرَيْشٌ قُرَيْشَا

(إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ) قيل: كانت لهم رحلتان: رحلة الصيف إلى الشام، ورحلة الشتاء إلى اليمن في التجارة، عن ابن زيد، والكلبي، وجماعة. وقيل: كانوا يشتون بمكة، ويصيفون بالطائف، فأمر الله أن يقيموا بالحرم ويعبدوا رب هذا البيت، عن ابن عباس، وعكرمة، وسعيد بن جبير. وقيل: كان بالشام أرض باردة وأرض حارة، فكانوا يرحلون في الشتاء إلى الحارة، وفي الصيف إلى الباردة، عن أبي صالح. وقيل: إنه أنعم عليهم بالمقام بمكة، وأغناهم عن الخروج، وقيل: بل أمنهم في أسفارهم في الرحلتين. فأما الأول: فتقديره: لتألف قريش مكة كإلفهم التجارتين فلا يفارقوها؛ لأنه أغناهم عن الخروج بما لطف حتى قصد الناس البيت للحج، وكثرت تجاراتهم بسببه، وجلبوا إليها كل شيء حتى استغنوا عن الرحلتين، وأمنهم من العدو، عن أبي مسلم. وقيل: ليألفوا عبادة الله، كما ألفوا الرحلتين. وقيل: كان لهم هاتان الرحلتان في الجاهلية طلبًا للمعاش، فلما جاءهم الإسلام، ووجب

الحج، واستغنوا عن ذلك، وجلبوا إلى مكة ما أغناهم عن الارتحال، فذكرهم تلك النعم. وأما الثاني: فمن عليهم بأن أمنهم في أسفارهم بما جعل في قلوب الناس من تعظيم أهل مكة، وقولهم: إنهم سكان الحرم، فلا يتعرض لهم أحد، عن أبي مسلم. (فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيتِ) قيل: ليعبدوا رب هذا البيت قريشٌ من أجل ما أنعم عليهم من الاستغناء عن الرحلتين، عن أبي مسلم. وقيل: كان الحرم واديًا لا زرع فيها ولا ضرع، وكان لهم رحلتان بهما معاشهم، ولا يتعرض أحد لهم بسوء، والشام، وحمل إليهم الطعام، وكفاهم مؤنة الرحلتين، فأمرهم بعبادة رب البيت، عن جماعة من المفسرين. وقيل: فعل ما ذكره في سورة (الفيل) لتأتلف قريش وتجتمع وتكثر، وتأتلف رحلة الشتاء والصيف في التجارات؛ لأن ذلك معاشهم، ولولا ذلك لتفرقوا عن مكة، ففعل ذلك ليقيموا بمكة، ويخرج منهم محمَّد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأمنهم من الخوف من العرب، وأطعمهم مما رزقهم من الأموال، عن أبي علي. وقيل: اللام لام الأمر؛ أي: لتألفْ قريشٌ بمكة، وليعبدوا رب هذا البيت كإلفهم رحلتين، وقيل: لِتَبْقَ قريش وما ألفوه من الرحلتين، عن الزجاج. وقيل: ليألفوا البيت كإلفهم الرحلتين (الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ) قيل: ما أعطاهم من الأموال، وسبب لهم من الأرزاق، وقيل: بما أوقع في قلوب الحاج وغيرهم حتى جلبوا إليها كل نعمة، عن أبي مسلم. وقيل: بالأسباب التي دعت إلى جلب النعم حتى توسعوا، وقيل: لما هلكت الحبشة قويت الدواعي إلى الحج، فقصدوا مكة بأنواع التجارات والنعم، وأزاح الله تعالى علتهم في معاشهم (وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ) قيل: أمنهم من خوف الغارة بالحرم الذي جُبِلَ قلوب العرب على تعظيمه، عن قتادة. وقيل: كانوا إذا قالوا في سفرهم: نحن أهل حرم الله، لا يتعرض لهم أحد، وقيل: أمنوا بكثرة العدد والقوة والأموال، عن أبي علي. وقيل: أمنهم من الجذام، فلا يصيبهم ذلك أبدًا، عن الضحاك، والربيع، وسفيان، وشريك. وقيل: أمنهم من الحبشة، وقيل: أمنهم من أن تكون الخلافة إلا فيهم، عن علي (عليه السلام). وقيل: أمنهم بدعوة إبراهيم، وقيل: أمنهم بالنبي - صلى الله عليه وسلم -، والإسلام، ورزقهم.[598]

[598] التهذيب في التفسير ج 10 ص 7554/7553/7552

قال القاضي: قوله تعالى : (لِإِيلافِ قُرَيْشٍ إِيلافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتاءِ وَالصَّيْفِ) فلا بد من أن يكون المراد به أنه تعالى إنما فعل لكى يتألفوا ويتمسكوا بالشكر ، وذلك يقتضى كونهم متمكنين من الطاعة والمعصية ، على ما قلناه.[599]



قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ① فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ② وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ③ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ④ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ⑤ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ⑥ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ⑦﴾ الماعون: ١ – ٧

قال شيخنا الحاكم الجشمي: (أَرَأَيْتَ) يا محمد هذا (الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ) قيل: بالجزاء والبعث والحساب، وفي بعض الأخبار: "الديان لا يفنى، والذنب لا يُنْسى، فاصنع ما شئت كما تدين تدان"، وقيل: يكذب بالدين الذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم ، وهو الإسلام (فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ) أي: مع تكذيبه يَدُعُّ؛ أي: يدفع اليتيم، وهو الذي لا أب له، ولا أم له، وقيل: يدع اليتيم، أي: يقهره، ويدفعه عن حقه، ويظلمه، وإنما خص اليتيم؛ لأنه ليس له مدافع (وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ) قيل: لا يحض على مواساة الفقراء بخلاً به وجهلاً بموقع الجزاء، وقيل: إطعام الطعام من سُنَّة الأنبياء والمؤمنين، وَمَنْعُهُ من شِيَمِ المنافقين لقولهم: (لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُّوا) فَبَيَّنَ أنهم تخلقوا بأخلاق المنافقين، دون أخلاق المؤمنين، وقيل: أراد إلقاء حقوقهم؛ لذلك أضافه إليهم (فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ. الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ. الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ) اختلف المفسرون فيه على قولين: منهم من يقول: إن المراد به المنافقون، ومنهم من يقول: المراد به المراؤون، ولما كان الذم يتوجه في السهو، إما بتركه على ما قاله بعضهم، وإما تأخيره أو لا يأتي بشرائطه، ثم كل ذلك قد يفعل مستحِلًّا،

[599] متشابه القرآن ص 702

فيكفر، وقد يفعل على غير ذلك الوجه، فيفسق؛ فلذلك اختلف المفسرون فيه. فأما من قال: إنه في المنافقين اختلفوا: فقيل: معناه: مِنْ صفتهم أنهم لا يُصَلُّون إلا رياء ونفاقًا من غير نية وإخلاص وإقامة قربة، عن أبي علي، وأبي مسلم. وقيل: غافلون عنها، لا يبالي صَلَّى أم لم يُصَلِّ، عن قتادة. وقيل: يتركون الصلاة في السر إذا غاب الناس، ويصلون في العلانية إذا حضروا، عن ابن عباس، والضحاك. فأما من قال: إنه في غير المنافقين اختلفوا: فقيل: يغفل عن صلاته، ويقصر فيها، وقلبه مشغول بغيرها، لا يرى لها منزلة تقتضي صرف الهمة إليها، وهو المرائي الذي يُذَمُّ لسهوه، دون المنافق الذي يذم لنفاقه، لا لسهوه. وقيل: ساهون: يؤخرونها عن وقتها، عن ابن عباس، ومسروق. وروي عن سعيد أنه قال: سألت رسول اللّه - صلى الله عليه وسلم - عن هذه الآية فقال: "الَّذِينَ يؤخرون الصلاة عن وقتها". وقيل: لاهون عنها مع أدائها، عن مجاهد. وقيل: هو الذي إِنْ صلاها صَلَّاها رياء، وإن فاتته لم يندم. وقيل: لا يصلونها بمواقيتها، ولا يُتِمُّون ركوعها وسجودها، عن أبي العالية، وروي عنه: الذي يلْتَفِتُ. والأظهر - بل الواجب - أنه أراد بالسهو ما هو فعل العبد، دون ما هو فعل الله؛ ليصح توجيه الذم عليه. و (يراءون) يعني يراؤون الناس، يفعلونه ليروه، والأولى أن تحمل الآية على أهل النفاق؛ لأن أول السورة في المكذبين.

ومتى قيل: ما يفعله المنافق ليس بصلاة، فكيف أطلق عليه اسم الصلاة؟

قلنا: لأن صورته صورة الصلاة، فسماه صلاة توسعًا، كقوله: (إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ) وإن كان ذلك ليس بدين.

ومتى قيل: لِمَ قال: (عَنْ صَلَاتِهِمْ)، ولم يقل (في صلاتهم)؟

قلنا: لأن الساهي فيها يقيم لها، والساهي عنها تاركٌ لها؛ ولهذا قلنا: إنه أليق بالمنافقين، وعن عطاء بن دينار قال: الحمد لله الذي قال: (الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ) ولم يقل: (في صلاتهم).

(وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ) قيل: هي الزكاة الواجبة، عن علي، وابن عمر، وابن الحنفية، والحسن، وقتادة، والضحاك، وأبي مسلم. وقيل: الماعون: ما يتداوله الناس بينهم من الفأس، والقدر، والدلو، عن ابن مسعود، وابن عباسٍ، وابن عمر، وسعيد بن جبير. وقيل: هو ما يسأله الجيران بعضهم من بعض من

الأمتعة التي يستعيرها الناس، عن ابن مسعود، وأبي علي. قال أبو علي: وصفهم بغاية البخل والرداءة، وقيل: الماعون بلسان قريش: المال، عن سعيد بن المسيب، والزهري، ومقاتل، وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "الماعون الزكاة - أربع مرات - ألا أَدُّوا الزكاة تَنْجُوا" وهو الصحيح؛ لأنها الذي يستحق الوعيد بتركها، وقيل: كانت العارية واجبة في ابتداء الإسلام لضيق ذات يد المهاجرين، فلما اتسع الأمر صار مباحًا، وقيل: ذم هَؤُلَاءِ لأنهم لخستهم لا يعينون ضعفاء المؤمنين، وقيل: هو الطاعة، عن ابن عباس. وقيل: هو المعروف كله، عن محمد بن كعب، والكلبي.[600]



قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ۝١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنۡحَرۡ ۝٢ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلۡأَبۡتَرُ ۝٣﴾ الكوثر: ١ - ٣

قال شيخنا الحاكم الجشمي: (إِنَّا أَعْطَينَاكَ) يا محمد (الْكَوْثَرَ) قيل: نهر في الجنة، حافتاه الدر والياقوت، عن عائشة، وابن عمر، وروي ذلك مرفوعًا، وهو قول أبي علي، وروي أنه قال: "أعطيت الكوثر، فضربت يدي إلى تربته فإذا مسك أذفر، وإذا حصاه اللؤلؤ، وإذا حافتاه فُتَاتُ اللؤلؤ، وإذا نهر يجري على الأرض جريًا ليس بمشقوق"، وسئل رسول اللّه صلى الله عليه وسلم عن الكوثر فقال: "نهر أعطاني اللّه تعالى، أشد بياضًا من اللبن، وأحلى من العسل، فيه طير أعناقها كأعناق الجزر"، فقال عمر: إن تلك الطير ناعمة؟ فقال: "أكلها أنعم منها يا - عمر"، قالت عائشة: نهر في الجنة، من أحب أن يسمع خريرها فليجعل أصبعه في أذنه، وقيل: هو حوض النبي - صلى الله عليه وسلم -، والذي يكثر الناس عليه يوم القيامة، عن عطاء. وقيل: هو الخير الكثير، عن ابن عباس، وسعيد بن جبير، ومجاهد، وأبي مسلم. وهذا هو الأولى؛ لأن جميع ما قيل فيه من تفاصيله، وقيل: هو القرآن العظيم،

[600] التهذيب في التفسير ج 10 من الصفحة 7558 إلى الصفحة 7561

عن الحسن. وقيل: النبوة والكتاب، عن عكرمة، وقيل: هو العظيم من الأمر، عن ابن إسحاق. وقيل: كثرة الأتباع والأصحاب، عن أبي بكر بن عياش. وقيل: النسل الكثير كما ظهر في ذريته، وقيل: الصبر الرفيع والنصر في الدنيا والجزاء في الآخرة، وقيل: الفقه في الدين، وقيل: الشفاعة، وقيل: المعجزات، وقيل: الشرائع. ثم نبه على عظيم حال الصلاة من جملة الشرائع، فقال: (فَصَلِّ لِرَبِّكَ) كأنه قيل: كما أعطيناك الخير الكثير في الدنيا والآخرة فَصَلِّ شكرًا لنا في مقابلة تلك النعم، وقيل: إن ناسًا كانوا يصلون لغير الله، وينحرون لغير الله، وبسمون عليها غير اسم الله، فقال: (إذا حافتاه) فلتكن صلواتك ونحرك لله، عن محمد بن كعب، قيل: صَلِّ صلاة العيد وانحرْ نسكك، عن عكرمة، وعطاء، وقتادة، وأبي علي. وقيل: صَلِّ المكتوبة (وَانْحَرْ) نسكك في الحج والعمرة، عن أبي مسلم. وقيل: صَلِّ الغداة المكتوبة بجَمْعٍ، وانحر البُدْن بمِنَى، عن سعيد بن جبير، ومجاهد. وقيل: صل وانحر: ضع اليمين على الشمال في الصلاة وحِذَاءَ النحرِ، عن علي، وابن عباس. وقيل: انحر البدن، عن أنس، ومجاهد، وعطاء، والحسن، وقتادة، وابن زيد، وأبي علي، وأبي مسلم. وروي نحوه عن ابن عباس. وقيل: (وَانْحَرْ) أي: استقبل القبلة بنحرك، عن الفراء، ومنه: داران يتناحران؛ أي: يتقابلان، وأنشد:

أَبَا حَكَمٍ هَلْ أَنْتَ عَمُّ مُجَالِدٍ   وسَيِّدُ أَهْلِ الْأَبْطَحِ الْمُتَنَاحِرِ

أي: المتقابل.

وقيل: هو أن يقعد بين السجدتين حتى يبدو نحره، عن عطاء. وقيل: وارفع يديك بالدعاء إلى نحرك، عن سليمان التيمي، وقيل: (وَانْحَرْ) أي: ارفع يديك إلى النحر عند افتتاح الصلاة، والأَوْلى أن يحمل على الصلاة، ونحر الإبل؛ لأنه المشهور الظاهر، ولأنه عطفه على الصلاة، والظاهر أنه غيره، وخصهما تفخيمًا لشأنهما، ولأنهما كانا ينحران لغير الله، فأمر بالصلاة، والنحر لله شكرًا على إظهار شرائع الإسلام. (إِنَّ شَانِئَكَ) أي: عدوك، عن ابن عباس، وسعيد بن جبير وقال: هو العاص بن وائل، وهو جواب له، وقيل: جواب لقريش، وهم يومئذ أعداؤه، وقيل: لكعب أو عقبة على ما بَيَّنَّاهُ، وقيل: هو عام في كل عدو له (هُوَ الْأَبْتَرُ) قيل: المنقطع عن كل خير، وقيل: الذي لا عقب له، عن مجاهد. وقيل: الأقل الأذل بانقطاعه عن الخير، عن قتادة. وقيل: أراد به هلاكهم، عن أبي مسلم. وقيل: أراد أنه حط ما

قالت قريش: إن دين محمد لا يقوم به بعده أحد، فكان ذلك دينهم وانقطع ما كانوا عليه، فلم يتمسك بها أحد من عبادة الأوثان، وظهر دينه، عن أبي علي. وقيل: الحمار الأبتر: المقطوع الذنب، شبه أعداءه به.[601]



قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٥ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ۝٦﴾ الكافرون: ١ - ٦

قال شيخنا الحاكم الجشمي: (قُلْ) يا محمد (يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ) الخطاب لقوم معهودين؛ لأن الألف واللام للعهد (لاَ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ) من الأوثان في الحال (وَلاَ أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ) في الحال، يعني أعبد الله وأنتم لا تعبدونه (وَلاَ أَنَا عَابِدٌ) في المستقبل (مَا عَبَدتُّمْ) أنتم (وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ) في المستقبل، فأحدهما ينصرف إلى الحال، والثاني إلى الاستقبال، فلا يكون تكرارًا، وعلى هذا نزلت السورة فيمن علم أنه لا يؤمن، وهذا القول محكي عن ثعلب. وقيل: القرآن نزل بلغة العرب، وهم قد يكررون للتأكيد والإفهام، وذلك مذهب لهم معلوم، كما عُلِمَ من مذهبهم الاختصار والحذف والإيجاز للتخفيف، وقد نطق القرآن بذلك في مواضع كثيرة، وورد من الأشعار ما لا يحصى، قال شاعرهم:

هَلَّا سَأَلْتَ جُمُوعَ كِنـ ـدَةَ يَوْمَ وَلَّوْا أَيْنَ أَيْنَا

وقال الآخر:

يا عَلْقَمَة يا عَلْقَمَة يا عَلْقَمَهْ خَيْرُ تَمِيمٍ كُلِّهَا وَأَكْرَمَهْ

[601] التهذيب في التفسير ج 10 ص 7567/7566

وأنشد ابن الأنباري: أنبأنا أبو بكر وفيها: وحدثني أصحابه أن مالكًا والحارث بن عبادة لَهُ أبيات أولها:

قَرِّبَا مَرْبِطَ النَّعَامَةِ مِنِّي   لَقَحَتْ حَرْبُ وائِلٍ عَنْ حِيَالِ

ثم كرر:

قَرِّبَا مَرْبِطَ النَّعَامَةِ مِنِّي

في أبيات كثيرة.

وقالت ليلى الأخيلية ترثي توبة بن الحمير:

وَيعْمَ الفَتَى يَا تَوْبَ كُنْتَ لخائفٍ

ثم كررت: ونعم الفتى يا توب ... في أبيات كثيرة.

وقال مهلهل يرثي أخاه كليبًا:

عَلَى أَنْ لَيْسَ عَدْلاً مِنْ كُلَيْبٍ

ثم كرر ذلك في أبيات كثيرة.

وإذا كان هذا عادة لهم مشهورة، فأولى المواضع بالتأكيد هذا الموضع؛ لأنهم أبدوا وأعادوا، فأكد لإياسهم وحسم أطماعهم بالتكرار، وقيل: أراد في الأول المعبود، وفي الثاني العبادة، و (ما) في الثاني (ما) المصدر، كقوله: (وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا) وكقوله: (ذَلِكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ) أي: بفرحكم، وتقديره: لا أعبد ما تعبدون من الأصنام ولا أنتم عابدون من أعبد وهو الله تعالى، فإن زعمتم أنكم عابدون إلهي فأنتم كاذبون؛ لأنكم لا تعبدونه كعبادتي في الإخلاص والتقرب إليه، ولا أنا أعبده كعبادتكم، وهذا قول أبي مسلم والفراء، وقد ذكر الفراء أنه كقول المجيب: بلى، بلى، والممتنع: لا، لا، وأنشد أيضًا:

كَمْ نِعْمَةٍ كَانَتْ لَكُمْ   كَمْ كَمْ وَكَمْ

وأنشد:

نَعَقَ الْغُرَابَ بِبَيْنِ لَيْلَى غُدْوَةً   كَمْ كَمْ وَكَمْ بِفِرَاقِ لَيْلَى يَنْعِقُ

إلى غير ذلك من الأبيات.

وقيل: إن قريشًا مرة سألوه ذلك: أن يعبد آلهتهم سنة، ويعبدوا إلهه سنة، فأمره أن يجيب بقوله: (لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ (2) وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ)، ثم سألوه ذلك مرة أخرى بأن يستلم بعض آلهتهم ليؤمنوا، فأمره أن يجيب، فإنما تكرر لاختلاف الوقتين، والقرآن نزل شيئًا بعد شيء، وهذا قول ابن قتيبة. وقيل: لا أعبد ما تعبدون قطعًا، ولا أعبد أيضًا بشرط أن تعبدوا أنتم الله، ففي الحالين لا أعبده، وكذلك أنتم، وقيل: لا أعبد كعبادتكم، وهو الشرك، ولا أنتم تعبدون كعبادتي، وهو التوحيد.

ومتى قيل: لِمَ قال: (أَعْبُدُ مَا) و (ما) لما لا يعقل؟

قلنا: هو بمعنى الذي، ولأن العرب تعتبر المجازات في الكلام؛ فلذا عبر عن معبودهم بما عبر عن معبوده. وقيل: النون قد تبدل بالألف، والأول أوجه.

ومتى قيل: الخطاب لجميع الكفار؟

قلنا: لا، بل لقوم خاص، عُلِمَ أنهم لا يؤمنون.

وقيل: إنه خطاب للمستهزئين، وقد بَيَّنَّا ما قيل في ذلك. (لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ) قيل: لكم دينكم الكفر، ولي ديني الإسلام، وهذا تهديد، لا تسليم، وقيل: لكم جزاء عملكم، ولي جزاء عملي، نبه على نصرته في دينه، وقطع أطماعهم فيما التمسوه منه.[602]



[602] التهذيب في التفيسر ج 10 من الصفحة 7573 إلى الصفحة 7576

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ۝٢ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا ۝٣﴾ النصر: ١ - ٣

قال شيخنا الحاكم الجشمي: (إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ) يعني إذا نصركم الله على أعدائكم ومن ناوأكم، فأضاف المجيء إليه توسعًا، وهو بشارة من الله لنبيه بالنصرة. (وَالْفَتْحُ) قيل: فتح مكة، عن الحسن، ومجاهد، وقتادة، وأكثر المفسرين، وهو المروي عن ابن عباس. وقيل: فتح المدائن والقصور، عن يمان، وليس بالوجه. (وَرَأَيتَ النَّاسَ) قيل: العرب، عن الحسن. وقيل: أهل اليمن، عن مقاتل، وعكرمة. (يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ) أي: الإسلام (أَفْوَاجًا) قيل: زمرًا زمرًا، عن مجاهد. (فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ) يعني إذا أنعم عليك بهذه النعم فاشكر الله، وَنَزِّهْهُ عما لا يليق به بأن تحمده على هذه النعم، وتصفه بصفاته. وقيل: تنزهه عن أن تضيف نعمه إلى غيره، أو تضيف إليه قبيحًا. وقيل: فصلِّ لربك شكرًا. وروي أنه لما فتح مكة صلى ثماني ركعات في وقت الضحى لما أمره الله به. (وَاسْتَغْفِرْهُ) أي: اطلب المغفرة.

ومتى قيل: أي اتصال لهذا بالنصر والفتح؟

قلنا: النعمة تقتضي القيام بحقها، وهو شكر المنعم وتعظيمه، والائتمار لأمره، والانتهاء عن معاصيه، فكأنه قيل: حدث أمر يقتضي الشكر والاستغفار.

واختلفوا، فقيل: استغفر من صغائر ذنوبك عند تذكرها لتنافي الإصرار. وقيل: استغفر على جهة التسبيح، وإن لم يكن ثَمَّ ذنب، وهذا هو الوجه. وقيل: استغفر من تقصير وزلة، وإن كانت صغيرة؛ لأنه لا يمتنع أن يتعبد الأنبياء بذلك لما تميزوا مِنْ غَيْرِهِمْ بنعمه تعالى. وقيل: استغفر لما يخطر ببالك. وقيل: استغفر لأمتك (إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا) قابلاً للتوبة حالاً بعد حال من جميع الذنوب: صغيرها وكبيرها. وقيل: أمره بما ذكر شكرًا على إنجاز ما وعده من النصر. وروي أنها لما نزلت السورة سُرَّ المسلمون، وبكى العباس وقال: أظن أنه نعي إليك نفسك يا رسول الله، فقال: "هو هكذا". واختلفوا من أيِّ وجهٍ علموا ذلك، وليس في ظاهره نَعْيٌ، فقيل: لما تقدم الوحي بأنه عند ظهور أمره، وانتشار دينه، ودخول الناس فيه يقرب أجله. وقيل: لأنه انتهاء الرسالة، وتمام الأمر. وقيل: لأنه أمره بتجديد التوحيد، واستدراك الفائت بالاستغفار، وذلك مما يلزم عند الانتقال.

ومتى قيل: لم كان دخول الناس في الدِّين مِنَّة منه تعالى عليه؟

قلنا: لوجوه:

أحدها: أنه لفرط رحمته - صلى الله عليه وسلم - أراد دخول جميعهم في الدين، فدخلوا بلطفه، وصاروا تبعًا له.

وثانيها: لسرور النبي – صلى الله عليه وسلم – بذلك، وبلوغه مقصده، وتمام مراده.

وثالثها: أن بكثرة ما يهتدى به يكثر ثوابه، ولعظم.

ورابعها: كثرة أمته حتى يباهي بهم يوم القيامة.

وقيل: كان رسول الله – صلى الله عليه وسلم – بعد نزول هذه السورة يكثر قول: "سبحان الله وبحمده وأستغفرك وأتوب إليك".[603]

قال قاضي القضاة: قوله تعالى: (إِذا جاءَ نَصْرُ اللهِ وَالْفَتْحُ) لا يصح إلا مع القول بأن المنصور، بنصره، ممكن من الفعل الذى نصر فيه، لأن النصر هو المعونة والتأييد، ولو لم يكن العبد قادرا على المجاهدة لم يصح أن يوصف بالنصر، ولوجب أن يكون ما يأتيه، فى أنه لا يصح أن يوصف بذلك، بمنزلة اللون والهيئة وسائر ما يخلقه تعالى فى العبد، فى أنه لا يصح أن يوصف بأنه نصر العبد فيه. وقوله تعالى: (وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللهِ أَفْواجاً فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ) يدل على أنه تعالى عدّ ذلك فى النعم عليه، أعنى: الفتح الذى فتحه صلّى الله عليه، ودخول الناس فى دينه، وجعل ذلك مقتضيا للتسبيح، وذلك لا يتم إلا وبعض الأفعال يدعو إلى بعض. والتسبيح هو التنزيه، ويدل على أنه تعالى منزه عما لا يليق بذاته وفعله، على ما نقوله من أنه لا يفعل القبيح.[604]



[603] التهذيب في التفسير ج 10 ص 7580/ 7581

[604] متشابه القرآن ص 704

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿تَبَّتۡ يَدَآ أَبِي لَهَبٖ وَتَبَّ ١ مَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ٢ سَيَصۡلَىٰ نَارٗا ذَاتَ لَهَبٖ ٣ وَٱمۡرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلۡحَطَبِ ٤ فِي جِيدِهَا حَبۡلٞ مِّن مَّسَدِۭ ٥﴾ المسد: ١ - ٥

قال شيخنا الحاكم الجشمي: (تَبَّتْ) خسرت وهلكت، وفي هذا إخبار وذم له، وقيل فيه بمعنى الدعاء عليه، نحو: (قَاتَلَهُمُ اللَّهُ)، (يَدَا أَبِي لَهَبٍ) أي: تَبَّ هو، فأخبر عن يديه، والمراد نفسه، على عادة العرب في محاوراتهم، يقولون: كسبت يداك، وخابت يداه، وقيل: اليد صلة، كقولهم: يَد الدهر، ويد الرزايا، قال الشاعر:

وَأَيْدِي الرَّزَايَا بِالذَّخَائِرِ مُولَعُ

وقيل: أراد به ماله وملكه، يقال: فلان قليل ذات اليد؛ يعني المال، والمراد هلك ماله، عن أبي مسلم. وقيل: المراد: اليد بعينها؛ وذلك لأنه أراد أن يرمي رسول الله صلى الله عليه وسلم بحجر، فمنعه الله منه، فقال: خسرت يداه في رميه، عن أبي علي. (أَبِي لَهَبٍ) قيل: هو كنيته، واسمه: عبد العزى فلذلك كَنَّاهُ، وقيل: بل اسمه كنيته، وقيل: سمي بذلك لحسنه، وإشراق وجهه، وكانت وجنتاه تلتهبان، عن مقاتل. وقيل: كني بذلك لأنه يصير إلى النار، ويعذب بِاللَّهِبِ، وقيل: كان مشهورًا بالكنية، فأراد أن يشتهر بالفضيحة. (وَتَبَّ) قيل: الواو للعطف، وقيل: للحال، (وَتَبَّ) خبر محض، كأنه قيل: وقد تب؛ أي: خسر وهلك، وقيل: الأول دعاء، والثاني خبر أنه فعل بذلك، وقيل: تبت يداه للمنع الذي وقع به من رمي الحجر، وتب للعقاب الذي نزل به فيما بعده، فأضاف الخسران الأول إلى يديه؛ لأن ذلك يمنع من الرمي، والثاني إلى نفسه، وقيل: لأن العذاب ينزل بجملته في الآخرة، عن أبي علي. وقيل: الأول: هلاك ماله، والثاني: هلاك نفسه، والمعنى: هلك ماله ونفسه، فلم يغن هو عن نفسه شيئًا،ولا أغنى عنه ماله، عن أبي مسلم. (مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ) أي: ما كفى عنه ماله من عذاب الله شيئًا، وعن ابن مسعود: أن أبا لهب قال لما دعاه رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن كان ما تقول ياابن أخي حقًّا فأنا أفدي نفسي بمالي، فبيَّن أنه لا يغني عنه ماله شيئًا، وقيل: معناه: أي شيء يغني عنه ماله إذا نزل به عذاب الله تعالى، وقيل: أراد بالمال الأغنام، وكان صاحب مواشٍ وسائمة، عن أبي العالية. (وَمَا كَسَبَ)

قيل: ولده، وقيل: كسبه ومتى قيل: لِمَ قال بلفظ الماضي؟ قلنا: قيل: عطفًا على ما تقدم، وقيل: لأنه كائن لا محالة، كقوله: (أَتَى أَمْرُ اللَّهِ).

ومتى قيل: من أي شيء لا يغني ماله؟

قلنا: فيه وجهان:

قيل: من عذاب الله في الآخرة.

وقيل: مما حَلَّ به في الدنيا.

(سَيَصْلَى نَارًا) يعني سيفعل به ذلك؛ لأن السين سين (سوف)، وقيل: سين الوعيد، كقولهم: سأفعل بك، ومعناه: عن قريب يصير أبو لهب صلاء النار، أي: وقودًا وحطبًا، وقيل: سيدخل نارًا ويعذب فيها (ذَاتَ لَهَبٍ) يعني ليست بجمرة، بل تتوقد؛ ولذلك قال: (خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا) قال أبو علي: لهبها اشتعالها. (وَامْرَأَتُهُ) أي: وستصلى امرأته بتلك النار، وهي أم جميل بنت حرب، أخت أبي سفيان، عمة معاوية، وكانت عوراء (حَمَّالَةَ الْحَطَبِ) قيل: كانت تمشي بالنميمة، فَوُصِفَتْ بحمالة الحطب، عن ابن عباس، وعكرمة، ومجاهد، وقتادة، والسدي. كأنها نقالة الحديث والكذب، يقال: فلان يحطب على فلان: إذا أغرى به، قال الشاعر:

وَلَمْ يَمْشِ بَيْنَ الْحَيِّ بِالحَطَبِ الرَّطْبِ

أي: لم يمش بالنميمة، وإنما شبه النميمة بالحطب؛ لأن الحطب توقد به النار، والنميمة توقد نار العداوة، وقيل: كانت تأتي بالشوك، فتطرحه في طريق رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إذا خرج إلى الصلاة، عن ابن عباس، والضحاك، وابن زيد. وقيل: وصفها بحمالة الحطب تخسيسًا لها وتحقيرًا لحالها، عن أبي علي، قال: ويجوز أن يكون أراد وصفها بهذه الصفة تعريفًا لها وذمًّا، وعن مرة الهمداني قال: كانت تأتي بالحسك، فتطرحها في طريق المسلمين، فبينا ذات يوم حاملة حزمة حطب فأعيت، فقعدت على حجر لتستريح، فأتاها ملك، فجذبها من خلفها فأهلكها، وقيل: (حَمَّالَةَ الْحَطَبِ) أي: حمالة الخطايا، عن سعيد بن جبير، وأبي مسلم. ونظيره: (يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ) ويقولون: فلان

يحطب على ظهره: إذا أساء. (فِي جِيدِهَا) عنقها (حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ) قيل: تحمل الحطب بحبل من ليف ذمًّا لها، عن أبي علي. وأراد خبثها وعداوتها للنبي صلى الله عليه وسلم حتى تُلْقِيَ الشوك في طريقة على ما تقدم، وقيل: سلسلة من حديد سبعون ذراعًا تدخل من فيها وتخرج من دبرها، وتدار على عنقها في النار، عن ابن عباس، وعروة بن الزبير. وقيل: ذلك الحبل الذي كان ينقل الشوك يكون في عنقها في النار، وذلك نحو قوله: (يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا). وقيل: حمالة الحطب عبارة عن حمل الآثام، والحبل عبارة عن لزومها له، فإن الشيء يُشَدُّ بالحبل، وقيل: حلق من حديد، عن السدي. وقيل: من ليف.

ومتى قيل: كيف يبقى الليف في النار؟

قلنا: كما تبقى أعضاء الإنسان.

وقيل: معناه: كان في الدنيا ليفًا، وفي الآخرة نارًا، عن الضحاك. وقيل: كانت خرزات في عنقها، عن الحسن. وقيل: كانت لها قلادة فاخرة في عنقها حلفت لتنفقها في عداوة محمد. وقيل: حبال من شجر باليمن يقال: لها مسد، عن ابن زيد.[605]

قال قاضي القضاة: قوله تعالى : (تَبَّتْ يَدا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ما أَغْنى عَنْهُ مالُهُ) أحد ما استدل به الشيوخ فى أن القرآن محدث ، وذلك أنه لو كان قديما لكان قائلا لم يزل : (تَبَّتْ يَدا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَ) ، وقد علمنا أن ذلك لا يصح ، ولما خلق ولا وقع منه ما يوجب الذم والخسران!

وقوله : (سَيَصْلى ناراً ذاتَ لَهَبٍ) لا يدل على أنه ممنوع بهذا الخبر من الإيمان ، من حيث عرف أنه سيصلى النار ، وأن يموت على الكفر ، وذلك أنه ليس فى الظاهر ما ادعوه ، وإنما فيه أنه يصلاها ، وقد يجوز أن يظن فى كل وقت أنه لو آمن لنفعه ، أو يذهب ذلك عن قلبه. وقد يجوز أيضا أن يكون الخبر مما لا يعرف به مخبره مع كفره ، لأنه إنما يستدل بذلك من عرف أن القرآن حق.

ولو علم القوم ما قالوه لم يمتنع ، لأن علمه تعالى وخبره لا يخرجه من كونه قادرا على الكفر والإيمان، وإنما أتى من قبل نفسه فى أن لا يؤمن ويكفر ، فيخبر عنه بما يحصل عليه ، ويعلم كذلك ، ففارق بهذا القول قول القوم فى أن العبد لا قدرة له على الإيمان « وفيه ما يمنع منهما : من قدرة

---

[605] التهذيب في التفسير ج 10 من الصفحة 7585 إلى الصفحة 7588

الكفر والكفر ، لأن فى هذا الوجه يجب أن يكون قد أتى الكفر من قبله تعالى لا من قبل نفسه.[606]



[606] متشابه القرآن ص 705

سُورَةُ الإِخْلَاصِ

قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝١ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ۝٤﴾ الإخلاص: ١ - ٤

قال شيخنا الحاكم الجشمي: (قُلْ) يا محمد: (هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ) قيل: واحد في الإلهية والقدم، وقيل: واحد في صفات ذاته، لا يشاركه فيها أحد، وقيل: واحد لا نظير له، وقيل: واحد في صفاته، فإنه قديم باقٍ، قادر عالم، حي لم يزل، ولا يزال، وواحد في أفعاله بِفِعْل لا يجرّبه، نفعًا، ولا يدفع به ضررًا، وجميع أفعاله كذلك، وقيل: واحد في استحقاق العبادة، لا تحق لأحد سواه، وقيل: واحد لا يتجزأ، ولا يتبعض، مع أنه حي قادر عالم، ولايقال "واحد" من طريق العدد؛ لأنه يشتمل على جميع المعدودات، القديم والمحدث (اللَّهُ الصَّمَدُ) قيل: السيد المعظم، عن ابن عباس، وأبي رزين، وسفيان. وقيل: ليس فوقه أحد، وقيل: الذي يقصد إليه في الحوائج والرغائب، المستغاث به عند المصائب، عن السدي، وأبي علي، وأبي مسلم. وقيل: الذي لا ينام، عن يمان. وقيل: الذي لا يكافئه أحد من خلقه، عن كعب الأحبار. وقيل: الذي لا يوصف بصفته أحد، عن ابن كيسان. وقيل: الذي لا تعتريه العيوب عن الآفات، عن الربيع، ومقاتل. وقيل: الكامل في جميع صفاته وأفعاله، عن سعيد بن جبير. وقيل: المستغني عن كل أحد، والمحتاج إليه كل أحد، عن أبي هريرة. وقيل: الغالب الذي لا يُغلب، عن الصادق. وقيل: الصمد الذي لا تدركه الأبصار، ولا تحويه الأفكار، ولا تبلغه الأقطار، وكل شيء عنده بمقدار. فأما إن أراد ما قال بعضهم: الذي لا [جَوْفَ] له، فإن أراد أنه يستحيل ذلك عليه فهو صحيح، وإن أراد أنه جسم مصمت فيتعالى الله عن ذلك. وقيل: الصمد الذي يقضي الحوائج: سُئل، أم لَمْ يُسْأَلْ. (لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ) أي: ليس بصفة الجسم حتى يلد ويولد، ردًّا على النَّصَارَى واليهود وغيرهم، بل "لم يلد" فيكون بصفة

الوالدين، "ولم يولد" فيكون بصفة الأولاد (وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ) أي: لا مثل له، وقيل: لا صاحبة له، عن مجاهد. وتقديره: لم يكن له أحد، كفؤًا، فقدم وأَخّر لتَطّرِد رؤوس الآي.[607]

قال قاضي القضاة: قوله تعالى : (قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ اللهُ الصَّمَدُ) لا يجوز أن يتعلق المشبهة فى أنه جسم ، من حيث كان الصمد هو المصمت ، على ما يزعمون ، وذلك أن الصمد : هو السيد فى اللغة ، وقد روى عن ابن عباس : أنه استشهد بقول الشاعر :

بعمرو بن مسعود وبالسيّد الصمد

وروى عن الحسن رحمهالله ، أن معناه أنه يقصد إليه فى الحوائج ، فمن حيث صمد بذلك إليه استحق أن يسمى صمدا ، فالذى قالوه فى نهاية السقوط.

ويبطل أيضا ما يزعمون من أنه على صورة آدم ، لأن فى جملة خلقه التجويف![608]



قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلۡفَلَقِ ۝١ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ۝٣ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِي ٱلۡعُقَدِ ۝٤ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ۝٥﴾ الفلق: ١ – ٥

قال شيخنا الحاكم الجشمي: (قُلْ) قيل: كل موضع من القرآن فيه (قُلْ) فإنه يقدمه سؤال كقوله: (يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ)، ونظائرها، والخطاب لرسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، أي: قل يا محمد، والمراد. جميع أمته. (أَعُوذُ) أمتنع وأعتصم (بِرَبِّ الْفَلَقِ) قيل: الفلق الصبح، ومنه: (فَالِقُ الْإِصْبَاحِ)، عن ابن عباس، وجابر، والحسن، وسعيد بن جبير، ومجاهد، وقتادة، ومحمد بن كعب، وابن زيد، وأبي علي، وأبي مسلم. وقيل: الفلق: شجر في جهنم، عن ابن عباس، وعبد اللّه بن عمر، وعن بعض

[607] التهذيب في التفسير ج 10 ص 7595/7594
[608] متشابه القرآن ص 706

أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم الفلق: بيت في النار، إذا فتح صاح جميع أهل النار من شدة حره، عن كعب. وقيل: الفلق جميع الخلق، عن ابن عباس. وقيل: جُبٌّ في جهنم، عن السدي. وقيل: واد في جهنم، عن الكلبي. وقيل: الفلق الجبال تنفلق بالمياه أي تنشق. وقيل: الحب والنوى تنفلق بالنبات. وقيل: البطن تنفلق بالحيوان. (مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ) أي: من شر جميع الخلق. وقيل: (ما) بمعنى المصدر؛ أي: من شر خلقه. وقيل: من شر كل ذي شر مما خلق من الجن والإنس والسباع والطيور والهوام.

وقيل: هو استعاذة من كل مكروه، فيتناول الشر في الدين والدنيا؛ لأن كثيرًا من الناس والسباع والهوام شرهم في النفس، وكثير من الإنس والجن شرهم في الدين، والظَّلَمَةُ شرهم في المال، وعلماء السوء وأهل البدع شرهم في الدين، فأمر بالاستعاذة من الجميع. وقيل: (ما) يتناول ما لا يعقل، فالمراد به الجمادات من مصائب الدنيا والآخرة. (وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ) أي: من شر الليل إذا دخل بظلامه، عن ابن عباس، والحسن، ومجاهد. والغاسق: الليل، سمي بذلك لظلمته، والمراد: ما يحدث في الليل من الشر والمكروه، كما يقال: أعوذ من شر هذه البلدة، وخص الليل بالذكر؛ لأن الغالب من الشر يقع فيه، والفساق يقدمون على الجنايات ليلاً، وكذلك السباع والهوام يؤذون بالليل، ولأن المتنبه يحفظ نفسه.

وقيل: الغاسق إذا وقب: النجم إذا طلع، وروي مرفوعًا، رواه أبو هريرة. وعن عائشة أنه القمر، وقيل: الثريا: إذا سقطت، وكانت الأسقام تكثر عند ذلك، وترتفع إذا طلعت، عن ابن زيد. (وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ) قيل: السحرة، عن الحسن، وقتادة. والتعوذ من شرهم لوجوه:

أحدها: إيهامهم أنهم يمرضون ويصحُّون، ويفعلون أشياء بالحيل من النفع والضر، فينفثون في العقد، وجهال العوام يصدقونهم في ذلك، فعظم الضرر بذلك؛ لأنه كُفْرٌ وفساد في الدين، فأمر الله بالتعوذ منهن لأجل هذا الضرر، ولأجل أن من صحح ذلك تنسد عليه طريق معرفة النبوات والشرائع، وذلك من أعظم الشرور.

وثانيها: ما كانوا يزعمونه من خدمة الجن بأنهم يفعلون ما يريدون، ويعلمون الغيب، وهذا أيضًا كفر.

وثالثها: ما كانوا يعتقدونه من التأثير بالأطعمة الضارة، والدخانات المفسدة، وقد يدخل في هذا ما جرت العادة به، وإن كان التأثير من فعل الله تعالى كالسموم ونحوها، فأمر الله تعالى بالتعوذ من شرهم.

ورابعها: ما كانوا يفعلونه بالتضريب والنميمة ونحوها، فأمر الله تعالى بالتعوذ من شرهم، فعلى هذا حمل الآية أكثر المفسرين.

وذكر أبو مسلم النفاثات في العقد هي النساء، والعقد عقد الرجال، وهي عزائمها وأمورها، يعني أن النساء بما يسكن قلوب الرجال من حبهن، فبطاعتهن يتصرفون على حسب رضاهن وكلامهن وحيلهن، ويحملنهم على أمور فاسدة، وبما يضر بالدين والدنيا، وينصرفون عن أمور صحيحة، وعزائم بأمرهن، فأمر الله بالتعوذ منهن، ونظيره قوله: (إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ). (وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ) قيل: لأنه عند الحسد يبتغي الغوائل، ويتمنى زوال نعمته ونزول الضرر به، فأمر بالتعوذ منه.[609]

قال قاضي القضاة: قوله تعالى : (قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ مِنْ شَرِّ ما خَلَقَ) لا يصح أن يتعلق به فى أنه تعالى يفعل الشرّ والمعاصى ؛ لأن المراد بالآية التعويذ به من شر ما خلقه من المؤذيات ، كالحيات والعقارب وغيرها. وما لم يحمل على هذا الوجه يتناقض الكلام ، ويصير كأنه قال تعالى : (قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ) من شره!! وإنما يجوز أن يستعاذ به من شر غيره ، ولذلك عطف عليه بشر ما خلقه ، فقال : (وَمِنْ شَرِّ غاسِقٍ إِذا وَقَبَ وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثاتِ فِي الْعُقَدِ) وهذا القول لا يدل على أن النفاثات فى العقد ، اللاتى كن يعقدن على الخيوط وينفثن عليه ، كنّ ضارّات بالناس ، على غير الوجه الذى يصح من أحدنا أن يحتال فيه من أنواع المضرة ؛ على ما تقوله الحشوية فى أنهن كن يسحرن ، وأنهن سحرن رسول الله ، صلى الله عليه ، وذلك أن ظاهره إنما يقتضى ما قلناه ، لكنهن لما أوهمن بذلك الفعل ضروبا من الاحتيال فيما لا يصح منهن ، جاز أن يظن الناس فيهن المضرة العظيمة ، فأمر تعالى بالاستعاذة من شرهن ، كما أمر بالاستعاذة من شر الحاسد! فلا يدل ذلك على أن للعبد سبيلا إلى ما يذكرونه فى السحر.[610]

---

[609] التهذيب في التفسير ج 10 ص 7603/7602/7601

[610] متشابه القرآن ص 708



قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ١ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ٢ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ٣ مِن شَرِّ ٱلۡوَسۡوَاسِ ٱلۡخَنَّاسِ ٤ ٱلَّذِي يُوَسۡوِسُ فِي صُدُورِ ٱلنَّاسِ ٥ مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ٦﴾ الناس: ١ – ٦

قال شيخنا الحاكم الجشمي: (قُلْ) يا محمد (أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ) خالقهم ومدبرهم، وسيدهم، ومربيهم، يعني: خلقهم ابتداء، ورباهم ثانيًا، فهو سيدهم والقادر عليهم، ومن كان بهذه الصفة فالاستعاذة به تجب (مَلِكِ النَّاسِ، إِلَهِ النَّاسِ) قيل: الذي تحق له العبادة، الغني عنهم، المنعم عليهم. وقيل: المدبر للخلق على وجه الحكمة (مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ) قيل: من شر الوسوسة التي تكون من الجِنَّة والناس. وقيل: من شر ذي الوسواس، وهو الشيطان، كما جاء في الخبر "أنه يوسوس، فإذا ذكر العبد ربه خنس"، ويكون من الجنة لقوله: (كَانَ مِنَ الْجِنِّ)، ولأنه عطف عليه الناس. وقيل: الوسواس الشيطان، سُمِّيَ به لكثرة ما يوسوس كقوله: (إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ)، لكثرة ما وجد من العمل الفاسد. وقيل: (مِن شَرِ الَوسْواسِ) على العموم، ثم فسره من بعد. وقيل: الوسواس الموسوس لكثرة الوسوسة، عن أبي علي. وهو من الجنة والناس كما يقال: نعوذ بِاللَّهِ من شر كل مارد من الجن والإنس. (الْخَنَّاسِ) الذي يوسوس، فإذا ذكر الله خنس؛ أي: هرب واختفى. وقيل: الخناس المختفي، فأمرنا بالتعوذ منه؛ لأنه مستتر عن الأعين؛ ليكون الحذر منه أشد. وقيل: الشيطان صياد حاذق، والدنيا له شبكة عظيمة، والمكلف صيد غافل غبي، وله من ملاذ الدنيا داع قوي، فمن اجتهد نجا من الهلكة، وإلا وقع في الشبكة، فلهذا وصفه بالخناس مبالغة في الزجر والتحذير (الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ) بأن يدعو إلى المعاصي (مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ) يعني الوسواس يكون مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ، عن أبي مسلم. وقيل: بَيَّنَ

تفسير الخناس بأنهم مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ، فسمى الجِنَّة أيضًا ناسًا كما سماهم رجالاً في قوله: (يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ).[611]

قال قاضي القضاة: قوله تعالى : (قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ، مَلِكِ النَّاسِ ، إِلَهِ النَّاسِ مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ) يدل على أن وسوسة الشيطان تدعو العبد إلى المعصية ، ويكون عنده أقرب إليها ، لأنه لو لم يكن الأمر كذلك ، وكان ما يختاره خلقا لله تعالى ، لم يكن للوسوسة تأثير ، ولا كان شرا يستعاذ منه ، لأنه تعالى إن خلق فى العبد ما دعاه إليه فلا بد من وجوده ، كانت الوسوسة أم لم تكن ، وإن لم يخلقه فكمثل ، فإنما يصح ذلك على قولنا.

وقوله تعالى : (الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ) يدل على أن الشيطان لا يفعل إلا الدعاء الخفى إلى المعصية ، وأن العاصى هو المختار لذلك عند الدعاء ، والملام عليه ، ولذلك جمع بين الجنّة والناس ، ومعلوم من حال الناس أنهم لا يضطرون إلى أمر عند الدعاء ، وإنما يحصل منهم الترغيب والتزيين ، ويكون القابل منهم أتى من قبل نفسه ، لا من قبلهم ، فكذلك الشيطان. وكما يجوز أن يكون الإنسان موسوسا لغيره ، وإن لم يفعل فى داخل صدره شيئا ، لكنه لما سمّعه القول وكان موضع إدراك القول يقرب من الصدر ، صح أن يقال : وسوس فى صدره ؛ فكذلك القول فى الشيطان ، فلا يدل ذلك على أن الشيطان يدخل صدر الإنسان ، كما لا يدل مثله فى الإنسان.[612]

تم المختار بحمد الله ومنه

---

611 التهذيب في التفسير ج 10 ص 7606/ 7607

612 متشابه القرآن ص 709

خـــــــــــــــاتمـة

تم الكتاب والحمد لله وحده وصلواته على محمد وآله الطاهرين، وفي الختام لا يسعنا سوى أن نتمنى أن القارئ لهذا الكتيب خرج بفوائد وفهم غايتي ومرادي وأقدم اعتذاري مسبقا إن وجد خطأ كتابي أو تصحيف، وأسأل كل من نظر في كتابي هذا من إخواني من أهل التوحيد والعدل إصلاح ما يجدونه فيه من غلط، فالعبد لا يخلو منه، وأوصيهم بالدعاء والاستغفار لجامعه، وتقديم ما ينفعه، فالأخوّة في الدين فوق الأخوة في النسب كما أشار شيخنا الحاكم والسلام.


المختار
من تفسير أهل التوحيد والعدل
عبد الله النظام المعتزلي